

الدكتور برهان زريق

# الصروبة والإسلام

عزرا

## العروبة والإسلام

### مقدمة عامة

التأسيس النظري للموضوع وأدوات التحليل (منهج البحث)

تعتبر علاقة قطب العروبة بقطب الإسلام- اتساقاً وخللاً - من أهم المسائل التي تسود وتسوس مسار حياتنا بصفقتها - تكاملاً عضوياً - الرافعة الكبرى والفعالية الفذة التي تفجر الطاقة تحت خطى النهوض والتقدم .

ونحن نقول قطبين لأن هذين القطبين هما - على سبيل الاستقلال - الركن الركين لمقوم حياتنا وهويتنا الحضارية والإنسانية ، وذاتنا وماهية وجودنا الإنساني .

زد على ذلك فالقول بأن العروبة قطب ثم التطفيف من شأن الإسلام والعكس ، هذا الأمر لا يجعلنا أمام منظومة ، بل مجرد حيال قطب واحد أساس والآخر فرع وتابع ، وهذا ما يتعارض مع شهادة التاريخ والإبداع الحضاري الذي هو ثمرة تفاعل العروبة والإسلام ، منوهين بأن النظرة المتزمتة المدللة بقطبية الإسلام دون العروبة والعكس ، هي ثمرة تشظي جدلية عروبة / الإسلام ومنظومتها المتسقة خلال الإبداع الحضاري ، ومن ثم فاللجوء إلى الحسم التاريخي من قبل أحد القطبين في مواجهة الآخر ، وهو حسم لا يظهر إلا في حال التحجر التاريخي ، أو التوتر التاريخي أو الفعل الخارجي الذي ضرب كثيراً على هذا الوتر حسب التعبير الحرفي للشيخ الإمام محمد عبده كما سنوضح<sup>1</sup> .

---

<sup>1</sup> الأعمال الكاملة تحقيق الدكتور محمد عمارة ص ١٤٩

وإذا أردنا استحضار كلمة الفصل في هذا الموضوع ، فما لنا إلا أن نتذكر مقال الزميل الأستاذ الدكتور عبد الإله بلقزيز<sup>١</sup> لنؤكد أن أي تناقص ليس منشؤه البنية أو التكوين أو الواقع التاريخي أو المعطى الإنساني ، وإنما منشؤه الايدلوجيا ، وبالذات - كما أكد الشيخ محمد عبده- الايدلوجيا الحديثة ، أما في المعطى التاريخي الحديثي أو في المعطى الحديثي الجماهيري فلا تجد حسيماً أو صوتاً لكل هذا التناقص الغريب .

لقد توطدت هذه الظاهرة واطردت حتى أصبحت قانوناً يحكم تاريخنا<sup>٢</sup> ، وهو الأمر الذي يفرض على المشروع النهضوي العربي أن يضع منهجاً فكرياً راسخاً يحكم منظومة هذه التوفيقية بين العروبة والإسلام لاسيما أن أي عمل توفيقية ( thnthitas ) - وليس تلفيقياً ( syncretic ) - يخفي توتراً بسيطاً في طياته ، وإن المنهج العلمي الموضوعي هو الذي يحول دون الانشطار العنفي التلفيقي .

وزيادة في الإيضاح فإن الفكرة التوفيقية الأم هي الحامل التاريخي للحضارة العربية الإسلامية ، وهذه الحضارة وبفعل رافدها الأكبر الإسلام - تحمل التوفيق بين كافة أقطاب الحياة : دنيا / آخرة ، مادة / روح ، فرد / جماعة ، العقل / الشريعة الخ ٠٠٠٠ وإن مثوية عروبة / إسلام تتغذى من روح التوفيقية الكبرى الأم .

وبيان ذلك - أن الإسلام بالنسبة للعروبة - معطى موضوعي ، ومقارنة هذا المعطى ومعاينته والامتياح من بجره الزاخر لا يتم ميكانيكياً ، بل من خلال ذات الأمة ، وهذه هي جوهر القطبية .

---

<sup>١</sup> مقاله الموسوم بعنوان العروبة والإسلام ، وصل تاريخي لم ينقطع إلا في فعل إيديولوجي ، منشور في مجلة المستقبل العربي عدد ٢٠٠٠/٢٥٤

<sup>٢</sup> انظر في توضيح هذه الظاهرة رائعة د. محمد جابر الأنصاري : الفكر العربي وصراع الأضداد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ٩٩٩

إذن لا عجب بأن أي خلل في هذه المنظومة يشكل إشكالية كبرى لحياتنا قاصدين بالإشكالية تلك المسألة المترابطة العناصر التي تنتظر حلاً مشتركاً لقطبيها ومثنويتها .

وللسبب المذكور فقد كانت تلك الإشكالية تحتل الصدارة في سلم الأولويات والاهتمام لدى الأوساط الثقافية والسياسية ، وكانت أيضاً مادة ثرة للباحثين والمفكرين من أبناء أمتنا ، وقد تناولتها حفرًا وتنقيبًا المذاهب والأفكار والاتجاهات السياسية والعلمية الكبرى في هذا الوطن العزيز<sup>1</sup> .

وحقيقة الأمر ، فقد تعددت أعماط تلمس هذه العلاقة وفحصها ورصدها بين أصحاب النزوع التلفيقي والتأصيل المنهجي التوفيقي إضافة إلى المواقف المتسمة بالحسم في إنكار أي اتساق بين هذين القطبين ، كما يتضح الأمر لدى بعض مظاهر الإسلام السياسي أو لدى الاتجاهات التغريبية الانغماسية المنبهة - إغواء - بحضارة الغرب .

وهكذا تعدو هذه المسألة مغرية للباحث لاسيما إذا كان يحمل بين جوارحه الوعي المصيري المتعلق بالمهاجس المحض بهموم الأمة وبنبضات قلبها وطموحها إضافة إلى الإرادة الأخلاقية الرصينة التي تجهد لتحقيق آمال هذه الأمة على اعتبار أن الوعي بذلك يدخل في نظام القدرة وفقاً للتداعية المشهورة : استشراف - معرفة - قدرة .

كيف لا يكون الأمر كذلك ، وأن نهضة أمتنا لا تتحقق إلا من خلال حل المعضلة والإشكالية الكبرى الخاصة بالفهم ، وبذلك فعلينا التأكيد بأن مشكلتنا الأساسية في المقام الأول هي

---

<sup>1</sup> انظر على سبيل المثال الندوة النقاشية التي افتتحها لهذه الغاية مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،



مشكلة فهم ، وأمتنا لا تفتقر إلى القدرة على الصعيد الاجتماعي أو الطاقة على الصعيد الطبيعي بقدر ما ينقصها الاتساق في منظومة حياتنا .

وإذا كانت هذه هي أهمية فهم هذه العلاقة فإن سؤالاً آخر ينتصب ليفرض نفسه بقوة وإلحاح ، ألا وهو : كيف نفهم هذه العلاقة ، وما هي أفضل القنوات والأجهزة والأدوات المعرفية لذلك .

الجواب عن ذلك واضح هو أن من المفروض بهذه القنوات والأجهزة أن تنبع من الرؤية ذاتها طبقاً لنظرية المعرفة ( الأبيستمولوجيا ) ، وهو الأمر الذي حدا هذه النظرية لإطلاق تسمية (الآصرة) على تلك العلاقة بين المنهج والرؤية.

وحقيقة الأمر أن لكل رؤية منهجها الخاص بها النابع من طبيعتها والمعبر عن تكوينها وماهيتها ، فالرؤية تعزز المنهج ، والمنهج يؤصل الرؤية ويعمق مجراها ويبلور ملاحظاتها ، فهو الدينامو الذي يعتق طاقتها ، ويجلي معالمها ، لا الرؤية تسبق المنهج ، ولا المنهج يسبق الرؤية (وكل في فلك يسبحون )<sup>١</sup> .

ويتضح مما سبق أننا لا نقصد من المنهج التصميم أو الخطة PLAN أو ترتيب أساس الدراسة ، أي مسار البحث النظري ، إنما نقصد من ذلك كيفية السير بالتحليل العلمي والوسائل والتقنية العلمية المستهدفة في التحليل<sup>٢</sup> .

---

<sup>١</sup> لا يمكن الحديث عن خطأ في هذا التعبير لأنه ينطوي على تضمين مستقى من آي الذكر الحكيم

<sup>٢</sup> مارلين نصر : التصوير القومي العربي في فكر عبد الناصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ٩٨١ ،

واستناداً إلى هذه الأرضية الرصينة ، فإن أول منزلق نجهد لمجانته وتجنب الوقوع في شركه ، هو المنزلق الأيدلوجي الذي يسقط الذات على الحقيقة الموضوعية ، فيجعلها محكومة بتلك الإسقاطات ، ذلك أن حضور الأيدولوجيا ، مدعاة إلى تعيب البعد الذاتي للوعي المعرفي ، وما أن تدخل الأيدولوجيا حقلاً معرفياً ما حتى تهرب الحقيقة الموضوعية .

في هذا الصدد فقد ميز ( كانت ) بين معرفة الشيء لذاته ومعرفته لذاتنا ، وأظهر عدم المطابقة بينهما ، هذا هو عين النقد الذي وجه إلى ماركس في فلسفة التاريخ ، حيث ابتدأ بالحاضر ليفتح دروب الماضي ، وكان عليه أن يفتح دروب الماضي ليستشرف الحاضر .

وفي نظرنا - وإشكالية النهضة العربية هي إشكالية فهم - إنه لما تتأسس بعد سلطة المثقف على صعيد تربة وطننا على المثقفين العضويين أن يعانقوا مسألة الرابطة بين العروبة والإسلام على أساس معرفي منطلقين من روائع وإنجازات الحضارة الإنسانية الرائعة .

هذه التدايعات تجعلنا نلوذ بنظرية المعرفة والأسس والمبادئ التي تحملها وخاصة الطرائقية ( علم المنهج ) ، وذلك من أجل تحليل وحرث طبقات هذه الظاهرة والوصول إلى جذورها. هذا وإن حواراً مع علم الطريقة يفرض علينا التركيز على الأداة المنهجية لموضوع بحثنا ، وهذه الأداة التاريخية باعتبار التاريخ هو المحك الأساس والمصدق الخاص لصحة كل فكرة وسلامتها .<sup>1</sup>

وبطبيعة الحال فمعانقتنا التاريخية للموضوع ليست مقصودة لذاتها أي ليست بحثاً تاريخياً بقدر ما أن الغاية منها دراسة القانون الأعظم الذي يربط وشيخا الإسلام بالعروبة والعكس

---

<sup>1</sup> الماصدق مفهوم منطقي يقوم على فحص صدق فرضية ذهنية

ولا حاجة للتدليل بأن علاقة العروبة بالإسلام قد تبحت من زوايا متعددة : ثقافية ، واجتماعية ، وفلسفية ، ولهذا فقد حرصنا على دراسة الآصرة الثقافية والاجتماعية والتاريخية ، ولم نتعد ذلك - وكما فعله بعض المتخصصين - إلى الجانب الفلسفي كأن يقال إن الفكر السامي بعامة والإسلامي بخاصة يعول على نظام الفطرة ، وعلى التوفيق بين الروح والمادة ، وهذا ما يتضح من نظام اللغة الذي استقى الروحي من الحسي<sup>١</sup> ، ومع ذلك فلن ننسى التواشج الروحي بين العروبة والإسلام والفكريات التي انطلقت حول ذلك كالقول بأن الإسلام موجة أهم من موجات الروح العربية وإنه تعبير صادق عن - روح العروبة ، وغير ذلك .

كذلك فقد اعتمدنا - ضمن المنهج التاريخي - على عدة مناهج ، مثل منهج اختيار العينة ، ومنهج الحقل المعرفي ، ومنهج القوى الفاعلة ، ومنهج التحليل أو الوصف الفرضي وغير ذلك من المناهج التحليلية المقارنة والاستنباطية<sup>٢</sup> .

ونشير بالمناسبة إلى أن التعامل التاريخي لايقوم على الوصف الغرضي القائم على بعض الاستشهادات بينما هو تحليل غرضي : ANALYSE, THEMATYQUE يرتب مادة البحث وهيكلته للوصول إلى غرضه .

زد على ذلك فهذا التحليل التاريخي يتيح لنا تقديم فرضياتنا التفسيرية لتلك العلاقة بين العروبة والإسلام إضافة إلى ذلك بحث التأسيس النظري أو التأصيل القبلي للموضوع ، وهو الأمر الذي يحدونا لإقامة هيكل مفصلي عام أو مشروع عضوي كلي يحدد حقول البحث ومجالاته ومواده .

---

<sup>١</sup> عبد المنعم خلاف : المادية الإسلامية وأبعادها ، دار المعارف بمصر ، ط ٢ ، ٩٦٦ ص ١٠٤

<sup>٢</sup> مارلين نصر : التصوير القومي العربي في فكر عبد الناصر ، المرجع السابق ، ص ٤٠ و ١٢

الأمر الثالث في نظرية المعرفة - كمقتضى للبحث - هو تشييد الفهم وإنتاج المعرفة من خلال المحرك المولد لا وهو التأسيس القبلي والأداة المنهجية ، كل ذلك في إطار من الاتساق الاكسيومي ( القاعدي ) الذي يوحد الجزئيات ويؤطر الفروع في نظام شجري تسري فيه قطرات المعرفة في الشرايين والعروق .

هكذا يبدو الفارق بين التأسيس القبلي والمنهج ، فالتأسيس القبلي يحدد الحقول والمسائل والمواضيع فهو استراتيجية البحث وخطته الكلية النسقية ، أما المنهج فهو الآلية المعرفية لتحليل الخطاب ، وهو - حسب تعبير الدكتور إحسان عباس - القانون الذهني المرن المتغير وفق صيغة الموضوع المبحوث<sup>1</sup> ، وقد يكون هذا المنهج مثالياً أو واقعياً أو نقلياً أو عقلياً وغير ذلك .

وبالتزامنا بالمنهج التاريخي نبقى مالكي الحرية في التأسيس القبلي ، فنعتمد هذه الحقبة التاريخية أو تلك ، فضلاً عن أننا تعاملنا في دراسة الرابطة العضوية بين العروبة والإسلام ، ليس على أساس استعراض الأنظار الأيديولوجية ، بل على أساس فتح مجالات وحقول العلاقة ، مثل دور الإسلام في تشييد الأمة وبلورة هويتها الحضارية ، ثم التمييز بين الجامعة العربية والجامعة الإسلامية ، وغير ذلك من الأمور ، وإن كان ذلك لا يعني الاستخفاف بالأنظار الأيديولوجية ، وعدم مقاربتها وتلمسها جزئياً لاسيما تلك المحمولة على مبادئ نظرية موضوعية .

لكن قبل ختام هذه المقدمة لابد من سؤال عريض نظرحه هو : لماذا وسمنا هذا الكتاب بعنوان العروبة والإسلام وليس الإسلام والعروبة؟؟

---

<sup>1</sup> مداخلته الموسومة بعنوان الأصالة في الثقافة القومية المعاصرة القومية العربية والإسلام ، مركز دراسات

الواقع أننا لم نجر هذا الترتيب على أساس منهجي اعتباري تقديري ، وإنما على أساس وجودي كينوي : being .

فالوجود - ترتيباً زمنياً - يسبق القيمة ، والتاج الذي يزين الرأس ( الإسلام ) ويزين مفرقه تفكيراً وتوحيماً يأتي في مرحلة وجودية ثانية بعد الرأس .

والمفروض بهذه الدراسة أن تتعامل مع الإسلام بالمعنى الواسع للكلمة : lato-sensu أي الإسلام بمعنى الإيمان بالله إيماناً خالصاً محضاً نضيراً ، وطبعاً فالإسلام بهذه الرؤية يشمل التأسيس الأول " الموجة الإسلامية الأولى " على يد سيدنا ابراهيم ومن بعده سيدنا اسماعيل أول من تفتقت لهاته بالعربية المستعربة على حد قول الجاحظ .

هذا هو السياق الديني لكن أمتنا لها سياق آخر في مضمار الحضارة والصعود التاريخي والتقدم وفقاً لطبائع الأشياء والإنطلاق الذاتي وعلى هدى تجربتها ونظرتها إلى الحياة .

وعلى ضوء ذلك سنقسم هذا الكتاب إلى بابين نتكلم في الباب الأول عن الموجة الإسلامية الأولى على يد سيدنا ابراهيم على أن نتكلم في الباب الثاني عن الموجة الإسلامية الثانية الرسالة المحمدية الرحمة المهداة .

## الباب الأول

### حوار العروبة مع الموجة الإسلامية الأولى

#### التأسيس الإسلامي للإبراهيمي

#### مقدمة

مادام هذا الباب وسم بعنوان " حوار العروبة " فستكلم عن السياق الذاتي لتاريخ الجزيرة العربية في علاقته مع الإسلام الأول ، وقد قسمنا هذا الباب إلى عدة فصول لكننا أفردنا فصلاً أول تمهيدياً يعانق فلسفة إقليم الجزيرة العربية .

مع ملاحظة أن هذا التفصيل النسبي للكتاب الأول لإثبات أن الذات العربية أهلاً للحمولة التاريخية للإسلام وفي الوقت نفسه أهلاً لتفسير الرسالة المحمدية السمحاء بقوانين الله والاجتماع والسياسة والابتعاد بها عن التفسير الغيبي للسياق التاريخي .

#### الفصل الأول

#### إقليم الجزيرة العربية " قاعدة الدار العربية "

#### مقدمة

أثر عن نابليون قوله : إذا أردت أن تعرف سياسة أمة فالتمسها في جغرافيتها ، وهذا القول في نظرنا أساس علم الجغرافيا السياسية .

وفضلاً عن ذلك فالجغرافيا تضع لمساتها وبصماتها على مختلف جوانب حياة الأمة ، وهو الأمر

الذي يحدونا لنلمس هذه اللمسات - سلباً وإيجاباً - على حقائق أمتنا ومصيرها التاريخي .

هذا وأشار إلى نقطة هامة تتعلق بطبولوجيا ( موقعية ) هذا الفصل بل - وأهم من ذلك -

سبب وجوده ( مظانه )

لماذا كان هذا الفصل ، وما سبب قيامه ؟؟ .. إذا صح التفريق بين الأسباب المعرفية المحضة

الخالصة ، وبين المعنى البعيد والأصح ( المغزى ) ، فما هو المغزى من هذا الفصل ؟؟

نعتقد أن الذي فرض ذلك سؤال عريض هو :

هل أتى على العرب - قبل الإسلام - حين من الدهر كانوا فيه شيئاً هملاً غفلاً منسياً ؟

هذه مقولة لعلنا نجد لها محشورة في عقول بعض الإسلامويين وتبسيطها يقول : إن الدين معجزة

... قانون سماوي .. لا أثر للإنسان والواقع والطبيعة والاجتماع في نحوضه وانطلاقه .

هذا ونعتقد أن انطلاق الإسلام من الدار العربية قام على سنن الله في الاجتماع والحياة ، وأن

ذلك الإطار ( الإسلام الذي زين الصورة العروبة ) وذلك الجدار الصلب المتين الذي علقت

عليه مصابيح الإسلام وهدايته وهذا الماء المهين في قرار مكين ( الدار العربية ) ، هذا الأمر

ولد المناخ الملائم لولادة النبا العظيم

فالجزيرة العربية دار عزة ومنعة تأبت على الفاتحين بابليين وآشوريين ويونان ورومان وفضلاً عن

ذلك فالقوم كانوا - عندما استقبلوا النبا العظيم - لا يزالون على الفطرة ، ولم تتعكر نفوسهم

، ولم تتلوث طباعهم بأدران الضلالات ، وهكذا كانت الحكمة من النبا العظيم ، ومن أصدق

حكمة ودراية من السماء التي حملت هذه الأمة .

وهذه الدار مسؤولة النبا العظيم ، ونحن هنا سنتكلم عن مقومات ذلك القرار المكين الذي

كان مشتتاً للإسلام وذلك من خلال الأبحاث الآتية :

البحث الأول : في فلسفة المكان

البحث الثاني : دراسة وصفية لإقليم الجزيرة العربية .

البحث الثالث : قراءة كلية لإقليم الجزيرة العربية .

البحث الرابع : أقسام الدار العربية

البحث الخامس : دراسة نقدية لنظرية الدكتور جابر الأنصاري في قراءة الجغرافيا السياسية للجزيرة العربية .

البحث السادس : أقسام بلاد العرب .

## البحث الأول

### في فلسفة المكان

إذا اعتمدنا مبدأ الاستجابة أمكننا التأكيد أن أهم معلم لتلك الاستجابة يبرز في التأثير المتبادل بين الإنسان والطبيعة ، وهذا ما يصدق بقوة على الماضي ، فقد استطاع الفاعل الجغرافي أن يلقي بكلكله على الإنسان الأمر الذي يعني أن العلاقات الأولى بين الإنسان والبيئة الجغرافية ذات سمة سحرية ودينية ولا يقتصر الأمر على الإنسان القديم ، بل إن التمثلات الجماعية التي يكوها الناس الحاليون عن اقليمهم وبلدهم ووطنهم ذات سمة سحرية دينية بارزة .

لذلك وجدت من المناسب التعامل مع هذا الفاعل بصفته المسرح الذي سطرت عليه أمتنا أحرف العطاء ، هذا فضلاً عن أن الجزيرة العربية هي مهد السامية قبل أن تكون مهد السلام ومنيع الدول الإسلامية<sup>١</sup> .

هكذا نتساءل بقوة عن أساس قيام علاقة خاصة بين الدين بوصفه مطلقاً يتأبى التقييد ، وبين الفاعل الجغرافي المعبر عن حقائق النسبية والتعيين .

---

<sup>١</sup> د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام - مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ط ١



وفي هذا الصدد نذكر بقول عبد الرحمن الكواكبي بأن التخلق بالدين يتحكم في عرب الجزيرة ،  
ويعبر عن طبائعهم وسجاياهم<sup>١</sup>

سؤال آخر طرحه هو : ما علاقة الدين الحنيف بالقاعدة الجغرافية البشرية التي حملته  
واحتضنته : هل نذهب مع بعضهم للقول بأن الله تعالى أمضى معجزته في مجتمع يمتلئ بالفراغ  
والعقم ، أم إنه أعلم حيث يضع رسالته ، وقد اختار لذلك الكتلة التاريخية المناسبة .

وحقيقة الأمر أنه مهما تكلمنا على الفاعل الذاتي " إرادة الإنسان " ، أو المعطى الموضوعي "   
الحتم الجغرافي " فالتاريخ هو ظل الإنسان في جدل مع الأرض ، عبر صيرورة لا تعرف التوقف  
، وبالتالي فشخصية الطبيعة - الإقليم هي المفتاح لفهم شخصية الأمة فما المقصود من  
شخصية الإقليم؟؟

لاشك أن الشخصية الإقليمية تتجاوز المحصلة الحسابية لخصائص وتوزيعات الإقليم ، إنها  
السؤال التي ينفذ إلى روح المكان ليستشف عبقريته الذاتية genius loci ، والتعبير الحر والبوح  
الحرفي والبوح الطبيعي لهذه الشخصية ، فالبينة خرساء ، لكنها تنطق من خلال الإنسان ، وما  
التاريخ إلا ظل الإنسان على الأرض بقدر ما إن الجغرافيا هي ظل الأرض على الزمان<sup>٢</sup> .  
وشخصية الإقليم ، مثل شخصية الإنسان تتطور وتندهور ، وهو الأمر الذي يجعلنا نتكلم  
على فلسفة المكان متجاوزين التحديد الثابت لمعطيات الإقليم<sup>٣</sup> .

---

<sup>١</sup> الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ، تحقيق - د. محمد عمارة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة

للتأليف والنشر ٩٧٠ ص ٣٠٢

<sup>٢</sup> د. جمال حمدان : شخصية مصر ، كتاب الهلال ، العدد ١٩٦ ، ٩٦٧

<sup>٣</sup> د. جمال حمدان : شخصية مصر ص ٨

على ما تقدم تغدو دراسة شخصية الجزيرة العربية توطئة لازية وإرهاصاً لا محيص عنه لسبر أغوار العلاقة بين العروبة والإسلام ، بقدر ماهي ضرورية لفهم وجهتنا وتوجهنا ، مكانتنا وإمكاناتنا ، خصائصنا ونقائصنا .

وعلى هذا فسنبصغ بحثاً يتضمن دراسة وصفية لشخصية الجزيرة العربية ، على أن نردفه بقراءة فلسفية لروح هذا الإقليم .

## البحث الثاني

### دراسة وصفية عامة لإقليم الجزيرة العربية

هل تختزل حياة هذا الإقليم إلى الرباعية الآتية : الإنسان - الخيمة - الجمل - رتابة إيقاع الصحراء .

هذه النظرية حدت أحد المؤدجين الكبار في واقعنا السياسي والفكري والاجتماعي ليقول بالحرف الواحد : أما المحمدية فقد نشأت في الجزيرة العربية التي لا عمران فيها ولا تمدن والعرب لم يرتقوا عن مرتبة بدائية ، ولم يعرفوا العلم وحياتهم مقصورة على الغزو والسلب ونظم الشعر ، فحدثهم محمد بما يحتاجون إليه <sup>١</sup>.

والواقع أن الجزيرة العربية أخصب من ذلك بكثير ، ونحن حيال عالم كامل يضح ويبوح بالكثير ، وفي ذلك يقول أحد المؤرخين : قد تزول الدهشة التي يثيرها الاعتقاد السائد بأن بلاد العرب صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، إذا بحثنا في أرض بلاد العرب من الناحية الطبيعية ،

---

<sup>١</sup> انطوان سعادة : الإسلام في رسالته ، ط ٣ ، بيروت ٩٥٦ ، ص ١٨

فليست شبه الجزيرة العربية خلواً من الصحارى والسهوب ، فهي تحوي أراضٍ في غاية الخصب كانت تزرع منذ آلاف السنين وفيها المدن والقرى الآهلة بالسكان <sup>١</sup>.

إذن فلا عجب أن نجد مناطق يسقط فيها الثلج كما هو الحال في جبال اليمن ومنطقة غزوان قرب الطائف وغير ذلك <sup>٢</sup> ، كما أن الأمطار تسقط في الأقسام المرتفعة الشمالية من الدهناء ، بل إن قسماً كبيراً من صحراء النفوذ يتحول في الأشتية إلى جنة حقيقية تزينها الزهور والأعشاب ، ولا عجب إذن أن يقول الرسول ﷺ : فضل دهن البنفسج على سائر الأدهان كفضلي على سائر الخلق <sup>٣</sup> ، وقوله : الورد الأبيض خلق من عرقى ليلة المعراج ، وخلق الورد الأحمر من عرق جبريل ، خلق الورد الأخضر من عرق البيداء <sup>٤</sup>.

وقوله : هبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء الآسة : وهي سيدة ریحان الدنيا وبالسنبله وهي سيدة طعام الدنيا وبالعجوه وهي سيدة عمارة الدنيا <sup>٥</sup>.

وكثر في هذه الجزيرة الدارات حتى بلغ عددها زهاء عشر بعد المائة ، كما تكثر المياه المعدنية الكبرى في الحجاز وحضرموت وعمان والإحساء والمهوف .

ويؤكد هيرودوت وبطليموس وجود الأنهار قديماً بدليل اكتشاف العاديات وآثار الترسبات الحيوانية <sup>١</sup>.

---

<sup>١</sup> د. ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ص ٥

<sup>٢</sup> د. جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ج ١ ص ٥٢

<sup>٣</sup> السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤٢ ط ٧ ٩٨٣

<sup>٤</sup> د. فيليب حتي ود. ادوار جرجي ود. جبرائيل جبور ، المرجع السابق ص ٢٥

<sup>٥</sup> د. فيليب حتي ود. ادوار جرجي ود. جبرائيل جبور : تاريخ العرب ، بيروت ، دار غندور للطباعة

والنشر والتوزيع ، ط ٧ ، عام ٩٨٦ ، ص ٢٦

والحد الشمالي للجزيرة لا يقوم على معالم طبيعية ، وهذا يفسر الهجرات الكثيرة عبره ، كما أن الصخور المرجانية في البحر الأحمر حمته من الغزوات الخارجية .

وإذا علمنا أن الطبقة الجليدية لم تكن تتعدى في العصر الجليدي جبال آسيا الصغرى ، أدركنا أن الجزيرة العربية انفردت بأنها كانت مروجاً حضراء أهلة بالسكان <sup>٢</sup> .

ولقد أكد الكتبة اليونان والرومان أن الذهب استخرج من هذه الجزيرة خالصاً نضاراً لم يمسه نار ومن أهم مراكز الاستخراج موضع " مهد الذهب " وموضع " يشه " (أوفير) ، حيث كان يرسل إلى النبي سليمان حسب رواية التوراة <sup>٣</sup> ، كما إن رواية المقدسي والهمداني تؤكد أنه كان يرسل إلى فراعنة مصر ، الذين اهتموا بشؤون التعدين في سيناء .

ولقد اكتشف العرب <sup>٤</sup> معادن كثيرة مثل الملح والعقيق الأحمر والأصفر والبلور والمسني والنحاس والفيروز وغير ذلك .

وتسقط الأمطار الموسمية المنتظمة في اليمن وعسير بما يكفي لإقامة زراعة ذات حضرة دائمة تمتد على نحو مائي ميل من الساحل <sup>٥</sup> .

ولقد خطت الطبيعة في هذه الجزيرة أحاديث وعروقاً تربط كافة أطرافها المترامية طولاً وعرضاً ، وهذه الخطوط إما ساحلية تحف بالأطراف ، أو تحترق داخلها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ، معرجة على الواحات الوسطى متجنباً المنطقة الوسطى " الربع الخالي " .

---

<sup>١</sup> د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ج ١ ص ١٥٩

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ١ ص ١٩٤

<sup>٣</sup> د. حتي ورفقاه : تاريخ العرب ص ٧٩

<sup>٤</sup> جواد علي ج ١ ص ١٩٦

<sup>٥</sup> فيليب حتى ص ٤٤

ومن الصعب تحديد عناصر مملكة النبات ، ويكفي أن نذكر بأن الغابات كست شمال الحجاز ومنطقة حسمى وجبال اليمن وحضرموت وعمان ، وهذا ما يفسر تعبد أجدادنا الإله الذي اسمه " ذو غابة "

ولا حاجة للتذكير بالنخلة ملكة عالم النبات وأهميتها في حياة الجزيرة العربية ، فهي رمز الخير ومصدره ، وقد قدست لدى الشعوب السامية ، ولهذا فقد خاطبها الرسول ﷺ بقوله : أكرموا عمتم النخلة فقد خلقت من الضلع الذي خلق منه آدم .

واشتهرت اليمن بالبخور واللبان والقليمة والقرفة ، ولقد زارها هيروودوت ، وأكد أنها كانت تعبق بأريج العنبر والطيب ، وقد أطلق عليها اسم بلاد الطيوب<sup>١</sup> .

هذه الطيوب كانت بتروال العالم القديم ، ولقد أعاد ديودورس هذا الوصف وأكدته ، والأمر نفسه بالنسبة للمؤرخين بلنيوس وسترابو<sup>٢</sup>

وتحفل مملكة الحيوان في الجزيرة بأعداد لا حصر لها ، وإن كنا نلفت الانتباه إلى أهمية الحصان والجمل .

والحديث عن الحصان العربي يطول بسبب قوته ونباهته وإخلاصه لسيدته ، ولقد نقل إلى الغرب من الجزيرة العربية ، وبلغ من حب العربي له أنه كان يبني على الطوى في سبيل إطعامه

٣ .

---

<sup>١</sup> جواد علي : ج ١ ، ص ٢٠٥

<sup>٢</sup> فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٤٠

<sup>٣</sup> فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٤٩

أما الجمل فهو الهبة الكبرى وعصب الحياة في الصحراء ، فهو الحاضنة التي ترضع البدوي اللبن وتؤمن له الطعام والكساء والوقود من روثه والعلاج من بوله <sup>١</sup> .

وقوة الحياة ومراسها في الصحراء العربية كانت الدرقة والجنة التي صدت عنها الجوائح والغارات ، حيث يؤكد نص أسر حدون أن جيشه أصيب بالرعب أثناء اختراقه البادية بسبب كثرة الحيات التي كانت تنقض عليهم ، لاسيما الثعابين الطائرة ذات الرأسين ، وهي لكثرتها كالذباب ، وهذا ما أكده هيروودوت واسترابو وأخبار الاسرائيليين عند اجتيازهم البوادي إلى فلسطين <sup>٢</sup> .

### البحث الثالث

#### " قراءة كلية لإقليم الجزيرة العربية "

كما سبق قوله ليست الغاية من الوصف السابق تقديم دراسة جغرافية بقدر ما نبغي هدم تلك الفرضية التي عوّل عليها المغرضون تدليلاً بالفراغ الجغرافي لمهد أمتنا ، وفي المقابل لفت الانتباه إلى شخصية اقليم الجزيرة العربية الذي كان المسرح الأهم لخبرة أمتنا التاريخية الممتلئة ومغامرة روحها المتوثبة ، حيث ركب العربي البحر وجاب الصحراء وزرع الأرض ومارس التجارة لاسيما أن الجزيرة العربية تمتعت في الماضي السحيق بظروف مناخية ممتازة ، وهذا ما حدا الكثير من المفكرين للقول بأنها كانت مهداً لجنة عدن .

لقد لعب موقع الجزيرة - وليس موضعها - دوراً فذاً ، إذ كان - بالتعبير القرآني - القرار المكين الذي احتضن بذور الحياة مجنباً سكانها الرضات والخضات الخارجية ، الأمر الذي وفر

---

<sup>١</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٠٥

<sup>٢</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٠٥

لجنينية الحياة المشتل والجنة ، وسمح لها أن تعيش بشكل طبيعي ، وأن تتمتع بما يسمى بالعمر التاريخي للأمة ( الأمة التاريخية الطبيعية ) ، وأن تصد الغزوات المتعددة ، وفضلاً عن ذلك فقد كان لهذا التخلق الهادئ انعكاسه على شخصية الإنسان العربي وأصالته وذاكرته ، حيث أفسح له أن يكتسب جذراً تاريخياً عمرانياً يمتد في أعماق التجربة الإنسانية ، كذلك فإن الدروب والعروق الطبيعية التي خطتها الطبيعة شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً في مهد أمتنا جعلت منه أعظم بوتقة للصهر والدمج والتفاعل .

هذا وإن موقع شبه الجزيرة العربية في مركز وسط بين القارات : آسيا - أفريقيا - أوروبا وامتلاكها ثروات معدنية ، هذه الأسباب جعلت منها ساحة مهمة للتبادل التجاري بين الدول المحيطة بها ومركزاً أثار أطماعها<sup>١</sup> .

لقد اتسعت علاقات العرب تاريخياً مع كل من مصر والسومرين والفرس والعبيرانيين واليونان والرومان فقد كانوا ضباط الارتباط في ميدان التجارة العالمية بين الغرب والهند<sup>٢</sup> .

وبطبيعة الحال فهذا النمط التجاري كان مصدراً لمتغيرات سياسية واجتماعية لسبب بسيط هو أن تلك العلاقات لم تبق وليدة تبادل المصالح بشكل متكافئ ، وإنما كانت مصدر إغراء لتلك القوى الخارجية التي طغت عليها الأطماع حيث أصبحت الجزيرة العربية محطة لموجات الغزو ، كما تحولت إلى ساحة تتفاعل عليها بعض القوى ، كما حصل بين الفرس والأحباش<sup>٣</sup> .

---

<sup>١</sup> حسن غريب : في سبيل علاقة سليمة بين العروبة والإسلام ، دار الطليعة ، بيروت ط ١ ٩٩٩ ص ٢٤

<sup>٢</sup> د. حتي : تاريخ العرب ص ٧٥

<sup>٣</sup> حسن غريب : المرجع السابق ص ٢٤

وفضلاً عن ذلك ، فقد كان لهذا الصراع انعكاسه على الأنماط والعلاقات الاجتماعية ، إذ أدت سيطرة القوى الخارجية إلى تمزيق أية بذور وحدوية بين قبائل الجزيرة ، وهذا قاد بدوره إلى استفحال البداوة العربية غير المنضبطة بعد أن ضرب قوة الضبط والربط <sup>١</sup> .

وعلى الرغم مما سبق فقد جرى الاهتمام بإيجاد منظمات بديلة لتأمين الشروط الأساسية لاستمرار الحياة الاجتماعية ، ومن ذلك تنظيم المكين للطريق التجاري (الإيلاف) - نشوء لهجات لغوية ثقافية متقاربة تتخطى لسان القبيلة - بروز اتجاهات وحدوية في الوثنية مثل (عباد الرحمن) المتأثرين باليهودية في الجنوب ، والحنفاء الموحدنين المتأثرين بالنصرانية في الشمال - تحويل مكة إلى مركز استقطاب تجاري وديني منذ أن جمعت أصنام العرب في كعبتها <sup>٢</sup> .

ويجب أن لا ننسى دور أطماع القوى الخارجية في تأجيج وصهر المشاعر القومية العربية ، وتقرير المشاعر الوحدوية <sup>٣</sup> ، وهذا ما يتضح من المقاومة التي واجهتها حملة أبرهة الحبشي ، ثم أسطورة أمتنا لموقف أبي رغال اللاوطني ترميزاً قومياً جعل - حتى الآن - المرور بقبره ورميه بالحجارة منسكاً قومياً يذكرنا بمناسك الحج ، وأخيراً التأييد الذي لاقاه سيف بن ذي يزن في طرده للأحباش ، ثم سفر جد الرسول ﷺ إلى اليمن لتهنئته في الانتصار ، وكذلك فالعامل المعيشي المتميز لبلاد الشام والعراق شكل عملية جذب ومغنطة تاريخية مستمرة لذلك المخزون البشري الهائل المتفجر في الجزيرة العربية ، وهذا ما أفسح المجال للحديث عن قانون مستقر عبر عن كلية التجزئة التاريخية لأمتنا ، وعن منطقتها الداخلي ونزوعها الواعي واللا واعي ، على

---

<sup>١</sup> رضوان السيد : الأمة والجماعة والسلطة ، دار اقرأ بيروت / ٩٨٦ / ط ٢ / ص ٢٨

<sup>٢</sup> - المرجع السابق / ص ٢٤

<sup>٣</sup> - د - حتى : تاريخ العرب ص ٨٠



هذا الأساس تحدث الدكتور جواد علي عن تلك الروابط التي تربط العربية الشمالية ببلاد الشام .

هذا وفي ختام هذا البحث نسجل الملاحظات الآتية :

- كانت الجزيرة العربية مهد العرب ، وعرفت في التاريخ بجزيرة العرب ، وكانت موطن شعوب أخرى سبقتهم في الخروج إلى الشمال والغرب ، وكون بعضها حضارات في القدم ، وكانت هذه الشعوب تتكلم بلغات هي والعربية من أصل واحد ، وتطورت لغاتها بعد خروجها ، وبقيت العربية في مهدها أقرب إلى الأصل ، كما دخل جل تراثها في الحضارة العربية الإسلامية ، كل هذا يجعل هذه الشعوب عروبية ثم عربية<sup>١</sup> .
- ولقد دارت حياة العرب قديماً حول محورين :

الأول مناخ الجزيرة وطبيعتها الجغرافية بين صحارى وبواد وسهول ، وإحاطتها بالبحار من ثلاث جهات ، وهذا ما أدى إلى حفظ قلب الجزيرة من الغزو الخارجي ، وأبقى للعربية نقاءها ، وجعل العرب سريعى التكاثر في البيئات البدوية ، مما مكنها أن ترفد المجتمعات الحضرية ، وأن تفيض على الأطراف ، فكانت البداوة مصدر حيوية وفتوة متجددة للمجتمعات العربية<sup>٢</sup> ، وهذا يفسر أن الأمصار الجديدة التي بنيت في العراق أثناء الفتح ، قامت على سيف الصحراء لتبقى على صلة مع الجبل السري للحياة

---

<sup>١</sup> د عبد العزيز الدوري : التكوين التاريخي للأمم العربية ، دراسة في الهوية والوعي ، مركز دراسات

الوحدة العربية ، بيروت ٩٨٤ ط ٧ ص ٢٧٧

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٢٧٦

العربية ، ألا وهي الصحراء ، وهذا هو مغزى اختيار القائد خالد بن الوليد اليرموك مسرحاً للالتحام مع الروم .

- إن موقع الجزيرة الوسط في العالم القديم ، ومرور طرق التجارة الدولية بها ، وهذا - مع موضع الجزيرة الاستراتيجي - مكن العرب ، وخاصة عرب جنوب الجزيرة والخليج ، أن يكونوا وسطاء في التجارة الدولية وأن يسيطروا على طرق التجارة فترات طويلة<sup>١</sup> .

- كان العرب واسطة عقد التجارة الدولية بين الشرق والغرب ، يأتون بها من الصين وشواطئ الهند الغربية وجزرها الشرقية إلى الخليج العربي فحوض ما بين النهرين فسوريا ، فالبحر المتوسط ، فالدولة الرومانية ، ودول المدن التجارية في أوروبا ، ويأتون بالبضائع من شرق أفريقيا إلى اليمن ، فمكة ، فالشام ، فبلاد الروم ، وهم الذين كانت لهم دراية بالبحر والملاحة قبل كثير من الشعوب التي عاشت حول البحر والمحيطات ، فهم لم يعرفوا الصحراء وحدها ، بل عرفوا البحر والملاحة والفلك منذ أقدم العصور ...

- فمنذ ما قبل الميلاد اتخذ العرب على الساحل الشرقي في إفريقيا عدة مستعمرات منها لامور ومبسة وزنجبار وموزمبيق ، حيث مارسوا فيها جميع أنواع التجارة ، بل إن صلات العرب التجارية بزنجبار ، إنما تضرب في أعماق التاريخ ثلاثة آلاف من السنين .

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٢٧٥

- ولقد كانت التجارة الدولية عاملاً أساسياً في رخاء العرب منذ الألف الأول قبل الميلاد ، واستمرت كذلك بصورة أقوى بعد ظهور الإسلام ودخول الطرق الرئيسية في نطاق سيطرتهم حتى القرن الخامس عشر .

كما ساعدت طرق التجارة الداخلية ، وما اتصل بها من أسواق على التواصل بين المجتمعات العربية في الجزيرة ، وساهمت في توثيق الروابط الاجتماعية والأدبية ، وفي قيام لغة أدبية مشتركة .

وإذا كانت الجزيرة نشطت البداوة - وهي ظاهرة تمثل التجزئة والمنازعات الداخلية حول المياه والمراعي خاصة - لكنها تنطوي على شيء من الفروسية ، وعلى قيم ومثل مشتركة كالمروءة ونجد روحها في العصبية القبلية التي تستند إلى القوة إلا أن هذه الأمور لم تحجب شعور العرب بالانتماء إلى أصول واحدة وإلى أنساب مشتركة<sup>١</sup> .

- وإذا كان هكذا المفهوم الجيوسياسي والجيواقتصادي للجزيرة العربية ، فهذه الجزيرة أصبحت ذات مدلول ديني روحي إنساني مقدس<sup>٢</sup> ، وهذا ما يتضح من وصف الكواكبي لها بأنها مشرق النور الإسلامي ، وقلب العالم الإسلامي ، وموطن الحرمين وهي أسلم الأقاليم لجهة الاختلاط الجنسي والديني ، وهي أفضل الأماكن لتكون ديار أحرار<sup>٣</sup> .

---

<sup>١</sup> د. الدوري : المرجع السابق ص ٢٧٢

<sup>٢</sup> عوني فرسخ : القوميون والإسلاميون العرب ، مجلة المستقبل العربي عدد ٢٦٠ لعام ٢٠٠٠ ص ٥١

<sup>٣</sup> أم القرى ص ٢٥٨

هذا وإذا أعطينا للجغرافيا في الوطن العربي المعنى الواسع : Iato sensu ، فبالإمكان

رصد أثر هذا العنصر على جدلية الوحدة والتجزئة في الآتي :<sup>١</sup>

١- لقد كان لتنظيم الري في كل من وادي النيل ووادي الرافدين دور في إقامة الدولة النهرية المركزية القومية ، وبسبب ندرة المطر والتصحر على محيطها تعرضت لغارات وهجرات بشرية متوالية ، في مواجهة تدفق بشري في غالبته بدوي مهدد للاستقرار مخرب للعمران ، فقد اعتمدت الهجوم وسيلة للدفاع ونمت فيها الطموحات الامبراطورية ، وتعاضم بالنتيجة دور الدولة والعسكر في حياة وتاريخ أمم المنطقة وشعوبها .

٢- وبسبب محدودية المساحة الصالحة للزراعة ، احتلت التجارة مركزاً مرموقاً في النشاط الاقتصادي ، كما احتل التجار منزلة معتبرة في المجتمع وعند الحكام ، وصار تأمين طرق ووسائل النقل واستقرار وأمن الأسواق كبير الأثر في ازدهار الدولة واستقرار الحكم .

٣- بحكم الموقع المتوسط بين آسيا وأفريقيا والسواحل الجنوبية لأوروبا فقد تطلع الحكام والتجار لتوسيع مجال تجارة المنطقة خارج حدودها الإقليمية ، وبنجاح البحارة العرب في مواجهة تقلبات الرياح الموسمية فقد فتح طريق التجارة إلى الهند وجنوب شرق آسيا .

ولقد تمكن بدو شبه الجزيرة العربية من تدجين الجمل ، وهكذا امتدت تجارة القوافل من حدود الصين إلى شواطئ الأطلسي، ومن أعماق آسيا الوسطى إلى أدغال افريقيا

---

<sup>١</sup> عوني فرسخ : جدلية الوحدة والتجزئة تاريخياً وفي الواقع العربي المعاصر ، مجلة المستقبل العربي

، وبذلك تضاعفت طوال قرون متوالية أهمية الدولة الامبراطورية لإزالة المعوقات أمام حريات انسياب السلع وانتقال الأشخاص .

٤- كان شبه جزيرة العرب أشبه بخزان بشري يفيض بالمهجرات ، وذلك بتأثير عامل المناخ واتخذت المهجرات اتجاهين :

الأول باتجاه وادي الرافدين وبلاد الشام ، والثاني عبر الساحل الشرقي للبحر الأحمر الى مصر والشمال الافريقي ، ولقد حمل المهاجرون الأولون معهم قرابتهم الجنسية واللغوية والقسمات الحضارية المشتركة .

٥- تسببت غلبة الصحراء وتدني نسبة المناطق المأهولة وطول خطوط المواصلات في حصر اهتمام السلطات المركزية المتوالية ضمن مناطق العمران ، مما يسر الخروج عليها كلما بدت إمارات الضعف فيهما ، ومن بين الامبراطوريات التي قامت في المنطقة تميزت الامبراطورية العربية الإسلامية بتدني نسبة المساحة المأهولة من أصل مساحتها الكلية ، الأمر الذي تسبب في تراجع فعالية السلطة المركز في وقت مبكر للغاية .

٦- ولقد وفرت المناطق الجبلية الوعرة والفقيرة الموارد لبعض التكوينات الاجتماعية (العرقية) والطائفية بوصفها معازل نائية عن العمران ، حيث أمنت لها فرص الانغلاق ، وأضعفت مستوى تفاعلها مع المحيط لديها وقوت نوازع الخصوصية الذاتية ، كما تأثر التاريخ العربي بحدة الصراع بين الحضارة والبداءة على نحو لا مثيل له في العالم ، مما جعل العصبية القبلية تتواصل في المجتمع العربي على الرغم من إدانة الإسلام لها ، وتجاوز مرحلة البداءة في معظم المجتمعات العربية .

وهكذا يتضح أنه نتيجة تفاعل جدلي فيما بين عناصر جغرافية الوطن العربي ، فقد تبلور التوجه الوحدوي التاريخي لقبائله وشعوبه أو للدول التي أقامت هذه القبائل والشعوب

وتلك التي أقامتها غزواته غير الزمن ، باستثناء دول الاستعمار الأوروبي ، كما كان لعنصري التضاريس والموارد أثرهما في تشكيل بذور التجزئة في النسيج الاجتماعي للامة العربية ، وهذا ما حدا لظهور نظريات جغرافية تبرز هذا العنصر التجزيئي لا التوحيدي وهذا هو موضوع بحثنا الآتي :

## البحث الرابع

### الدور التجزيئي للمفاعل الجغرافي في إقليم الجزيرة العربية

يمكن القول إن اللاندسكيپ ( المسرح ) الاجتماعي والتاريخي لأمتنا كان كراس جانوس له وجهان أحدهما يفيض بالنور ، والآخر ترهقه القترة ، وبمعنى أوضح يسوده قانون الصراع والتفكك ، الذي هو إفراز الأعرابية التي همشها المجتمع العربي ، وسدد لها الضربات المتوالية ، ثم قانون التكامل والترابط المتبادل الأوثق بين الأجزاء والعناصر والأبعاض<sup>١</sup> ، ولاشك أن قانون التعثر والتبعثر جاء على يد الجغرافيا ، وهو أمر مسلم فيه ، وإن كان هنالك مبالغات في إيلاء العنصر المذكور هذا الدور الحتمي في حياة أمتنا لاسيما إذا سحبنا الأمر إلى حياتنا الراهنة ، إذ من المسلم به - حسب رأي العالم الجغرافي الاسباني انياسيو اولاجو - أن الميزان يميل في بحث العلاقات الجغرافية السياسية في اتجاه الفكرة لاني اتجاه العناصر الجغرافية الطبيعية

٢ .

---

<sup>١</sup> هذا هو تعريف معجم لانلد للتكامل

<sup>٢</sup> أورد هذا الرأي د . حسن صعب : تحديث العقل العربي ، دار العلم للملايين بيروت ، ط ، ٩٦٩

وإذا كان الأمر هكذا بالنسبة لدور الجغرافية حالياً ، فهل يعني أن دورها في الماضي ، وبالذات في الجزيرة العربية ، كان أمراً حتمياً مقضياً ، الأمر الذي ألغى فاعلية الإرادة الإنسانية ..

في الحقيقة هنالك أكثر من مفكر أوروبي دلت بهذه المقولة ، وإن كنا لانعدم وجود مفكر عربي أخذ بهذه النظرية الجغرافية ، هو الدكتور محمد جابر الأنصاري ، حيث عرض رأيه في مظان متعددة نخص منها بالذكر كتابه الموسوم بعنوان : التآزم السياسي عند العرب وموقف الإسلام<sup>١</sup> ، ثم كتابه الموسوم بعنوان تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها<sup>٢</sup> .

ففي الكتاب الأول تكلم عن شرط الحضارة القاضي في استمرار التراكم في المكان والزمان ، وهو أمر غير متوفر في الجغرافية العربية التي تغطيها الصحراء بنسبة ٩٠% من مساحتها ، الأمر الذي منع الاستمرار في المكان والزمان ، هكذا يؤكد أن معظم الكيانات العربية المعروفة حالياً بالكيانات القطرية بقيت منفصلة عن بعضها بسبب عامل التباعد الصحراوي الذي منع وحدة التفاعل الحياتي المجتمعي بينها من التنامي على المدى الطويل ، فتعايشت هكذا مع الانقطاع والعزلة والتجزئة .

ويتابع الدكتور الأنصاري القول : أما القطيعة المكانية فتمثلت في ظاهرة التباعد الصحراوي بين مراكز التحضر العربي ، بحيث تفتتت هذه المراكز جزراً متباعدة غير متصلة بشكل عضوي ، وهو ما أدى إلى إضعاف التواصل العضوي الحضري في نسيج المجتمع العربي الذي ظل مجزأ على صعيد القاعدة المادية الأرضية إلى يومنا هذا ، وكان لهذا الواقع أثره الخطير ليس فقط في عرقلة حركة التوحيد السياسي بين العرب في العصر الحديث ، وإنما في تجريد الدولة العربية

---

<sup>١</sup> المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ٩٩٥ ، ص ٢٠

<sup>٢</sup> المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ٩٩٨ ، ص ٣٠

الإسلامية التاريخية من قاعدتها الأرضية الحضرية العضوية المتواصلة ، مما أدى إلى بذر بذور التجزئة التاريخية أصلاً - ليس في صراع سياسي بين الكيانات المتعددة - وإنما في توتر وتجادل بين ولاء الفرد العربي المسلم لوحدة حضارية وثقافية ، مقابل تعددية الكيانات السياسية التي كانت تتجاوز به ، وماتزال تعارض مع تلك الوحدة الانتماية الشاملة <sup>١</sup> .

أما في كتابه الثاني فيبرز دور القوى الرعوية المتخلفة التي أحاطت به في الصحارى العربية والآسيوية والأفريقية وحالت دون نموه الطبيعي ودون إمكانية التراكم الرأسمالي المؤدي إلى الثورة الصناعية ، بل أخذت تقطع طرق إمداداته ومواصلاته التجارية ، ثم انقضت على مراكزه الحضرية ذاتها بالتسرب سياسياً ودينياً إلى مؤسسة الخلافة والحكم ثم بالانقضاء المباشر عليه عندما تم تفكيك بنيته الحضارية من الداخل <sup>٢</sup> .

- وإذا كان الرأي الثاني يقوم على الكثير من الحقيقة إلا أن الرأي الأول ينطوي على الخطأ والخطر ، وإذا كان المجال لا يتسع للرد على هذا الرأي لسبب بسيط هو أن هذا الكتاب ينطوي على هذا الرد ومع ذلك فسنكتفي بالردود الآتية :

- لقد ألغى هذا الرأي الفاعل الإرادي في حياة الإنسان ، وأطلق للفاعل الطبيعي دوره دون حدود ، والسؤال المطروح هو كيف نفسر نشوء الإسلام ودوره على صعيد الدمج والبوتقة والصهر وخلق التماسك المجتمعي ، وأين هو دور الجغرافيا ، وأين دورها في راهنيتنا .

---

<sup>١</sup> د. الأنصاري ، المرجع السابق ص ١١٦

<sup>٢</sup> د . عمارة فجر اليقظة العربية ، ص ٣٠



- وإذا كان هذا التمزق موجوداً فكيف نفسر قول الجاحظ بأن العرب سكبوا سكباً وأفرغوا إفرغاً في الشمائل والسجايا ، ثم كيف نفسر افتخار النعمان بن المنذر في بلاط كسرى ، حيث بين بأن العرب امتازوا عن بقية الشعوب بوحدة الطباع والأخلاق والمناقب والسجايا .

- إن التفاعل بين أجزاء الوطن العربي لم ينقطع منذ الأدوار الجيولوجية الأولى ، بل استمر دون انقطاع اجتماعياً وفكرياً وسياسياً في مظاهر وأشكال لا حصر لها ، وإلا كيف نفسر ظهور دول اليمن ودولة الأنباط ، وتدمير ، وبني المنذر وبني غسان . كيف نفسر سيطرة عرب الجنوب على الجزيرة العربية في كافة الحقب التاريخية ، ولعل دولة كندة المثل الصارخ لذلك ، فقد تمكنت هذه الدولة - بالتعاون مع التبابعة - ملوك اليمن - من السيطرة على الجزيرة العربية .

ومن مظاهر ذلك نذكر - على سبيل المثال لا الحصر- دولة ديدان التي أسسها عرب اليمن في العربية الشمالية ، وبالذات في عقدة المواصلات حتى أن نفوذها وصل إلى مصر وإلى جزيرة ديلوس اليونانية .

كيف نفسر ظاهرة قريش وأهميتها ودورها وزعامتها على الحياة العربية ، الأمر الذي حدا أبا بكر الصديق للقول للعرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش .

ولنا أن نتساءل عن هذا التقطيع والانقطاع في الحقيقة الإسلامية لاسيما من الوجهة الثقافية والاجتماعية ألم يقوم مفكرو بغداد العقد الفريد لابن عبد ربه بقولهم هذه بضاعتنا ردت إلينا تدليلاً بهذه الوحدة الثقافية .

كيف نفسر قول القلقشندي بأن دولة المماليك كانت تعامل بأنها الدولة القائدة في عصرها ، ثم انفراد الصليبيون في مخاطبة صلاح الدين الأيوبي بالسلطان بسبب أهمية الدولة

التي كان يحكمها ثم كيف استطاع أن يوحد مصر وسوريا متجاوزاً آنذاك دور المكان ،  
والأمر نفسه بالنسبة للمماليك الذين امتد نفوذهم خارج مصر ، وهذا يؤكد عدم اعتبار  
القطرية العربية تقوم على ثوابت تاريخية .

ماذا يعني هذا التسرب المستمر لسكان الجزيرة العربية باتجاه سوريا والعراق ومصر وذلك  
خلال كافة الحقب التاريخية ؟؟ .

كيف نفسر هجرة الفينيقيين من الخليج العربي إلى سوريا ثم إلى شمال أفريقيا ؟؟ ... كيف  
نفسر انتقال البرابرة إلى الجزائر والمغرب وليبيا ومصر وتأسيس مملكتين فيها ؟؟ ... وأخيراً  
كيف نفسر أن أصل البرابرة من جنوب الجزيرة العربية كما سنعرض لذلك بالتفصيل .  
لأجل الرد على حتمية الجغرافيا بالمفهوم الذي حدده الأنصاري لكن سنفتح المجال واسعاً  
لمناقشة هذا الرأي في أبحاثنا المقبلة .

لقد نعت هيئة تحرير مجلة الاجتهاد<sup>١</sup> على الرؤية القائلة بأن المسؤول الأول والأهم عن  
المآزق الفكرية والاجتماعية والسياسية التي تعاني منها المجتمعات العربية اليوم ، المسؤول  
الأول هو البداوة العربية .

بالمقابل فهذا الرأي يؤكد بأن الدعوة والدولة ظهرتنا في الحواضر ، وقد سيطرت تلك  
الحواضر على مصائر العرب والإسلام عبر تاريخنا كله ، مهمشة البداوة<sup>٢</sup> ، بل إن ابن  
خلدون الذي يستند إليه كثيرون في فهم مجريات التاريخ العربي الإسلامي ، لا يبرر  
جدلية البداوة والتحضر في تاريخنا إلا في سياق ايضاح اندغام البداوة في الحضارة في

---

<sup>١</sup> هيئة تحرير مجلة الاجتهاد : عدد ١٨ السنة ٥ ، ٩٩٣ ، ص ٥

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٦

دولة المدينة ( أو الحاضرة ) على أن هذا الاندغام حدث أيضاً ولفترة محدودة في المغرب الإسلامي ، أما المشرق فأين البدو الذين دخلوا إلى الحاضرة حاكمين مسيطرين ومتحضرين .

صحيح أنه قامت دويلات بدوية في منطقة الجزيرة الفراتية وجوارها منذ القرن الثالث الهجري ، لكنها كانت دائماً تنضوي في الدولة السلطانية الكبرى القائمة في الحواضر ، مثلما حدث مع البويهيين والسلاجقة والأيوبيين والمماليك ، والمغول وحدهم يشكلون استثناء في المنحنى التاريخي ، فقد كانوا لا يزالون بدواً غير مسلمين عندما اجتاحتهم المشرق الإسلامي وصولاً للعراق وأطراف الشام ، لكنهم سرعان ما استحضروا واعتنقوا الإسلام ، وبالتالي فالحياة الحضرية والعقلية الحضرية كانت لهما اليد العليا في تقرير مصائر منطقتنا ووجودنا الاجتماعي والسياسي في أكثر حقب تاريخنا <sup>١</sup> .

أما في الحقب الحديثة فقد كانت الحركات التي أنشأت دولاً في الجزيرة العربية حركات غير بدوية في فكرها وثقافتها وأهدافها ، إنما هي حركات إصلاحية إسلامية ، ولا يصح سيوسولوجياً ولا تاريخياً <sup>٢</sup> إخضاعها لأدوات التحليل الخلدوني .

وينتهي هذا القول بأن الحديث عن عقلية بدوية متأصلة في العرب المعاصرين وهم بوهم ، إذ ليست هناك عقلية يمكن وصفها بالبدوية ، ثم إنها إن وجدت فلم تكن ذات تأثير رئيسي في تاريخنا أو حاضرنا ، وبالتالي فالحديث عن العقلية البدوية هو حديث عن

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٦

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص

جوهر ثابت ، لا يتغير ولا يتبدل ، وهو حديث يبقى غير محدد ، وليس من العلم أو التاريخ أو السوسولوجيا في شيء<sup>١</sup> .

على ضوء ما تقدم يمكن الحديث عن تسفيه العقل العربي للحياة البداوة وتهميشه لها وتجاوزة لحياتها ، يظهر ذلك منذ حضارات اليمن ، إذا طالعنا مثلاً مكتشفات المسند أن دولة قتيبان تألفت من عدة إمارات وقد ألحق بها ( عربن ) أي الأعراب كما ستحدد وإذا كان المجال لا يتسع للإفاضة في ذلك فحسبنا نعي القرآن الكريم - والقرآن الكريم هو جوهر ووجدان أمتنا - للأعرابية في مظان متعددة<sup>٢</sup> .

يدعم ذلك ويقويه موقف الرسول في أكثر من حديث ، مثل قوله بعدم جواز شهادة البادي على الحاضر ، ومنعه الهجرة إلى البادية ، حتى اعتبر ذلك من الكبائر ، وهذا ما يتضح من حديث الحجاج بن يوسف الثقفي مع سلمة بن الأكوع عندما هجر الأخير الحاضرة إلى البادية ، قوله له : لقد ارتدت عن دين رسول الله ﷺ .

وأخيراً وليس آخراً ، امتناع عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن قبول الحليب هدية من أم سنبله لأن الرسول نهى عن أكل الطعام من الأعراب .

لقد انبرى الدكتور محمد عمارة لتحليل الامبراطورية العربية الإقطاعية في حديث مطول بحتزئ منه ما يلي :

---

<sup>١</sup> مقدمة مجلة الاجتهاد ، العدد السابق

<sup>٢</sup> من ذلك قوله تعالى : ( قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ) (الحجرات: ١٤)

١- إن الغلبة كانت لعوامل التقارب والتوحيد في أمتنا وإن النمو كان من نصيب الأنسجة التي شدت خيوط بعضها إلى بعض رغم عوامل التجزئة .

٢- إن الحركات الثورية والتيارات الفكرية التي كانت أداة صهر وبلورة وتوحيد للجماعة العربية يوم أن كانت بيضاً وسوداً وحمراً ، وحينما كانت عرباً وموالي ، بل قيسية وبمنية يجب ألا ترتد أو تبقى عقبة رجعية تقيم أسباب الفرقة .

٣- كان التجار العرب جاليات كبيرة تحترف التجارة ، وتقيم المستعمرات وتسكنها ، وتعمرها على الشاطئ الشرقي لأفريقيا والشاطئ العربي للهند ، وفي مختلف الجزر الهندية ، وفي المدن التجارية بالصين ، وأيضاً في قلب أفريقيا ، كانوا عماد القوافل التي كانت تتحرك وتجوّب تلك المنطقة الكبيرة من الشرق إلى الغرب وبالعكس ومن الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، وهم كانوا بيوت التأمين على هذه القوافل وأصحاب الخانات والفنادق ، والمحلات العامة والمتاجر ، وما يرتبط بها من أعمال ومهام<sup>١</sup>

٤- لما انتفض جسم الإمبراطورية العربية بالحركات الثورية ، فقد انتفض هذا الجسم ، بل واهتزت روحه بحركة ثقافية عارمة وحركة فكرية ، ومد علمي ، أنقذ الإنسانية من تهمة الإفلاس والجذب خلال مرورها بالعصور الوسطى<sup>٢</sup> .

٥- لقد كانت الأمة العربية - في العهد العثماني - مجتمعاً ترابطت أجزاؤه إلى حد محسوس على وجه العموم رغم سوء طرق النقل والمواصلات .

---

<sup>١</sup> كتابه فجر اليقظة القومية ج دار الوحدة ط ٣ / ٩٨٩ / بيروت / ص ٢٤٠ وما بعدها

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٢٠١

٦- إن هذه المركزية في الامبراطورية العربية الإقطاعية تقوم على حقيقة مادية موضوعية

وطبيعية هي التي دعمت من الوحدة والمركزية في الجوانب الروحية والمعنوية<sup>١</sup>.

٧- وهذه المركزية والترابط عميقة الجذور في أمتنا ، ومظهر ذلك الحضارات الزراعية التي

قامت في أحواض الأنهار ( النيل - دجلة - الفرات - بردى - اليرموك )<sup>٢</sup>.

٨- إن المجتمع الاقطاعي العربي يختلف عن نظام الاقطاع الغربي الذي يقوم على وحدات

انتاجية مستقلة ، بل يختلف بأنه سمح في أحشائه لنمو القوى الاجتماعية وللقيم

التوحيدية<sup>٣</sup>

٩- إن جدية الأخطار الخارجية التي تعرض لها المجتمع العربي وقسوة نتائجها وطول

الفترة الزمنية التي استمرت فيها هذه الأخطار ( الصليبيون ، المغول ) دفعت العرب

نحو جمع الشمل والارتفاع إلى مستوى الموقف والمسؤوليات ، وفي الوقت نفسه فقد

كانت عاملاً واعياً للنمو المبكر والقوي للمشاعر القومية التي شهدتها المجتمع

العربي .

## البحث الخامس

### أقسام الجزيرة العربية

لاشك أن الغاية من هذا البحث هي كشف الستر المخبوء عن تلك البلورة لأمتنا بوصفها

جماعة بشرية تتأطر في مدلول جغرافي ، علماً أن هذا التقسيم قام على يد اليونان واللاتين

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٢٢٤

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٢٢٧

<sup>٣</sup> المرجع السابق ص ٣٢١

، وذلك في القرن الأول للميلاد<sup>١</sup> ، وهو لا يتفق مع منجزات الدراسات الحديثة التي كشفت ما كان مستوراً ، وأجلت ما كان مكنوناً مؤكداً أن السومريين والساميين تغارسوا في جذع العروبة ، ونبتوا في الجزيرة العربية ، مثلت العروبة ووطن الساميين<sup>٢</sup> .  
وفيما يلي صورة مبسطة لهذا التقسيم :

الفرع الأول : العربية السعيدة : ARABIA BEATA

وتشمل المناطق التي يقال لها حالياً جزيرة العرب ، وتبدأ حدودها الشمالية من مدينة هيروبوليس على مقربة من السويس ، ثم تسير حدود العربية الحجرية مختزقة الصحراء حتى تتصل بمناطق الأهوار ، ومصب شط العرب<sup>٣</sup>

الفرع الثاني العربية الصحراوية : ARABIA PETRA

وتشمل البادية العربية الفاصلة بين العراق والشام ، بحيث يكون نهر الفرات حدها الشرقي حتى الالتقاء بالعربية السعيدة<sup>٤</sup> .

أما حدها الشمالي فيشمل المناطق الصحراوية المصاوبة للأرضين الزراعية لبلاد الشام والخارجة عن متنازل جيوش الرومان أو اليونان<sup>٥</sup> .

أما ديودورس ، فقد جعل مملكة تدمر حدها الشمالي والشمالي الشرقي<sup>١</sup> .

---

<sup>١</sup> د- حتى : تاريخ العرب ص ٧٥

<sup>٢</sup> جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ج ١ ، ص ١٦٧ وانظر د . حسن ابراهيم حسن : تاريخ

الإسلام ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ط ٧ ص ٩٦٤ ج ١ ص ٤

<sup>٣</sup> STROBO : VOL .3 ; P:309

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ١ ص ١٦٥

وهذه العربية كانت مأهولة بالقبائل العربية منذ مئات السنين قبل الميلاد ، وإن كان ليس لدينا نصوص تثبت ذلك قبل النصوص الآشورية ، حيث ظهرت في هذه النصوص باسم ( آراي ) ، كما سميت لدى البابليين باسم ( ماتو آري ) وأربايا عند السريان والفرس <sup>٢</sup> .

الفرع الثالث : العربية الحجرية

ولقد أشار العالم الجغرافي بطليموس إلى أنها تشمل بادية شبه جزيرة سيناء ، وما يتصل بها من فلسطين إلى الأردن ، ويظهر من وصف ديودورس أنها تقع شرق مصر وجنوب البحر الميت وشمال العربية السعيدة <sup>٣</sup> .

#### تقويمنا لهذا التقسيم

في هذا الصدد نسجل ما يلي :

- ١- إن أمتنا قطعت بتاريخ هذا التقسيم شوطاً بعيداً في التبلور والتشكل بدليل أن لها - على الصعيد الدولي - مدلولاً بشرياً واجتماعياً وثقافياً وجغرافياً.
- ٢- يتحدد هذا المفهوم بالحامل الزمني الذي تم فيه ، وبالطبع فقد استمرت أمتنا في التخلق والتطور لاسيما بالفاعل الإسلامي ، ونحن معنيين بتتبع هذا المدلول المتطور
- ٣- إن التقسيم الإسلامي الذي أخرج الأنباط من مدلول العرب قام على المفهوم الديني المؤسس بدوره على المفهوم اللغوي الضيق ، ألا وهو اللغة الصراح الفصحى .
- ٤- إن عبارة ( العربية السعيدة ) لم تكن لغواً ، وإنما تشير إلى حال مناخية وزراعية واجتماعية قائمة إبان إجراء التقسيم .

---

١ جواد علي ، ج ١ ص ١٦٥

٢. جواد علي ج ١ ص ١٦٥

٣ د. حتي : تاريخ العرب ص ٤٤



لنستمع إلى مارواه بلينيوس عن ايليوس غالوس ( القائد الروماني الذي غزا الجزيرة العربية ) قال : فاقت السبأى الجميع ثروة بما يتوافر في أراضيها من أدغال ذات عطور ومناجم ذهب وأمواه للري ، وهي تنتج العسل والشمع بكثرة ، ولو تحريت هذه الأقطار لعلمت أنها أغنى بلدان الأرض <sup>١</sup> .

٥- إن إلقاء نظرة خاطفة على المسافة الزمنية بين النص الآشوري الذي عرض للعرب عام ٨٥٤ ق.م وبين أجزاء هذا التقسيم ، هذا الإلقاء يؤكد الصعود التاريخي الواضح لأمتنا لاسيما ما يتعلق بكثافة وجودها في بلاد الشام والعراق ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الأول الميلادي - خلافاً لما كان إبان النص الآشوري - أصبحت العربية ذات مدلول جيوسياسي وجيواجتماعي محدد .

هذا ونشير إلى أن البحار المحلية بالجزيرة العربي أطلقت طاقات الإنسان العربي لترويض البحر وامتلاك ناصيته وركوب متن أمواجه في أكبر عملية تفاعل تاريخي مع العالم .  
والخلاصة فقيام الرسالة الإسلامية لم يكن إلا البيان الأبين على أهلية أمتنا الحضارية المقذوفه في جغرافيا تاريخية خصبة دلت على أهليتها الحضارية ، حيث قام في صلبها وعلى أطرافها حضارات عدة .

---

<sup>١</sup> د. حتي : تاريخ العرب ص ٧٨

## الفصل الثاني

### مقاربة الرس العربي العريق

#### مقدمة

الحاضر التاريخي لعلاقة العروبة بإسلام

(ومسألة التراكم التاريخي لتجربة للأمة العربية)

#### مقدمة عامة

ظهر راهنياً في فرنسا ظاهرة التفاف الضمير الفرنسي حول مدرسة الحوليات بصفتها تياراً فكرياً يعول على فلسفة التاريخ، كل ذلك على حساب الدراسات الفلسفية النظرية الصرف، وذلك لأن التاريخ هو الما صدق الأهم والمختبر الأساس للتحقيق من صدق الأفكار والمفاهيم وسلامتها.

وعلى ضوء ذلك كان اعتمادنا على الجذر التاريخي لموضوعنا إضافة إلى أسباب أخرى أهمها :  
- في المقام الأول - إن الحوار بين الإسلام و العروبة لم يكن حواراً عديمياً قائماً على المعجزة<sup>1</sup> ، بل على سنن الله في الاجتماع والاقتصاد و الحياة ، وإذاً فالعرب لم يعيشوا العطالة التاريخية ، بل كان لهم حضورهم التاريخي الملمى والكثيف على كافة الصعد التاريخية ، والحوار بين إسلام وعرب الجاهلية تحكمه قاعدة الشرارة الإلهية وبرميل البارود ، حيث كانت الأمة العربية

---

<sup>1</sup> د. محمد عابد الجابري : إشكالية الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ٩٨٩ ص ١١٦ - زكي الميلاد : المسألة الحضارية ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط ١ ٩٩٩ ،

هي ذلك البرميل وإلا لماذا لا يفعل الإسلام حالياً فعله ، ثم لماذا أختار الله أرض الجزيرة العربية مهداً لرسالتنا ، وأخيراً لماذا لم تنجح البيانات الأخرى في معانقة روح العروبة<sup>١</sup> .  
وهناك حقول كثيرة وقارات يجب استكشافها وارتياحها تاريخياً من أجل دراسة هذه الجدلية ، الأمر الذي يتعذر مقارنتها والإحاطة بجزئياتها إلا من خلال المولد- الدينامو التاريخي لاسيما أن هذه الجزئيات والزوايا التاريخية ، قد يتعذر تصنيفها في أبواب وثنايا ، والتاريخ وشهادته هي المعول الأساس لذلك .

أما منهجنا في دراسة هذا الحامل التاريخي فيتميز بأنه ليس دراسة تاريخية صرف تلهث وراء كل حدث تاريخي صغيره وكبيره ، وإنما ومع الحفاظ على صدق الحدث التاريخي ، فسيكون نظرة على التاريخ وقراءه لذاته وذاتنا القراءة الأولى - وهي قراءة المفاصل والدلالات والعبير- تستنطق أحداث التاريخ بموضوعية ، أما القراءة الثانية ، فتتغيا توظيف الحدث لمصلحة الدراسة .

وتحت عنوان (خطوات تأسيس النهضوي العربي) يضع أحد المفكرين شروط هذا المشروع الذي نجتزئ منه قوله :

قراءة تحليلية لمنظومة الحلم النهضوي العربي تاريخيا بمرحليته ، الأولى التي تميزت بظهور الحضارات الجليلية على كل الرقعة الجغرافية العروبية مع نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد ، والثانية مع انتشار التوحيد المعرفي الثقافي بتعبيره العربي من خلال الدولة العربية الإسلامية ، مع مناقشة نقدية تاريخية للعوامل المعرفية التي أوجبت وأدت إلى النهوض وآلية نجاحاته التي غيرت تاريخ البشرية والكون ، مع إيضاح العوامل الفاعلة في منظومة الأحلام

---

<sup>١</sup> عبد الإله بلقزيز : العروبة والإسلام ، مجلة المستقبل العربي عدد ٤ لعام ٢٠٠٠ ص ١٢٣

العربية ، وطريقة تعاملها مع الهزائم التاريخية التي حلت بالجسد العربي مع التركيز على سقوط بابل على يد كيرش الفارسي عام ٥٣٩ ق م ، وما تلاها من إعادة تكوين للهيكليّة العربية ثم سقوط غرناطة والغزو المغولي ، وما تلاه من إعادة خلق بيئة ثقافية معرفية قابلة للصمود و التماسك<sup>١</sup> .

وهكذا يتضح من هذا الرأي أنه يطابق بين السامية والعروبة ، ونحن مع هذا الرأي موقنين بأن الوطن العربي كتلة ثقافية واحدة وأرومة حضارية واحدة ، والعروبة إن لم تكن أصل السامية فهي توأمها ، وقد حدث تداخل وتشابك وتفاعل ثقافي على أرض وطننا العربي بين الشقيق وشقيقه ، الأمر الذي يتعذر فصله بمعنى أنه في إطار الجسم الواحد هنالك بعض الخلايا الخاصة أو بعض المفاصل ضمن البنية الواحدة ، وهذا ما أكدّه محب الدين الخطيب- وهو أحد أعلام النهضة الذين تأثروا بمحمد عبده - بأن معجزة التوحيد الإسلامي الاجتماعيّة- السياسة تمثلت أيضاً في إعادة الوحدة القومية واللغوية للشعوب السامية ، حيث أصبحت اللغة العربية لغة جميع الساميين ، كما كانت اللغة السامية الأولى لغتهم الوحيدة قبل التشتت والانقسام ، وكذلك في إعادة الوحدة إلى القبائل العربية وإلى اللغة العربية بالذات التي كانت لهجاتها المتعددة المتباينة في القبائل المختلفة مظهراً من مظاهر الفرقة والضعف القومي في الأمة العربية<sup>٢</sup> .

---

<sup>١</sup> جمال الخضور : المشروع القومي العربي مقارنة أولية نقدية للأسس والآفاق ، مجلة الفكر العربي

السياسي ، دمشق ، شتاء ٢٠٠٠ ص ٧٩

<sup>٢</sup> مقاله المنشور في مجلة الزهراء الموسوم بعنوان سلطان اللغة العربية ، مجلد ٢ ص ١٤٩

وهذا ما أكده الأستاذ عبد الرحمن شهيندر بقوله : إننا نظرب لسماع أسماء مثل صعصعة وأبي كرب وأذينة والزبلاء والحارث مطمورة تحت أنقاض بابل واليمن و تدمر ووادي عاموس من ألوف السنين ، وإن العرب بنوا المدائن في صقارة ورفعوا الكرتك منذ انبثاق فجر التاريخ هم ذو أصول عربية<sup>١</sup>

وعلى هذا فمن المتعذر تتبعنا في هذا الكتاب التاريخ الثقافي والسياسي والاجتماعي للعروبة بالمعنى الواسع الذي يعني السامية ، بل سنقتصر على المدلول الضيق الذي سبق تحديده ، وإن كان يمكن القول إن هذه الانتشار الكبير للكتلة السامية ضمن رقعة جغرافية واسعة دفع بها للتفاعل مع الحافات والأرض ، فظهر هذا التمايز دون الاختلاف ، وإن كانت الكتلة الأم الجزيرة بقيت محتفظة بخصائصها آخذة - بسبب المنعة وعدم الاختلاط - بالصقل والتبلور ونشوء النموذج المثال .

وكما قلنا ليس موضوع هذا الكتاب البحث في التاريخ العربي ، إنما معانقة وتلمس عراقا أمتنا ، عراقا وأصالة تمضي بها إلى أعماق الحياة والتاريخ وبآلية استجابة حية وموضوعية لظروف الطبيعة والصيرورة الوئيدة الهادئة ، كل ذلك يؤكد أن أمتنا نبتة طبيعية انبثقت من أعماق الحياة والتخلق الهادئ المستمر المتصل والمتراكم<sup>٢</sup> ، والتشكل البنيوي ، حيث توفر لها ما يسمونه العمر التاريخي أو الزمن الاجتماعي اللازم للنشوء الحي ، هذا العمر القائم على الانصهار والبوتقة والتخلق ، وخلق العروق والشرابين وعرى الاتصال والنشوء والارتقاء .

---

١ د . احمد حسن الزيات : مقال بعنوان قوميون وعرب منشور في قراءات في الفكر القومي العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ١ ، ٩٩٤ ، ص ٢٣

٢ د . محمد عمارة : فجر اليقظة القومية ص ٢١ و ٤٧ وقد لفت الانتباه إلى هذا التصور الساذج في اذهان البعض عن الأمة العربية قبل الإسلام

وها نحن ماضون في مقارنة هذا الزمن العربي العريق ، وتتبع مراحل التراكم الحضاري الاجتماعي لأمتنا واستقراء هذه الأصالة وزواياها وثناياها وتحليلاتها التراكمية التجاوزية والإحصائية .

سنقسم هذا الفصل إلى الأبحاث الآتية :

- جزيرة العرب في الأدوار الجيولوجية .
- الجزيرة العربية في عصر الأمومة .
- العرب البائدة والعارية والمستعربة .
- المدلول التاريخي لكلمة عرب .
- دول ومجتمعات أبناء اسماعيل .

### البحث الأول

#### جزيرة العرب في الأدوار الجيولوجية :

الموارد هنا شحيحة ، وإن كانت أحشاء جزيرتنا تتيح لنا يوماً بعد يوم رصد المزيد من مظاهر العمران الخبيثة .

وفي الحقيقة لقد تم العثور على أدوات حجرية وعلى فأس في موضع ( الدوامي ) الذي يبعد ٣٧٥ ميلاً عن الخليج ، كما عثر على أدوات حجرية في الأحساء وحضرموت ، وقد تبين أن هذه الأدوات صنعت من أحجار العربية الغربية ، كما اتضح أن الأدوات الحجرية التي عثر عليها في اليمن وحضرموت هي من النوع المستورد من فلسطين وبلاد الشام<sup>١</sup> ، وهذا يعني أن هنالك تفاعلاً عميقاً بين أرجاء الجزيرة العربية منذ هذا الزمن السحيق .

---

<sup>١</sup> د. جواد علي ج ١ ص ٥٣٠

ولقد عثر في الكويت والبحرين وحضرموت وفي مواضع أخرى من أنحاء العربية الجنوبية ، عثر على آثار متنوعة تنتمي إلى العصور الباليوثيكية والنيوليثية <sup>١</sup> .

وذهب ( فيلد ) إلى أن اليمن وعدن كانتا مأهولتين بالسكان في العصور النيوليتية ، وقد هاجر قسم من سكانها إلى عمان والخليج وفلسطين والأردن وسيناء ، كما هاجر بعضهم بطريق باب المندب إلى الصومال وكينيا وطنجنيكا ، ولقد عثر في كلوة ( في سفح جبل الطبيق ) على آثار من العصور الباليوليكيتية القديمة التي تمتد إلى الألف الثانية قبل الميلاد <sup>٢</sup> ، كما عثر في موضع يقع بين وادي يبعث ووادي عربة على كهوف رسم على جدرانها صورة الشمس والقمر ، وهذا يدل على قدم عبادة الشمس والقمر .

وذهب بعضهم إلى أن جزيرة البحرين في العصور الجليدية المتأخر في أوربا كانت مأهولة بالسكان ، وهذا العصر يمتد إلى خمسين ألف سنة ، كذلك فإن ساحل الخليج كان مزدحماً بالسكان في العصور البرونزية (حوالي ٣٠٠٠-٢٥٠٠ ق م )

ولقد عثر على أدوات من العصور الباليوثيكية في موضع رأس ( عوينيت ) في شبه جزيرة قطر <sup>٣</sup> ، وذهب الباحثون إلى أن مناخ البحرين يشبه مناخ اليونان حالياً ، وأن أراضيها كانت مخصبة خضراء ومغطاة بالغابات ، وكان أهلها صيادين استخدموا أدواتهم المصنوعة من حجر الصوان والتي تنتمي إلى العصور الباليوثيكية <sup>٤</sup> الممتدة إلى اثنتي عشرة ألف سنة قبل الميلاد ، وكما عثر على أدوات لحصد المزروعات وقطع الحشائش <sup>١</sup> .

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٥٣٢

<sup>٢</sup> جواد علي /ج ١/ ص ٥٣٢

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٣٤

<sup>٤</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٣٤

ويتضح من هذه الآثار أن البلاد العربية كانت مأهولة بالسكن منذ العصور الباليوثيكية الحجرية المتقدمة ، وهذه الآثار من النوع الذي عثر عليه في جنوب فلسطين <sup>٢</sup> .

وفي العربية الجنوبية والغربية جبال ترصعها كهوف اتخذ بعضها معابد مقدسة للخلوة والتأمل الروحي ، وبعضها مقابر ومن بينها منازل لأجداد منذ آلاف السنين <sup>٣</sup> .

وعثر في البحرين على هيكلين عظيمين وضعا على الجانب الأيمن ووجههما نحو الشرق ، ولقد امتدت هذه العادة في العراق حتى الألف الثالث قبل الميلاد <sup>٤</sup> ، ثم أخذ بها الإسلام وطورها .

وعثر في البحرين على تلال صخرية قديمة جداً حفرت بها غرف لتكون مقابر جماعية ، وقد قبر بها الحيوان ليكون مطية للإنسان في العالم الآخر ، كما وجد في هذه المقابر جرار تشبه الجرار الحالية حيث كان الخزاف يضع الطين على قرص دولاب يدار بالأرجل ، كما عثر على قشور بيض النعام استعملت كؤوساً للشرب <sup>٥</sup> .

ولقد عثرت شركة أرامكو على عدد كبير من هذه المقابر في جبل المذرى ، وهذه القبور - المستندة إلى ألوف السنين - تشبه القبور التي عثر عليها ( فيلي ) في الأقسام الجنوبية الغربية من الجزيرة <sup>٦</sup> .

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٣٥

<sup>٢</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٣٥

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٣٦

<sup>٤</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٣٦

<sup>٥</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٣٦

<sup>٦</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٣٧



وعشر فيلي في شمال مكة ( موقع الموية ) على مقابر ، وقد أكد المذكور أن هذا الموقع كان أهلاً بالسكان ، ورد ذلك إلى أيام الفينيقيين الذين سكنوا الأفلاج والخرج ، ثم هاجروا إلى البحرين ، ويرى بعضهم أن المقابر المنكشفة في البحرين هي مقابر رؤساء الفينيقيين ، التي تعود إلى ٣٠٠٠ سنة ق.م .

ولقد عثرت البعثة الدنماركية في البحرين على مقابر ترجع إلى العصور الحجرية ، كما عثر في أبي ظبي على مقابر تعود إلى الألف الثالث ق.م ، حيث كسيت بحجارة منحوتة حفر عليها صور ثيران وجمال وأفاعي ، وقد أفصحت روابط فكرية مشتركة وعقيدة دينية واحدة ، وتحدثت عن أيد بارعة صنعت الأواني الفخارية والحلي .

ولقد كشفت بعثات المسح الأثري في سواحل عمان على عشرات المستوطنات البشرية التي تعود إلى الألف الأول ق.م ، ومعظمها ذو بناء مركزي مسور بالحجارة الضخمة ، حيث تدل آثارها على أنظمة زراعية متقدمة ، وقد بنيت لها الأبراج والسدود ، وفي بعضها مواطن للتعدين وصهر النحاس مع شواهد عديدة للعلاقات التجارية .

ولقد تميزت كل مواقع الحضارة في الخليج وعمان بالملاحة التجارية وبعلاقاتها مع حوض السند والرافدين ، حيث كانت سفنها تحمل الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأصداف والنحاس والنسيج واللؤلؤ والأواني الفخارية والحجرية والنحاسية<sup>١</sup> .

هكذا يؤكد جورج حوراني أن العرب لم يغيبوا عن البحر الأحمر والمحيط الهندي منذ القرن الثالث الميلادي فقد أبحر عرب عمان والخليج العربي قبل الإسلام من البحر الأحمر وبحر العرب باتجاه الشواطئ البعيدة لشرق إفريقيا والشرق الأقصى ، أما الحميريون والسبئيون والأنباط ،

---

<sup>١</sup> د.جواد علي ج ١ ص ٥٤٠

فقد مضوا عبر البحر الأحمر إلى سواحل شرق أفريقيا ، وهناك ما يدل على وجود تجارهم من موانئ سيلان والصين في القرن الثالث الميلادي <sup>١</sup> .

ويستدل من تلك المكتشفات السابقة أن شعوب الجزيرة كانت منذ حقب سحيقة على اتصال مع القارة الأفريقية وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وأنها كونت مع العراق وبلاد الشام وحدة اجتماعية وطبيعية ومرد ذلك العامل المناخي .

ويؤكد كيتاني أن بلاد العرب كانت جنة في الدورة الجليدية ، ثم بقيت محافظة على بهجتها ، وهذا هو السر وراء تلك الصورة الجميلة التي رسخت في مخيلة التوراة عن جنة عدن الموجودة فيها ، لكن التغيير حدث منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد ، وإن كان لم يظهر إلا منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد <sup>٢</sup> .

## البعض الثاني

### الجزيرة العربية في عصر الأمومة وفي الحقبة الطوطمية

خلاصة هذه النظرية التي وضعها كيتاني أن القبائل البدائية اتخذت الحيوان أو النبات أو الكواكب أياً رمزاً يحميها عند الملمات .

ومن المؤكد أن الجزيرة العربية مرت بهذا الطور الحضاري ، فقد كانت ترحم لمس الطواطم ( أو التلطف به ) لذلك كنوا الأسد أبا الحارث ، والثعلب ابن آوى والضع أم عامر <sup>٣</sup> ، وكان إذا

---

<sup>١</sup> د. رضوان السيد : التجارة العربية والإسلامية في البر والبحر ، مجلة الاجتهاد عدد ٣٦ السنة ٩ عام

٩٩٧ ص ٢٧٨

<sup>٢</sup> د. جواد علي ج ١ ص ٥٢٨

<sup>٣</sup> التبريزي : شرح الحماسة / بولاق / مصر / ص ٢٥

مات غزال لدى بني الحارث حزنوا عليه وكفنوه ودفنوه ، وهكذا اندفعت القبائل تسمي نفسها بني يربوع وبني نعامة وبني ضبة وبني كلب الخ ..<sup>١</sup> .

ويرى سميث وباخ أوفن أن الجزيرة العربية عاشت دور الأمومة التي يرجع النسب إلى الأم<sup>٢</sup> ،  
بدليل تلك التسميات المؤنثة للقبائل : مدركه - ظاعنة - جديلة - مرة<sup>٣</sup> .

ولقد مر العرب بدور ( الفيشتية ) التي هي عبادة الأشياء المادية كالحجارة لاعتقادهم بوجود أرواح فيها<sup>٤</sup> .

### البعض الثالث

#### العرب البائدة والعاربة والمستعربة

تؤكد موسوعة ( بهجة المعرفة ) أن التاريخ الأقدم للجزيرة العربية مجهول في معظمه ، وأن اصطلاح ( العرب البائدة ) الذي استخدمه النسابون الإسلاميون ليدلوا به على الجماعات العربية القديمة التي انقرضت ، هذا التاريخ لا يقوم إلا على معلومات أسطورية عن العهود القديمة<sup>٥</sup> .

لهذا السبب سنكتفي بالإلماحة البسيطة إلى العرب البائدة محيلين القارئ إلى مظان ذلك في كتب التاريخ ، وإن كنا نشير بصورة عابرة إلى أن الإخباريين اعتبروا طمساً وجديساً من

---

<sup>١</sup> برهان الدين دلو : جزيرة العرب قبل الإسلام / ص ١٤٣

<sup>٢</sup> جواد علي / ج ١ / ص ٥٢٨

<sup>٣</sup> جواد علي / ج ١ / ص ٥٢٢

<sup>٤</sup> برهان الدين دلو / المرجع السابق ص ١٤٣

<sup>٥</sup> إصدار الشركة العربية للنشر والتوسيع والإعلان / المجموعة رقم ٣ / مسيرة الحضارة / ص ١٤١

العرب البائدة ، ونسبوا إليهما قرى ومدن كانت عامرة بالسكان ، كما نسب إليهما قصر المعتق في اليمامة ، ثم قرية حجر ، ثم حصن جعدة ، وهذه الآثار بقيت إلى أيام الهمداني الذي وصفها في كتابه جزيرة العرب <sup>١</sup> .

ويدخل الإخباريون في مجموعة العرب البائدة قوم عبيل وهؤلاء سكنوا في يثرب إلى أن أخرجهم منها العماليق ، وقد أكد علماء التوراة أن كلمة abol الواردة في التوراة هي عبيل ، ويرى النسابون أن جرهم الأولى من العرب البائدة ، وأن في تلك المجموعة أيضاً عاداً وثموداً والعمالقة .

ولقد جاء ذكر العمالقة في التوراة ، فهم أول شعب اصطدم مع العبرانيين عندما خرجوا من مصر إلى فلسطين ، وظل العمالقة يحاربونهم ويكبدونهم ، وكانت منازلهم تمتد من حدود مصر وطور سيناء إلى فلسطين <sup>٢</sup> ، وهذا أكبر دليل على عراقاة أمتنا وضحالة دعاوى الصهيونية .

ولقد عرض أهل الأخبار لحضور الذين أقاموا في الرس ، وبعث فيهم النبي شعيب عليه السلام <sup>٣</sup> ، وقد عرض القرآن الكريم لذكرهم <sup>٤</sup> ، ويرتبط اسم هود بقوم عاد ، كما يتضح من قوله تعالى : (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (الأعراف: ٦٥) .

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٣٤٤

<sup>٢</sup> جواد علي ج ١ ص ٣٤٧

<sup>٣</sup> البلدان ٢٥/٤

<sup>٤</sup> سورة ( ق )

ويتفق الاخباريون على أن العرب المستعربة ينتمون إلى اسماعيل وزوجته رعلة ، وقد عاشوا في جرهم الثانية<sup>١</sup> .

ولقد أدخل في العرب المستعربة القبائل النازلة في بلاد الشام ، وفي سيف العراق جنوب نهر الفرات ، ويشمل ذلك القبائل النازلة على طريقي القوس الذي يحيط بحدود الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية ، ويستدلون على ذلك بقول عدي بن زيد العبادي لخالد بن الوليد : بلى لقد تعرب لساننا<sup>٢</sup> .

هذا وإن استقراء عاماً لنظرية القحطانية والعدنانية ونظرية العرب العاربة والمستعربة يحدونا لتسجيل الملاحظات الآتية :

١- إن نظرية القحطانية والعدنانية عاجزة عن استيعاب حركة الانتقال والتداخل بين القبائل ، إضافة إلى تفسير عملية الصهر التاريخي الأكبر والبوتقة الفذة التي جرت في حضارة الجزيرة العربية ، وهذا ما يتضح من انتقال قبيلة عك إلى اليمن وخضوعها لظروف الأرض وحسها ، ثم عجز نظرية النسب في فهم هذه الظاهرة وردها إلى اعتناق النسب اليمني ، والأرجح أن النسابين وضعوا هذا التقسيم في العصر الأموي متأثرين في ذلك بالتوراة<sup>٣</sup> .

٢- ونظرية النسب أكثر عجزاً حيال تفسير ظاهرة العرب البائدة ، لذلك لم يكن أمامها سوى ربطهم بالإرميين واللوريين والعوصيين ، وبأهل الزمان الأول ، وغير ذلك من

---

<sup>١</sup> جواد علي / ج ١ / ص ٣٩٠

<sup>٢</sup> خبر أورده الطبري وهو جواب لقول خالد : ويحكم لم تنقمون منا ... جواد علي / ج ١ / ص ٥١٠

<sup>٣</sup> جواد علي / ج ١ / ص ٥٠٨

مظاهر الربط الغامض والعارض ، ولعل السبب الرئيسي هو عمق جذور هذه الأمة في أعماق التاريخ .

٣- إن ربط أمتنا بإرم وسام ونوح هو ربط عرقي دموي يتعارض مع نشأة أمتنا التاريخية الاجتماعية لاسيما أن الجزيرة العربية لما تبح حتى تاريخه عن كافة مكونات قلبها ، كما اتضح لنا من آثار اليمن المنسوبة إلى العرب البائدة ، علماً أن العماليق هم عرب صرحاء .

٤- إذا كان من الصعب ضبط نظرية العرب البائدة إلا أن ذلك لا يلغي ما توضع في العقل الجمعي العربي من وجود أقوام عربية عاشت في الزمن السحيق ، لاسيما إذا علمنا أن الجزيرة العربية تعرضت للكثير من الزلازل والبراكين .

٥- إن وحدة كينونة أمتنا يرفض هذا الانقطاع الذي تمثله نظرية العرب البائدة ، ويتناق مع فاعليتها ووحدتها وكليتها وصيرورتها الدائمة ، ومرد هذا الانقطاع عجز الاخباريين والنسابين عن إدراك هذا النسب .

سنعرض في المستقبل إلى أن العروبة أخذت مفهوماً جديداً لا يتحدد بالانتساب إلى قحطان أو عدنان ولا بالتعصب إلى عرب وأعراب ولا عرب بائدة وأخرى عاربة ، ولا بالسكن في الجزيرة العربية ، وإنما على قاعدة ثقافية ولغوية تتفق مع المدلول القرآني ، ومع المفهوم الذي حدده الرسول ﷺ بأن العربية هي لسان<sup>١</sup> .

لكن ماهي نظرية النسب التي سبق الإشارة إليها؟؟..

قبل التعرض إلى ذلك لابد من إجراء مقارنة بسيطة للمدلول التاريخي لكلمة عرب

---

<sup>١</sup> المزهرة العروس : ٣٥٢/٢ - اللسان : ٧٥/٢

## البحث الرابع

### ظهور كلمة عرب والأطوار الاجتماعية للأمة العربية

تأكيداً للمنهج التاريخي الموضوعي الاجتماعي الذي حكم سيرورة أمتنا ، فإننا نعرض لظاهرة كلمة ( عرب ) بوصفها جهازاً مفاهيمياً حياً لما تخضع له ظواهر الحياة من التمدد والتقلص ارتقاء للوصول إلى مرحلة التعبير عن كلية تجربة أمتنا باعتبارها شخصاً تاريخياً عاماً .

ماهي مراحل تخلق هذه الكلمة ؟؟..

ويعنى أوضح فالسؤال يثور حول ولادة هذه الكلمة ، أي متى ولدت : synchronique ، ثم ما هي التطورات التي خضعت لها حتى استوت على أقدامها ، وأصبحت مدلولاً لقوم معين وأمة محددة هي الأمة العربية ، وهو ما يسمى في علم الألسنيات ( السيمانتيك ) :

diachronique

ويؤكد الاخباريون أن ( يعرب ) جد العرب أول من تكلم العربية ، وأن اسماعيل جد العرب المستعربة هو أول من تفتق لسانه بها ، وألهم بها إلهاماً<sup>١</sup> ، وبالتالي فهو أول من نطق بالعربية الخالصة التي أنزل بها القرآن .

وبالطبع فهذا التفسير الواقعي لا يتفق مع المنهج التاريخي الاجتماعي الذي يفسر اللغة بصفتها معطى واقعياً .

---

<sup>١</sup> جواد علي : ج ١ ص ١٥

ولنا أن نتساءل إذا كان سيدنا آدم أول من تكلم بالعربية ، فهل بقيت هذه اللغة محنطة عبر الأجيال دون أن يمسها أي تغيير ، وبالمقابل إذا كان يعرب جد العرب ، فمن هو أبوه وجده ، وهل هبط من السماء؟؟...

ثم كيف لنا أن نتصور ذلك المصنع المنطقي الذي أنجز هذه العربية الخالصة ، وأفهمها إلى اسماعيل ...

هذا الفكر الغيبي اللاتاريخي فتح الطريق لاحقاً للفكر العلمي الموضوعي لاسيما بعد تفكيك شيفرة لغة المسند ، وبعد أن أفصحت طبقات الأرض عن حبيئها من الآثار ، وهكذا تطالعنا الوثائق الآشورية أن كلمة ( عرب ) ظهرت في اللوح المسماري الذي تركه الملك الآشوري شلمنصر الثالث <sup>١</sup> / ٨٥٨-٨٢٤ / ق.م على أثر انتصاره سنة ٨٥٤ ق.م على تحالف ملوك آرام بزعامة بن حدد ملك دمشق ، وكان بنصرة الأخير قائد عربي اسمه نصره أسهم في المعركة بألف مقاتل يمتطون الجمال ، وبالطبع فالوجود العربي هنالك أقدم من ذلك بكثير ، ونحن نرى ملامحه خلال الألف الثاني ق.م في قصة ابراهيم واسماعيل وبناء البيت ، وفي قصة موسى وزوجته من مدين <sup>٢</sup> ، كما ظهرت في الكتابات البابلية باسم ( ماتو أربي ) أي أرض العرب .

---

<sup>١</sup> د. جواد علي : ج ١ ص ١٤

<sup>٢</sup> بحجة المعرفة / المرجع السابق ص ١٢٢



ولقد وردت كلمة عرب في الموارد الفارسية باسم أريابة<sup>١</sup> ، وبالطبع فالمدلولات السابقة لم تكن تعني اسم لقوم معين ، بل هي وصف اجتماعي جغرافي للقبائل التي تسمن البادية<sup>٢</sup> .

أما الموارد العبرية ( سفر أشعيا وسفر أرميا والتلمود ) فقد استعملت تعبير اسماعيليين للدلالة على العرب<sup>٣</sup> ، ولقد وردت الكلمة لأول مرة لدى اليونان عند أجيلوس ٥٢٥-٤٥٦ ق.م ، ثم جاء شيخ المؤرخين هيروودوت ( ٤٨٤-٤٢٥ ق.م ) فتحدث عن تاريخ العرب<sup>٤</sup> ، وليس لدينا في الكتابات الجاهلية العربية الشمالية نص يذكر كلمة العرب سوى النص المنسوب إلى امرئ القيس بن عمرو ، وهذا يعود إلى سنة ٣٢٨ م<sup>٥</sup> ، وتحفنا النصوص العربية الجنوبية بنصوص عدة تعرض لكلمة عرب :<sup>٦</sup>

- أعرب ( أعراب ) ملك حضرموت .
- أعرب ملك سبأ .
- ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها .
- نص أبرهة نائب ملك الحبشة على اليمن<sup>٧</sup> .

---

<sup>١</sup> د. جواد علي : ج ١ ص ١٥٠

<sup>٢</sup> د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ العرب ص ١

<sup>٣</sup> قاموس الكتاب المقدس : ٢٠ / ٨٨ و جواد علي : ج ١ ص ٢١

<sup>٤</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢١

<sup>٥</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٣

<sup>٦</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٣

<sup>٧</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٣

فهذه الموارد لم تكن تقصد القوم أو الجنس العربي ، بل سكان البادية ، أما أهل المدن فقد عرفوا بمدنهم ، لهذا قيل : سبأ - همدان - حمير <sup>١</sup> .

ولقد استعمل القرآن الكريم كلمة الأعراب قاصداً سكان البادية <sup>٢</sup> ، كما استعمل كلمة عرب باسم القوم العربي .

ويرى ميلر أن القرآن الكريم هو أول من استعمل المعنى الأخير ، وهذا الرأي مرجوح بدليل تردد هذه الكلمة في الأدب الجاهلي ، ولنا أن نتساءل إذا كان القرآن الكريم أول من استعمل ذلك ، فكيف نخطب قوماً بهذه الكلمة غير المعروفة لديهم ، علماً أن في الآيات القرآنية ما يدل بصورة واضحة على أن القوم كانوا يدركون ذلك <sup>٣</sup> .

والأمر نفسه إذا اعتمدنا علم الإثنولوجيا أو الانتربولوجيا ، فهناك اختلاف في الملامح الجسدية والنفسية واللغوية بين القبائل العدنانية أو القحطانية ، ذلك أن سحنة القحطاني الساحلي مثلاً تختلف عن سحنة الذي يسكن المرتفعات والجبال ، والأمر نفسه بالنسبة لوجود أناس في حضرموت يشبهون جماعة الفيذا الهندية ، وهذا يفسر ما ذكره الاخباريون بأن جماعة من بني الحارث وفدوا إلى الرسول ﷺ ، فقال عنهم من هؤلاء الذين كأنهم من الهند .

هذا ونشير إلى أن علماء الأنساب تكلموا عن التشكلات الاجتماعية وفقاً لما يلي :  
(شعب - قبيلة - عمارة - بطن - فخذ - فصيلة ) ...

---

<sup>١</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٣

<sup>٢</sup> التوبة / ٩٧ و ١٠١ / - الفتح / ١١ / - الحجرات / ١٤ /

<sup>٣</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٤

والظاهر أن كلمة الجذم أو الشعب ظهرت عند اختصار الفكر القومي وتخطي الطور القبلي ، ولا أدل على ذلك أن القرآن الكريم استعمل كلمة شعب قبل كلمة قبيلة <sup>١</sup> ، كما أن كثرة استعمال هذه الكلمة لدى المستقرات الحضارية في اليمن تؤكد هذا التطور ، حيث تم تقسيم القبيلة إلى : أربعين - ثلثين <sup>٢</sup> .

ولا ننسى أن التجذر في اليمن تم على محور ديني ، وذلك باستعمال عبارات : ولدود - ولدعم ( شعب ) - ولد المقه <sup>٣</sup> .

وحقيقة الأمر أن حفراً واستقصاء في بنية الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية يؤكد لنا الحضات والرضات والزلازل والتصدع الكبير لبنية القبيلة بوصفها إطاراً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وحيداً للحياة .

فقد خضعت الحياة في الجزيرة إلى نمط الاستقرار الانتشاري الذي أدى إلى انقسام القبيلة المستقرة إلى وحدات متناثرة إلى عوائل - أفخاذ - أفراد مما اضطر هذه الوحدات المتناثرة - لأسباب عدة - إلى النزوح وإعادة الاستقرار في مناطق مختلفة ومع عوائل من قبائل وانتماءات مختلفة حتى أن الذين اضطرتهم ظروف الحياة آنذاك إلى الاستقرار لاحقاً في القبائل المترحلة تأثروا بهذا النمط الانتشاري للاستقرار <sup>٤</sup> ، نتيجة لذلك فقد انقسمت القبيلة وتفككت منطقتها الجغرافية لتصبح منطقة يسكنها أناس من مختلف الانتماءات الاجتماعية .

---

<sup>١</sup> ( وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ) (الحجرات: من الآية ١٣)

<sup>٢</sup> وردت في صيغة شعبين أو شعبي لأن الميم أو النون هما للتعريف

<sup>٣</sup> جواد علي : ج ١ ص ٣٣٧

<sup>٤</sup> خالد الدخيل : الجذور الاجتماعية للحركة الوهابية / مجلة المستقبل العربي / عدد ٧ / ٢٠٠٠

وهكذا فالتاريخ السياسي والاجتماعي للجزيرة العربية ، تم في سياق عمليات اجتماعية: هجرة ، استقرار ، نزوح ثم إعادة استقرار ، ظهور المدن ، وبالتالي يمكن تقسيم هذا المسار الاجتماعي السياسي إلى الخطوات الآتية <sup>١</sup> :

- مرحلة الانتماء إلى القبيلة ، كما تمثلت في نمط الاستقرار القبلي الجماعي .
- مرحلة الانتماء إلى المكان ، كما هو واضح في نمط الاستقرار التشيئي الذي أفضى بدوره إلى ظهور مجتمع المدن المستقلة ، وتبلور النزعات الجهوية والاقليمية ، وإن بروز حال الانتماء إلى المكان هذه يمكن النظر إليها على أنها البذرة الأولى لبداية الانتماء إلى الدولة <sup>٢</sup> .

- وإذا كنا نؤكد أن سبب انتشار الإسلام هو أنه في ذاته الجوهرية يحمل أصول التقدم والتمدن <sup>٣</sup> ، ومع ذلك فما كان باستطاعته أن يحطم بضربة قلم بناء القبيلة - لو افترضنا أن الجزيرة العربية قائمة على هذا الحامل الاجتماعي ، بل إن هنالك استجابة للإسلام مردها هذا التطور الاجتماعي - ولا أدل على ذلك أن سبب القضاء على حرب الردة زمن الخليفة أبي بكر هو التفاف المدن الثلاث حوله : مكة - المدينة - ( يثرب ) ، وهي مدن كانت قد قطعت أشواطاً واسعة وتجاوزاً لمرحلة القبيلة ، وفي نظرنا إنه إذا كان قد بقي للقبيلة بعض التأثير في قلب الجزيرة العربية فهذا لا يعدو الدور السياسي ، أما القبيلة نفسها ، فقد تطورت اجتماعياً ودينياً وثقافياً في طريق

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٥٦

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٥٦

<sup>٣</sup> محمد روجي الخالدي : رسالة في سرعة انتشار الدين الإسلامي طرابلس الشام / ١٣١٤ هـ

الانصهار في الدائرة العربية ، وهذا يفسر قول الجاحظ بأن العرب سكبوا سكباً  
وأفرغوا إفرغاً ...

ثم لماذا لا نفرع على ظاهرة استئصال الأعرابية وتفتيتها في الوجدان العربي ، وقد  
وجدنا مظهر ذلك في وثائق المسند .

وعلى هذا يذكر تاج العروس أن الأعرابي إذا قيل له يا أعرابي فرح بذلك ، وبالمقابل إذا  
قبل للعربي يا أعرابي غضب<sup>١</sup> ، وكان أهل الحضرة يقولون : أعرابي جلف و أعرابي قح ،  
أي لم يدخل الأمصار ويحتك بأهلها<sup>٢</sup> وكانوا إذا تكلموا عن شخص فيه عنجفة وخشونة  
قيل عنه : فيه أعرابية<sup>٣</sup> .

أما عن تهميش الإسلام للأعرابية فلا حدود له ، فقد جاء في الحديث النبوي : من بدا  
جفا<sup>٤</sup> .

ووصف الرسول ﷺ أعرابياً بأنه يوال على عقبه ، وفي الحديث ثلاث من الكبائر منها  
التعرب بعد الهجرة<sup>٥</sup> .

وفي الحديث أيضاً أنه لا يجوز شهادة بدوي على صاحب قرية<sup>٦</sup>

---

<sup>١</sup> مادة عرب

<sup>٢</sup> تاج العروس : ٧٤/٦

<sup>٣</sup> تاج العروس : ٧٤/٦

<sup>٤</sup> تاج العروس : ٧٤/٦

<sup>٥</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٨٣

<sup>٦</sup> اللسان : ٦٧/١٤

وكان الأعراب يرغبون في التسمي بأسماء المهاجرين قبل أن يهاجروا فمنعوا من ذلك ،  
وأعلنوا أن لهم أسماء الأعراب وعليهم التسمي بها <sup>١</sup> ، ويذكر الاخباريون أن أم سنبله  
الأسلمية أهدت بيت الرسول ﷺ لبناً فأبت عائشة قبوله بسبب نهي الرسول ﷺ عن ذلك  
، ثم دخل الرسول ﷺ وأمر بقبول الهدية لأن أن سنبله ليست أعرابية <sup>٢</sup> .

ولا أدل على هذا الفصل الحضاري بين أهل الوبر وأهل المدر ، ذلك التقسيم الذي ظهر  
على يد ابن خلدون : عمران الوبر وعمران المدر ، كجهازين مفهوميين ينطويان على  
منظومتين اجتماعيتين متعددتين في الأشكال والصور والمظاهر ، كما يقول ابن خلدون .  
وعلى هذا فقد قرن الجاحظ بين الطائي الجبلي والطائي السهلي ، كما قرن بين نزل  
البطون ونزل الحزون ونزل النجود ونزل الأغوار ، لا فرق في ذلك بين القحطانيين  
والعدنانيين <sup>٣</sup> .

وفي إطار ذلك تكلمت الموارد العربية عن عرب الضاحية ، وهم النازلون في ظواهر الحضارة  
<sup>٤</sup> ، كما أن اللغويين أخذوا بالحسبان تأثير لغة المشارق وأهل الضواحي وعرب الأرياف  
بلهجات إرم واللغات الأعجمية <sup>٥</sup> .

واستناداً إلى هذا المعيار الموضوعي الطبيعي المادي فقد عرفت الأرض التي تقع بين الفرات  
وبين برية العرب بـ ( العير )

---

<sup>١</sup> تفسير الطبري ٩/٢٦

<sup>٢</sup> طبقات ابن سعد ٨/٢٢٥

<sup>٣</sup> رسائل الجاحظ : ١٠/١ فصل مناقب الترك

<sup>٤</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٨

<sup>٥</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٨٧

وفي هذه المجتمعات الحضرية المتعددة في أشكالها ومظاهرها نجد الإنسان العربي - وفي إطار تكيفه مع الواقع والطبيعة - أطلق لعقله العنان ، فإذا هو يزرع ويغرس وينسج ويحترف الصناعة والخزف و يقيم - لاسيما في العربية الجنوبية - القصور والحصون .

وإذا كان عرب الجزيرة العربية عبروا عن أحاسيسهم الرفيعة بكلام منظوم فقد أفرغ عرب اليمن أحاسيسهم بنقشها على المرمر وبقية الأحجار وعلى المعادن والخشب ، وهكذا فقد سمعنا عن السيوف اليمانية ، وعن بسطها ، إضافة إلى فن صياغة المعادن والأحجار الكريمة<sup>١</sup> .

وعلى ضوء العمران المدري ، فالتاريخ العربي عهد باستمرار تفوق القحطانيين على العدنانيين : كندة - الغساسنة - المناذرة - جرهم - خزاعة - ولم ترجح كفة الميزان لصالح العدنانيين إلا على يد الإسلام .

وعلى هذا فالتاريخ العربي يسجل لنا قانوناً مطرداً هو الصعود التاريخي الارتقائي للحياة العربية باتجاه المدرية والتوضع والاستقرار المستمرين على الأرض مقترناً ذلك بحركة هجرة وانتقال دائمين من حياة الوبر إلى حياة المدر ، يتضح ذلك مثلاً في طيء وفي التحول الذي طرأ على قريش ، حيث قسمت إلى طبقتين : قريش البطاح وقريش الظواهر ، أما قريش البطاح فهم الذين نزلوا بطحاء مكة وبطنها ، وهم مادة القرشيين ومن بينهم بنو هاشم وبنو أمية<sup>٢</sup> .

---

<sup>١</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٨٣

<sup>٢</sup> رضوان السيد : مفاهيم الجماعات في الإسلام ، دار التوير ، بيروت / ٩٨٤ / ص ١٢

والخلاصة فالارتقاء والصعود التاريخيين أديا إلى زعزعة نظام القبيلة وتخلخل بنيتها وخلق اختراقات متعددة في منظومتها .

وبيان ذلك أن القبيلة لم تكن أقنوماً أصم ثابتاً ، بل هي مجرد قالب أو إطار عام يتحدد مضمونه على التضاريس والتموجات الطبيعية والجغرافية دون أن تكون محضاً اجتماعياً ثابتاً وحاسماً .

وعلى ضوء هذه الملاحظة وسمت ( معد ) بالحيلة والكيد والذكاء والغلظة والخشونة ، ووسمت كندة بسمات تميزها من غيرها من القبائل<sup>١</sup> .

ومن هذه الاختراقات ظاهرة الأحناف والحرم وظاهرة التصعك الاجتماعية وغير ذلك ، وبالتالي فضرورات الحياة دفعت بعض القبائل الصغيرة للتحالف والذوبان في القبائل الأكبر ، حيث انضمت خزاعة إلى بني مدلج<sup>٢</sup> .

---

<sup>١</sup> جواد علي : ج ١ ص ٢٩٢

<sup>٢</sup> جواد علي : ج ١ ص ٤٨٢



## البحث

### تجربة سيدنا ابراهيم ومسألة التأسيس الإسلامي الأول

#### مقدمة

وطبعاً فالمقصود بالإسلام هنا المعنى الواسع : Iato- sensu ، وبذلك تكون كل دعوة أتى ودعا إليها الرسل هي إسلامية ، قال تعالى : ( أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ) (الشورى: من الآية ١٣)

فالدين واحد دين الله والشرائع هي المختلفة باختلاف الأنبياء ، قال تعالى : ( وَوَصَّي بِهَذَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ) (البقرة: ١٣٢) لقد جدد سيدنا ابراهيم عليه السلام بناء البيت العتيق وأسسهُ نظيراً للبيت المعمور في السماء ، قال تعالى : ( وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ) (البقرة: ١٢٧) ثم وقف داعياً الناس للالتفاف حوله تعظيماً لهذا البيت وأخذ يتلقى الكلمات التي اختارها الله ، قال تعالى : ( وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ) (البقرة: من الآية ١٢٤)

وهكذا كان اللقاء التاريخي الموضوعي بين العروبة والإسلام الذي وصل إلى درجة التأسيس الماهوي الأزلي الإنساني الأخلاقي ، وقصة الذبيح اسماعيل عليه السلام مثلاً حياً لهذا التأسيس الإنساني ، وطبعاً فالله تعالى لا يرضى بذبح الإنسان ، وإنما بذبح السوائم ، وتلك هي الدلالة العميقة للإبراهيمية في وعينا الحديث تخطياً لأوهام التجزئة وأوهام الظلم وأوهام السوق وأوهام الاستغلال .

هكذا امتزجت الروح الإسلامية بالروح العربية واختار الإسلام الأول لغراسه وبذوره درقة ومشتلاً وفطرة ونقاء في أرض العروبة ، وأخذت الخبرة العربية تنتج قيمها على ضوء الهداية الإسلامية ونورها ، وشرعت الروح الإبراهيمية تؤتي أكلها وتنتج ثمارها على دارنا العربية .

ذكر صاحب بلوغ الأرب أن الختان من سنن ابراهيم عليه السلام <sup>١</sup> ، كما ذكر الدكتور جواد علي ان إقراء الضيف والرفادة هي من إرث ابراهيم عليه السلام <sup>٢</sup> ، واشترط العرب في الزواج المهر معجله ومؤجله ونسبا ذلك إلى سنن ابراهيم عليه السلام كما نسبوا إليه ألفاظ الطلاق الثلاث .

هل نذكر القارئ بأن عمر بن نفييل ( جد سيدنا عمر ) كان يسجد على الأرض ويستقبل القبلة متضرعاً متوسلاً ويقول : إلهي إله ابراهيم <sup>٣</sup> .

وجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليحمل الراية نفسها ، التي حملها سيدنا ابراهيم عليه السلام ، قال صلى الله عليه وسلم : لم ابعث باليهودية ولا بالنصرانية ، ولكن بالحنيفية السمحاء .

فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لبنة في صرح الرسل وقد جاء متمماً ومكماً لما جاؤوا به وإن اختلفت المناهج والوسائل ليس إلا ، قال تعالى : ( لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) (المائدة: من الآية ٤٨) .

فسيدنا محمد حلقة من سلسلة الرسل وإن كانت الحلقة الأهم في هذه السلسلة التي يعتبر سيدنا الخليل ابراهيم عليه السلام الأب الروحي لها ، وبالتالي فما كان علي يد محمد صلى الله عليه وسلم من تحطيم للأصنام ومن الدعوة لعبادة الخالق ومن تعزيز دور الكعبة ليس إلا مظهراً وتمثيلاً جديداً من تمثلات الإبراهيمية ...

<sup>١</sup> بلوغ الأرب : ٢٨٧/٢

<sup>٢</sup> المفصل : ج ٤ ص ٥٨٣

<sup>٣</sup> بلوغ الأرب ص ٣٧٦

والدين الإسلامي - بالمعنى الواسع - هو الهدف والغاية الذي اتجهت نحوها الإنسانية بتوجيه من الله تعالى ووحى منه ، وهو هدف وغاية من حيث إنه تقرير نهائي وحاكم لأسمى ما على الإنسانية أن تلتزم به من أخلاق ومعاملات وفعل على الأرض<sup>١</sup> .

وهناك روايات كثيرة حول أصل سيدنا ابراهيم عليه السلام ، والأرجح أن وطنه الأصلي هو " آرام النهرين " أي منطقة حاران ( حران الحالية ) حيث كانت العشائر الآرامية التي ينتمي إليها قد استقرت عند منابع نهر البليج بعد هجرتها من الجزيرة<sup>٢</sup> .

وكما قلنا سابقاً ، فالقرآن الكريم يعلن أن سيدنا ابراهيم عليه السلام عاش حنيفاً ، قال تعالى :  
( وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ) (البقرة: ١٣٥)

ويذكر القرآن الكريم سيدنا ابراهيم عليه السلام في سلسلة الأنبياء : ( إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ) ( آل عمران: ٣٣ ) وقال تعالى : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَلِكْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ) ( النحل: ١٢٠ ) والرسول الكريم هو أولى الناس بإبراهيم : ( إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ) ( آل عمران: ٦٨ ) وقال تعالى : ( وَمَنْ أَحْسَبُ دِيناً مِمَّنْ أَسْبَلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ) ( النساء: ١٢٥ )  
<sup>٣</sup> وهناك الآيات الأخرى التي عرضت لكرامة ومكانة سيدنا ابراهيم عليه السلام مثل قوله تعالى :

<sup>١</sup> د. فهمي جدعان : أسس التقدم .

<sup>٢</sup> جواد علي : المفصل ج ٥ ص ٤٨٣

<sup>٣</sup> احمد سوسه : العرب واليهود ص ٥٤٣

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُخَيِّرُ الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي) (البقرة: من الآية ٢٦٠)

والرسول الكريم جاء متمثلاً نهج القرآن متبعاً شرعه ، معظماً هذا الأب الجليل الخليل .

قال ﷺ : لكل نبي ولاية من النبيين وإن منهم أبي و خليل ربي <sup>١</sup> .

وقال ﷺ : إن الله اصطفاني من ولد ابراهيم واسماعيل واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم <sup>٢</sup> .

وقال ﷺ: مررت بإبراهيم فقال : مرحباً بالنبي الصالح والدين الصالح <sup>٣</sup> .

وليلة فتح مكة دخل الرسول الكعبة فوجد ابراهيم واسماعيل بأيديهما الأضلام فقال ﷺ: قاتلهم الله لم يستقسما بالأضلام قط <sup>٤</sup> .

وتراثنا بالإجماع : السني والشيعي والخارجي والصوفي ، إضافة إلى كتب التاريخ والأدب وغيرها حافل بهذا التقدير لسيدنا ابراهيم <sup>٥</sup> .

---

<sup>١</sup> مسند أحمد : الكتب الستة ج ١ ص ٤٢٠

<sup>٢</sup> طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٠

<sup>٣</sup> مسلم ج ١ حديث رقم ٢٠٣

<sup>٤</sup> البخاري : المرجع السابق ص ١١٠

<sup>٥</sup> كتابنا : سيدنا ابراهيم : المؤسس الأول للإسلام ( تحت الطبع )

## الفرع الأول

### بنو اسرائيل واليهود وموقفهم من الابراهيمية

أول ما يجب الإشارة إليه هو أن وطن بني إسرائيل الأصلي لم يكن فلسطين ، بل منطقة حوران الآرامية ، حيث كانت تقطن العشائر الآرامية التي هم من أفخاذها ، وإن جميع الأخوة الذين ورد ذكرهم في التوراة ولدوا ونشأوا خارج فلسطين ، ونحن نؤكد ذلك نستند إلى مرجع التوراة ذاتها التي تعترف بصراحة تامة بهذه الحقيقة .

فالأحداث التاريخية التي مرت على اليهود تدعونا إلى التمييز بين ثلاثة أدوار بالاستناد إلى التسميات الثلاث ( إسرائيل وقوم موسى ويهود ) .

فدور ابراهيم واسحق ويعقوب ( اسرائيل ) عليهم السلام دور مستقل بذاته ليس له أية صلة بدور النبي موسى عليه السلام وقومه أي اليهود .

والسؤال الذي يفرض نفسه هو :

هل الجماعة التي خرجت من مصر بقيادة موسى عليه السلام تنتمي إلى اسرائيل كما ادعى مدونو التوراة ؟؟ .

من الواضح أن أهم ما كان يهدف إليه كتبة التوراة عندما أخذوا بتدوينها بعد عهد ابراهيم الخليل عليه السلام بأكثر من ألف وثلاثمائة عام وبعد عهد موسى عليه السلام بسبعمائة عام هو إرجاع نسب بقايا الجماعة التي خرجت من مصر بقيادة النبي موسى عليه السلام إلى إبراهيم الخليل عليه السلام بغية إرجاع أصلها المجهول إلى أقدس العروق من الأجناس البشرية ،

ثم تثبت عقيدة الأرض الموعودة (الوهمية) على لسان إبراهيم الخليل وموسى عليهما السلام وهما بريثان منها <sup>١</sup>.

واندفاعاً وراء تحقيق هذا الهدف ربط مدونو التوراة صلة هذه الجماعة مباشرة بإبراهيم الخليل وبخفيده يعقوب (إسرائيل) عليهما السلام لكي ترفع من مكانتها بين البشر وتجعل منها الشعب المختار .

هذا ولا بد من شرح نقطة مهمة وهي أن أسماء ابرام ويعقوب ويوسف وحتى تسمية اسرائيل التي تعني يعقوب ، هذه الأسماء كلها كانت أسماء روحانية مقدسة في البلاد منذ عهد قديم ، وهي أسماء كنعانية أصيلة ترجع إلى ما قبل الألف الثانية قبل الميلاد ، وكانت تطلق على الأشخاص والأماكن تبركاً بها <sup>٢</sup> .

فقد ورد اسم ابرام في المصادر البابلية والمصرية للدلالة على أشخاص وأماكن بهذا الاسم ، كما ورد في الكتابات المصرية أسماء يعقوب ويوسف مقرونين بالإله " إيل " أي " يعقوب - إيل " و " يوسف - إيل " ، ومعنى ذلك " ليحم الإله إيل يعقوب " و " ليحم الإله إيل يوسف " <sup>٣</sup> .

والإله إيل هو " الإله العظيم " ( supereme god ) عند الكنعانيين والآراميين ، وهو نفس الإله " إيل " الوارد في التوراة المقرون بعهد ابراهيم الخليل عليه السلام ، وهو غير الإله " يهوه " إله اليهود الذي اختلقه كتبة التوراة كإله خاص بهم .

---

<sup>١</sup> د أحمد سوسة : العرب واليهود في التاريخ ص ٥٢٥

<sup>٢</sup> د. احمد سوسة : المرجع السابق ص ٥٢٥

<sup>٣</sup> د. احمد سوسة : المرجع السابق ص ٥٢٦

وقد جاء أسماء " يعبو - إيل " و " يوسف - إيل " بين أسماء المدن الكنعانية التي احتلها الفرعون " تحوتمس الثالث " ( أحد فراعنة السلالة الثامنة عشر ) / ١٤٧٩-١٤٧٧ ق.م. / ، كما ورد اسم " اسرائيل " في الكتابات المصرية أيضاً اسم لمنطقة تقع في جنوب فلسطين كان قد أخضعها " مرفتاح " ( أحد فراعنة الأسرة التاسعة عشر ) حوالي سنة ١٣٣٠ ق.م وهي " واثقلون " ( عسقلان ) .

ويقول " لودز " في ذلك : " ومن المحتمل أن تكون هناك مستعمرة كنعانية كانت تعرف باسم اسرائيل في فلسطين آنذاك " <sup>١</sup> .

ومما يدل على أن هذه التسمية " اسرائيل " كانت لها قدسيته وروحانيته في تلك العصور السحيقة أن التوراة تذكر بأن تسمية يعقوب واسرائيل جاءت نتيجة " جهاده مع الله والناس " ، ولما كانت الكلمة المقرونة بالإله " إيل " أيضاً ، فقد ترجمها العلماء المحدثون بمعنى " ليحكم إيل " أو " ليسطع إيل " .

وصفوة القول إن جميع هذه الأسماء كنعانية الأصل كانت متداولة في عهود ابراهيم الخليل عليه السلام وما قبله وذلك قبل ظهور موسى واليهود وقبل تدوين التوراة بأكثر من ألف وخمسمائة عام .

ويرى أولبرايت أن هذه الأسماء مثل ابرام ويعقوب وبنيامين وزبولون كانت أسماء مشهورة عند الآراميين .

---

<sup>١</sup> الواقع أن اسرائيل كلمة كنعانية مثل يعقوب - ايل ويوسف - ايل تتكون من مقطعين ، الأول " اسرا " بمعنى " عبد " والآخر " إيل " وهو الإله إيل فيكون معنى اسرائيل " عبد الإله إيل " وانظر

وعادة تسمية الأماكن بأسماء الأشخاص عادة قديمة مألوفة منذ أقدم العصور ، وهي ماتزال متبعة حتى يومنا هذا ، وقد ورد في التوراة عدد من الأسماء الشخصية التي سميت بها بعض الأماكن في فلسطين مثل بلعام وصيدون وكنعان وغيرها .

وفي ذلك يقول كيللر : " إن أسماء أجداد ابراهيم وأسلافه تخرج من العصور المظلمة ، وهي لا تعدو كونها أسماء مدن واقعة في شمال غربي بلاد ما بين النهرين " <sup>١</sup>

إن جماعة يعقوب المسماة ببني اسرائيل غادرت أرض وطنها الأصلي " حاران " ( حران حالياً ) وأرض غربتها ( فلسطين ) في حوالى القرن السابع عشر قبل الميلاد إلى مصر ، وهناك تزوج يوسف من ابنة رئيس الكهنة ، وتقول التوراة إن ذرية هذه الجماعة نفسها خرجت من مصر بعد مرور زهاء خمسة قرون ، وقد سميتها ببني اسرائيل لتغزو فلسطين (أرض كنعان ) متجاهلة ما حدث لهذه الجماعة في مصر خلال فاصل القرون الخمسة ، أما إذا رجعنا إلى المكتشفات الأثرية نجد أن هذه الغزوة المنسوبة إلى من سمي ببني اسرائيل إن هي إلا حملة مصرية على فلسطين ، وهذه ليست الغزوة المصرية الأولى لفلسطين فقد سبقتها عدة غزوات مماثلة على عهد الفراعنة الأوائل <sup>٢</sup> .

وزيادة في الإيضاح فقد كانت مصر تعد أرض فلسطين أشبه بمحمية لأن سلامتها مرتبطة مباشرة بها ، وهي الطريق الطبيعية للغزاة الذين يقصدونها من الشرق .

فقد نقلت لنا الكتابات المصرية القديمة أن الفرعون تحوتمس الثالث ( ١٤٤٧-١٤٧٩ ق.م ) وحده قام بسبع عشرة حملة على أرض آسيا وكلها عن طريق فلسطين ، لذلك كانت مصر

<sup>١</sup> كيللر ، " التوراة كتاريخ " ، ص ٦٨

<sup>٢</sup> د. أحمد سوسة : المرجع السابق ص ٥٢٧



تؤازر الملوك الكنعانيين وتسندهم بكل ما لديها من قوة مادية ومعنوية ضد الغزاة من الأقاليم المجاورة لهم ودون أن تتدخل في شؤونهم الثقافية والدينية .

وهناك دلائل قوية على أن ماعزاه كتبة التوراة لبني اسرائيل في حملتهم على فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد بقيادة النبي موسى لم يكن إلا حملة مصرية على نمط الحملات المصرية العديدة التي سبقتها ، وهي حملة مؤلفة من بعض الجنود المصريين ومن فلول بقايا الهكسوس والبعض الآخر - كما يقول الدكتور غوستاف لوبون - من الأسرى والعبيد الفارين من سادتهم<sup>١</sup> .

ومما لاشك فيه أن جميعهم كانوا يتكلمون اللغة المصرية ، هذا مع فارق كون هذه الحملة منشقة على الدولة الأم ( دولة الفراعنة ) وهي لا تتمتع بالتنظيم العسكري المألوف كما ليس لها أن تتمتع بإسناد الدولة كما كانت تتمتع به حملات الفراعنة السابقة العديدة على فلسطين خلال الألف والخمسمائة عام المنصرمة ، والفارق الآخر هو أن أهداف هذه الحملة لم تكن أهدافاً سياسية ترمي إلى خدمة مصلحة الدولة المصرية ، وإنما جاء أفرادها فارين من وجه الاضطهاد الذي كانوا يعانونه من المجتمع الوثني ، وقد جاؤوا ليحتلوا أرضاً عامرة بوسائل الحياة ليأووا إليها ، ولم تكن لديهم القوة الكافية لطرد سكان البلاد والحلول محلهم لذلك بقوا زهاء نصف قرن بلا مأوى حتى تمكنوا من تثبيت أقدامهم في الجانب الشرقي من الأردن<sup>٢</sup> .

---

<sup>١</sup> اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة عادل زعيتر ص ٣٣

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٥٢٨

ويجب ألا ننسى أن المبدأ الأساس لهذه الجماعة كان منذ خروجهم من مصر مبدأ دينياً بحتاً لا زمنياً ولا سياسياً ، وقد تم اضطهادهم في مصر بسبب أخذهم بديانة التوحيد التي ورثوها من عهد أخناتون ، ثم جاء اليهود وهم من بقايا الجماعة فحافظوا على هذا المبدأ حتى يومنا هذا ، ليكونوا مجتمعاً دينياً بلا قومية محددة <sup>١</sup> .

وهناك حادثين مهمين وقعا في مصر خلال فترة القرون الخمسة التي تلت هجرة أسرة يعقوب إليها - وهي الفاصل الذي يفصل بين جماعة يعقوب ( اسرائيل ) وجماعة موسى عليهما السلام - مما أدى إلى ذوبان جماعة يعقوب في البيئة المصرية كلها ، أولهما حكم الهيكسوس في مصر ( ١٧٨٥-١٩٨٠ ق.م ) مع الملاحظة أن هجرة آل يعقوب إلى مصر وقعت في هذا العهد بالذات .

والمعلوم أن يوسف كان بحكم منصبه مندجماً بالشعب المصري وخاصة بعد أن تزوج من "أسنات" بنت " فوطي فارع " رئيس الكهنة في مصر وولد له أبناء منسى وافرأيم . والسؤال الذي يحسن طرحه هو : هل أكثر من هذا الاختلاط بالشعب المصري في بداية هذه الفترة ؟ وهل يعد ابنا يوسف ( منسى وافرأيم ) من نسل يعقوب ، وهل كان ما يمنع زواج منسى وافرأيم من مصريات أيضاً مثل أبيهما بحكم انتساب أمهما إلى الكاهن المصري الأعلى ؟ .. ثم هل كان ما يمنع أبناء أخوة يوسف أن يتزوجوا من مصريات أيضاً اقتداءً بعمهم يوسف ؟ ... نحن لا نستطيع أن نتصور في ضوء التحليل العلمي أن تكون أسرة واحدة ( لا عشيرة ) تتكون من سبعين شخصاً على قول التوراة قد هاجرت إلى بلد غريب

---

<sup>١</sup> د. أحمد سوسة : المرجع السابق ص ٥٢٩

وبقيت زهاء خمسمائة عام في هذا البلد من غير أن تنصهر وتذوب في محيطها الجديد ثقافياً واجتماعياً وحتى عرقياً .

ويجب أن لا ننسى أن قبائل الهيكسوس الحاكمة التي عاش يوسف وإخوته في كنفها ، هذه القبائل أخذت باللغة المصرية وثقافتها وصار أتباعها في آخر عهدهم مندمجين بالمحيط المصري حتى أخذوا يتسمون بأسماء مصرية كما أخذ ملوكهم يقلدون الفراعنة في سيرة حياتهم ، مع أنهم لم يبقوا في مصر أكثر من قرنين من الزمن<sup>١</sup> .

ومما ساعد على ذوبان ذرية يوسف وإخوته بالشعب المصري كلياً هو الحادث الثاني ، ونعني به اعتناق أخناتون فرعون مصر ( ١٣٧٥-١٣٥٨ ق.م ) - بعد عهد يوسف وعهد الهيكسوس - دين التوحيد وفرض هذا الدين على الشعب المصري ، إذ دخلت أثر ذلك جمهرة من المصريين ومعهم حاشية الملك والطبقة الحاكمة في ديانة التوحيد جرياً على القاعدة المألوفة ( الناس على دين ملوكهم ) .

والظاهر أن أخناتون كان ينوي تعميم هذا الدين على جميع أنحاء الإمبراطورية المصرية<sup>٢</sup> ، والأرجح أنه أخذ بديانة التوحيد متأثراً بعهد الهيكسوس وعهد يوسف ويعقوب مما أدى إلى اندماج اسرائيل بالمصريين بعد أن أخذ عدد كبير من المصريين بدين التوحيد .

وفضلاً عن ذلك فإذا اعتبرنا أن بني اسرائيل ( ذرية يوسف وإخوته ) كانوا مرتبطين بالهيكسوس خلال حكمهم في مصر .

---

<sup>١</sup> د ٣٠ أحمد سوسة : المرجع السابق ص ٥٣٠

<sup>٢</sup> د. أحمد سوسة ص ٥٣٠

فلا بد أن يكونوا قد خرجوا مع الهيكسوس عند إخراجهم من مصر ، هذا إذا فرضنا أنهم لم يندمجوا بالمجتمع المصري ، لذلك فإن الدلائل كلها تدل على أن الجماعة التي خرجت من مصر الذين اعتنقوا دين التوحيد ، وقد اضطروا إلى مغادرة البلاد بعد أن أخذوا بالنظرية القائلة بأن النبي موسى مصري الأصل وكان قائداً مصرياً كما ورد في الأخبار<sup>١</sup> .

لكن هل هناك دلائل على أن موسى عليه السلام كان محتفظاً بدم بني لاوي الذين جاؤوا إلى مصر قبل زهاء خمسمائة عام ، أي أنه يرجع إلى طبقة الكهنة الذين كانوا يراعون الشؤون الدينية في مجتمع بني اسرائيل على حد قول التوراة<sup>٢</sup> .

الباحثون في هذا العصر يرون غير ذلك ، وهذا ما أكده الكاتب اليهودي المشهور فرويد بأن موسى كان قائداً في الجيش المصري ، ولم يكن من اللاويين كما جاء في التوراة ، ويزعم فرويد أيضاً أن موسى قد تأثر بمذهب التوحيد الذي نادى به أخناتون إذ عاش في كنف هذه البيئة الموحدة عند آل فرعون ، ثم راح بعد موت أخناتون يبشر بمذهب التوحيد هو وأتباعه من المصريين .

لذلك يكون من سمي في التوراة ببني اسرائيل من أتباع موسى النبي لا يمتون بأية صلة بمحيط عصر العرب الذي عاشه ابراهيم الخليل وحفيده يعقوب عليهما السلام قبل مئات من السنين ، كما أنهم لا يمتون بأية صلة بذرية اسماعيل واسحق عليهما السلام الذين بقوا محافظين على الدم النقي العربي<sup>٣</sup> الخالص الذي يرجع إلى عهد ابراهيم الخليل .

---

<sup>١</sup> التوراة ج ٢١

<sup>٢</sup> د. سوسة : المرجع السابق ص ٥٣١

<sup>٣</sup> د. احمد سوسة : المرجع السابق ص ٥٣٠

والدليل على ذلك أن أتباع موسى جاؤوا وهم غرباء ، بل أعداء لبني اسماعيل ولبني عيسو  
ولسكان كنعان بوجه عام ينوون غزو بلدهم وإبادتهم ليحلوا محلهم ولم تربطهم بسكان  
كنعان أية صلة ، أفلم تقل التوراة بأن النبي موسى عليه السلام تربى في بلاد فرعون وأن ابنة  
فرعون اتخذته ابناً لها وهو طفل ؟ فهل تربى في البلاط بلسان يعقوب ( اسرائيل ) أم بلسان  
فرعون مصر ؟ فإن سميت التوراة أتباع موسى ببني اسرائيل أو لم تسمهم فهم لا يرتبطون  
بعهد ابراهيم الخليل إطلاقاً ، ولا صلة لهم به قطعاً ، لأن لغة ابراهيم كانت غير لغتهم ،  
وعهد ابراهيم غير عهدهم ، وإله ابراهيم غير إلههم ، وإن ارتباط ابراهيم عليه السلام بجزيرة  
العرب وبقبائل العرب البائدة تجعله منعزلاً عنهم انعزلاً تاماً<sup>١</sup> .

ويرى بريستد أن أبناء يعقوب ( اسرائيل ) كانوا على أصح الاحتمالات عرباً تابعين  
لإمبراطورية الهيكسوس ، يقول بريستد : " ويستنتج من رواية مانيثو ومن أخبار سورية  
وفلسطين أن امبراطورية الهيكسوس عربية الأصل<sup>٢</sup> ، وقد عثر على جمل لفرعون من عهد  
الهيكسوس منقوش عليه اسم ( يعقوب إيل ) إشارة إلى تبوء أحد رؤساء بني اسرائيل الملك  
في تلك العصور الغامضة ، وهذا الأمر يتناسب مع احتمال دخول بني اسرائيل مصر وقتئذ

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٥

<sup>٢</sup> د. سوسه : المرجع السابق ص ٥٣٣

وإذا صح الاستنتاج كان عبرانيو العرب بمصر سبباً في تلقيب تلك الامبراطورية " دولة الرعاة  
" ولا يبعد أيضاً أن تكون نظرية يوسفوس القائلة بأن بني اسرائيل قوم من الهيكسوس فيها  
شيء من الحقيقة وإن لم تكن هناك أدلة على صحة ذلك " <sup>١</sup>.

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن القرآن الكريم فرق بين بني اسرائيل ذرية ابراهيم الخليل  
من جهة وبين اليهود من جهة أخرى وذلك باستعمال اسمين يحدد بهما هذا القوم أو ذاك ،  
فيطلق اسم بني اسرائيل في مواضع الرضا ويسمون باليهود في مواضع السخط عليهم ،  
ويقول الأستاذ فتحي رضوان : " ومن صور المنهج الرفيع في القرآن الكريم استعمال اسمين  
عند التحدث عن الموسويين ، فهم تارة " اليهود " وتارة أخرى " بنو اسرائيل " ، وتقوم  
عبارة ( الذين هادوا ) في بعض المواضع مقام لفظ ( اليهود ) والقرآن الكريم حينما يستعمل  
الاسمين لا يفعل كأنهما مترادفان ، كما يقول مثلاً المسيح و " عيسى ابن مريم " ، بل يطلق  
عليهم (اليهود) و(الذين هادوا) في مواضع السخط عليهم ، أو التنديد بسوء ، أعمالهم أو  
عند حكاية ما أصابهم من الذلة والعبودية لفساد طويتهم وسوء نيتهم ، أما إذا جاء القرآن  
الكريم يذكر بفضل القوم واصطفاء الله لهم وإسناد الرسالة إلى رجال منهم وإسباغ الحكمة  
والنبوة عليهم الخ .... فاسمهم في هذه المواضع جميعاً " بنو إسرائيل " واستعمال هذين  
الاسمين مقصود ، لم يأت عفواً ، فإسرائيل هو يعقوب ويعقوب نبي من أنبياء الله ، ورث  
عن أبيه إسحق وعن جده إبراهيم رسالة الدين الحنيف ، ومن هنا لا يتحدث القرآن عن

---

<sup>١</sup> بريستد " تاريخ مصر ، الترجمة العربية ، ص ١٤٣ - ١٤٢ وانظر د. أحمد سوسة ص ٥٣٤

أولاد يعقوب ، أي بني إسرائيل إلا بالخير و الرضا ، فإذا صدر عنهم ما يغضب القرآن يسميهم اليهود<sup>١</sup> .

فإبراهيم الخليل عليه السلام كان يدعو لعبادة إله غير إله اليهود الذي تصفه التوراة ، لأن دعوة إبراهيم الخليل لعبادة الإله الواحد كانت دعوة عامة موجهة إلى جميع السكان الوثنيين في عصره بلا استثناء ، الإله الأوحيد خالق السموات والأرض وجميع البشر ، ربّ جميع المخلوقات بدون تمييز بين الأقسام<sup>٢</sup> .

يؤيد ذلك أن إبراهيم الخليل لما استدعى عبده وأمره بأن يذهب إلى " حارت " (حران) ليأخذ زوجة لابنه اسحق من عشيرته هناك قال له : " فاستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن معهم " <sup>٣</sup> ، وقد ذكر هذا الإله الذي دعا إليه إبراهيم إلى عبادته باسم " إيل " في التوراة ، وهو مفرد لكلمة " إيلوهيم " الكنعانية المراد بها الجمع والتعدد ، أي الآلهة ، ومنه جاءت تسمية " بيت إيل " و " إيل " هو الإله الذي تكلم مع هاجر .

وقد ورد هذا المصطلح نفسه في النصوص الكنعانية والآرامية ثم في النصوص المصرية التي ترجع إلى عهد الهيكلوس بهذا المعنى فقول " يعقوب إيل " و " يوسف إيل " ، أي يعقوب الإله أو يوسف الإله<sup>٤</sup> عملاً بالطريقة التي كانت متبعة بإضافة اسم الإله إلى اسم الشخص تبركاً به ، كما هو متبع الآن بتسمية الأشخاص بعبد الله وعبد الإله ... ذلك مما يدل على

---

<sup>١</sup> فتحي رضوان ، " اليهود وبنو اسرائيل " ، الأهرام ٧٢ M10M ص ٧

<sup>٢</sup> د . سوسة : المرجع السابق ص ٥٣٦

<sup>٣</sup> Dr.F.Mommet : the ancient hebrew tradition , p: 202

<sup>٤</sup> د . سوسة : المرجع السابق ص ٥٣٦

أن كلمة " إيل " بمعنى الإله الواحد كانت معروفة في كنعان في عهد إبراهيم الخليل عليه السلام وفي عصر الهيكوس الذي يليه أي قبل أن يظهر موسى واليهود بعدة قرون ، ولما ظهر اليهود عبدوا إلههم الخاص بهم الذي سمي باسم " يهوه " الإله الذي لا يهيمه من العالم والخلق سوى اليهود أو شعبه المختار ، و ذلك على غرار مبدأ التفريد (Monotheism) ، وهو المبدأ الذي اعتنقه الأقوام القديمة عندما كانت كل مدينة تختص بإله واحد من بين مجموعة الآلهة بدون نبذها عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها ، هو حاكمها وهو قائدها وجعلوه على صورة البشر والبشر على صورة الإله ، مسكنه في السماء وينزل أحياناً إلى الأرض ، فيتفحص الأشكال البشرية ، ويكلم البشر بصوت ولفظ ويأكل ويشرب الخ ..<sup>١</sup> وهكذا كان الإله الذي تصوره اليهود إلهاً قليلاً خاصاً بهم وينافس آلهة الأقوام الأخرى ويحارب معهم كما كانت الحال عليه في عصر دويلات المدن في العراق القديم .

ولا يخفى أن دعوة إبراهيم الخليل للوحدانية الخالصة بدأت من العراق وليس من فلسطين وهي موجهة إلى جميع الوثنيين في عصره ولم تحظر على بال إبراهيم الخليل فكرة الشعب المختار ، وهي البدعة التي اختلقها مدونو التوراة وأدخلوها في الكتاب المقدس بعد ربطها بإبراهيم الخليل إذا لا يمكن أن تكون هذه الادعاءات منزلة من الإله خالق السموات والأرض الذي دعا سيدنا ابراهيم الخليل إلى عبادته قبل أن يظهر اليهود بعدة قرون ، لذلك كله تعتبر دعوة ابراهيم الخليل إلى الوحدانية الخالصة أولد دعوة عامة للتوحيد بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد (Monotheism) في تاريخ البشرية ، وهي عربية لغَةً ووطناً ، كما جاءت

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٥٣٦



بعدها رسالة محمد ﷺ ، وقد نزلت عليه باللغة العربية أيضاً ، لأن اللغة العربية التي كان يتكلم بها إبراهيم الخليل والآراميون معه في تلك الأزمان هي اللغة العربية الأم التي يرجع وطنها الأصلي إلى الجزيرة العربية ، وكانت لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل ، وذلك قبل أن تتفرق هذه اللغة الأصلية إلى لهجات مختلفة ضمن كتلة اللغات العربية .

يقول الدكتور هوميل : " ومما لا شك فيه أن اللغة الآرامية في عصر أبرام ( إبراهيم الخليل ) كانت لهجة عربية ( ويقصد هنا اللغة الأصلية التي يتكلم بها الآراميون في الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها ) لأن ما نسميه بالآرامية لم يظهر إلى حيز الوجود إلا بعد زمن متأخر جداً ، وإن ما يعرف بآرامية التوراة وآرامية عصر المسيح يرجع إلى زمن الفرس وفترة العصر المسيحي " .

وقد ورد اسم الإله " إيل " مضافاً إلى أسماء عدد من الملوك المعنيين في اليمن ، ومنهم " وقه-إيل " ، " يصدق-إيل " ملك حضرموت ومعين الذي كان حكمه حوالي سنة ١٠٢٠ ق.م ، و " ثبع-إيل " ، كما ورد اسم الإله إيل مضافاً إلى أسماء بعض ملوك سبأ والمعروف منهم " يدع-إيل " ، " كرب-إيل وتر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس " " وهب-إيل " ، ففي ذلك دليل واضح على ارتباط إبراهيم الخليل بالجزيرة العربية وأن الإله الواحد الذي كان يدعو لعبادته إبراهيم الخليل كان معروفاً في جزيرة العرب بصفته " الإله العلي " مثل ما كان معروفاً عند الكنعانيين والآراميين بهذه الصفة وإن إضافة اسمه إلى أسماء بعض ملوك اليمن دليل على أن اسم " إيل عربي الأصل أي الإله " <sup>١</sup>

<sup>١</sup> د. أحمد سوسة : المرجع السابق ص ٥٣٨

ومما يدل على أن عبادة إبراهيم الخليل عليه السلام للإله " إيل " منفصلة تماماً عن عبادة اليهود للإله " يهوه " التي ابتدعها كتبة التوراة بعد ابراهيم الخليل عليه السلام بأربعمائة وألف سنة أن أسرة إبراهيم الخليل عليه السلام كانت تضيف اسم الإله " إيل " إلى أسماء زعمائها .

فإبراهيم الخليل عليه السلام نفسه هو النبي الوحيد الذي سمي " خليل الله " كما ورد في القرآن الكريم : ( وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ) (النساء: من الآية ١٢٥) ، ومن المرجح أن كلمة خليل كلمة عربية مركبة من (خل) و(إيل) ، بمعنى صديق الإله " إيل " ، ومثلها اسم اسماعيل الذي معناها ليسمع الإله " إيل " .

وكذلك اسم يعقوب الذي معناه عبد الإله " إيل " ويؤيد المستشرق توريز دارسون ، أستاذ اللاهوت في جامعة ايسلندا كون ديانة التوحيد التي دعا إبراهيم الخليل عليه السلام إلى عبادتها هي خاصة به وبعشيرته ولاصلة لها باليهود ، فيقول في ذلك : " لقد أظهرت المدونات الآشورية في القرن العشرين قبل الميلاد والكتابات التي تعود إلى العصور التي تلي ذلك أن ديانة إبراهيم عليه السلام تستند إلى الإيمان بالإله العلي ( high God ) ، وهذا يتفق مع الصورة التي نجدتها في التوراة (أنا إله إبراهيم أبيك ) ، فإبراهيم إذن هو مؤسس وحامل لواء هذه الديانة التي تدعو إلى عبادة الإله العلي وأصبحت تقترن بصلة وثيقة بعشيرته <sup>١</sup> .

ومما يذكر في هذا الصدد أن التوراة عندما تتحدث عن إبراهيم الخليل عليه السلام وعن كلامه مع الإله تستعمل كلمتين " الله " و " إيل " (وقال الله لإبراهيم ... ) مع أنها تستعمل أحياناً كلمة " الرب " ، ومثل ذلك هي الحال بالنسبة ليعقوب ( ثم قال " الله " ليعقوب قم واصعد إلى بيت " إيل " وأقم هناك واصنع هناك مذبحاً " لله " ... ) (وظهر الله ليعقوب الخ ) <sup>٢</sup> .

<sup>١</sup> دائرة المعارف البريطانية : طبعة ١٩٢٥ ، ج ١ ، ص ٤٥

<sup>٢</sup> د. سوسة : المرجع السابق ص ٥٣٩

أما الإله " يهوه " فإنه لم يبدأ استعماله إلا بعد عهد النبي موسى عليه السلام ، وهو إله اليهود وحدهم .

ويؤيد ذلك المستشرق ثوريو ثوردارسون ، أستاذ اللاهوت في جامعة إيسلندا ، فيرى " أن أبراهام كان شبه بدوي semi nomade ينتمي إلى القبائل القديمة المسماة بالعبيرو ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلي نفسه<sup>١</sup> ، وقد ظلت هذه التسمية " عبري وعبراني " تطلق على الجماعات من القبائل النازحة من البادية ومن جهة فلسطين إلى مصر ، وعلى هذا الأساس صار المصريون يسمون الإسرائيلين بالعبرانيين باعتبارهم من تلك الجماعات البدوية<sup>٢</sup> .

وأما ما أورده الباحثون من أن كلمة " عبري " مشتقة من عبر أي قطع نهرأ أو غيره أومن " عابر " أحد أسلاف ابراهيم فغير مستند إلى أي دليل أو أساس ، وهي من قبيل الحدس والاجتهاد .

وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه الناحية حيث قال تعالى : ( يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّوْنَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) (آل عمران: ٦٥) ( مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَرِيْمًا حَنِيفًا مِّنْ أُمَّةٍ قَدِيمًا وَمِمَّا كَرِهَ الْمُشْرِكِينَ ) (آل عمران: ٦٧) ولهذا الآية الشريفة معنيان : المعنى الأول هو أن إبراهيم عليه السلام ما كان على دين (يهوه - إله اليهود - بل كان حنيفاً مسلماً ) ، والمعنى الثاني هو أن دور إبراهيم الخليل عليه السلام هو غير دور اليهود ولا يتصل بدور اليهود الأخير<sup>٣</sup> .

<sup>١</sup> دائرة المعارف البريطانية : ١٩٢٥ ، م ١ ، ص ٤٥

<sup>٢</sup> د. سوسة : ٥٨٠

<sup>٣</sup> د. سوسة " المرجع السابق ص ٥٨١

يتضح من التنبيه الذي ورد في القرآن الكريم أن هناك من وقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الكتاب العرب اليوم بربطهم عهد ابراهيم الخليل عليه السلام باليهود ، وأن هذا التنبيه إلى أن ابراهيم الخليل عليه السلام ظهر قبل وجود اليهود وأنه لا يمكن أن يكون يهودياً ثم الإشارة إلى اتصاله بالجزيرة العربية (بيت الله العتيق ) يتفق تماماً مع ما توصل إليه العلماء .

### الفرع الثاني

#### شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام وصلته بالجزيرة العربية

لقد كان جدنا الخليل عليه السلام زعيماً ذا مقام سام اجتماعياً ودينياً وسياسياً ، فقد اشتهر باستقامة سيرته وسمو مبادئه ، والأرجح أنه كان من أكبر زعماء العرب المسماة بالبائدة ، وعلى هذا فقد كان نطاق اتصالاته يشمل كل الهلال الخصيب تقريباً ومن ضمنه الجزيرة العربية ودلتا النيل الشرقية ، حتى ليقال أنه كان أميراً من أمراء البابليين قبل مغادرته العراق ، وعندما حل بدمشق وهي في أول نشأتها قيل أنه نصب ملكاً عليها .

ويرى الأستاذ هيوز " أن أغلب الظن بأن ذلك قد سجل في تاريخ مدينة دمشق بين سكانها الأولين لأن أليعازر الدمشقي الموكل على بيته كان من هناك " .

ويرجح أن ابراهيم الخليل عليه السلام - بصفته من الزعماء الروحانيين - قد تبادل الرأي وبحث مع كبار رجال الدين المصريين معتقده الديني <sup>١</sup> .

و يقول الأستاذ كينيون أن الحثيين الذين كان إبراهيم الخليل عليه السلام يسكن في حوارهم في فلسطين كانوا ينظرون إليه كأمر عظيم بينهم <sup>٢</sup> .

<sup>١</sup> G.S.Hughes:(Ancient civilization) , 1896,p:352

<sup>٢</sup> F.Kenyon ( The Bible and Archology ) 1940 p.81

وقد روى يوسيفوس<sup>١</sup> نقلاً عن نيقولاوس الدمشقي (القرن الأول قبل الميلاد) أن إبراهيم الخليل عليه السلام بلغ دمشق أولاً وولي أمرها ، و هذا كلام الدمشقي الذي رواه يوسيفوس : خرج ابراهيم الخليل عليه السلام بجحفل كبير من بلاد الكلدان ... فملك دمشق ثم تركها بعد مدة وأقام في أرض كنعان ...

ويجب التنبيه بأن سيدنا ابراهيم كان خبيراً بطرق البادية ومواقع آبارها ، ولما كانت اللهجات العربية لم تكن قد تباعدت عن بعضها البعض في زمنه ، فقد كان يفهم لسان أهل البلاد التي يتوجه إليها ، إذ كانت تتكلم بلغة واحدة ، فقد نزح من أور الكلدان واجتاز سورية وفلسطين ومن المحتمل أن يكون قد مر بالحجاز لزيارة مكة المكرمة ، وذلك قبل أن رحيله إلى مصر ، وهذه كلها بلاد عربية خالصة وقد كانت له اتصالات برؤساء قبائلها .

وإذا أخذنا بما ورد في التوراة من ارتباط ابراهيم الخليل بعشيرته في منطقة حران ( آرام النهرين وفدان آرام )<sup>٢</sup> فيكون في توجهه إلى حران قد حل بين أهله وعشيرته ، لأن منطقة حران كانت في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام مستوطنة آرامية نزح أهلها من شمال الجزيرة واستقروا في السهل الممتد بين البليخ والفرات<sup>٣</sup> .

ومن المحتمل أن يكون ابراهيم الخليل عليه السلام قد زار منطقة أورفة الواقعة جوار حران على بعد عشرين ميلاً شمالاً ، والتقليد القديم عند بعض الطوائف في أورفة بأن ابراهيم الخليل عليه السلام

---

<sup>١</sup> د. سوسة : العرب واليهود ص ٥٥٩

<sup>٢</sup> ورد في كتاب " قصص الأنبياء " للنجار ما يشير إلى أن " فدان آرام " التي ورد ذكرها في التوراة تقع في العراق ولعله يقصد بالعراق وادي الرافدين الذي يشمل كل المنطقة الواقعة على وادي الفرات بما في ذلك منطقة حران الكائنة على منابع البليخ وهو أحد روافد الفرات الأوسط .

<sup>٣</sup> د. أحمد سوسة ص ٥٦٠

سكن فيها ، وتستشهد بالمغارة عند سفح الجبل إلى الجنوب الشرقي من المدينة حيث ولد ابراهيم على ما يزعمون ، وهناك بركة ماء تدعى بركة ابراهيم الخليل ، ولعل تسمية أور المدينة باسم أورفة مشتقة من مدينة أور التي نرح إليها ابراهيم الخليل عليه السلام فسميت باسم مدينته أور تبركاً بها .

وفي سيرة ابراهيم الخليل عليه السلام وصلته بالبلاد العربية يقول الأستاذ مونتوغومري : " إن ما اتسم به ابراهيم الخليل عليه السلام من الخلق الرفيع وعزة النفس هو من صفات الآباء والاعتداد بالنفس التي يتصف بها الشيخ العربي ، هذه الظاهرة تكشف لنا عن الصفة البارزة من صفات العرب ، فقد حافظوا على مقوماتهم الأصلية حتى هذا اليوم على الرغم من التأثيرات الأجنبية الدخيلة التي زاحمت تلك المقومات القديمة <sup>١</sup> .

لقد استقبل سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام بكل ترحاب هو وأتباعه وما معه من جمال وقطعان من المواشي لما كان يتمتع من سمعة وشهرة في جميع البلاد العربية .  
ففي حران كان بين عشيرته وأقربائه وهم جماعة الآراميين الذين كانوا قد استوطنوا في منطقة حران قبل فترة وجيزة .

وفي بلاد كنعان استقبله الكنعانيون بالتحية والتعظيم ، وقد سبق لهم أن استقروا في أرض كنعان منذ أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد ، وهم كالأراميين عرب ساميون من أهل الجزيرة العربية وكانوا كلهم يتكلمون لغة واحدة ، هي لغة الجزيرة الأم قبل أن تتفرع إلى لهجات عديدة .

---

<sup>١</sup> د. أحمد سوسة ص ٥٦١

ومع أننا نعلم أن العناصر غير العربية لم تكن قد تسلمت إلى هذه المناطق بعد ، فالتوراة تشير إلى أن بعض الحثيين قد حلوا كأفراد في كنعان زمن ابراهيم الخليل عليه السلام إلى جانب الكنعانيين إذ جاء في التوراة أن ابراهيم الخليل عليه السلام اشترى من عفرون بن صوحر الحثي "مغارة المكفيلة" التي له في طرف حقله ليتخذها مقبرة له ولسارة امرأته " ، وقد ورد في التوراة أيضاً ذكر عدد من القبائل كانت موجودة في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام يرجح أنها من فروع القبائل الكنعانية أو العمورية ، وهذه القبائل هي قبائل القينيين والقديرين والقدميين والرفائيين والجرشانيين واليبوسيين " ١ .

ومما يذكر أن القبائل العربية المنقرضة ( البائدة ) التي أشار إليها الإخباريون العرب والتي ورد ذكر أهمها في القرآن الكريم مثل عاد وثمود ومعين وسبأ والعمالقة كانت موجودة في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام على ما جاء في كتابات المؤرخين العرب ، ومن المرجح جداً أن ابراهيم الخليل عليه السلام كان على اتصال وثيق برؤساء هذه الإمارات العربية المنتشرة في أنحاء الجزيرة العربية .<sup>٢</sup>

وتشير النصوص القديمة التي عثر عليها أن سلالة من السلالات البابلية حكم فيها أمراء كانوا يتقبلون عقيدة التوحيد ، وقد أخذوا بها إلا أن الوثنيين انتزعوا منهم الزعامة وأخرجوهم من البلاد ، يقول المستر فيلي في هذا الصدد : " إن العرب الجنوبيين ( ويقصد أهل جنوب الجزيرة العربية ) نقلوا معهم ( إلى بابل ) الإله القمر الذي كانوا يعبدونه ، وقد احتل هذا الإله مكانة رفيعة بين مجموعة الآلهة ولم ينافسها إلا الإله القمر الذي كان يعبده الآريون الشماليون

---

١. د. أحمد سوسة ص ٥٦٥

٢. د. أحمد سوسة ص ٥٦٥

، وقد انبثقت من هذا النزاع الحساس بذرة فكرة الخالق الأوحد العظيم الذي يسير جميع هذا الكون ، وهي تعد أعظم ما اقتبسه الإنسانية في تاريخ العالم ، وتنسب الأقوال المتواترة في هذه المرحلة من التفكير الإنساني إلى الأب ابراهام الذي كان حامل لواء النظرية الجديدة ، ويظهر أن هذه الفكرة الجديدة قد حازت إقبالاً وتقبلاً من الوثنيين ، ففي بعض الألواح التي عثر عليها المنقبون في منطقة بابل ما يوضح جلياً أن هناك ثلاثة ملوك يؤلفون سلالة بابلية قد حكموا بعقيدة التوحيد إلاّ أن الوثنيين أسقطوا الملك الثالث ونفوه من البلاد .

ولو محصّنا بدقة ما ورد في المدونات البابلية وفي كتابات التوراة لوجدنا أدلة كافية على أن هذا الملك إن هو إلاّ أبراهام الذي غادر بابل وتوجه إلى فلسطين ، وذلك بعد سقوط السلالة الموحدة المذكورة<sup>١</sup> .

ثم يضيف المستر فيلي أن أسماء هؤلاء الملوك الثلاثة هي أسماء عربية سامية مقترنة بصلة الإله الواحد ، فاسم الأول " إيلوما - إيلوم " ( iluma ilum ) ومعناه " الإله هو الإله الواحد " أما الملك الثاني فاسمه " إيتي - إيل " ( etti-eli )<sup>٢</sup> ، وهذا الاسم مشابه تماماً لأسماء ملوك جنوب الجزيرة العربية ، وأهم ما في الأسماء الثلاثة هو اسم الملك الثالث " ياتي - إيل " ( yati-el ) ومعناه كما ترجمه العلامة Doghty " إلهة الواحد صديق له " ، وهو كما ورد اسم النبي ابراهيم الخليل ﷺ في الكتابات الإسلامية ، أي ابراهيم الخليل<sup>٣</sup> .

---

T.j.B.philiby(The background of islam) 1974 p.p 10-11`

د. أحمد سوسة ص ٥٦٧

<sup>٢</sup> " إيل " هو نفس إله ابراهيم الخليل خالق السموات والأرض الذي ورد ذكره في التوراة وفي الكتابات القديمة ومعناه " الإله الواحد " وجمعه " إيلوهم " وهو غير إله قوم موسى د. سوسة : ص ٥٦٨



ويحتتم المستر فيلي حديته عن صلة ابراهيم الخليل بعقيدة التوحيد ، قائلاً : " ومما لاشك فيه أن ابراهيم لعب دوراً رئيسياً في تاريخ العالم العربي بتأسيسه ديانة التوحيد وقد انتصر أخيراً في كفاحه ضد وثنية الجزيرة العربية القديمة ...

ولا نرانا بحاجة للتأكيد أن ابراهيم كان شخصية ذات مكانة مرموقة ويشير السير وولي إلى أنه النبي الوحيد من الأنبياء الذي سمي بـ " خليل الله " <sup>١</sup>.

وخلاصة القول إن ما تقدم يدل دلالة واضحة على أن ابراهيم الخليل كان شخصية عظيمة وزعيماً سياسياً وروحياً ، لعب أكبر دور في تاريخ الإنسانية وهو عربي قح متصل بالقبائل العربية في جزيرة العرب وليست له أي صلة بعهد موسى واليهود الذي يقع بعد عهده بحوالي سبعمائة عام .

وقد عشر فيما عشر عليه من كتابات عمورية بين أطلال مدينة ( ماري ) العربية على دلائل تؤيد صحة ما ورد في التوراة ، وفي القرآن الكريم حول شخصية ابراهيم الخليل عليه السلام باعتبارها حقيقة واقعية وليست أسطورة خيالية كما يرى بعض الباحثين ، وقد تمكن الآثاريون من تعيين زمن هجرة ابراهيم الخليل عليه السلام بحوالي سنة ١٩٠٠ ق.م ويرجح البعض الآخر أن الهجرة وقعت في حوالي ١٨٥٠ ق.م ، وقد انتهى الباحثة الفرنسي الأستاذ (دي فو ) في أحدث دراسة قام بها في هذا الموضوع /١٩٦٥/ إلى تحديد عصر ابراهيم الخليل عليه السلام بالقرن التاسع عشر قبل الميلاد <sup>٢</sup> ، وهذا يقع في أوائل عصر المملكة البابلية القديمة /١٨٩٤-١٥٩٥/ قبل الميلاد .

<sup>١</sup> ( The The background of islam) 1974 p.p 22-23

<sup>٢</sup> د. أحمد سوسة : ص ٥٦٩

## الفرع الثالث

### فهمنا ووعينا الراهن للإبراهيمية

#### تمهيد

قال تعالى على لسان سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام : ( وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْبَأُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ) (البقرة: ١٢٤) فسيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام يؤسس الإسلام ليس على الظلم والجور واقتلاع الناس ، وإنما على المحبة والرحمة ، رحمة للعالمين من رب العالمين .

وقوام هذه السواسية - تحطيماً للظلم - هو التضحية والبذل والعطاء والفداء حتى بالولد ، ومن أجل ذلك فكل شيء ليس لله فهو باطل قال تعالى : ( قُلْ إِنْ كَانِ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ) (التوبة: ٢٤) والمسألة مسألة تأسيس والبحث عن الجذر الذي يقوم عليه المجتمع وإقامته على فكرة عظيمة هي الله .

نعم كان لقريش جذر وكان هذا الجذر الإيلاف السياسي الاقتصادي ، لكن هل ذلك يكفي ويؤسس العالمية "من العالمين ورب العالمين"...الجواب على ذلك بالنفي ، إذ لا بد من تأسيس يتسع للناس جميعاً قال تعالى : ( لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ) (قريش ١-٤) إن تأسيس سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يكن ايديولوجياً يدعو لمذهب أو لقوم معين ، وإنما هو فوق كل مذهب وكل ايديولوجيا : ( إنه رب العالمين . ؟؟؟ )

فأين نحن من عالمية بوش القائمة على الحق والاجتثاث والتقويض ؟؟

إن تركيز القرآن الكريم على سيدنا إبراهيم هو بناء وتأسيس على تلك القيم التي نادى بها سيدنا إبراهيم ودعا إليها وآمن بها بعيداً عن الدعوة لمذهب أو لقوم ، وإنما دعوة للناس جميعاً ودراستنا هذه ما كانت في لحظة من اللحظات ايدولوجية ، مذهبية عرقية ، ولكن لم تكن في الوقت نفسه غير عربية وغير إسلامية قاصدين بالإسلامية مفهومها القرآني الواسع وبالعربية ( الجنس ) والكينونة والوجود ، فالفوقية ( الجنس ) تعبير عن طبائع الأشياء والنسب المركوزة فيها لا نسبة إلى أن " أنا الأعلى " .

فشجرة الموز لها هوية وشجرة التفاح أيضاً لها هوية وشجرة السنديان لها هوية وهذا هو جوهر أصالة ثقافتنا العربية الإسلامية ، قال تعالى : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ) (الحجرات: ١٣)

فمنهجنا التاريخي الواقعي الحدتي في هذا الكتاب كان منهجنا لدراسة رؤيتنا للعروبة والإسلام ، والمنهج ولاشك ينبع من الرؤية ، بل هو أسلوب الرؤية القويم ، الرؤية هي التي تحدد المنهج ، ولكن المنهج الصحيح يصحح الرؤية ويغنيها حيوية وفاعلية ، لا الرؤية تسبق المنهج ولا المنهج يسبق الرؤية وكل في فلك يسبحون .

وعلى هذا الضوء تتحدد الدراسة في الآتي :

- مسألة عروبة ( عربية ) إبراهيم \_ مسألة إنسانية (عالمية) إبراهيم .

## المطلب الأول

— عربية سيدنا إبراهيم عليه السلام —

ملأت هذه القضية - ومثلها معها العروبة بصورة عامة - حياتنا الثقافية ، وإن أنسى لا أنسى أحد المثقفين المحاضرين في مركز ثقافي في سوريا وقوله بالحرف الواحد : إن قوام العرب الذين جاؤوا إلى سوريا على عهد الإسلام بعشرة آلاف جندي ..

لقد اختزل هذا المحاضر المكان العربي بنقطة والزمان العربي بلحظة والحدث العربي - على امتلائه - ببضعة آلاف من الجنود .

وعلى الرغم من أني قرأت عدة مرات كتاب أحمد سوسة<sup>١</sup> فلم أجد فيه هذا اللون الشوفيني (العروبي الإسلاموي) على حد رأي صاحب كتاب النبي إبراهيم<sup>٢</sup>

وكل ما يقال -رغم جهده الرائع المبذول - إنه اجتهد وربما أخطأ ، فهو فسر الحدث التاريخي تفسيراً عربياً دون تمحل أو ابتسار .

وإذا كان هجوم الدكتور تهامي على كتاب محمد إبراهيم الفيومي وكتاب جمال عبد الرازق البدري أشد وأقسى ، فإنه لا يهمنا ولا يثيرنا هذا الموضوع ، وسنكتفي - بنظرة موضوعية -

بإضاءة هذه النقطة وإعطاء رأي مقتضب فيها وقراءة الأحداث في سوريا والعراق قبل الإسلام قراءة حيادية ودليلنا في ذلك ما يلي :

---

<sup>١</sup> نقصد كتابه العرب واليهود السالف ذكره

<sup>٢</sup> نقصد د. تهامي العبد ولي ص ٥٣٩

١- لعبت الصحارى الكبيرة دوراً هاماً في التاريخ البشري ، إذ كانت دائماً مصدر ضخ بشري ونزوح وهجرة يصدق ذلك على الهجرات الكثيرة التي نزحت من شبه الجزيرة العربية ومن صحراء تركستان وجبال أوربا الشمالية .

٢- لقد كانت الجموديات تغطي أوربا حتى سوريا وهذا ما أخرج ركب الحضارة فيها حوالي عشرة آلاف سنة<sup>١</sup> .

٣- عندما بدأت الاضطرابات المناخية في شبه الجزيرة العربية بدأ الزحف والضخ البشري إلى سوريا والعراق وجزئياً إلى مصر ، وذلك بسبب عدم وجود حدود طبيعية تمنع ذلك .

وأمامي وأنا أكتب هذه السطور مقال للسيد حشيش يتكلم فيه عن اكتشاف مدينة عبر في دولة عمان من قبل فريق أثري أميركي بريطاني يرجحون فيه أن تكون هذه المدينة العظيمة هي إرم التي جاء على ذكرها القرآن الكريم<sup>٢</sup> .

٤- هنالك آراء علمية لها مكانتها تؤكد أن الجزيرة العربية قدمت موجات بشرية وصلت إلى المغرب العربي<sup>٣</sup> ، ونقصد بذلك هجرات البربر من الجزيرة العربية ، فكيف نستغرب الهجرات إلى سوريا والعراق من الجزيرة العربية؟؟

٥- لقد كشفت لي قراءة موسوعة المرحوم الدكتور جواد علي الموسومة بعنوان المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، أن الهجرات من الجزيرة العربية لم تنقطع يوماً واحداً وأن

---

<sup>١</sup> د. صوفي أبو طالب : مبادئ تاريخ القانون - القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٧

<sup>٢</sup> مجلة المجلة عدد ١٩/٦٢٨ تاريخ ١٩٧٠/٢/٢٥

<sup>٣</sup> راجع رائعة كتاب المرحوم الدكتور جمال حمدان " عبقرية المكان " وانظر كتاب الأستاذ السعدي وهو

بربري الأصل من المغرب العربي .

هذه الهجرات كونت مدناً وإمارات في لبنان وسوريا والعراق نذكر من ذلك الرها - الرستن - نصيبين - حمص - تدمر - دولة الأنباط - الحيرة - الموصل.... الخ .. وكان من الطبيعي أن تسفر النتيجة عن وضوح المعركة ويحسم لصالح الضخ المستمر الآتي من الجزيرة الذي كان يتجدد ، وبالتالي أن تذوي الموجات العربية القديمة (الآرامية وغيرها ) مع الزمن لصالح الموجات الأحدث ( الصفويون - التدمريون - الأنباط - الغساسنة - المناذرة ) ، وهذا هو أساس تقسيم العرب البائدة والعرب المستعربة .

وكانت موجة الإسلام العربية التي استطاعت أن تعرب سوريا والعراق بسبب هذا الأصل المشترك بينما لم يحدث ذلك في بلاد فارس ، كما لم نجد هذا التأثير للدولة اليونانية أو الرومانية أو الفارسية في غزو بلادنا .

٦- نعتقد أن الجذر اللغوي الواحد هو الذي يحسم النقاش حول هذه المسألة ، فما هو هذا التطابق لغوياً في هذه الكوكبة الثقافية الجامع لبقية الشعوب العربية؟؟

والواقع أنه ما من لغة إلا وترافدت مع مجلوبات لغوية من ثقافة أخرى ، لكن هذا الترافد يكون عادة من الطبقة العليا للغة ، أما الطبقة العميقة فتنشأ نشأة طبيعية .  
لنأخذ مثلاً اللغة الفارسية أو التركية فنجد أن هاتين اللغتين تأثرتا بالإسلام ، وذلك في الكلمات الثقافية وخاصة الدينية .

نخلص من ذلك للقول بأن هاتيك اللغات السامية حتى البربرية (تهيب بالقارئ الرجوع إلى المعجم البربري ، ليتسنى له لمس هذا الجذر اللغوي المشترك) عبرت عن نفسها في الجذر اللغوي ، بمعنى أن هذه القرينة القاطعة ليس لها إلا تفسير واحد - كما يقول

رجال القانون وفقهه - هو أن المصدر الأم نشأ في الجزيرة العربية حيث كانت الظروف

الطبيعية ملائمة أكثر من سوريا والعراق اللتين كانتا لا تزالان في العصر الجمودي .

٧- الجزيرة العربية محاطة بالبحر من ثلاث جهات ( البحر الأحمر شواطئه مرجانية تعيق

السفن ) لذلك كانت هذه الجزيرة بمعزل عن كل غزو ، هكذا ارتد شلمنصر الآشوري سنة

٧٨١ ق.م ونبونيد البابلي وهكذا نسمع من جنود شلمنصر أن الأفاعي كانت تهاجمهم ،

وهي طائفة ، ونسمع أن نبونيد اضطر إلى أن يقيم في تيماء في العربية الشمالية (شمال

الجزيرة) ، أما غايوس الروماني فقد أعياه التعب والنصب أثناء غزوته التي امتدت من شمال

الجزيرة على ساحل البحر الأحمر حتى اليمن والنتيجة لا طائل ولا غاية مرجوة من ذلك ،

والأمر نفسه بالنسبة لغزوة أبرهة على مكة لتحطيم الكعبة .

وما نريد أن نقول إن الجزيرة العربية كانت أبداً القلعة المتينة ، أما الأطراف ومدنيتها في

سوريا والعراق ، فقد أخذت تتقوض مع الزمن هذا ما حدث للآراميين والكنعانيين

والفينيقيين ، أما الجذع العربي في الجزيرة العربية فقد كان هو المحلي في نظام الاصطفاء

الطبيعي مع إخوته بقية الشعوب العربية ، وهو ما شاهدناه من ضمور وتخلخل في الكوكبة

السورية العراقية بعد سقوط بابل يقابل ذلك صعود في الخط البياني لصالح مجموعات

الجزيرة العربية .

لقد كان التطور الاجتماعي دائماً لصالح الشعب العربي الجديد الصاعد من الجزيرة العربية

حيث كان هذا المستودع البشري الكبير ( مثله مثل الصحارى العالمية ) يفيض بالموجة

البشرية تلو الموجة .

لقد كان الرومان يهتمهم مثلاً القبض على زمام السياسة ، ولكن لا يهتمهم أن يأتي

الصفويون وينتشروا ويتوضعوا من حوران إلى العراق .

نسمع مثلاً أن الضيزن ( أمير الحضرة أو أربايا ) أعلن نفسه ملكاً للعرب وبني إرم ثم بعد مدة يصبح ملكاً عربياً إشارة إلى قوة العنصر العربي .

هكذا نجد الحياة المشتركة بين بني إرم والعرب في الحيرة وفي تدمر ولكن الخط البياني للاصطفاء الطبيعي كان بيد العرب .

هذه المقدمة الواسعة تدفعنا للتساؤل عن الدهشة والاستغراب من مقولة أحمد سوسة المدللة بأن ابراهيم كان شيخاً عربياً<sup>١</sup> .

إن كل كتابنا القدامى يؤكدون أن بني إرم هم من العرب البائدة ولعل ما جاء من الاكتشاف الأخير لمدينة هجر يدعم هذا الرأي ، وعلى كل فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف بتأكيد الرسول ﷺ بارتباطه الديني والدموي بسيدنا ابراهيم وابنه اسماعيل .

## المطلب الثاني

### الإبراهيمية ومسألة روح الإسلام وروح المسيحية وروح اليهودية

وكان محمد وكان النبا العظيم ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وطبعاً فهؤلاء الناس الذين دخلوا في دين الله ( عند نزول الآية ) هم عرب ، فهل كان روح الدين يخالف روح الذين دخلوا فيه أفواجا والعربي آنذاك يعطي الكلمة صادقة ولو قطعوا منه الوتين ، أو تطاير رأسه في السماء؟؟

مسألة تطابق روح الإسلام مع روح العروبة مسألة محسومة ولا تحتاج إلى نقاش ، وهي خارجة عن نطاق الجدل لسبب بسيط هو أن الإسلام احتضن الروح العربية منذ أن غرس

---

<sup>١</sup> راجع نقد الدكتور تهامي العبد ولي لذلك



سيدنا ابراهيم عليه السلام الغرسة الأولى في الجزيرة العربية ، وبالتالي فإذا كان الغربيون يقولون بخروج اللوغوس ( العقل ) LOGOS والميتوس METOS ( الأسطورة ) من اوقيانوس واحد ، فإننا ندلل ونقول بأن العروبة والإسلام من رشيم واحد هو سيدنا ابراهيم عليه السلام ( الموجه من الله ) ، فنكون بهذا الرأي التاريخي قد خالفنا المقولة القائلة بأن الإسلام موجة من الموجات العربية \_ وإن كان أعظمها وأنبهها - والتي صعدت من الجزيرة العربية <sup>١</sup> .

نعود فنتساءل عن هذا التطابق بين روح الإسلام وروح العروبة؟؟

لن نجيب على هذا السؤال بأسلوب ميكانيكي سريع ولن نستدل بالتاريخ الطويل كحجة على ذلك ، ولكننا نجيب بكل ريث وهدوء ...

والواقع أن التعلق بالدار بالأهل بالوطن هو التعلق بالشعار الأخضر ، أو كما قال جوته :  
" النظرية رمادية ولكن شجرة الحياة أبداً خضراء "

وهذا ما أكده هيبوليت وأطلق على تجاهل ذلك " تجاهل القوى الحيوية للحياة " <sup>٢</sup> .

يقول روبرت ماكيفر : يجب التمييز بين تعلق الإنسان بجماعته وبين تعلقه بالمعتقد فالتعلق بالدار الاجتماعية شعور يشمل ساكني الدار وسكنهم ولكن التعلق بالمعتقد وبالقضية يقف عند حد القيم الثقافية التي تؤمن بها والتي تخالف قيماً ثقافية أخرى يؤمن بها غيرنا من ساكني الدار ، والإنسان بحاجة إلى هذين المتعلقين لأن التعلق بالدار يعبر عن علوية الفرد وعن تحقيق كيانه الاجتماعي ، ولكن التعلق بالمعتقد يتجاوز العلاقات الشخصية ،

---

<sup>١</sup> د. فهمي جدعان : أسس التقدم .

<sup>٢</sup> هشام جعيط : الإصلاح والتجديد في الدين مقال منشور في مجلة الاجتهاد ، دار الاجتهاد ، بيروت

ويعبر عن علاقة الجماعة بالحياة والكون ... يكون التعلق بالجماعة والتعلق بالقضية كلاً متكاملًا ، فالتعلق بالجماعة ودارها يرضي الحس الاجتماعي ويملاً العاطفة حرارة ، ولكنه يفتقر إلى محتوى وإلى إمكان النمو ما لم يتعلق بالقضية والغلو في الشعور القومي مدعاة للغرور وإذا أردنا الحد من خطر هذا الغلو أيقظنا في النفوس الحس الاجتماعي بالمعاني الذاتية للقيم ووجهناه نحو نسق الحياة الذي نتمنى أن نصنعه ، ويجب أن نبرر أهمية القضية كما تبرر أهمية الجماعة ، ودون يؤدي ذلك إلى توحيدهما <sup>١</sup> .

كيف وفق الرسول الكريم بين هاتين القيمتين التعلق بالدار والتعلق بالقضية المبدأ؟؟ لتتذكر عندما خرج مهاجراً من مكة وعيناه مغرورقتان بالدموع وتلفت قلبه إلى مكة وقال : وداعاً يا أحب أرض الله إلي ، والله لولا أهلك أخرجوني منك لما خرجت . نخلص من كل ذلك للقول بأن مبدأ الحياة وقوة الحياة والعناصر المركوزة في الحياة ، "العروبة" تكاملت مع القيمة العليا للحياة - الإسلام .

هذه مقدمة طويلة نسبياً سقناها بين يدي القارئ ، ونحن ناقش مقال السيد هشام جعيط ، حيث يتساءل عن روح الإسلام وروح المسيحية وروح اليهودية وكأنه ينطلق في هذا السؤال من جوابه على كتاب هيكل الموسوم بعنوان <sup>٢</sup> : l'Esprit du christianisme et son distin

يقول ( هيغل ) كان لدى ابراهيم جد الشعب اليهودي بذرة لروح اليهودية ، قطع ابراهيم روابط الحب والأسرة والأرض ولم يكن يريد أن يحب ، وقد حكم على نفسه بالنفي من بلاد كلدان فلم يتعلق بأي مكان بذلك الذي يصنع حياة البشر كالوطن والأرض والشغل

<sup>١</sup> روبرت م . ماكيفر : الدولة ترجمة د. حسن صعب بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٦٦ ص ٥٢٠ و٥٢١

<sup>٢</sup> مقاله السالف الذكر ص ٢٥٦

والرباط البهيج بالطبيعة ، وكان ابراهيم يجول بمواشيه على الأرض بلا حدود كان على الأرض كما كان غريباً بين الناس .

وقد علق هيبوليت تعليقاً رائعاً على هذا العمل فقال : إن هذا العداء إزاء كافة القيم الحيوية يعادل إقامة علائق موضوعية بين العالم والإنسان .

ذلك أن ابراهيم لم يطع إلا الواحد السيد الذي هو خارج الطبيعة وأقر هيجل بعد ذلك أن فكرة الواحد كانت مرحلة أساسية في تاريخ العالم إذ أقامت موضوعية الطبيعة طارحة منها الإلهي حتى لو كان ذلك تطهيراً للشعور من وجه آخر <sup>١</sup> .

ويتابع جعيط قوله على لسان هيجل : إن الإله الواحد هذا الرب الغيور سيخضع خضوعاً كلياً ذرية ابراهيم ضمن علاقات السيد بالعبيد ، فكبرياء الشعب اليهودي أن يبقى المفضل الوحيد لهذا الإله ، لكن تاريخه كان تاريخاً مغلوطاً غير نبوي أو يكاد ، ولقد تحققت أشياء عظيمة لفائدة اليهود ، لكنهم لم يقوموا بأعمال بطولية وقد تردد الشعب اليهودي بين عدة أوضاع وعرض له أن يتعد عن عقيدته لما اتصل بالإنسانية المشاعة لكنه كان يسترد ذاته ويرجع إليها <sup>٢</sup> .

ويرى هيجل في الفكر اليهودي انفصاماً عن الحياة لم يعهد الفكر اليوناني ، وجود تعارض الحياة معارضة أساسه التفكير والعقل وتشينة العالم الضرورية لميلاد العلم <sup>٣</sup> .

---

<sup>١</sup> هشام جعيط : الإصلاح والتجديد في الدين ص ٢٥٧

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٢٥٧

<sup>٣</sup> المرجع السابق ص ٢٥٨

إن المصير الاستثنائي للشعب اليهودي شقاء كبير أفرزه التوحيد<sup>١</sup> . فالتوحيد يقيم انفصاماً بين الإنسان ونفسه بين الإنسان والعالم<sup>٢</sup> .

أراد يسوع مصالحة شعبه بالحب ، لكن شعبه رفض ذلك فاتجه إلى الأفراد ، وكان في إمكانه إما أن يشارك شعبه مصيره فيحقق طبيعته التي خلقت لكي يحب ، أو أنه يعي طبيعته لكنه لا يمكنه تحقيقها في العالم ومصيره أنه لم يكن له مصير تاريخي<sup>٣</sup> .

وبعد أن انتهى جعيط من عرض رأي هيجل عن اليهودية والمسيحية أخذ يتكلم عن الرسول ﷺ فقال : أعاد الرسول مسيرة ابراهيم ، فقد خاطر بحياته وحياة مواطنيه منفصلاً عن تقاليد شعبه ، ومزق الروابط الجماعية وروابط القرابة باسم حقيقة علوية شعر بها وعبر عنها بقناعة قوية جداً ، وهكذا بدأ يبذل نشاطه بتمزيق الروابط وانتهى بعودة إلى العروبة بمصالحه ، وهكذا أراد القرآن أن يعتبر ابراهيم لا كجد لجنس معين ، ولا مؤسساً لدين وضعي بل كباحث حر عن الحقيقة لا يجامل ، لكن وضمن السياق التاريخي للقرآن حقق جذر الأمة العربية وهو الوسيط الذي يحرر الشعب العربي من انتقائه وهو الذي يعود الرسول بفضلله إلى العروبة دون أن ينقطع مع الحقيقة<sup>٤</sup> .

ويمكن القول إن ابراهيم هيغل ليس الذي وصفه القرآن وإنه لعن بدأ الرسول كثائر منعزل مثل ابراهيم ( هيغل ) قد أنهى رسالته بالتصالح مع عبقرية شعبه<sup>٥</sup> .

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٢٥٨

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٢٥٨

<sup>٣</sup> المرجع السابق ص ٢٥٨

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص ٢٦٢

<sup>٥</sup> المرجع السابق ص ٢٦٢

إن مصير الرسول في القطيعة مع القاعدة القومية قاعدة مكة وأيضاً قاعدة التقليد العربي إجمالاً وتقليد الجاهلية بصورة أوسع ، ثم في مرحلة ثانية في العودة إلى الوطن ، الجسمة بفرض القبلة ، وبقبول ابراهيم جداً للعرب ، وجعل الحج في مكة من الشعائر ، وأخيراً بعودة جسدية عاطفية إلى مكة ...

إنه لم يعد للاستقرار بمكة لكنه فتح أبواب الأمة على مصاريعها في وجه مواطنيه مميزاً بوضوح المهاجرين على الأنصار ، وكان مبهجاً إلى أقصى حد لأن عشيرته رضيت به آخر الأمر .. إن هذه الحركة المزدوجة وهذا الكفاح من أجل الحقيقة المتعالية التي ضمنت بالتلاقي ، يرسم عبر مصير الرسول ، روح الإسلام بالذات ... انتصر محمد ونجح حيث عجز ابراهيم ، وأخفق يسوع فطابق أو صالح بين التفكير الذي لا يساوم والحياة .

والإسلام لم يستمد من بنية هذا المصير وجوده كدين مستقل وحسب ، أي دين عربي وكوني في آن واحد بل إنه تأثر به كذلك في روحه كما في طابعه <sup>١</sup> .

وفي النهاية يجب أن تمثل روح الإسلام وجوهره الذي تعني التفتح على الخارج ، ثم العودة إلى الذات والبحث وإيجاد الطريق الوسط التي هي طريق الاتزان والاعتدال والتجميع <sup>٢</sup> .

وبصورة عامة نستطيع القول من حيث النتيجة إن المقال عانق روح الإسلام وسبرها من حيث علاقتها بالعروبة وإن كان يؤخذ عليه قوله إن الرسول عاد إلى العروبة ، فهو لم يخرج عن دائرتها وإنما اخرج من وطنه إخراجاً ، وقد ذكرنا أنه قال عند الهجرة يودع مكة : مكة يا أحب بلاد الله إلي .

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٢٦٢ و٢٦٣

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٢٦٥

لقد كان على الرسول أن ينجز ثورتين ثورة العقيدة ، ثم ثورة العلاقة مع الوطن وقد أُنجز الثورتين الأولى ليعود إلى الثانية .

فإن الله تعالى شاء أن تكون رسالته موحاة من خلال وحي منزل بالعربية ، وهذه العربية هي جزء ماهية القرآن ( أصل أجمع عليه الفقهاء )

وبذلك يكون الله تعالى قد أوضح منهج ورؤية الرسالة ، فالرسالة رؤية ( وحي منزل ) والمنهج هو اللغة العربية .

وبيان ذلك أن الرسالة لا بد لها من وسيط بشري ، وهذا الوسيط هو العرب لأسباب لا مجال هنا لتفصيلها ، منها كون العرب أمة الفطرة التي لم تَدنس بالجهالات والمذاهب ، فالإسلام اختار الوسيلة والغاية ، وبالتالي فكثير من الدعوات فشلت بسبب استهتارها بالوسيلة مع العلم أن الوسيلة تتكافأ شرفاً مع الغاية .

#### تقويم وتقدير

#### روح الإسلام وروح المسيحية وروح اليهودية

نعقد أننا وصلنا مع الأستاذ جعيط إلى النتيجة المؤملة في هذا الكتاب ، وإن كنا نختلف من حيث الوسيلة .

وبيان ذلك أن القارئ لمقال الأستاذ جعيط يشعر أنه يعالج مسألة إنسانية بشرية ليس لها أية طبيعة إلهية .

فالأستاذ جعيط مثلاً يقول أن الرسول عاد إلى العروبة في حين أن رسول ﷺ لم يبتعد عنها ، وكل ما يقال أن العروبة كانت قائمة والأمر على خلافه بالنسبة للتوحيد ، وبالتالي فالرسول أسس ما لم يكن مؤسساً وعاد ليضع التوحيد والعروبة كل في مكانه كأننا في

منظومة أو نسق معمار تلازمت وتواشجت وتباينت وتداخلت عناصره ، وليس مزاج الرسول وإرادته هي التي أشادت المعمار وحددت جوهره وروحه .

فالله تعالى يحدد لكل غاية وسيلتها ، فالله تعالى : ( اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ) (النحل: من الآية ١٢٥)

يقول الأستاذ جعيط : وفي الجملة لو بقي الإسلام في مرحلة اليهودية أو بمخبئه في المدينة ( نرفض تعبير مخبئه ) رافضاً رفضاً صلباً نافرماً من روابط الحياة في طهر مطلق !..

لكن هذا الطهر موجود في صلب الإسلام كعنصر مركبي ، وسيحاول الشيعة والخوارج البحث عن هذا الطهر والحفاظ على جذوته ، وكذلك رجال كأبي ذر <sup>١</sup> .

وهنالك مقولة هامة للمفكر ابن نبي فحوهاها : أن الفترة الممتدة من غار حراء إلى معركة صفين هي الحقبة التدشينية التي بلورت أساس الإسلام <sup>٢</sup> .

وفي رأينا إنه بعد صفين حدث صدع كبير في الأمة حيث انفلقت إلى شقين كبيرين شق الطهارة ( الخوارج والشيعة ) ، وشق آخر هو شق الواقعية ( الأمويون وغيرهم ) .

وقريب من هذه الرؤية ما قاله الخليفة الأواه المنيب عمر بن عبد العزيز فقد شبه الأمة الإسلامية بنهر عظيم نغير اشتق منه معاوية جدولاً وتبعه الخليفة مروان وعبد الملك وتتالي

الأمر .. الخ ...

ونحن نقول إن سيدنا عمر بن عبد العزيز قارب الموضوع برؤية العين والقلب دون أن يبحث الأسباب ، وهي فصل العروبة عن الإسلام أو لنقل فصل الإسلام عن أدواته .

---

<sup>١</sup> الأستاذ جعيط : المرجع السابق ص ٢٦٣

<sup>٢</sup> مالك بن نبي : شروط النهضة ، تحقيق عمر مستقاوي وعبد الصبور شاهين ، القاهرة ، دار الفكر .

وتمضي السنوات فنجد مظاهر متعددة لتعمق هذه الصدوع ، فإذا بالشعوب التي دخلت الإسلام تأتي برؤية تبعد فيها العرب عن هذا الدين .

وإذا كانت الأمة استقامت بين الحين والآخر لتؤسس نظريتها الثقافية ( علوم الملة ) على الثقافة العربية والثقافة الإسلامية ، فقد بقي الأمر بين الفقهاء العضويين والجماهير العربية المسلمة لكن السلطة الإسلامية بقيت في طلاق مع العروبة .

ونحن الآن أمام مستقبل مرتجى ونعتقد أن الأساس هو الرجوع إلى تلك الروح التي شبت في ضلوع سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل عليهما السلام ، وبقيت في حنايا الأمة ترعاها كثيراً أو قليلاً وتدبر عنها قليلاً أو كثيراً إلى أن كان الرسول العظيم العزيز من نفس هذه الأمة أو كما قال تعالى : ( لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَبَا عَثْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ) (التوبة: ١٢٨) هذا المؤسس الجديد " محمد " ﷺ الابن الروحي واللغوي والدموي للخليل ﷺ تكلم من خلال خمسة وتسعين مأثوراً نبوياً عن حبه للعرب وفخره بالعرب وفضل العرب على الإسلام فهل من مدكر هل من معتبر .

تجربة سيدنا اسماعيل ﷺ " أب العرب المستعربة "

يمكن القول إنه إذا كان سيدنا ابراهيم ﷺ هو المؤسس لفكرة التوحيد المبلور لها المجلي لمعانيها ، فإن سيدنا اسماعيل ﷺ هو المشيد والباقي لأفكار والده والمترجم لها على مستوى التفصيل والتطبيق .

لقد عاش سيدنا اسماعيل ﷺ بين ظهري قبيلة جرهم ، فلفحت وجهه دفاء شمسها ، وتفتقت لهاته بلغتها .



تقول الموارد التاريخية : إن أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه اسماعيل عليه السلام ، فقد ألهم اسماعيل هذا اللسان إلهاماً ، وكان أول من فتق لسانه بالعربية المبينة ، وهو ابن أربع عشرة سنة واسماعيل عليه السلام وهو جد العرب المستعربة <sup>١</sup> .

وهنا - استطراداً - تحضرنا ملاحظتان ، أولاهما أن سيدنا ابراهيم عليه السلام تنقل في البلاد العربية واتصل بساداتها وتكلم مع الناس ..

إذن كان هنالك شعوب عربية ولغة عربية واحدة قبل أن تتعمق اللهجات .

الملاحظة الثانية تتعلق بالعربية التي نطق بها سيدنا اسماعيل عليه السلام وهي لهجة جرهم التي آلت إلى العربية الفصحى المبينة .

وقد ذكر الإخباريون أن اسماعيل عليه السلام نشأ بين " جرهم الثانية " وتزوج منها ، وأن ابراهيم عليه السلام بعد أن أتم بناء الكعبة ورفع قواعدها ترك ابنه اسماعيل في جرهم ، ثم تغلبت خزاعة على جرهم ، فانتزعت منهم السدانة واحتفظت بها إلى أن انتقلت إلى قريش <sup>٢</sup> .

ويضيف الإخباريون بأن الطبقة الثالثة من طبقات العرب هم العرب المستعربة ومنهم العدنانيون أو النزاريون أو المعربون ، وهم من صلب اسماعيل وأمهم رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي <sup>٣</sup> .

فالمهد الأول للاسماعيلين - بإجماع أهل الأخبار - مكة بين ظهراي جرهم <sup>٤</sup> .

---

<sup>١</sup> تاج العروس : ٣٥٢/٢ ( طبعة الكويت ) / مادة عرب / اللسان : ٧٥/٢ - المزهري : ٣٠/١

<sup>٢</sup> اللسان : ٣٩٤/١٤ - جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ٣٦٠/١

<sup>٣</sup> ابن خلدون : ٣٣/٢ - الطبري : ١٦١/١ - ابن الأثير : ٤٩/١ - الطبقات : ١/١ - ابن هشام :

٣/١ - تاج العروس : ٣٧٧/١

<sup>٤</sup> نهاية الأرب : ٣٩٢/٢ - الطبقات لابن سلام ص ٤

وقد بني اسماعيل باثني عشر ولداً هم : نابت - قيدير - أدثيل - ميشا - سمها - ماش -  
دما - آذر - طيما - يطور - نبش - قيديما <sup>١</sup> .

ولما جاء ابراهيم إلى مكة للمرة الثانية ورأى زوجة اسماعيل الثانية ، أمر ابنه اسماعيل  
بإبقائها ومنها كان نسله <sup>٢</sup> .

ومن المعلوم أن أبناء اسماعيل الذين جئنا على ذكرهم أسسوا إمارات لهم في العربية  
الشمالية ( شمال الجزيرة ) وامتدت هذه الإمارات إلى جنوب الأردن ، ونذكر التوراة أن  
هذه الإمارات والمنازل امتدت من حويلة إلى شور ، وأنهم كانوا يغيرون باستمرار على  
العيرانيين <sup>٣</sup> .

ويتعرض العلامة جواد إلى منازل الاسماعيليين <sup>٤</sup> :

- ادثيل قبيلة عربية اسماعيلية عاشت جنوب البحر الميت .
- دوما هي دومة الجندل .
- طيما هي تيماء
- ويطور أقامت شرق نهر الأردن

---

<sup>١</sup> ابن هشام : ٣/١ - ابن خلدون ٣/٢ - الطبري : ٣٦١/١ - ابن الأثير : الكامل : ٤٩/١ - جواد

علي : ٣٧٦/١

<sup>٢</sup> الطبري : ٢٥٦/١ و ٣١٤

<sup>٣</sup> جواد علي : ٤٣٦/١ - الطبري ٣١٤/١

<sup>٤</sup> جواد علي : ٤٤٠/١ و ٤٤١ و ٤٤٣ و ٤٤٥

- ويرى المذكور أن الطوريين حلف قبائل جمع الاسماعيليين اليقظانيين وهؤلاء اليقظانيون  
١ أقدم من الاسماعيليين لأنهم مباشرة أبناء ابراهيم ، ويضيف بأن المديانيين فرع من  
الاسماعيليين ٢ .

وتجدر الإشارة إلى أننا لا نخوض غمار معركة النقد التاريخي فنحدد أبناء اسماعيل ومنازلهم  
، ولكن يهمننا تبيان تلك الصورة .

والمكانة المرموقة التي كانت لسيدنا ابراهيم عليه السلام وابنة اسماعيل عليه السلام عند العرب ، تعكسه  
الآية القرآنية القائلة : (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي  
الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ) (الحج: من  
الآية ٧٨)

وهذه الصورة الحية نلمسها عند ابن سعد ، يقول المذكور : روي عن الرسول ﷺ قال: كل  
العرب ولد اسماعيل عليه السلام ٣ .

ونعود فنؤكد مرة ثانية - كما يفعل علماء الاجتماع - بأنه لا يهمننا إلا هذه الصورة  
المشرقة التي كونها الوجدان العربي عن اسماعيل وأبيه ، وإلا كيف نفسر ما ذكره الأخباريون  
من أن سيدنا إسماعيل عليه السلام أول من ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشاً لا تركب ولعلنا  
نلمس هذا التقدير الكبير لسيدنا إسماعيل في الظاهرتين الآتيتين :

١- أول من تفتقت لهاته بالعربية المبينة :

١ جواد علي : ٤٤٦/١

٢ جواد علي : ٤٥٥/١

٣ الطبقات ج ١ ، ف ١ ص ٢٥

ومع أننا أعلننا مراراً عدم أخذنا بالنظرية التوقيفية ، بل بالنظرية التطورية لنشوء اللغة ، فإننا نلمس الأخذ بالنظرية التوقيفية لنشوء العربية الفصحى الميينة وربطها بفعل سيدنا إسماعيل .

فها هو مصطفى صادق الرافعي يقول : العربية بدأت بإسماعيل فلما خرج أولاده من ديارهم وتشعبت قبائلهم تنوعت لهجاتهم ، وتباينت ألسنتهم حتى ظهرت قريش من بينهم ، فأخذت وأعطت وهذبت الألسنة ومازالت تهذب حتى كان القرآن ...

وهذا المعنى يؤكد صاحبه تاج العروس إذ يقول : ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً وقيل إن يعرب أول من نطق بمنطق العربية وإسماعيل أول من نطق بالعربية الخالصة الحجازية التي نزل عليها القرآن الكريم<sup>١</sup> .

وصاحب المزهري يرى أن آدم عندما كان في الجنة كان لسانه العربية ، فلما عصى أمر ربه سلبه الله العربية ، فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية (رواية عن ابن عباس)<sup>٢</sup> .

ويتابع صاحب المزهري قوله : العربية نوعان ، عربية حمير ، والعربية المحضة التي نزل بها القرآن ، وأول من نطق لسانه بها إسماعيل ، فعلى هذا القول يكون توقيف إسماعيل على العربية المحضة يحتمل أمرين ، إما أن يكون اصطلاحاً بينه وبين جرهم النازلين عليه بمكة ، وإما أن يكون توقيفاً من الله<sup>٣</sup> .

---

<sup>١</sup> تاج العروس : ٣٧٦/١ ( مادة عرب )

<sup>٢</sup> المزهري : : ٣٠/١

<sup>٣</sup> المزهري : ٢٨/١

والعربية المحضة هي العربية الخالصة ، وهي العربية الأصلية عربية إسماعيل عليه السلام ، وقد نعتت بالعربية المتينة ، وقالوا أول من فتح لسانه بالعربية المتينة إسماعيل ، وروي أن الرسول ﷺ تلا قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، ثم قال : ألهم إسماعيل هذا اللسان إلهاماً وفضلاً عن ذلك فإسماعيل أول من كتب بالعربية <sup>١</sup>.

وكان ابن عباس يقول : أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل عليه السلام وضعه على لفظه ومنطقه <sup>٢</sup>.

## ٢- الأرومة العربية المحضة المتينة الصرفة :

فقد ذهب أهل الأخبار إلى أن العرب كانوا على دين إبراهيم دين الحنيفية دين التوحيد الدين الذي بعث بأمر الله من جديد متجسداً وممثلاً في الإسلام <sup>٣</sup>.

وذهب رينان الفرنسي إلى أن العرب مثل بقية الساميين هم موحدون بطبعهم <sup>٤</sup>.

- وذهب أهل الأخبار إلى أن العرب الأولى كانت على ملة إبراهيم تؤمن بإله واحد اعتقدت بربه وحجت إلى بيته وعظمت حرمة ( الأشهر الحرم ) ، وبقيت على ذلك ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبووا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل وغيره ، فعبدوا الأوثان حتى أعادهم الإسلام عليه <sup>٥</sup>.

---

<sup>١</sup> صبح الأعشى : ١٠/٣

<sup>٢</sup> الصاحبي : ٣٤ - المزهر : ٣٤٢/٢

<sup>٣</sup> جواد علي : ٣٤/١

<sup>٤</sup> E.renan : histore general et systeme compare des langues semitiques , paris 1888, vol1 , chept .p.11

<sup>٥</sup> جواد علي : ٣٥/٦ - البحيرمي : أيمان

- وذكر اليعقوبي أن قريشاً وعمامة ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم وإسماعيل يحجون البيت ويقىمون المناسك ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ويعاقبون على المظالم<sup>١</sup> .

ماذا اشتملت الموارد الإسلامية عن خبر سيدنا إسماعيل عليه السلام؟؟

كما قلنا هذه الموارد تتسق مع الحدث القرآني وتكاد تكون محددة في هذا المجال فلنستمع إذن إلى ما أورده ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء...<sup>٢</sup>

يقول المذكور : عندما ولدت هاجر سيدنا إسماعيل عليه السلام اشتدت غيرة سارة منها وطلبت الخليل عليه السلام أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها ، فسار بهما حيث مكة ، فلما تركها إبراهيم وولى ظهره منهما أقامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه ، وقالت : يا الله أمرك بهذا؟؟ قال : نعم ، قالت : فإذا لا يضيعنا ، فانطلق إبراهيم حتى كان عند الثنية استقبل بوجهه البيت ورفع يديه قال : ( رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ) (ابراهيم: ٣٧)

حتى إذا نفذ ما في السقاء وعطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً فهبطت من الصفا ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً ، فلم تر أحداً وفعلت ذلك سبع مرات .

<sup>١</sup> اليعقوبي : ٢٢٤/١

<sup>٢</sup> ص ١١٩ وما بعدها

قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : وذلك سعي الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً ، فإذا هي عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء فشربت وأرضعت ولدها وقد مر بهاجر وابنها بيت من جرهم ، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ، فقالت نعم ، وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم ، فلما أدرك زوجته امرأة منهم .

ولما زار الأب ابراهيم ابنه اسماعيل قال : يا اسماعيل إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة ، فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، فلما شب اسماعيل وصار يسعى في مصالحه كأبيه ، فلما كان هذا رأى ابراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده وتمضي قصة الذبح وامتثاله لأمر الله ، وكانت الفدية : (وَفِيذْيَنَاهُ بِتَذْبُحِ عَظِيمٍ) (الصافات: ١٠٧)

وينبري ابن كثير لتكذيب الاسرائيليات بأن الذبيح هو اسحق ومن الحج والأخبار والأحاديث الكثيرة يذكر ابن كثير خبراً لعمر بن عبد العزيز ، فقد سأل رجلاً أسلم وحسن إسلامه وكان يهودياً فقال له الخليفة العادل أي ابني ابراهيم أمر بذبحه؟؟ فقال : اسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك لكنهم حسدوكم .

### المطلب الثاني

- الابراهيمية ومسألة روح العربية والإسلام وروح المسيحية وروح اليهودية -

وكان محمد وكان النبأ العظيم ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وطبعاً فهؤلاء الناس الذين دخلوا في دين الله ( عند نزول الآية ) هم عرب ، فهل كان روح الدين يخالف روح الذين

دخلوا فيه أفواجاً والعربي آنذاك يعطي الكلمة صادقة ولو قطعوا منه الوتين أو تطاير رأسه في السماء .

مسألة تطابق روح الإسلام مع روح العروبة مسألة محسومة ولا تحتاج إلى نقاش ، وهي خارجة عن نطاق الجدل لسبب بسيط هو أن الإسلام احتضن الروح العربية منذ أن غرس سيدنا ابراهيم عليه السلام الغرسة الأولى في الجزيرة العربية ، وبالتالي فإذا كان الغربيون يقولون بخروج اللوغوس " العقل " logos والميتوس metos " الأسطورة " من اوقيانوس واحد ، فإننا ندلل ونقول بأن العروبة والإسلام من رشيم واحد هو سيدنا ابراهيم عليه السلام ( الموجه من الله ) ، فنكون بهذا الرأي التاريخي قد خالفنا المقولة القائلة بأن الإسلام موجة من الموجات - وإن كان أعظمها وأنبهها -

#### تقدير وتقييم هذه النظرية

إذا كان المجال لا يتسع إلا للإجتراء بذلك فإننا نسجل الملاحظتين الآتيتين :

١- العرب أكثر الشعوب اهتماماً بالأصول والأنساب وأقواهم شعوراً بالخصائص ، وهذا ما يتضح من المفاخرة التي تمت في بلاط كسرى والتي تكلم فيها النعمان بن المنذر مدافعاً عن القيم العربية .

٢- بقي الشعور بالنسب والقبيلة فاعلاً بلجم التطلعات الخلاقة لمفهوم العروبة الجديد الذي تخلق في بوتقة الإسلام ، وظهر ذلك جلياً في حروب الردة ، وفي النظرية اللغوية التي سادت في العصر العباسي ، والتي تدلل بأن العروبة اللغوية لا تنال إلا



بالسليقة ، وليس بالاكتساب ، لكن هذه النظرية لم تستطع الصمود أمام التحولات العميقة للمفهوم الحضاري للعروبة القائم على القاعدة الثقافية<sup>١</sup> .

٣- إن عاطفة النسب تلقت ضربات موجعة متعددة منذ حقبة سحيقة ، كما اتضح لنا ، ونرى قطاعات سكانية متعددة من أمتنا ارتقت في تطورها باتجاه الإحساس القومي مروراً بمرحلة الشعب<sup>٢</sup> ، كما في اليمن وقريش والمناذرة والغساسنة والأنباط ، وهذا ما يتضح من قوله تعالى : ( وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ) (الحجرات: من الآية ١٣) ، فهذه الآية تخاطب العرب بحقائق قائمة هي مفهوم الشعب ، وبالتالي فهذا المفهوم لم يكن غائباً عن خلد العرب ، بل هنالك علاقة واضحة بين لغة الخطاب والمتلقين له . هذا وإننا نسجل الملاحظات الآتية حول الديار التي أقامها أبناء اسماعيل :

- ١- كانوا على عداء مع العبرانيين يغزونهم بين الفينة والأخرى ، ولذلك تمنى أشعيا على الله أن يفنيهم ، وهذا ما يفسر فرحهم عندما انتقم منهم بختنصر .
- ٢- كانوا يتحرشون بالبابليين ، ويذكر الإخباريون أن ملكهم أحيمر ثمود هو الذي عقر ناقة النبي صالح عليه السلام كما ذكروا أن قيثار هو أبو العرب وأنه كان نبياً<sup>٣</sup> .

#### تقدير وتقدير

نسجل على هذا البحث الملاحظات الآتية :

- ١- من أهم هذه الدلائل أو العبر تلك التحالفات العربية التي تمت ضد العبرانيين ، وهو أمر طبيعي أن تتحالف القوى الوطنية العربية ضد هذا الجسم الغريب .

<sup>١</sup> د. عبد العزيز الدوري : التكوين التاريخي للأمة العربية ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ط ١ ،

٩٨٤ ص ٨٣ وما بعد

<sup>٢</sup> د. عصمت سيف الدولة : عن العروبة والإسلام ص ٢٨

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٤٤٠

٢- اتضح لنا سعة الأرضين التي قطنها أبناء اسماعيل وإخوانهم ، فهي تمتد من غرب الفرات إلى طور سيناء ، وإلى الخليج العربي فاليمن ، وهذا يؤكد عمق الارتباط العربي في تلك المنطقة منذ زمن سحيق ، وهذا الحضور تؤكد في الموارد العبرانية واليونانية والفارسية والرومانية .

٣- لقد عادت بعض القبائل العربية الإله ( حدد ) كما عبده البابليون والآشوريون ، وهذا يؤكد الترابط القيمي والثقافي بين أجدادنا منذ سحيق الأيام .

٤- بقي ذكر العرب يتردد في النصوص الآشورية التي يمتد تاريخها ما بين سنة ٨٥٠ ق.م حتى سنة ٦٢٦ ق.م ( نقوش آشور بانبال ) ، ولقد اتصل هؤلاء العرب بالأحداث السياسية التي دارت رحاها في المنطقة كما تحالفوا مع القوى الأخرى ضد القوة الآشورية التي كانت تسيطر على عقدة الطرق التجارية شمال الشام وتفرض الضرائب وتقوم بنهب الشعوب الأخرى ، وهذا يفسر اشتراك جندب في حلف دمشق ، ثم حدوث موقعة قرقر (قرب حماه) ضد شلمنصر الثالث سنة ٨٥٤ ق.م ، وهو أحد التحالفات للدفاع عن طريق التجارة باتجاه الأناضول وتلى ذلك تحالفات أخرى عديدة مثل هذا التحالف ، كان أخطرها اشتراك هؤلاء العرب في ثورة بابل حوالي ٧٧٥ ق.م ضد آشور بانبال <sup>١</sup> .

٥- كان للمرأة مكانتها في هذه الجماعات العربية ، وقد وردت أسماء عدة ملكات منهن شمس وزبيبة وسمورامات ( سميراميس ) ، وكن يحكمن بالاشتراك مع أخوة لهن وتحضرن الحروب ، كما كان منهن كاهنات <sup>٢</sup> .

<sup>١</sup> بمجت المعرفة ص ١٣٥

<sup>٢</sup> بمجت المعرفة ص ١٣٥

### الفصل الثالث

## التمخضات السياسية والاجتماعية في الإرادة العربية قبل النبأ العظيم

### مقدمة

عرضنا بصورة خاطفة للتحالفات السياسية التي نشأت على اللاندسكيب (المسرح) الاجتماعي والطبيعي لأمتنا وذلك بالنسبة لأبناء إسماعيل ، هذا وسنطلق تجوزاً تعبير التمخضات التاريخية والاجتماعية الأولى على تلك التحالفات باعتبارها أرهصت للتمخضات الثانية وارتبطت وتعاملت معها ، وبالمقابل فلا يمكن التدليل بركام تاريخي متعثر ومبعثر وقائم على أحداث مستقلة ومتنافرة لاسيما أننا نفاجاً بين الحين والآخر باكتشافات جديدة في تاريخ اليمن والجزيرة العربية .

وبطبيعة الحال فنفسد بالتمخضات الحضارية والتاريخية الثانية تلك التشكلات التي حدثت في الجزيرة العربية أو في الهلال الخصيب ، وتبعاً لذلك تتحدد أبحاثنا بالنسبة لمنظومات هذه الموجة الثانية منوهين بما سبق قوله بأننا لا نقدم بين أيدي القارئ قراءة في التاريخ بالمعنى الحديث والتفصيلي بقدر ما نسعى لاقتناص المعاني واصطيادها ، وهذه الأبحاث هي :

- مدنيات العربية الجنوبية - العرب في الهلال الخصيب - قريش - معركة القادسية -
- غزوة الفيل - صلة العرب بدول الجوار - وحدة التجربة التاريخية العربية قبل الإسلام -

مظاهر وسمات المجتمعي العربي في الجاهلية .

## البحث الأول

### مدنيات العربية الجنوبية

لقد عرف منذ القديم أن تاريخ اليمن هو تاريخ حضارة متقدمة ، وهذا ما دفع اليونانيين إلى تسمية هذه الربوع بالعربية السعيدة ، علماً أن معلوماتنا عن تلك الحضارة القديمة كثيرة ، لكنها تتحدد وتزداد باستمرار بما يكشف عن آثارها يوماً بعد يوم رغم أن الحفريات الأثرية لم تأخذ بعد الاتساع الذي تستحقه .

هذا ونشير إلى أن خطوات التاريخ الأولى من اليمن لا ترجع إلى أقل من ثلاثة إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وإن كان المؤرخون يكتفون أحياناً باستمرار مراحل التاريخ اليمني الواضحة ، وخاصة منذ مطلع الألف قبل الميلاد<sup>١</sup> ، ونحن مدعوون لدراسة هذه الخطوات الثانية ، أو الموجه الثانية في التاريخ اليمني .

وخلافاً لما اتبعناه في دراسة أبناء اسماعيل ، فسنحاول هنا دراسة الخصائص العامة لمدنيات الحضارة العربية الجنوبية تاركين للقارئ التزود في الأمر بالنسبة للتفاصيل لا سيما السياسية ، وفيما يلي أهم هذه الخصائص :

١- لقد وصف هاليفي هذه الحضارة بأنها فريدة من نوعها لجهة ما خلفته حتى الآن من خرائب وآثار ، وهذه هي شهادة كتابات المسند ، والكتابات الأجنبية على يد ديو دروس الصقلي واسترابون وبلينوس والتورا ، وشهادة : بطليموس وأرانوستس وثيوفراستوس ومؤلف كتاب الطواف حول البحر الأرتيري<sup>٢</sup> .

١ بهجت المعرفة ص ٢٦٦ وهذا رأي كلاً من استرابون وجواد علي ج ٢ ص ٧٧

٢ جواد علي ج ٤ ص ٧٣ و٧٤-١٣٠

٢- الملاحظ أن سائر ملوك العربية الجنوبية حملوا ألقاباً مثل يشع (المنقذ) ، صدق ريم (العالي) نبط (المضيء) الأرج (الوضاح) ووصف إله همذان بأنه أوس الت (عطية الله) ، كما وردت في الموارد التاريخية اليونانية واللاتينية والآشورية والتوراة وفي نص سومري يرجع إلى أواخر ملوك أور<sup>١</sup>.

٣- أنشأ المعنيون مستوطنات في شمال الحجاز (ديدان) والعلا ومعان ، حيث سيطروا على الطريق التجاري بين الجنوب والشمال<sup>٢</sup> ، وهذا ما أكده موسك بأنه خلال الألف الأولى قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية من بلاد العرب بأيدي المعنيين والسبئيين<sup>٣</sup>.

وأبعد من ذلك فقد عثر على آثار معنية في شمال الحجاز وجنوب الأردن وفي جزيرة ديلوس اليونانية ، حيث اتضح أن هذه الكتابات كانت بالمسند ، أي أن هنالك جالية معنية متمسكة بأهنتها ، كما عثر في الجزيرة بمصر على وجود جالية معنية في مصر ، حيث كانت تمول المعابد المصرية بالبخور ، وهذا يدحض النظرية الجغرافية التي دلت بها الدكتور الأنصاري<sup>٤</sup>.

وفي الوقت نفسه فهذه الآثار تؤكد أن الفاعل الجغرافي لم يكن ليقف في وجه إرادة الحياة في أمتنا .

٤- كان التقليد في دول معن أن يحكم مع الملك شخص آخر من أقربائه ، وكان الملك يستشير رجال الدين وسادات القبائل ورؤساء المدن ، ويصدر الأحكام على شكل أوامر

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٥٩

<sup>٢</sup> برهان الدين دلو : جزيرة العرب قبل الإسلام ج ٢ ص ٣١٨

<sup>٣</sup> لويس موسل : شمال الحجاز ، مطابع مرمسيس الاسكندرية ص ٩٥٢

<sup>٤</sup> د . محمد جابر الأنصاري .

تفتتح باسم آلهة معين وباسم الملك ، ثم يعلن الأمر كتابة ليطلع عليه الناس ، وكان لكل مدينة حكومتها وآلهتها وهيئاتها الدينية ومجتمعها الذي يقال عم (الشعب) ومجلسها الاستشاري ويسمى (المزود) ، وهو يشبه دار الندوة في قريش<sup>١</sup> ، أما في ديدان فقد كان مجلس الشعب يسمى هجبل (الجبيل)<sup>٢</sup>.

٥- أما آلهة معين المسماة (الت معين) فهي :

- نكرح (الشمس) - ود (القمر) ، حيث ورد في المسند باسم (وادم شهرم).  
ولقد عثر في دومة الجندل على آثار تؤكد أن سكانها يتعبدون لود ، كما وجدت كتابات على جدار في قرية الفاو تؤكد أنهم كانوا يتعبدونه .  
ولقد تعبد أهل ديدان للآلهة<sup>٣</sup> ذوغابت (اله الغابة) وللاله أبو إيلاف ( إله القوافل ) ، وليتذكر القارئ التشابه مع إيلاف قريش .

٦- لقد كثرت في هذه الدولة الحصون (قلت) والحواجز في المناطق الجبلية الخطرة الواقعة على ممرات الوديان إضافة إلى الأسوار العظيمة والموانئ ومخازن ونظم الري والأنفاق الجبلية والخطط ورصف الطريق وإحداث النقرات في الصخور وإنشاء الممرات والسدود مثل سد حين الذي أقيم في زمن الكرب (سمه علي نيف) للسيطرة على مياه الأمطار والسيول ، وهو جزء من سد مأرب ، وكذلك أنشئت القلاع ومن أهم ذلك قلعة حرب ، كذلك

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ١٠٩

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٠٠

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٢ ص ٣٠٠

فقد أنشئت البروج والحصون (حصن مسور) والمعابد مثل معبد لم ومعبد ريدان ومعبد الإله ذات معدن<sup>١</sup>.

لقد عثر على اله اسمه هاني كاتب (هني كتب) ، ومعناه عبد كاتب ، وهو يقابل توت عند المصريين ، ومن أهم المواني ميناء قنا ، حيث كان يصدر ويستورد براً وبحراً إلى الهند ومصر والعراق .

٧- كانت هنالك علاقات تجارية ودبلوماسية بين دول اليمن والهند وتدمر وبني إرم وقريش ، وقد ورد في كتب حضرمية موقعة باسم شخص اسمه قريش .

ولقد عثر على كتاب موجه إلى الملك سنحريب من قبل الملك السبئي كرب إيل<sup>٢</sup>.

٨- لقد ضربت هذه الدول النقود لا سيما في حريب باسم الملك شهر هلل ملك قتيان<sup>٣</sup> وباسم يدع أي نيف .

٩- يلاحظ التشابه بين لغة المسند ، وبين عربيتنا ، ونحن نختار الألفاظ الآتية مثلاً شروداً على ذلك : منلقن (الطريق) - مبلقة (فتحة) .

١٠- لقد عهدت هذه المدن إصدار القوانين الجزائية وغيرها ، ومن أهم هذه القوانين ،

ذلك القانون الذي أصدره يدع أب ذبين ، وقد ورد في هذا القانون عبارة : تعلمان ايذن ، أي علموا بالقانون ، ووقعوا عليه<sup>٤</sup>.

ولقد تحدث هذا القانون عن عقوبة القتل العمد والقتل القائم على الخطأ ، ثم عقوبة الجروح العادية التي تلحق الأذى ، ويعود هذا القانون إلى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٨٤ .

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٥٧ .

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٢ ص ١٨٦ .

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٢ ص ١٩٣ .

وعلى عهد الملك المكرب (ملك وتر) صدر قانون حول كيفية استغلال الأرض مقابل ضريبة معينة.

وتدل الوثيقة : classer على صدور قانون صدق من سادات القبائل ، حول كيفية اعتبار البيع ناجزاً ، ثم حالات رد البيع ، وأخيراً هلاك الحيوان <sup>٢</sup>.

وذكر في نهاية النص طائفة من الأسماء كتبت بعد جملة ايدهن وتعني أنهم قرأوا القانون ، وشهدوا على صحة صدوره ، ووقعوا بأيديهم ، وأنهم يوافقون عليه ، كما وقع عليه المجالس الاستشارية للملك <sup>٣</sup>.

وهنالک قانون أصدره شهر هلا.. ويتعلق بواجبات الشعب في كيفية استغلال الأرض ، حيث أنذر المخالفون بفرض عقوبات ، ووردت فيه عبارة تعلماني يد شهر ، أي علمته ووقعته ، ولقد حدد هذا الأمر وقت تنفيذ المزارعين لالتزاماتهم ، وذلك في أول شهر ذو فرعم إلى السادس من ذي فقهو ، أي أن ذو فرعم هو الشهر الأول عند الزراع ، وذو فقهو الشهر الأخير من السنة <sup>٤</sup>.

أما الكتابات ذات الرقم classer فهي أمر ملكي حول كيفية جباية الضريبة على الرسم الصافي وعلى كل ربح يأتي من التزام ، أو من بيع أو إرث .

وذكرت هذه الوثيقة ضريبة ( عصم ) لصالح المعابد ، وقد وقعها الملك وأعلنها للناس بقوله : يد شهر أي وقع عليها شهر بيده في شهر ذي برم الأول من سنة موهم <sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ١٩٣

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٠٢

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٠٩

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢١٣

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٠٠



وكانت العقود والقوانين تعلق في أمكنة بارزة مثل المعابد وأبواب المدن<sup>١</sup>.

وعشر على نص أصدره الملك إلى القتبانيين حول كيفية دفع العصم<sup>٢</sup>، كما عشر على قانون أصدره شهر يهرجب باسمه وباسم شعب قتبان في كيفية استثمار الأرض، ويظهر أن رؤساء القبائل وأعيان المملكة اجتمعوا، وتداولوا الرأي حول استثمار الأرض، واتفقوا على الأسس ورفعوها إلى الملك، فأقرها مع الكهان.

١١- ولقد عشر في تمنع على تمثال أسدين من البرونز، حيث ركب على أحدهما طفل على هيئة إله الحب (كيوبيد)، حيث حمل بإحدى يديه سهماً، وبالأخرى سلسلة تطوق عنق الأسد، وهذا يعني أن الحب يطوع القوة<sup>٣</sup>، وعشر على رأس فتاة منحوت من رخام أبيض معرق، وقد تدلى شعرها بخصلات مجمدة على الطريقة المصرية، وجيدها محلى بعقد، وعيناها من حجر اللازورد الأزرق<sup>٤</sup>.

١٢- أقيمت ديدان في وادي العلا باعتباره عقدة مواصلات تربط الجزيرة العربية ببلاد الشام ومصر، كذلك كانت بوتقة ثقافية، وهذا ما يتضح من كتابتها التي تجمع بين مزايا الخط الشمالي والجنوبي فهي تقع على الطريق البرية الموازية للبحر الأحمر، حيث كان أهل العربية الجنوبية ينقلون تجارتهم وتجارة أفريقيا والهند إلى بلاد الشام<sup>٥</sup>.

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٠٢

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٠٣

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٢٦

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٢٦

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٤٤

١٣ - عبر أهل اليمن وبقية العربية الجنوبية عن موقعهم من أهل الوبر فدعوا قبائلهم المستقرة بأسمائها ، وسموا القبائل البدوية (عرين) <sup>١</sup> .

١٤ - لوحظ ظهور إله جديد بالنسبة لهمذان محل المقه هو ذو سموى (رب السماء) وهي ديانة تقارب التوحيد ، وهذا ما يتضح من النص : Reykwans حيث جاء فيه ينصر ورد إلهن بعل سمين وارضين أي ينصر الإله رب السموات والأرض ، وفي النص المؤرخ ٥٧٥ حميري ورد فيه رحمن وبنهوا كرسنش غلبن وتعني الرحمن وابنه المسيح الغالب وهو مؤرخ في شهر ذ حجت (ذي الحجة) <sup>٢</sup> .

## البحث الثاني

### الإمارات العربية الشمالية

#### مقدمة

إن وجود العرب في بلاد الشام والعراق قديم يصعب تحديده ، ويختلف من عصر لآخر تبعاً لموازين القوى ، وإن كان ضعف السلوقيين أعطى الفرصة لزحف القبائل العربية بكثافة نحو البادية وتكوين عدة إمارات ومشيخات لاسيما في مواضع الماء والكأ وعقدة المواصلات ، وبالمقابل كان رد فعل الدول المجاورة بناء الحصون على جوار الصحراء وإنشاء الاهوار (المخازن للماء والطعام وحفر الآبار ) ، لكن صفوف الدهر علمت هذه الدول بالشام

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٣٣٦

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٥٩٠

والعراق أن القوة لا تنفع هؤلاء ، لذلك لجؤوا إلى السياسات ، من ذلك توظيفهم بالجيش وتقديم الهدايا لساداتهم وتعيين وكلاء دائمين لمراقبتهم .

ويتضح من جغرافيا استرابون أن أرض الجزيرة ومنطقة الفرات والبادية المتصلة في بلاد الشام كانت في حكم سادات القبائل العربية فكان قسم منهم يشتغل بالرعي والآخر بالزراعة والتجارة ، وبصورة عامة فقد كانوا سادة البادية ، لأن في أيديهم أكسير الحياة (المياه) ، ولقد أعدوا لذلك فحفروا الآبار والعيون ، واعتمدوا صهاريج سرية يخزنون بها المياه وقرباً كبيرة مصنوعة من الجلد ، لذلك أطلق عليهم : Skential سكان الخيام .

ويدلل الدكتور جواد علي بأن العربية الشمالية وبلاد الشام تميزت بكثرة الألفاظ الموجودة في النبطية وفي لغة قريش ، وخاصة لغة الأصنام ، في حين أن هذه الألفاظ غير موجودة في العربية الجنوبية<sup>١</sup> .

والملاحظ على الإمارات الشمالية كثرتها فما تكاد تنعقد الإرادة وتتكون الإمارة حتى تفاجأ بضربة قاصمة من الخارج سواء من الفرس أم من البيزنطيين لاسيما أن تلك الإمارات لاتقوم على مقوم اجتماعي صلب ، إذ ما معنى أن تكون هنالك إمارة في قنسرين و إمارة في الرها وثالثة في حمص وأخرى في الرستن ، أليس ذلك مخالفاً لطبائع الأشياء وسنن الله في الاجتماع البشري .

وآية ذلك هي عدم وجود نواة أو قاعدة اللباب والقاهرة أمام الانهيار وإنما نرى ونحس بالدوار في رأس الأمة بعد سقوط بابل .

---

<sup>١</sup> وتقع على بعد ١٤٠ كم جنوب الموصل ، وعرفت باسم Atra في اليونانية و hatra في اللاتينية ، والأمرجح أنها مشتقة من كلمة الحجرية .

التي تحمي هذه التمحضات وبالتالي فإذا كانت بابل قد تصدت قديماً لهذه المهمة فلم يكن خط بابل أكثر من خط بغداد التي ضربت بيد بوش ومن ثم فبابل والقاهرة في زمن عبد الناصر وصادم حسين لم يلعبا إلا دور الحماية ودور الجدار الاستنادي كذلك فالسعودية ليست أكثر حظاً من حظ قريش الفاقدة للذراع العسكري في السياسية ، فالتاريخ يشهد أن قريشاً هذه هزمت عسكرياً عدة مرات رغم أهميتها التجارية والمعنوية .

فهل ياترى يراهن التاريخ مرة ثانية على إرادة القاهرة كما راهنا على إرادة عبد الناصر أم على أكثر من إرادة سياسية شعبية في الوطن العربي أم على إرادة عقائدية لها مغاريات مع إرادة محمد ﷺ .. سيناريو التاريخ مفتوح وهل من معتبر ، وهل من مدكر ؟؟

### الفرع الأول

#### مملكة عربايا (الحضر - مدينة الشمس)

لقد تأسست هذه الإمارة في القرن الأول قبل الميلاد على أثر الخلاف بين اليونان والفرس ، حيث تولت التجارة بين المتخصصين ، فنقلت بذلك تجارة آسيا إلى أوروبا والعكس<sup>1</sup> . وتدل الكتابات التي عثر عليها في الحضر إلى أن الأسماء العربية هي التي تغلبت على الآرامية ، وذلك أن رئيس معبد الحضر لقب سادن العرب ، كما لقب ملوكها بملوك العرب . من ملوكها سيطرون (الساطرون) الذي اقتزن اسمه بلقب ملك ذي عرب بعد أن كان يقتزن باسم (مريا) ، وهذا يؤكد التحول لصالح العرب على حساب الفرع العربي الآرامي . ولقد على تمثال كتب على قاعدته : تمثال ولجش ملك العرب ، ولا شك أن نسبة كلمة ملك إلى العرب تدل على اعتزاز هذا الملك بانتمائه .

<sup>1</sup> جواد علي ج ٢ ص ٦٧٣

من ملوك هذه المملكة : اورودس - نصرو - تشرى هبة - لجش<sup>١</sup>.

فقد حاول تراجان الروماني (٩٨ - ١١٧ م) الاستيلاء عليها ففشل ، وإن كان ملكها الضيزن انضم إلى الروم ضد الفرس ، وقد تغلب على الفرس في معركة شهر زور ، وأسر إحدى بنات ملوك الفرس وأناخ على حصنها الحصار لمدة أربع سنوات دون فتحها .  
ذكر الطبري أن الحضرمي من قضاعة ، وأن سابور قضى عليها وعلى قبائل حلوان .

## الفرع الثاني

### إمارة الرها

هي من ديار مضر (الزيرة العليا) ، ولقد أجمع كتاب اليونان والرومان ، وخاصة بلينيوس على إدخالها في عداد الدول العربية ، وبأنها تكونت في القرن الثالث قبل الميلاد .  
لقد جاءتنا أخبارها من حولية الرها وحولية زقتين على مقربة من آمد<sup>٢</sup> ، ومن النقود التي ضربت هذا يعني أن هذه المجتمعات العربية أخذت تدون تاريخها لنفسها بوثائق مكتوبة.  
والذي يؤكد عربيته أسماء الملوك : قصو - بكرو - عبدو - نحرو - أبجر - وائل إضافة إلى أسماء آلهة : عزيز - منعم<sup>٣</sup> .

ولقد تمتعت هذه المملكة بقيمة فكرية كبرى لا سيما في الأدب السرياني والنصراني وخاصة النسطورية ، حيث ينسب إلى ملكها أبجر أنه أرسل رسالة إلى السيد المسيح ، وعدة رسائل إلى الحواريين الأول<sup>١</sup> .

<sup>١</sup> بهجت المعرفة ص ٢٧٤

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٦١٩

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٢ ص ٦٢١

### الفرع الثالث : إمارة سنجان

ذكر بلينيوس أن سكان الجزيرة : mesopotamia عربياً وأن مقرهم سنجان .

### الفرع الرابع : إمارة حمص emessa

ولقد ازدهرت هذه المدينة العربية إبان ضعف السلوقيين ، وتاريخها يشبه تاريخ تدمر .

### الفرع الخامس : إمارة الرستن arethusa

عربية ازدهرت في زمن سبتيموس واسكندر سيفروس ، وعربيتها تظهر في أمور كثيرة من ذلك

أسماء ملوكها : شمس - حرم - جميل - عزيز وسحيم .

### الفرع السادس : قنسرين

ذكر اصطفانوس البيزنطي أن شيخاً عربياً اسمه مانيكون أسس هذه المشيخة في chulcis أي

قنسرين<sup>٢</sup> .

وقد يفاجأ القارئ بشحة المعلومات بالنسبة للإمارات الأخيرة وليس ذلك عجباً فالبحث أصلاً

ليس تاريخياً صرفاً وإنما هو حوار في التاريخ .

### الفرع السابع : مملكة النبط

عربية اللحمية والجبلة والمحتد والتجارة تقع في المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية ،

وعرفت عند اليونان والرومان بالعربية الحجرية<sup>١</sup> .

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٦٢١

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٦٢٣

قيل إن أصلهم آرامي ثم تعربوا ، وهو خبر ذو دلالة عميقة بعد أن أدركنا في أكثر من مظنة انصهار الآراميين بأبناء عمومهم العرب ، والرأي السائد أن النبط عرب مثل سائر العرب بدليل أن أسماءهم هي أسماء عربية خالصة وأنهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام وبدليل إطلاق اليونان واللاتين والمؤرخ اليهودي يوسفوس كلمة العرب على النبط .

وقد ورد في نص لآشور بنبال كلمة ( نباطي ) ويقال أنهم المقصودين من ذلك <sup>٢</sup> .

نبغوا بالتجارة بسبب موقعهم الهام لا سيما ثغرهم غزة التي هي ميناء العرب أجمعين <sup>٣</sup>

امتزجوا ببني إرم ، فاكتمت لغتهم الرطانة ، فغيب عليهم ذلك مقارنة بالفصحى ، وهذا ما نفهم من قول سيدنا عمر: تمعددوا ولا تستنبطوا .

ومع ذلك فهم أقرب إلى قريش من الجنوبيين ، لأنهم يشابهونهم في أسماء الآلهة وخطهم قريب من خط كتبة الوحي ، ويقال إن خطنا مأخوذ من خطهم ، وأما خطهم فهو القلم الآرامي ، كما يتضح من الكتابات التي عثر عليها في: بطرا - الحجر - العلا - تيماء - خير - صيدا - دمشق - اللجاة - طور سيناء مصر - ايطاليا<sup>٤</sup>

امتدوا إلى دمشق وسهل البقاع (بقأت - هلبنون) والأقسام الجنوبية الشرقية من فلسطين وحوران وأدوم ومدين إلى ددن ، ثم سواحل البحر الأحمر والأقسام الشرقية من النيل ، بل لقد أطلق يوسفوس اسم النبط على المنطقة الممتدة من نهر الفرات وحدود الشام إلى البحر الأحمر .

<sup>١</sup> جواد علي ٣ ص ٥

<sup>٢</sup> جواد علي المتصل ج ٣ ص ٩

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ١١

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٣ ص ٥

استخرجوا الإسفلت من شرق البحر الميت ونقلوه إلى مصر لاستعماله في المواصلات وربحوا الأموال الطائلة ، كما استخرجوا النحاس والحديد ، ونظموا مدتهم مستفيدين من الهلينية فحولوا مدينتهم الصخرية إلى مدينة حديثة ، ثم نقلوا الهلينية إلى العربية الجنوبية حيث عثر في الجولان على آثار تشبه الآثار النبطية المتأثرة بالهلينية<sup>١</sup> .

أهم ملوكهم الحارث (ارتاس) الذي أصبح اسمه علماً على الملك العاهل ، كما في كلمة فرعون وقيصر والنجاشي ، حتى أنه طرد باسون من يهوذا ، واستولى عليها<sup>٢</sup> ، كما أن ملك المكابيين تنازل لملك النبط " عبادة " عن مؤان وجلعاود .

أهل جلعاود من العرب<sup>٣</sup> ، سبق للحارث أن حاصر القدس بجيش قوامه خمسون ألف مقاتل واضطر إلى فك الحصار بعد إنذاره من قبل القيصر بومبيوس<sup>٤</sup> .

بلغ من قوة الأنباط أنهم تغلبوا على كيلوباترا في actum وبنوا مدينة Aurata (الحوراء) على البحر الأحمر ، وعثر على نص أرخ في شهر نيسان من السنة التاسعة من حكم حرثنا (بيرح نيسن شنت تشع حرثنا ملك نبطوا ومنوتو ( مناة ) ) ورد فيه اسم الإله ذي الشرى ومنوتو (مناة)<sup>٥</sup> ، وليلاحظ القارئ مدى التشابه بين لغة هذا النص وعربيتنا .

ولقد عثر على نص في بطرا يعود إلى شهر طبت من السنة التاسعة من التقويم النبطي جاء فيه ما يلي : ودلات - حرم - وهب اللالة - ذوشر - هبلو - منوت - اللت ، كما عثر على نص آخر كتب في شهر شباط من السنة الثالثة عشرة من التقويم النبطي وقد جاء فيه :

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٩

<sup>٢</sup> الفصل الخامس من أشعار المكابيين

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ٢٦

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٣ ص ٣٢

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٣ ص ٤١



كهلن - على - سعد الله - حميد - حوشب - حلف - حليلة - تيم الله - عمرت ( عميرة )

وليلاحظ القارئ الأسماء كما يلاحظ اسمي شهر شباط ونيسان.

ولقد عثر على كتابات تؤكد أن اليهود دونوا بالنبطية، وبأن ملوك الأنباط يلقبون بألقاب قريبة من ألقاب ملوك اليمن مثل : رحم عمه أي الملك الرحيم بشعبه<sup>١</sup>.

وكان للنساء دورهن بدليل أن النقود كانت تضرب بأسمائهن ، مثل شععتيلت أخته ملكة نبطوا وشععتيلت أمه ملكة نبطوا ، وأحياناً يضرب رأس الملك ورأس الملكة ، ولقد برعوا في نقش ونحت صور الكروم ، لأنهم كانوا مولعون بالخمرة<sup>٢</sup>.

عاصمة هذه الدولة البطرا ، وهي تقع على شريان التجارة في العالم القديم، وكان اسمها هـ سلع أي الصخر في الآرامية ، وأطلق عليها اسم (يقتل) أي الخاضعة لله<sup>٣</sup> ، ولقد أشرنا سابقاً إلى أن النبط ساعدوا الرومان في الحملة التي قادها غايوس على اليمن وفشل فيها فشلاً ذريعاً .

### الفرع الثامن : مملكة عمون

عاصمتها عمون (عاشت في القرن الثالث عشر إلى السادس عشر قبل الميلاد) كتب لها بقلم قريب من المسند ، ومن الخط اللحياني والشمودي والصفوي ومن مدنها أذرعات - بصرى -

<sup>١</sup> جواد علي ج ٣ ص ٥٣

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٣ ص ٥٢

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ٣٨

جرش ، وقد تعبدوا الآلهة العربية ، كما يتضح من الحصن الذي عثر عليه في أم الرجوم شمال عمان ، وجدت في أذرعات والمحافظة حالياً في المتحف البريطاني<sup>١</sup> .

### الفرع التاسع : مملكة تدمر

واحة في قلب بادية الشام منذ العصر الحجري القديم ، وأول إشارة تاريخية إليها في مطلع الألف الثاني ق.م. وذلك على رقم آشورية بابلية ، وقد سكنها في ذلك الوقت العموريون ثم صارت في أواخر الألف الثاني ق.م. للآراميين الذين اختلطت بهم القبائل العربية بالتدريج<sup>٢</sup> .

كتب عنها الكثير الآشوريون ، وبنو إرم واليونان واللاتين والعبرانيون.

أغلب أهلها عرب ، وإن كانت كتاباتها آرامية ممزوجة بالمصطلحات العربية لأن الآرامية كانت لغة الثقافة .

كان لها طابع هيليني وروماني ، ومع ذلك فقد بقيت مملكة شرقية يحج إليها الأعراب بصفتها مركزاً دينياً هاماً<sup>٣</sup> .

تكس فيها الذهب ، ومظهر ذلك الأعمدة المرتفعة القائمة على جانب الشارع الكبير وقوس النصر عند المعبد الكبير ، وكان لذلك انعكاسه على الوضع الاجتماعي ، وذلك بظهور مفهوم زعيم القافلة زعيم السوق .

كان لها مجلس شيوخ لسن القوانين وإدارة تشبه الإدارة اليونانية قوامها مجالس محلية ، والأمر نفسه بالنسبة للقضاء والسلطة التنفيذية<sup>١</sup> .

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٣ ص ٥٤

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٤٤

<sup>٣</sup> جواد علي المفصل ج ٣ ص ٨٤

برزت هذه المملكة على إثر الحروب كما كان لسقوط البتراء دور كبير في ذلك <sup>٢</sup> ، وكان ذلك على يد أسرة السמידع ، ومن أهم رجالها نصرو جد أذينة ووهب اللات (حيران) والد أذينة الذي كان على رأس مجلس المدينة (رئيس تدمر) وقد اشترك مع سبتموس في الحروب ضد الفرس حتى سمي سبتموس حيران أما أذينة فكان عضواً في مجلس الشيوخ ، ثم ملكاً عام ٢٥٠م.

حمل أذينة مثل أبيه لقب : senator فلقب قنصل ، ثم (مرن) أي الأمير <sup>٣</sup> ، وأخيراً سمي ملك العرب حسب رواية المؤرخ ملامو (النون هي أداة تعريف) .

حرر الجزيرة الفراتية من الفرس ، فاستقبله الأهليون استقبال المحررين ، وفتح حران ونصيبين <sup>٤</sup> وحاصر طيسفون ، وكاد أن يأسر ملك الفرس سابور لولا نصب قيصر جديد عدو لأذينة . قبض على أحد المرازبة فأعطي لقب امبراطور الشرق (الشام والجزيرة وآسيا الصغرى) ، وضربت النقود باسمه على هذا الأساس <sup>٥</sup> .

قتل غيلة في حمص فخلفته زوجته الزباء وصية على ابنها وهب اللات ، فبهرت العقول بحزمها وإرادتها وتفكيرها وبلاطها الذي ضم الفلاسفة والمؤرخين والكتاب واللغويين <sup>٦</sup> .

ناصر المصريون على الروم فطلبوا مساعدة الزباء ، فأيدتهم بجيش يقوده زيد ، وقد انتصر المذكور على الروم في معركة بابلين ، ولم تعد تظهر صورة إمبراطور الرومان وحل محلها صورة

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٣ ص ٨٩

<sup>٢</sup> بمجت المعرفة ص ٢٧٧

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ٢٩

<sup>٤</sup> ليلاحظ القارئ الروح الوطنية ضد الفرس .

<sup>٥</sup> برهان الدين دلو ، المرجع السابق ص ٣٤٦

<sup>٦</sup> برهان الدين دلو ، المرجع السابق ص ٣٤٣

وهب اللات متوجاً بالإكليل رمز الأباطرة ، وقد كتب عليه : الإمبراطور قيصر وهب اللات ،  
كما أن الوالدة حملت لقب (أغسطس) <sup>١</sup> .

احتلت الأناضول ووصلت إلى البوسفور، مسيطرة على الطرق المؤدية إلى روما <sup>٢</sup> ، وهكذا هب  
القيصر أورليان ليتدارك هذا الزلزال فأمن حدود الإمبراطورية واستعاد مصر وحمص وأنذر الزبلاء  
، وكان جواها : في المعركة كل شيء يحسم بالشجاعة ألا تعلم أن كليوباترا آثرت الموت على  
الذل <sup>٣</sup> .

قررت الذهاب بنفسها إلى الفرس بطلب المساعدة إلا أن العدو قبض عليها.  
والذي له دلالاته فرح اليهود لمأساة الزبلاء ، كما يتضح من قول الحبر الكبير : مخلد وسعيد من  
يدرك نهاية تدمير <sup>٤</sup> .

وقول الحبر آشه : ترمود مثل ثمود شيئان الأمر واحد <sup>٥</sup> .  
ما مغزى تلك الكراهية لهاتين العربيتين وغيرها مما سبق الإشارة إليه ؟؟ .. من أسباب هذه  
الكراهية المجتمع الجديد في تدمير القائم على التسامح بين القوى الوطنية المختلفة ، حتى ترجم  
إلى نظام الزواج المختلط خلافاً لاستكبار اليهود ، منوهين بأن الوطنيين في مصر هم الذين

---

<sup>١</sup> برهان الدين دلو ، المرجع السابق ص ٣٤٣

<sup>٢</sup> برهان الدين دلو ، المرجع السابق ص ٣٣٤

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٠٩

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٠٩

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٣ ص ١١٤

طالبوا الزباء باحتلال مصر<sup>١</sup> ، وهذا يؤكد أن أبناء هذا الوطن كانوا في خندق ، والمستعمرون  
الفرس والرومان في خندق آخر.

آلهة تدمر عربية وقلمها آرامي أما العربية فهي : شمس - بل (بعل) - برج بل - عجل بل -  
إلت ( الله ) رحم - رحيم - أشتر (عشتر) ملك بل - عزيزو - سعد - بل سيمن أي بعل  
السموات ورب السموات<sup>٢</sup> .

قبور تدمر تشبه القبور في أطراف الشام والعراق وحمص والرهما والحضر وبترا ، الأمر الذي  
يجعلنا نتكلم عن نمط القبور العربية .

ومما له دلالة بالنسبة لهذا المجتمع الجديد في تدمر أنه يقوم على العنصر العربي وعلى شقيقه  
الآرامي في صيغة تركيبية متألفة كونت متحداً اجتماعياً يشبه ما حدث قبل الإسلام ، وهو  
الأمر الذي لا يرضي اليهود الذين أطلقوا على هذه الشعوب بني الشرق أو بني قديم وأحياناً  
جوييم ، مقيمين الحواجز بين هؤلاء وبينهم .

ويكشف الدكتور عدنان خالد العبد الله في كتابه لونجين والجرجاني عن حقيقة هامة في تاريخ  
تدمر هي أن لونجين وزير الزباء ولد في حمص ، وتعلم في الإسكندرية ، وكان صديقاً  
للفيلسوف فورفويوس صديق أفلاطون مؤسس الأفلاطونية الحديثة .

وقد كان لونجين المذكور معلماً للبلاغة في أثينا ، لكنه انتقل إلى بلاط تدمر معلماً ومربياً  
ومستشاراً ، حيث تأثر بالشعر العربي الذي كان يلقي في بلاط الزباء ، ثم قام بتطبيق مبادئ  
منه على الأدب اليوناني والروماني ، الأول هو شعر البيت الواحد والثاني هو الجبور الذي ينبع

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٣١

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٣٥

منه خلافاً للانفعال الأرسطي القائم على مبدأ التطهير المعتمد على مبدأ الإثارة العاطفية لكل من الخوف والرحمة والشفقة<sup>١</sup>.

ونترك للقارئ تقدير الدلالة العميقة لهذه الحقيقة سواء لأهمية الأدب العربي أم للعمق التاريخي له .

ويكشف الدكتور عمارة عن دور الحضارة التجارية في هذه الدولة ، فقد بلغت من الأهمية الأمر الذي حدا مجلس الشعب ، أن يقيم تمثالين لكل من رئيس القافلة ورئيس السوق ، كما عثر في كتابة أثرية من سنة ٢٥ م أثر يفيد أنه قد قامت بها نقابة للصاغة ، كما اكتشف المنقبون بين أطلال هذه الدولة بقايا سد بين تلين طوله ربع ميل<sup>٢</sup>.

#### الفرع العاشر: الصفويون

وردت هذه التسمية في نص يوناني : sofathene نسبة إلى الأرض البركانية السوداء التي وجدوا فيها ، فلم تكن لهم حكومة ، بل كانوا يتنقلون بين حماه ونهر الفرات وفلسطين ، والمملكة الأردنية وأعلى الحجاز وكانوا على قدر من الثقافة حيث أتقنوا الكتابة منذ زمن بعيد ، وسجلوا خواطهم على الأحجار ، وقلمهم عربي النسل من الخط العربي الجنوبي ، وهو قريب من الخط الشمودي واللحياني ، وهذا يعني أن العرب كتبوا قبل الميلاد بخط هو القلم العربي الأول القديم الذي تفرعت منه الأقلام العربية المختلفة ، ولم يتأثروا بالثقافة الآرامية رغم نفوذها وطغيانها ، وأقدم كتابة عنهم تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد<sup>٣</sup>

وتتضح عربية هذه القبائل من أسمائها : حمد - زد (زيد) - نمرت - زهر - نمرت - هزار .

<sup>١</sup> صحيفة الاتحاد : ٢٧/٤/٢٠٠٠ - مقال تعليم نضال بلال موسوم بعنوان لوتجين والجرجاني .

<sup>٢</sup> فجر اليقظة العربية ص ٢٨ تأليف د. عمارة

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٤٥

وورود ال التعريف في بداية الكلمة يؤكد أنهم من العربية الشمالية.

هم رعاة كانوا يقتربون في الصيف من الجبال لذلك سمو أحد الهتهم هجبل ( إله الجبل) ، وقد

رمز إليه بحجر أسود وعبادة الحجر الأسود معروفة عند الجاهلين<sup>١</sup>

وكانوا على نصيب من الذكاء ، كما يتضح من رسومهم للحيوانات التي ألفوها ، ولمظاهر

حياتهم مثل معارك الصيد ومطاردة الغزلان والأسود وحرر الوحش<sup>٢</sup>

### الفرع الحادي عشر: مملكة الحيرة

وتعني في الآرامية المعسكر ، قال عنها السريان بأنها مدينة العرب ، ووردت في التلمود باسم

حوطر<sup>٣</sup> ، وعلى لسان يوحنا الأفسوس (من مؤرخي القرن السادس ) باسم حيرتو نعمان ،

وجاء ذكرها في المجتمع الكنسي المنعقد سنة ٤١٢م ووصف أسقفها " هوشع " العيش فيها

بأنه خير من ألف سنة من غيرها ، فسميت لذلك بالروحاء .

أنشأها في زمن بختنصر الأنباط أو التبابعة ، وأهلها من قحطان وعدنان ، وهذا يعني توافقتهم

الاجتماعي فوق القبيلة ، كان منهم التبوخيون قطان الضواحي ثم العباديون وهم أهل مدر

وعلى دين المسيح ، وليس غريباً أن يكون هنالك صلة بين كلمة العباديين وكلمة أباديدو

الواردة في النصوص الآشورية<sup>٤</sup>.

هذا وإن اجتماعهم على الجذر الديني دليل على تجاوزهم الطور القبلي.

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٥٠

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٥٢

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٥٦

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٧١

درسوا العلوم وتقنوا لغة بني إرم ، وعملوا لدى الفرس بالترجمة والمراسلة .  
أغلبية سكانها عرب والقليل من النبط والفرس واليهود ، وهذا ما يتضح من أصنامهم اللات  
- العزى <sup>١</sup> .  
بشروا للنصرانية النسطورية ببعثات اتجهت إلى كافة أرجاء الجزيرة العربية، وكان لهم نفوذ كما  
يتضح من نص النمارة ، حيث ظهر امرؤ القيس بأنه ملك العرب <sup>٢</sup> .  
من ملوكها الكبار المنذر الذي أسر قائدين رومانين ، وهو الذي طلب منه القيصر بوسنتيان  
إخراج المعارضة الدينية من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة وقد جادلهم بوجود الأسقف  
سرجيوس مبعوث القيصر ، وقد هرب هؤلاء إلى نجران <sup>٣</sup> .  
لقد أفضى نمو الزراعة والتجارة والقوى المنتجة في الحيرة إلى تفكيك الروابط الجماعية القبلية ،  
وظهور الملكية الخاصة ونشوء مؤسسات الدولة كالجيش وغيره ، من أجل تعزيز الملوك وتحقيق  
مصالحهم ثم التوسع في بادية الشام <sup>٤</sup> .

### الفرع الثاني عشر : مملكة كندة

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٧٢

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٧٢

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ١٧٤

<sup>٤</sup> دلو ، المرجع السابق ، ص ٣٢٥



كان لها الملك على بادية الحجاز من بني عدنان ، وهي (كدت) الواردة في المسند (نص أبرهة وغيره) ويتضح من النص : jamme المدون أيام ملك سبأ (شعر وتر) أن هذه المملكة قامت على أساس تحالف بين قبيلة قحطان وكندة<sup>١</sup> .

ذكرها الكلاسيكيون باسم : Kyndynoi وبأنها من قبيلة مانيوس (معن) ، ويحكمها رجل اسمه Kaisas<sup>٢</sup> أقدم رجل في كندا هو حجر الملقب بأكل المرار ، فهو أخ حسان بن تبع الذي دوخ بلاد العرب ، وساد في الحجاز وهكذا فقد ولى أخاه حجراً على عدنان ، فسار فيهم سيرة حسنة ، ولقد انتزع من اللخمييين بلاد بكر بن وائل من نجد<sup>٣</sup> .

ومن ملوكها الحارث بن عمرو بن حجر الذي وسع ملكه بمساعدة تبع فصار ملكاً على كندة وبكر وقبائل أخرى وذلك عام ٤٩٠ م<sup>٤</sup> .

باغت الحارث الحيرة ، فهرب المنذر وأصبح الكنديون ملوك الحيرة وقد استلطف قباد ملك الفرس الحارث ، وأقطعه جنوب السواد، وهذا يعني أن الجزيرة العربية كانت شبه موحدة بسبب التحالف بين الكنديين والتبابعة<sup>٥</sup> ، وهذا ما أكدته آرك وولف بأن هذه الدولة التي قامت حوالى القرن الخامس الميلادي تمثل أول تشكيل بناء اجتماعي يحتوي وسط الجزيرة العربية المتمثل مركزياً بهضبة نجد ، ويظهر أن أول أمراء كندة كان يدين بالسيطرة على المجموعات القبطية بما فيها اتحاد كندة إلى رغبة مملكة حمير في جنوب الجزيرة العربية إقامة

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٣ ص ٣١٦

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٣ ص ٣١٨

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٣ ص ٣٢٢

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٣ ص ٣٣٣

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٣ ص ٣٣١

منطقة ضد فارس ، وما إن تم تنظيم الاتحاد حتى بدأت حملاتها على المنطقة البيزنطية والفرسية فقد كان واضحاً أن كندة لم تكن مهيمنة في نجد وحدها وإنما على أجزاء كبيرة من الحجاز والبحرين واليمن<sup>١</sup> .

ويفهم من شعر امرؤ القيس أن حكم الحارث امتد من العراق إلى عمان ، وإلى قبيلتي أسد وكنانة ، وهما مضریتان .

### الفرع الثالث عشر: الغساسنة

حل هؤلاء محل الضجاعة وهم قوم من العرب سكنوا مشارق الشام ، ولقد أدى نمو الزراعة في أرض الغساسنة واتساع حركة التجارة وتطور القوى المنتجة إلى تفكك الروابط القبلية ، وظهور الملكية الخاصة ، وبرز ذلك على يد جفنة بن عمرو الذي بنى مدينة حلق والقرية إضافة إلى عدة مصانع<sup>٢</sup> .

ولقد منح جستنيان الحارث بن جبلة لقب ملك ليقف في وجه المنذر ملك الحيرة<sup>٣</sup> .

كان الحارث - على خلاف مع الكنيسة الرسمية - من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح وقد رشحه هذا المذهب إلى الاستقلال عن الرومان .

لما سمع هرقل بتجمع المسلمين في سوريا بعث جيشاً في مستعربة الشام بقيادة جبلة بن الأيهم لمقاتلة المسلمين ، لكن المذكور انحاز إلى المسلمين قائلاً : إخواننا وبنو عمنا<sup>٤</sup> .

---

<sup>١</sup> مقاله : التنظيم الاجتماعي في مكة ، مجلة الاجتهاد العددان ٤٧ و ٤٨ لعام ٢٠٠٠ ص ١٥٤

<sup>٢</sup> دلو ، ص ٣٢٩

<sup>٣</sup> دلو ، ص ٣٣٣

<sup>٤</sup> دلو ، ص ٣٣٨

## تقويمنا لإمارة المناذرة والغساسنة .

يلاحظ القارئ أننا اجتزأنا الحديث الحديث عن هاتين الإماراتين ، وإن كنا نسجل على قيامهما الملاحظات الآتية :

١- كان لقضاء الفرس على الآشوريين نتائج بالغة على النمو القومي العربي في المنطقة ، لذلك لم تنشأ حضارة عربية بالمعنى الصحيح تقوم على كيان عربي سياسي بالمعنى والدلالة والحضور الذي لاحظناه في الآشورية ، هذا فضلاً عن أن الحضارة الفرعونية أخذت أيضاً بالتوقف عن النمو<sup>١</sup> .

وتوضيح ذلك أن العراق هو الفاعل الجغرافي المهيأ من الوجهة الجيوبوليتكية والجيوسياسية والجيواقتصادية للعب الدور الكياني العالمي ، لذلك فقد سجل سقوطه ضربة قاصمة على الحضور العربي وكان عليه أن يقف في وجه كيانين عالمين هما الفرس والروم ، بما في ذلك من تعارض مع طبائع الأشياء وموازن القوى العالمية .

٢- ومع ذلك لم يفتأ الكيان العربي يتمخض عن الوثبة تلو الأخرى في دفعات متتالية ، تسقط الأولى فما تلبث الأخرى إلا أن تعقبها دون توقف أو انقطاع ، وهذا يفسر كثرة الإمارات والدول العربية التي ظهرت في الجزيرة و في العراق وبلاد الشام ، هكذا يؤكد الدكتور عمارة أن التاريخ شاء ألا تغيب عن الوجود دولة عربية ذات حضارة .

ظهرت دولة تدمر العربية وعندما افلت برزت دولتان عربيتان على مسرح التقدم والحضارة هما دولة المناذرة والغساسنة.

<sup>١</sup> د . عصمت سيف الدولة : عن العروبة والإسلام ص ٦٨

٣- لقد كانت الصورة التي انتهت إليها الحياة العربية والجماعة العربية في أطراف شبه الجزيرة العربية حتى القرن السادس الميلادي صورة عرب الجنوب في اليمن والنبط في الغرب وفي الشمال وأخيراً المناذرة والغساسنة ، هجرات عربية تحدث ودول عربية تتكون وحضارات تنشأ ، لكن النفوذ الأجنبي كان يصارع هذه الدول والحضارات ، ثم ما يلبث الصراع أن ينتهي بانقضاء هذه الدول واحتواء هذه الحضارات في نهاية المطاف<sup>١</sup> .

يضاف إلى ذلك تحليل العرب جميعاً لأي انتصار عربي كما حدث لتوافد الوفود من شتى أنحاء الوطن العربي لتهنئة الملك ذي يزن على انتصاره .

٤- على الرغم من كل ذلك فلا يمكننا الحديث عن تجربة عربية ارتفعت إلى مستوى الأمة ، بل بقيت الأمور محصورة في إطار الطور القبلي ، أو إطار الشعب كما هو الحال بالنسبة للمناذرة والغساسنة ، وما بقي من سوريا وفلسطين ثم في مصر وغرباً حتى شاطئ المحيط الأطلسي<sup>٢</sup> .

ومع ذلك فقد كان لهذه الضربات الاستعمارية أثر قوى في إحياء الضمير العربي ، تجلّى - فيما تجلّى فيه - بانتصار ذي يزن - كما قلنا - وبعام الفيل ، ثم معركة ذي قار إضافة إلى تمخضات أخرى على الصعيد الديني ، وذلك بنشوء حركة الأحناف ، ثم على الصعيد التجاري والثقافي متجلياً الأمر في أسواق عكاظ ومجنة وذوي المجاز إضافة إلى

---

<sup>١</sup> د. عمارة : فجر البقظة العربية ، بيروت ، دار الوحدة ط ٣ / ٩٨ / ص ٣٤ وقرأ عمر فرسخ : جدلية

الوحدة والتجزئة تاريخياً : مجلة المستقبل العربي العدد ٢٣٦ لعام ١٩٩٩ ص ٢

<sup>٢</sup> د. عصمت سيف الدولة عن العروبة والإسلام ص ٦٨ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ٢

الأشهر الحرم لتأمين الطقوس الدينية وتسهيل التجارة ، كل ذلك ومثله كما سنحدد -  
قاد إلى توثبات وتمخضات تتوجت بالنبا العظيم .

#### الفرع الرابع عشر : غزوة الفيل

عرضنا للموقع العالمي للجزيرة العربية وللمشاريع المتعددة التي حاولت السيطرة عليها ، من ذلك مشروع أبرهة الحبشي حليف الرومان المبشرون للنصرانية والذين ابتنوا كنيسة القليس في اليمن لتنازع الكعبة<sup>١</sup> ولمقاومة الفرس الذين استولوا على التجارة الواردة من سيلان والهند<sup>٢</sup> .  
المهم في هذه المحطة نضج الروح الوطنية عند العرب والتصدي لأبرهة من قبل ذي نفر أحد أشرف اليمن ثم نفيل بن حبيب الخثعمي رئيس قبيلة خثعم (شهران وناهس ) ومن تبعهم من العرب<sup>٣</sup> .

وقضية أبي رغال الذي دل أبرهة على الطريق ، ثم الخاتمة المأساوية الأسطورية التي جعلته رمزاً للخيانة الوطنية ، إذ أصبح قبره هدفاً للرحم من قبل كل مسافر في شعيرة شبه دينية تذكرنا بمناسك الحج<sup>٤</sup> .

بل أثر عن أنس قوله : سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا إلى الطائف ومررنا بقبر أبي رغال يقول عنه أصابته النقمة التي أصابت قومه<sup>٥</sup> .

---

<sup>١</sup> فتوح البلدان : للبلاذري - مطبوعة الموسوعات ، القاهرة ، ٩٥٦ ص ١٤١

<sup>٢</sup> الروض الأنف : ٤٠/١

<sup>٣</sup> د. عمارة : التراث في ضوء العقل ، بيروت / دار الوحدة ٩٨٠ / ١٦٧

<sup>٤</sup> د. عمارة : التراث في ضوء العقل ص ١٦٧

<sup>٥</sup> دلو : المرجع السابق / ٤١١

ويعرض الحديث النبوي إلى عمل أبي رغال فيشير إلى أنه كان عشاراً ، وفي نظرنا إن هذه الصورة هي جزء من الأسطورة العربية التي حاكها الضمير العربي ضد خيانتته ، وإن نعي الرسول لخيانة أبي رغال إنما تعبر عن الروح الإسلامية الممتزجة بالمشاعر الوطنية والقومية العربية .

ونؤكد ما سبق قوله بأن طرد الأحباش لاقى ترحيب العرب جميعاً ، حيث اتخذ سيف بن ذي يزن في الأدب الشعبي العربي بطلاً قومياً ، وقد جاءت الوفود المهتئة له من كافة أرجاء البلاد العربية ، وعلى رأسهم عبد المطلب جد الرسول ﷺ<sup>١</sup> .

لقد كانت غزوة الفيل التي أوشكت لو نجحت أن تكمل احتواء شبه الجزيرة كلها من قبل الغزاة.. كانت قمة الخطر الذي أيقظ عوامل المقاومة وحركتها.. فكان المد العربي ، تحت أعلام الإسلام الذي ولد نبيه عليه الصلاة والسلام في العام نفسه لغزوة الفيل ( ٥٧١ م )<sup>٢</sup> .  
وأخيراً يجب أن لا ننسى السياق النفسي والعقيدي الذي تم فيه عرض هذا الحدث من قبل القرآن الكريم الذي أفرد له سورة سميت باسمه ، كما لا تنسى المغزى العقيدي والقومي ، لموقف عبد المطلب جد الرسول ﷺ من أبرهة ، تلك القصة التي تحتل مكاناً مرموقاً في وجداننا<sup>٣</sup> .

واستطراداً فالدكتور عمارة ينفي صحة الحديث الذي جرى بين عبد المطلب وأبرهة ثم قول عبد المطلب لأبرهة إن للبيت رباً يحميه ، إذ أن قريش وكنانة وهذيل لم تتقاعس عن قتال أبرهة عندما دنا من مكة ، وإن هم رأوا أن لا قبل لهم بهذا القتال ، كما أرادوا تحاشي دمار

<sup>١</sup> دلو : المرجع السابق / ٤١١

<sup>٢</sup> د. عمارة : التراث في ضوء العقل ص ١٦٠ و ١٦٨

<sup>٣</sup> د. عمارة : المرجع السابق ص ١٦٧

حرمهم الآمن ، الذي حرمت عقائدهم القتال فيه، وإن كانوا قد هموا بخوضه عندما دنت من ديارهم جحافل جيش الأعداء<sup>١</sup>.

### الفرع الخامس عشر: معركة ذي قار

عرضنا للموجة العربية الثالثة وسياقها الحضاري الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، وقلنا إنها تشغل تاريخاً صعودياً - على الأقل من الناحية الاجتماعية - انطلاقاً من الموجة الأولى . على هذا فإن بلورة معلم هذه الموجة ، واستكناه جوهرها وثقلها الجيواقتصادي والجيوسياسي والجيواجتماعي لا يتضح إلا بتحليل معركة ذي قار، على اعتبار أن هذه المعركة لا تمثل حدثاً حربياً بقدر ما تمثل وجود أمتنا في العراق ، الأمر الذي حدا ببعض المفكرين لدراستها تحت عنوان (تشكيل اتحادات سياسية بين القبائل والتوجهات نحو وحدة العرب)<sup>٢</sup>.

لقد ذكرنا سابقاً التحدي الاستعماري للأمة العربية لا سيما من قبل الفرس والروم والأحباش ، ونعتقد أن معركة ذي قار تمثل التعبير عن الغليان والبلورة والمخاض ، بل الاستجابة الحية والفذة لهذا التحدي الذي عبر عن وثبة ضمير أمتنا ، وقد واستجمع قواه واستنفر طاقاته في

---

<sup>١</sup> فجر اليقظة العربية ص ٣٥ وانظر عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفي في الإسلام ج ١ ص ٣٥ القاهرة

سنة ٩٥٥ وهو ينقل عن ابن هشام

<sup>٢</sup> دلو : المرجع السابق ٩ ص ٣٧٥

وقفة عز وكرامة ، وكان هذا الاستنفار بمثابة البوتقة التي بدأت تنصهر فيها المشاعر القومية للأمة<sup>١</sup>.

السبب المباشر لهذه الحرب تكمن في رفض النعمان بن المنذر تسليم بعض نسائه رهينة للفرس ، ثم استنجاهه بالعرب ، وكان هنالك اتجاهان<sup>٢</sup> :

الأول برئاسة هانئ مسعود الشيباني وقد رأس قوى الغلاة وعدم المقاومة.

الثاني برئاسة الباسل المنظم الجماهيري الفذ حنظلة بن ثعلبة العجلي ، فقد أحدثت آراؤه نهوضاً ثورياً وحماساً قومياً عاماً حتى على أصحاب الرأي الأول<sup>٣</sup>.

كان وقود هذه المعركة القبائل الممتدة من الحيرة إلى نجد وهي : بكر بن وائل وطيء وتميم وعبس وتغلب<sup>٤</sup>.

### العوامل التي أدت إلى النزوع القومي قبل الإسلام

وإذا كانت معركة ذي قار تمثل الاستجابة الخلافة للتحدي الأجنبي فهناك استجابات أخرى بلورت التوحد والانصهار والمشاعر القومية .

وبيان ذلك أنه بعد أن كانت اللهجات القبلية تجسد تمزق الجماعة في ميدان اللغة ، وتفقدتها واحدة من أهم روابط الوحدة القومية ، فقد أخذت اللغة العربية الأدبية الواحدة تنمو بمعدلات أسرع وتستقطب إلى جانب مفردات لغة قريش ، كل ما هو صالح من الثروة اللغوية

<sup>١</sup> د. عمارة : فجر اليقظة العربية ص ٣٤

<sup>٢</sup> الطبري : تاريخ الأمم ١/٦١٠

<sup>٣</sup> ابن عبد ربه : العقد الفريد ص ٢٦٦

<sup>٤</sup> دلو : المرجع السابق ، ص ٤١١



بمختلف اللهجات ، فكان نمو هذه اللغة الواحدة ، التي أصبحت رباطاً مشتركاً و متحداً ثمرة للتوجه نحو الوحدة ، وأيضاً عاملاً يؤثر في دفع عجلة هذه الوحدة بمعدل أسرع إلى الأمام <sup>١</sup> .

بعد أن كانت المنازعات والحروب القبلية تمزق روابط الجماعات العربية ، أصبح الاتفاق على تحريم القتال في الأشهر الأربعة الحرم بمثابة الهدنة التي أتاحت للعرب مناخاً سلمياً تواصلت فيه الروابط ، فكان أن قامت أسواقهم التجارية الواحدة ، ومركز حاناتهم الأدبية بمكة في اتجاههم إلى البيت الحرام .. وبمرور الزمن عادت الأشهر الحرم - بما قام فيها وأنجز خلالها - لتؤثر إيجابياً في عجلة التقارب العربي ، بعد أن بدأت مجرد ثمرة لهذا التقارب <sup>٢</sup> .

حتى في الجانب الديني ، فعلى الرغم من أن الوثنية ، وبالذات تعدد الآلهة ، كانت تجسيدا لتمزق هوية المجتمع العربي وجهله ، إلا أن الحج إلى البيت الحرام بمكة جعل القبائل تحضر إلى البيت صورا لآلهتها تضعها حول الكعبة وفوقها حتى تطوف بها عند طوافها بالكعبة ، وبذلك أصبح العربي يطوف بآلهة العرب مجتمعة ، لا بإله قبليته وحده ، فكان ذلك خطوة إلى توحيد الشخصية العربية التي مزقتها تعدد الأصنام <sup>٣</sup> .

وستؤكد لنا من الدراسات المقبلة أن عدة أصنام كانت تعبد من قبل أكثر من قبيلة .

لقد كانت الروابط التي قامت بين حكومة مكة ، برئاسة عبد المطلب بن هاشم وبين اليمن التي حررها سيف بن ذي يزن ، رد فعل للخطر الذي تفاقم من حول العرب ، ومحاوله لحماية

---

<sup>١</sup> د. عمارة : التراث في ضوء العقل ص ١٤٦

<sup>٢</sup> د. عمارة : المرجع السابق ، ص ١٤٦ وانظر : خالد عمر : العروبة والإسلام ص ١٥٠

<sup>٣</sup> د. عمارة : التراث في ضوء العقل ص ١٤٦

طريق التجارة الذي كانت تسلكه القوافل إلى الجنوب وإلى الشمال في رحلة الشتاء والصيف من كل عام<sup>١</sup>.

ثم لا ننسى التحالفات التي نشأت في الجزيرة العربية والتي دفعت إليها الضرورات الأمنية والتجارية من ذلك حلف الرباب ولعقة الدم وحلف الفضول ثم حلف قريش والأحباش . وعلى الصعيد الديني برزت ظواهر التحالف على أساس قبلي مثل ظاهرة الحمس وظاهرة الأحناف<sup>٢</sup>، إذ كانت هاتان الظاهرتان الإرهاص العقلي والخلقي والروحي لظهور الإسلام. ويجب أن نضيف إلى كل ما ذكرناه أن النظم الامبراطورية - وهي موحدة بطبيعتها - بما أقامته من مدن وطرق ووفرت من أمن واستقرار نسيبين فسحت المجال واسعاً لحركة السلع والأشخاص والأفكار، ولقد حلت الآرامية كلغة ثابتة في مصر والمشرق العربي وبعض نواحي المغرب وتواصل تدفق عرب شبه الجزيرة على الهلال الخصيب ووادي النيل ، وغلب على صراعات القوى المحلية فيما بينها التوجه نحو الاندفاع والتوحد وليس باتجاه العزلة والتفتت<sup>٣</sup>. ولقد كان لتفاعل شعوب المنطقة وقبائلها من الأمم المتغلبة على أمرها محتومة بالتمايز على محاور السلالات التاريخية واللغة والثقافة وأنماط السلوك ، وبما حفلت به قرون التسلط الإحدى عشرة من تبعية حضارية واضطهاد سياسي وتمييز اجتماعي وصراعات دينية ومذهبية ، مما عمق حدة التناقص العدائي بين الطرفين ، وأبرز ما يجوز اعتباره نزوعاً قومياً جسده الإحساس

---

<sup>١</sup> د. عمارة : التراث في ضوء العقل ص ١٤٦

<sup>٢</sup> ذلك لأن العرب مسلمون منذ سيدنا ابراهيم ، قال تعالى : ( هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ) (الحج: من الآية ٧٨)

<sup>٣</sup> عمر فرسخ : جدلية الوحدة والتجزئة ، مجلة المستقبل العربي العدد ٢٣٦ لعام ١٩٩٨ ص ٤٢

بالتمايز من الغزاة الأجانب ، وعلى الرغم من طول المدة لم يندمج أي من شعوب المنطقة في إحدى الأمم المسيطرة أو يتخذ لغتها لساناً لنخبه وجمهوره<sup>١</sup>.

وحقيقة الأمر فقد شهد القرن السادس الميلادي تحولات جذرية في الهلال الخصيب وشبه الجزيرة إذ قضى الساسانيون على كيان المناذرة ، وصفى البنظيون الغساسنة ، وزالت دولة كندة فيما استولى الأحباش على اليمن ، وتأثير صراع فارس وبيزنطة وحلفائها الأحباش تنافست اليهودية والنصرانية في اقتحام شبه الجزيرة ، حاولت بيزنطة وفارس التحكم في التجارة وبخاصة في المحيط الهندي فتمثلت الاستجابة العربية في وعي سياسي وحدوي ، جسده الاتجاه نحو الأحلاف ، كما ظهر الأحناف دعاة التوحيد ، وتنامي الوعي الاجتماعي ، وأخذت مكة تحتل دوراً مركزياً في ذلك التوجه ، فيما قريش بزعامة ارسطقراطية تجارية تمارس دوراً قيادياً في تشكيل الأحلاف القبلية (الايلاف) ، وفي اتخاذ موقف حيادي في صراعات بيزنطة وفارس عندما أقامت اتفاقات مع دور الجوار لتعزيز دور العرب التجاري ، وتزامن ذلك مع اتضاح استكمال اللغة العربية ذاتها والاتجاه للتضامن في مواجهة العدو الخارجي<sup>٢</sup>.

هكذا يبدو أن مرحلة التسلط الأجنبي الأولى ، وإن عطلت النمو القومي لشعوب المنطقة ، وأوقفت تطورها الحضاري المستقل ، إلا أنها لم تعطل التوجه الوحدوي الذي تبلور خلال المرحلة السابقة ، بل هي عمقته .

---

<sup>١</sup> عمر فرسخ : المرجع السابق ص ٤٣

<sup>٢</sup> عمر فرسخ : المرجع السابق ص ٤٣ وانظر خليل عبد الكريم : قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية ،

القاهرة وسيناء ٩٩٥ ص ٣٥

وليست العوامل الخارجية هي الرضات والخضات التي وثبت المجتمع العربي في الجاهلية بل هنالك مخاض محض داخلي يتعلق في جذر الاجتماع العربي المنشود المتصل بالتأسيس الذي أقامه سيدنا ابراهيم وبعده ابنه اسماعيل ثم حملت رايته جرهم من بعد اسماعيل وأخيراً الإصلاح الذي أقامه قصي بن كلاب ، ثم الخروج على هذا التأسيس والخبر الآتي الذي أورده ابن اسحق ينقل لنا مدى هذا القلق المصيري ، قال المذكور : واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم فخرج عليهم أربعة نفر نجياً ، وهم ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل قال بعضهم لبعض ، تعلموا والله ما قومكم على شيء ، بعد إبطال دين أبيهم ابراهيم أما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ، يا قوم التمسوا لأنفسكم فو الله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنفية دين ابراهيم .

#### الفرع السادس عشر : قريش

كنا قد تتبعنا بذور الحياة وجذورها العميقة ثم البزوغ القديم والمبكر والمنفرد لل عمران الحضاري في الجزيرة العربية، وقلنا إن هذه الجزيرة كانت في عصر البلاستوسين مروجاً خضراء كثيرة الغابات أهلة بالسكان.

تحكي النسخة السومرية لقضية الطوفان أن (ليمون) هي جنة عدن فهي أرض مطهرة مشرقة أحاطها إله الحياة (انكي) برعايته الخاصة، فجلب إليها المياه العذبة ، وجعل من آبارها مياهاً حلوة ، ومن شواطئها موانئ عامرة ، فهي أرض السلام والطمأنينة ، وسكانها لا يعرفون المرض

، وفي أرضها لا ينطق الغراب والطائر كيتي لا يطلق الصراخ ، والأسد لا يفترس والذئب لا يختطف الحمل<sup>١</sup> .

هذا هو الرحم الجغرافي الحاضن لجرثومة العربية السامية ، والاحتمال قائم أن يبوح هذا الرحم بالكثير ويمدنا بإضافات ومعلومات ثرة وغنية .

ونحن الآن أمام ظاهرة حية نشأت في الجزيرة العربية هي ظاهرة قريش ذلك التنظيم الاجتماعي ، الذي لعب دوراً فذاً في التاريخ العربي ، والذي ارتقى في الجاهلية إلى مستوى المدينة- الدولة : Etat-cite حسب تعبير المستشرق جيب<sup>٢</sup> .

وقريب من ذلك ما أكده أريك وولف عن التنظيم الاجتماعي لمكة بأنه مجتمع دولة منظمة وان كانت في حالة أولية ، وسنحاول هنا الإسهاب في دراسة هذه الظاهرة التي ألفت بصماتها على التاريخ العربي وحكمت دولة العرب في صدر الإسلام ، وفي الدولة الأموية والعباسية ، إضافة إلى أن مجتمع مكة الوظيفي - حسب تعبير أريك وولف - كان الحضانة التي بذرت فيها البذور الأولى للإسلام<sup>٣</sup> .

ما هو هذا المجتمع الذي وصف بأنه مجتمع وظيفي يتجاوز الإطار القبلي.. ثم ما هي عوامل نشوئه؟؟ .

يرى بعضهم أن العوامل الاقتصادية كانت العامل الأهم في نشوء هذا المجتمع ، فقد أدى اكتشاف التبديل المنتظم للرياح الموسمية إلى ظهور التجارة الساحلية المنتظمة حول شبه الجزيرة

---

<sup>١</sup> الأب سهيل قاشا : أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية ، ط ١ ٩٩٨ ، بيسان للطباعة والنشر والتوزيع ، ص ١٦٠

<sup>٢</sup> مقاله الموسوم بعنوان : التنظيم الاجتماعي في مكة وأصول الإسلام ، ترجمة أبو بكر ياقاور ، صيف وخريف ٢٠٠٠ ص ٧٣١ ، ١٤٠

<sup>٣</sup> المرجع السابق ، ص ١٤٤

العربية ، مما أدى إلى انخفاض معدلات ثمن البضائع بشكل كاف ، ومن ثم أدى إلى تناقص أهمية خط النقل البري من اليمن إلى سوريا بدرجة كبيرة ، وبالرغم من أن معظم تجارة السواحل كانت تمر عبر أيد غير عربية إلا أن العرب من سكان الحجاز استولوا على ما بقي عن طريق نقل البضائع عبر طريق القوافل الأساسية ، وأدى تطور هذا الهامش الاقتصادي إلى تأسيس مستوطنة دائمة في وادي مكة في حدود العام ٤٠٠ ق.م<sup>١</sup>.

ولقد أسس هذه المستوطنة أفراد من قبيلة قريش ، وهي فرع فقير من قبيلة كنانة الرعوية الكبيرة ، وقبل أن تستقر قريش في مكة عاشت بطونها باعتبارهم بدواً رحلاً في مجموعات قرابية مشتقة ومهاجرة مما جعلها تضيف إلى مصادر معيشتها فرض قوة على جماعة القوافل العابرة<sup>٢</sup>.

وأما اسم هذه القبيلة فقد فسر تفسيرين لهما اهتمام سوسولوجي لا اتمولوجي<sup>٣</sup> ، حيث يعيد أحد التفسيرين الاسم إلى كلمة التجمع ، ولقد سميت بذلك إما لأن أسلافهم جمعوا كل وحدات القرابة المهاجرة حول مكان ديني مقدس موجود سلفاً في مكة أو لأنهم جمعوا سلعاً من كل جانب للبيع<sup>٤</sup>.

---

<sup>١</sup> أريك وولف : المرجع السابق ص ١٣٩

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ١٣٩

<sup>٣</sup> اتمولوجي بمعنى الأصل اللغوي للكلمة .

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص ١٤٠

والذي قام بتجمع قريش هو قصي لذلك سمي مجمعاً ، فقد عاد زيد بن كلاب (الملقب بقصي) إلى قوم من كنانة تنازع خزاعة الزعامة ثم مكة أواخر القرن الرابع وكسب السيطرة ، فجمع قريشاً من رؤوس الجبال وأنزلهم للأبطح فسمي مجمعاً<sup>١</sup> .

ولقد دفعتهم حياة التوطن والاستقرار إلى حفر الآبار وبناء المباني ، كما أعفوا أنفسهم من إعداد المخيض أو صنع السمن أو العيش في خيام من شعر الجمال<sup>٢</sup> .

وهكذا تحدد دور قريش في الهيمنة على غرب شبه الجزيرة العربية ، وحماية القوافل ، إضافة إلى تقديم سلع للبيع على طول الخطوط البرية المؤدية إلى مناطقهم ، وأخيراً دخول الأسواق الكبيرة القائمة خارج منطقتهم ، إذ دخلوا في اتصالات تجارية مباشرة مع الشام والحبشة والفرس ، وهكذا تمكنت قريش من الحصول على الثقة والمشاركة في ثروة كل العرب المجاورين ، وكانت أسواق منى وذبي مجنة وذبي المجاز وعكاظ أسواقاً لمكة ، والدليل على ذلك إيداع الأسلحة لديها أثناء قيام هذه الأسواق وأثناء الحج<sup>٣</sup> .

وبذلك فقد حولت مغامرات قريش التجارة مكة إلى مدينة آمنة وقادرة على استيعاب أي مؤن قادمة من أية جهة (سورة النحل: ١١٣) ، وتحويلها إلى مكان جماهيري (سورة البلد: ٣) ، يعج بحركتهم وضجيجهم (آل عمران: ١٩٦) ، وهذا ما حولها إلى أم القرى (سورة المائدة: ٤) .

---

<sup>١</sup> سيرة ابن هشام ١٣٢/١ - تاريخ العرب ١٠٩٥/١ البداية والنهاية ٢٠١/٢ تاج العروس

<sup>٢</sup> أريك وولف : المرجع السابق ص ١٤٠

<sup>٣</sup> ولهاوزن ١٨٨٤ ، مجلد ٣ ص ٨٨

وفي هذه التجارة استثمرت رؤوس للأموال طائلة ، ووصلت بعض القوافل التي أكثر من ألفين وخمسمائة جمل ، تقدر حمولتها بحوالي خمسين ألف مثقال ، أو ما يعادل ألفين ومائتين وخمسين كيلو من الذهب <sup>١</sup> .

كان الحصول على رؤوس للأموال الضرورية لهذه العملية يتم عن طريق مؤسسة الاقتراض ، وعلى سبيل المثال لقد تحركت قافلة عام ٦٢٤م ، حيث لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا وساهم بذلك ، وكانت الأحجار تستخدم لتقدير قيمة السلع كما استعمل العملتين البيزنطية والفارسية <sup>٢</sup> .

هذا التطور حول المجتمع المكي من نظام اجتماعي يقوم على القرابة إلى نظام اجتماعي يستخدم فيه النسب القرابي قناعاً لتقسيم المجتمع إلى طبقات تمتلك قدراً كبيراً من التنوع الإثني <sup>٣</sup> .

وإذا كانت العشيرتان المسيطرتان هما أمية ومخزوم باعتبارهما يمثلان داخل مكة مكاناً مرموقاً ، إلا أن هذا المجتمع قد عرف طبقات فقيرة إضافة إلى مجموعات من التجار الأثرياء وأسراهم وأتباعهم إضافة إلى وجود العبيد والمرتزة والوسطاء والأشخاص الخاضعين للأثرياء بسبب الديون ، مثل أتباع العباس الذين أصبحوا رهن إشارته بسبب ما تراكم عليهم من الربا ، وأخيراً وجود مجموعة من الناس يعملون بالأجر ناهيك عن الموالي والأتباع <sup>٤</sup> .

---

<sup>١</sup> الواقدي : ٣٤ ، ١٨٨٤

<sup>٢</sup> الواقدي : المقذي ٢٧/١

<sup>٣</sup> البلازري : ١٨٦١ ، ٢٣٣ وابن هشام ص ٣

<sup>٤</sup> إرنك وولف ص ١٤٤



وكان في مكة ثلاث عشرة مجموعة من الموالي كل مجموعة تنتسب إلى أسرة أو عشيرة ، وكانوا من أصول متنوعة فقد كان فيهم العبيد المحررين والخارجون عن القانون على قبائل أخرى أو كانوا أفراداً يتمتعون بحق الجوار في المجموعة كما كان بعضهم من المتبنين<sup>١</sup> .

ويعنى أوضح فقد كان مجتمع مكة منظم على أساس النسب أو على أساس المجموعات الوظيفية المندمجة بمجموعات النسب ، وكانت هذه هي الوسيلة لارتباط الناس مع بعضهم مع العلم أن هذه الصيغة تنطوي في كثير من الأحوال على الاستقلال ، وهكذا بدا أن أكثر المسلمين الأوائل كانوا من الموالي والعبيد<sup>٢</sup> .

وغير خاف أن النظام القرابي كان هو الوسيلة لحماية الرجل المعزول ولتأمين الأمن والاستقرار<sup>٣</sup> .

هذا النضج الاجتماعي لمكة أفصح عن وجود تجار وقادة قوافل ورجال دين وأطباء وجراحين وأطباء أسنان ومعالجين أجانب وحدادين ونجارين من الأقباط ونحائي أصنام من الزنوج وتجار من الحبشة وعبيد من العراقيين والعصريين والبيزنطيين يباعون في الأسواق ، وبالتالي فقد كان هذا السوق المركزي قوة جذب لكافة أطراف الجزيرة العربية<sup>٤</sup> .

ولم يكتف وجهاء مكة بالسيطرة على الهرم الاقتصادي بل سيطروا على الهرم الديني ، وهكذا فقد ترأست جماعة الحمس الدينية ذلك<sup>٥</sup> .

---

<sup>١</sup> إريك وولف ص ١٤٥

<sup>٢</sup> إريك وولف ص ١٤٦

<sup>٣</sup> إريك وولف ص ١٤٥

<sup>٤</sup> كيتاني : ١٩٢٣ ، ١٤٨

<sup>٥</sup> المرجع السابق

ولقد أحيطت مكة بحرم آمن لم يكن مسموحاً بإراقة الدماء داخل إطاره ، ومع ارتفاع قيمة وأهمية مكة اقتصادياً فقد سعت قريش إلى توسيع حدود الحرم عن طريق وضع مخازنهم وجمالهم وثروتهم على مسافة كبيرة من المدينة <sup>١</sup> .

ولقد عم الأمن حيث أحاط التجار المكيون الكعبة بأصنام للمجموعات القبلية الأخرى لزيادة أهمية المكان المقدس ولجذب أكبر عدد من الزوار إلى المدينة <sup>٢</sup> .

ويرى ولهاوزن - ومع تحفظنا على قراءته - أنه تم هجر المقامات المحلية والالتجاء إلى إله واحد فوق كافة الآلهة ، فكان الله أبرز حام للعلاقات الاجتماعية فهو حامى العقيدة والمنتقم ، وباسمه تم الوفاء بالعهود وإكرام الضيوف <sup>٣</sup> .

وكان للعلاقات التي أقامتها قريش مع القبائل دور في زجها بحروب بسبب اضطرارهم لمناصرة حلفائهم ، وهذا التنظيم الاجتماعي لقريش دفعها إلى تكريس قوة عسكرية هي الأحابيش <sup>٤</sup> . وتجدر الملاحظة إلى أن قوة المكيين برزت بعد تفكيك قوة كندة ، لا سيما أنها حافظت على استقلالها من الحبشة وبيزنطة وفارس .

أجل لقد وصل التوسع العربي جنوباً إلى العلا وخيبر وحائل ، لكنهم لم يصلوا إلى مكة <sup>٥</sup> ، منوهين بأنه كان هنالك محاولة لضم مكة إلى المجال البيزنطي - وهي محاولة عثمان بن الحويرث - لكنها فشلت <sup>٦</sup> .

---

<sup>١</sup> لامانس ١٩٢٨ ، ٢٣

<sup>٢</sup> ابن هشام ٣٩/١

<sup>٣</sup> ١٨٨ ، ١٩١

<sup>٤</sup> إريك وولف ص ١٥٢

<sup>٥</sup> لامانس ١٩٢٣ ، ٢٣

<sup>٦</sup> إريك وولف ص ١٥٤

والحديث طويل عن قريش ، عن الندوة والمأل الذي يشبه مجلس الشيوخ في أثينا<sup>١</sup> ، وعن وظائفه : السقاية - الرفادة - اللواء الذي ربط بمعاهدات سياسية وتجارية الجزيرة العربية ببلاد الشام واليمن .

ما هي الحقائق النفسية والعقلية والايديولوجية في مجتمع قريش؟؟  
في هذا الصدد نذكر بقول الثعالبي بأن قريشاً أدهى العرب وأعقل البشر وأحسن الناس بياناً ومظهراً وجمالاً ، لذلك قيل: جمال قريش<sup>٢</sup>  
أما صاحب تاج العروس فوصفهم بقوله : من كان محتاجاً أغنوه ، ومن كان عارياً كسوه ، ومن كان معدماً سدوا حلقه ، ومن كان طريداً آووه<sup>٣</sup> .  
لقد عالج هذا المجتمع ما نسميه بالمسألة الاجتماعية ، إذ سمح لكل فرد في مكة بأن يساهم في تمويل قوافلها ، وهذا ما عبر عنه طرود الخزاعي بقوله :

هبلتك أمك لو حللت بدارهم      ضمنوك من جوع ومن إقراف  
الخالطون غنيهم بفقيرهم      حتى يصير فقيرهم كالكافي

ولقد حافظت قريش على إرث قصي ، فكانت توقد النار في مزدلفة ليراهم المحتاجون ، وتوطدت تقاليد هذه المدينة - ومنذ سابقة قصي - على الابتعاد عن القتال ، وتتوج بالاتصال بأحياء العرب وأخذ عقود للأمان لتجارهم ( الإيلاف).

<sup>١</sup> د. نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم وعصر الإسلام ، بيروت ، دار الفكر ، ٩٨٣ ص ١٣ ، وانظر :

دلو : المرجع السابق ص ٣٦٢

<sup>٢</sup> ثمار القلوب ص ١١

<sup>٣</sup> طبقات ابن سعد : ص ٧٢

ولقد تعلم المجتمع المكي أصول الكتابة من أهل الحيرة ، فهدبوا بذلك لسانهم ، واشتهروا بالفصاحة حتى أن الشعراء كانوا يعرضون عليهم أشعارهم .

واشتهروا بالحلم ، فكانوا يدفعون الإساءة بالتي هي أحسن ، والكلام السيء بالجميل ، وتعزز ذلك بنصرة الغريب والذود عن المظلوم ، والدفاع عن المستجير، فصار التاجر يأتي إلى مكة فيبيع بحرية واطمئنان ، وإذا ما اعتدى عليه أحد نادى بأعلى صوته قائلاً: يا آل قريش ، يا آل مكة ، فيهرع القوم لنصرته ، ولقد وعت قريش ذاتها وهويتها فتغنت بأنهما: آل الله ، وجيران الله وسكان حرم الله<sup>١</sup> .

وظهر في هذه المدينة شخصيات مرموقة من ذلك على سبيل المثال قصي بن كلاب جد الرسول ، فقد حرم على نفسه الخمر ، وكان يكثُر في شهر رمضان من التحنُّث وإطعام المساكين ، والطواف حول البيت ، والتفكير في جلال الله وعظمته<sup>٢</sup> .

ومن هذه الشخصيات جد الرسول عبد المطلب ، فقد أمر أولاده بترك الظلم ، وحثهم على المكارم ، وكان يقول : ما يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وإن وراء هذه الدار داراً أخرى يجزى فيها المحسن ، ولقد رفض آخر حياته عبادة الأصنام ، ووجد الله واتبع سننا جاء القرآن بأكثرها ، وجاءت السنة بها ، من ذلك الوفاء بالنذر، وتحريم الخمر والزنا ، وألا يطوف بالبيت عريان ، وهو الذي سن الدينة بمائة من الإبل ، وكانت عشراً ، وقد أقر الرسول ذلك<sup>٣</sup> .

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٤ ص ٢١

<sup>٢</sup> العقد الفريد ٣/٣١٣

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٤ ص ٢١

ومن وجهاء مكة ، عبد الله بن جدعان ، فقد كان لا يشرب أو يأكل إلا بأواني الذهب ، حتى اشتهر بأنه ( حاسي الذهب ) ، كما اشتهر بعشق الرقاب والإغاثة في النوائب ، حيث وضع جفنة كبيرة كانت تملأ بالطعام لإطعام المساكين والمسافرين ، كما جعل منادياً ينادي كل ليلة من على ظهر الكعبة : أن هموا إلى جفنة ابن جدعان .

هذه القبيلة العريقة في تراثها التجاري لعبت دوراً كبيراً في الحقبة الإسلامية حيث قدمت خبرتها السياسية ، وحنكتها خلافاً للقبائل الرعوية والبدوية كالسلاجقة والمغول<sup>١</sup> .

ولقد عرفت مكة ظاهرة الوساطة التجارية، كما عرفت نظام الصيرفة<sup>٢</sup> .

أما على الصعيد الديني فقد عرفت ظاهرة الحمس ، وهي جماعة متشددة على النفس ، وكانوا يطوفون بالبيت وعليهم الثياب ، ولا يزوجون بناتهم إلا إذا اشترطوا أن يكون الأولاد منهم ، كذلك فقد عرفت الحنفية ، وهي الإسلام على دين سيدنا ابراهيم قال تعالى : (مِا كِيَانْ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كِيَانْ حَنِيفًا مَّسَلِمًا وَمِا كِيَانْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (آل عمران:٦٧) .

وقصدت مكة جاليات أجنبية ، والأغلب أنهم كانوا نصارى ، وهذا ما يتضح من قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاهُ وَأَعَانِي عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَبَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا) (الفرقان: ٤)

ولقد عرفت هذه المدينة الحرف والمهن ، فقد كان العوام أبو الزبير خياطاً ، وكان الزبير طرازاً ، وكان عقبة بن أبي معيط خماراً ، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزبيب ، وكان عقبة بن أبي وقاص نجاراً وكان أميه بن خلف يبيع البرم ، وكان عبد الله بن جدعان نحاساً ، وكان العاصي

<sup>١</sup> محمد جابر الأنصاري : الفكر العربي وصراع الأضداد ص ٤٠

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٤ ص ١١٧

بن وائل يعالج الخيل والإبل ، وكان النضر بن الحارث يضرب بالعود ، وكان الحكم بن أبي العاص حجماً<sup>١</sup> .

هذه المعطيات تقدم لنا إضاءات ساطعة لجملة من التساؤلات أخصها ما يلي :

- قوله تعالى : ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ) (ابراهيم: من الآية ٤) ، ذلك أن الرسالة تحتاج إلى جذر اجتماعي ، أو لنقل إلى حضانة تلتف حولها وتحميها ولا تتركها سائبة في الهواء ، بل متجذرة في أعماق الأرض ، إذ كلما امتدت الجذور ارتفعت الأغصان باسقة ، وهذه ظاهرة بيولوجية يوضحها قوله تعالى : ( أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ) (المرسلات: ٢٠ - ٢١)

- نعم بذور الحياة الأولى اللدنة لا بد لها من قرار يحميها يتعهد بها ويرعاها ويعطيها بعدها الحضاري ، وقد توفر ذلك في صحابة الرسول الذين هبوا لحمل الرسالة.

- قوله ﷺ : هذا الأمر لهذا الحي من قريش ، والرسول هنا يعطي حكماً تقريبياً لا حكم قيمة أي يقرر ما هو قائم وواقعي مآله أنه لا أحد يستطيع حكم الجزيرة العربية ، وبالتالي فهو في هذا الحديث لا يعطي حكماً يفرض الخلافة في قريش .

ولنا أن نتساءل عن سبب استمرار قريش في حكم العرب ، وهنا يسعفنا ذلك الخبر الذي أورده البلازري بأن فتنة حدثت في خراسان ، فأرسل أهلها إلى عبد الملك بن مروان بأنه لا يصلح أمرهم إلا بأمر من قريش وهذا يفسر وصف أبي بكر الصديق لقريش بقوله أهم أواسط العرب في العرب داراً وأحسنهم جواراً وأعرهم لساناً .

ولنا أن نتساءل عن الضوابط الفقهية التي كانت تشترط القرشية في الخلافة؟؟<sup>٢</sup> .

<sup>١</sup> جواد علي ج ٤ ص ١١٧

<sup>٢</sup> د. محمد جابر الأنصاري : الفكر الإسلامي ص ٤٠

قريش هذه هي الحاملة للمشروع الإسلامي ، والتي أعطته أبعاده الحضارية ، وقد أعانتها على ذلك ، ولاشك خبرتها التجارية وحنكتها ، خلافاً للموجات الرعوية التركية والمغولية التي حكمت الدار الإسلامية .

ولا ننسى مشروع هذه القبيلة في الجاهلية وبلورتها للوعي العربي وهذا ما تفصح عنه الشهادة التاريخية الآتية : إن الدولة العربية لم تكن الناتج الطبيعي لتطوير الرأسمالية بحثاً عن السوق القومي بل من خلال مفهوم إنجاز المشروع التنموي الحضاري العربي بشموليته وتعدد عناصره ، فالطموح الواعي الذي صاغته كنانة أولاً وقريش لاحقاً نحو إنجاز مشروع الدولة ، إذ من المعروف أن قصياً بن كلاب هو واضع البذرة الأولى في تكوين الدولة العربية المركزية التي ابتدأت من مكة لأسباب ميتولوجية وتاريخية واجتماعية وجغرافية تمثلت في امتداح قدرة الاجتياحات الأجنبية للوصول إلى مركز تلك الدولة وهكذا فقد أكمل حفيده عبد المطلب تلك المهمة في محور الطموح نفسه موضحاً ذلك بقوله : إذا أراد الله إنشاء دولة خلف لها أمثال هؤلاء ، وهو يشير إلى أبناء وطنه ، وهكذا فقد مثل النبي محمد ﷺ عبر رسالته ذلك الطموح إلى الواقع العملي بإيجاد التغيير الاجتماعي السياسي ، وليس فقط كرد تاريخي على الفرس والروم ، بل استجابة تاريخية سيروية لتوضعات وحدة البناء الثقافي والأناسي للشرق العربي ، كل تكوين الدولة الواحدة على كل الجغرافية العربية المهدف الواعي لتلك الرسالة .

يروى صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب خاطب الرسول ﷺ قائلاً : ادع الله ، فليوسع على أمتك ، فإن الفرس والروم وسع عليهم ، وأعطاهم الدنيا ، وهم لا يعبدون الله ، وكان النبي متكئاً ، فقال : أو في شك أنت يا ابن الخطاب<sup>١</sup> .

وقريب من ذلك ما أكده الدكتور رضوان السيد<sup>٢</sup> في حديث مطول نجتزئ بعض فقراته : (كان البيت إذن لرب البيت) هو الذي تأسس عليه بنيان قريش ، وكان الانحراف عن هذا التقليد التوحيدي ، الابراهيمي بداية انقسام قريش بعد أن تعددت الأرباب .

إن هذه الرواية العربية القديمة للتاريخ وللتوحيد الاجتماعي فيه نرى أن جذر الاجتماع الذي يقام عليه يستمر به وفيه هو النص (التقليد) المتوارث عن ابراهيم ، وقد تولت البيت جرهم بعد اسماعيل الذي شب وتزوج منهم ، لما انحرفوا عن تقليد التوحيد انخرعت أي انقسمت خزاعة لتؤسس اجتماعاً جديداً لم يطل كثيراً بسبب البدعة التي استحدثتها كبيرهم عمرو بن لحي متأثراً بأعراب الشام ، ثم تقرشت (تجمعت) كنانة من تفرقتها بزعامة قصي لتسقط انحراف خزاعة وتعيد تأسيس التقليد التوحيدي ، وهذه هي مجموعة صغيرة من قريش تكتشف بعدما لا يزيد على قرن من الزمان أن بنيان قصي على شفا حرف هار بسبب استمرار انحراف خزاعة رغم إصلاح قصي... ، وأن الاجتماع القرشي بغير أساس ، ولذلك كانت صدمات الشرذمة فعادت العشائر للظهور مختربة وحدة القبيلة من خلال أبيها ومن خلال النداء حول البيت وشاعت الأحلاف والأحزاب داخل جسم قريش الذي كان من قبل واحداً فكان حلف المطيبين وكان حلف الفضول وقد عني

---

<sup>١</sup> جمال الدين الخضور : مقاله الموسوم بعنوان المشروع النهضوي القومي العربي ، مجلة الفكر السياسي

العدد ٨ لعام ٢٠٠٠ ص ٥٩

<sup>٢</sup> نأمل من القارئ الرجوع إلى كتابه مفاهيم الجماعات في الإسلام ، بيروت دار التنوير للطباعة والنشر ،

ط ١ ، ٩٨٤ ، ط ٩ وما بعدها



ذلك كله شذمة وانقساماً للذهول عن الجذر الموحد لذلك عبر ابن هشام في السيرة عن هذا كله بقوله : ( ذكر ما جرى من خلاف قريش بعد قصي ) .

لكن ماذا بالنسبة لاشتراط قرشية الخلافة ؟ أول ما طرح هذا الأمر في سقيفة بني ساعدة ، طرحه أبو بكر الصديق في موجهة الأنصار ، وقولهم إنهم أحق بالخلافة فكان جواب أبي بكر أن العرب لا تدين ولا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش<sup>١</sup> .

ولقد اتفقت الشيعة بجميع فرقها - وخلافاً للذين لم يشترطوا في الخلافة شرط القرشية - على أن الإمامة في آل بيت الرسول من أبناء علي بن أبي طالب ، والأمر نفسه بالنسبة للأمويين الذين حصروا الخلافة في قريش ، أما العباسيون فقد حصروا ذلك في آل هاشم<sup>٢</sup> .

أما المعتزلة فلم يكونوا يشترطون ذلك في تاريخهم ونشأتهم الأولى ، لكن المتأخرين منهم اشتروا ذلك في الخليفة والإمام عندما هددت العجمة منصب الخلافة ، فوضعوا هذا الشرط للتعبير عن المطلب القومي الداعي لعروبة الدولة في المجتمع العربي الإسلامي .

وقد يبدو للقارئ في الوهلة الأولى أن هذا الشرط مخالف للأحكام التي تفرق بين العربي والعجمة وفي الحقيقة إن نظرة سريعة للأمر ترينا أنه شرط طبيعي يتعلق بالسياسة والدولة والمنصب الأعلى في الحكومة ، والخلاصة فالإسلام يقوم في جوهره على صفاء الفطرة والبعد عن المداجاة والتصنع .

وإنك لتجد أعرابياً يتساءل كيف عرف الله فيقول : البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير ، فأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج ، أفلا تدل على الخبير البصير<sup>٣</sup> .

<sup>١</sup> د. عمارة : التراث في ضوء العقل ، ص ٢٢٠

<sup>٢</sup> د. عمارة : التراث في ضوء العقل ، ص ٢٢١

<sup>٣</sup> المرجع السابق ، ص ٣٤

وإلى هذه السجية المستنيرة والطبع المستقيم السهل الذي يأنف النقائص والالتواء الفكري يرجع نجاح الإسلام في حجاجه مع أولئك العرب فقد كان الرسول ﷺ يسألهم هل يملك الفرد الخلق والرزق والتدبير فكانت الإجابة : لا .

قال تعالى : (قُلْ مَنِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّبْمَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنِ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقِيلَ أَفَيَا تَتَّقُونَ) (يونس: ٣١)

## الفصل الرابع

### مظاهر وتجليات الترابط في المجتمع العربي الجاهلي

#### مقدمة

تكلمنا عن الفواعل الجغرافية والتاريخية لنشوء الأمة العربية التي قادت إلى التفاعل والترابط العربي والوسائل وعروق الحياة وأسلاك المجتمعية المتسلسلة وقنواتها، بهذا الأمر وفر لأمتنا خلال التطور العميق ما يسمونه بالزمن السوسولوجي ، ودورات الوجود التاريخي الاجتماعي<sup>١</sup> القائمة في التاريخ باتجاه الزمن المتحرك<sup>٢</sup> .

ولاشك أن هناك جماعات اجتماعية متعددة ، لكن الأمة هي الشخص التاريخي الاجتماعي الأمثل التي تحتضن قوى الترابط والأسدية وعروق الحياة الأكثر فعالية وصلابة وتماسكاً لتحقيق دورها الحضاري ورسالتها الإنسانية<sup>٣</sup> ، وبالتالي فبقدر ما تزخر من مؤسسات

---

<sup>١</sup> غاسون بوتول : سوسولوجيا السياسة ترجمة نعيم نصر ، بيروت ، باريس ، منشورات عويدات ط ٢ ٩٨٢ ص ٥١

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٥٦

<sup>٣</sup> يقصد بالمؤسسة بالمعنى الدوركهايمي الذي يتسع لكل قوة اجتماعية ، انظر جان وليام لابييار : السلطة السياسية ، ترجمة الياس حنا الياس منشورات ط ٣ ، ٩٨٣

الترباط وشائجه ، بقدر ما يتسنى لها التصدي لدورها الحضاري فالحضارة صرح قومي super- constitution يرتكز على قوة الأساس : sub-constitution .

وبقدر ما تكون قاعدة الهرم عريضة و متماسكة ، بقدر ما يكون الرأس كاسحاً ، وبالعكس فالرأس الكسيح هو الذي يقوم على قاعدة كسيحة .

وحسب أدبيات السوسولوجيا السياسية ، فسوسولوجيا اليوم هي سياسة الغد<sup>١</sup> والسياسة إبرة مغناطيسية تحركها الساحة المغناطيسية التي هي المجتمع ، ومن ثم فالدستور الضمني للحياة هو أساس الدستور الرسمي ، وما السياسة إلا تقنية وفيزياء للواقع ، أو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله : إن نسبة السياسة إلى العمران كنسبة الصورة إلى المادة.

ويمكن القول إن كل مجتمع يتميز بمجموع خاص معقد ومتنوع من البنى والمسالك والمواقف الجماعية والنماذج الثقافية والرموز والمعتقدات والقيم الخاصة أي بتنظيم مشترك وذهنية معينة تتكون عبر تاريخ هو تاريخه بالذات ذلك التاريخ الذي لا يتوقف عن الاطراد ، ولن يبلغ أبداً حده النهائي<sup>٢</sup> ، في ضوء ما نقدم فمن المتعذر إستكناه مجتمعا الجاهلي ما لم نقم بحفر معرني عميق يتناول كافة مؤسسات ونسج حياته ، على أن نركز في هذا الحفر على الحياة العادية اليومية بكافة تعرجاتها وتضاريسها .

وإذا كان من المتعذر علينا الإحاطة بالإسمنت الاجتماعي في الجاهلية ، فإننا سنقتصر على بحث بعض مظاهر هذا الترباط مذكرين بما قاله الجاحظ في هذا الصدد : إن العرب استنوا في التربية وفي اللغة وفي الشمائل وفي الإلفة ، وفي الأخلاق والسجايا ، فسكبوا سكباً ، وأفرغوا إفراغاً واحداً .

<sup>١</sup> لايبير : السلطة السياسية ص ٥٢

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٥٦

وحقيقة الأمر يتعذر علينا القيام بمسح انترولوجي جامع لكل ما علا سماء الحياة العربية في الجاهلية من المعاني التي أنجزها الإنسان العربي ، ورسمها على جبين الزمن والحياة ، ولهذا فسنتصر على اختيار عينات<sup>١</sup> تكشف لنا عن خصائص العروبة التي رشحت أمتنا لاحتضان الرسالة الخالدة .

وفي الواقع لقد تمتعت الأمة العربية بخصائص أهلها لحضانة الرسالة الإسلامية الخالدة .  
اصطفى الله العرب للاضطلاع برسالاته العظمى وتبليغها للناس ما بقيت الحياة والأحياء<sup>٢</sup>  
وعندما نتأمل في أحوال هذه الأمة عند ترشيحها للبعثة نجدها أحق الأمم بوراثة الكتاب الكريم والقيام على هداياته .

فقد كان يرمقون غيرهم فلا يجدون لديهم ما يبعث على الإعجاب والاحترام ، بل كانوا يأنسون في تكوينهم نقاء المعدن وصفاء الطبيعة ، ويرون أنفسهم أقوم طباعاً وأنفذ أفكاراً ، وأعصى على الضيم ، وأنأى عن الدينئة ، وأقدر على عظام الأمور ونيل الأجداد ، وقد نوه تعالى بذلك وأخذ يحث العرب على حمل رسالته قال تعالى : ( وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ، أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَيْنَ دِرَاسَتِهِمْ لَعَا فِئَلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ) (الأنعام ١٥٥-١٥٦-١٥٧ )

وقال تعالى : ( وَأَقْسَبُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِخْوَانِهِ ) (الأنعام ٤٢)

---

<sup>١</sup> تكلم عن هذا المنهج : مارلين نصر : التطور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر ، المرجع السابق

وهكذا يصور الجاحظ نظرة العرب إلى أنفسهم فيقول<sup>١</sup>: ضرب من صدق الحس ، وصواب وجوده النظر وصواب الحدس وصحة الرأي ما لا يعرف لغيرهم ، وبهم العزم الذي لا يشبهه عزم ، والصبر الذي لا يشبهه صبر ، والجود والأناة والحمية التي لا يدانيهم أحد فيها ، ولا يتعلق بها رومي ، ولا هندي ولا فارسي .

ذلك أن سفلة كل جيل ، وغفلة كل صنف ، إذا اشتد تشاجرهم ، وطالت ملاحقتهم وكثر مزاحهم ، وشاعت الدعاية بينهم وجدتهم يخرجون إلى ذكر الحرمان ، وشتيمة الأمهات ، واللفظ السيء والسفه الفاحش ، ولست بسامع من هذا حرما في البادية ، لا من صغيرهم ، ولا من كبيرهم ، ولا جاهلهم ولا عالمهم ، وليس في الأرض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم ، وكل شيء تقوله العجم ، فهو تكلف واستكراه .

والعرب شعب ذكي قوي ، وقد استجمعوا على عهد البعثة كل الخلال التي تنجح بها رسالة عظمى ، بل إن ما تتطلبه دعوة ضخمة كدعوة الإسلام لم يكن تتوفر إلا في هذه الجزيرة التي عبأها الأقدار بشتى القوى والمواهب .

وتجدر الملاحظة إلى أن عبادة الأصنام لم تكن متغلغلة في نفوس عرب الجاهلية ، وهذا ما سهل طمسها يقول دوزي : وكانوا يغضبون من الآلهة ، وكانوا يتحدونها ، وكانوا يطرحونها في غضب وازدراء إذا كانت مشورتها على عكس ما تهوى نفوسهم ويسبونونها ، ويرجمونها بالحجارة إذا عاكسهم القدر فظنوا أنها من غضب تلك الآلهة ، ويسقطون آلهتهم عن عروشها (القواعد التي كانوا يضعون عليها التماثيل) ويشبعونها سباب لأقل سبب<sup>٢</sup> .

ما هي هذه الخصال والخلال والمناقب التي كانت العامل الأساسي للانتصار بذي قار؟؟

<sup>١</sup> محمد الغزالي : المرجع السابق ص ٢٦

<sup>٢</sup> نقل هذا الكلام عن دوزي د. حسن ابراهيم حسن ، ج ١ ص ١٩٦

## البحث الأول

### الجوانب النفسية

#### الفرع الأول الاعتداد بالنفس

بلغت قوة الفرد مداها بين العرب ، حيث بدا كل منهم أن له من العزة وتما شخصيته ما يجعله إنساناً يفرض نفسه على ما حوله ، ويأخذ امتداده المطلق في كل ناحية ، وقد جعلهم هذا الشعور أصحاب حساسية شديدة بأنفسهم ، مما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق ، ولقد بلغ بهم هذا الأمر حد التطرف .

يقول الشاعر:

لو كان في الألف منا واحد فدعوا      من فارس، خالهم إياه يعنوننا

وقول الآخر :

إذا القوم قالوا : من فتى خلت أني      عنيت فلم اكسل ولم أتبلد

وهذه الخصلة - ولا شك - تجعل صاحبها رجل صدق ووفاء ، إذا قال كلمة وقف عندها ، فلم يغلبه نسيان وما نزلت به رهبة .

#### الفرع الثاني : الشجاعة

ولقد طبعت البيئة العربية أبنائها على الصعاب ، وقلّة المبالاة بالشدائد ومواجهة الموت ببسالة ورغبة وابتسام .

يقول الشاعر دريد بن الصمة :

أبي الموت إلا آل صمة إنهم      أبوا غيره والقدر يجرى على القدر

فإننا للحم السيف غير نكبره      ونلحمه حيناً وليس بذئ نكر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا      فما ينقضي إلا ونحن على شطر

وقول الآخر:

شددنا شدة فقتلت منهم      ثلاثة فتية وقتلت قينا

وشدوا شدة أخرى فجروا      بأرجل مثلهم ورموا جونا

وكان أخي جوين ذا حفاظ      وكان القتل للفتيان زينا

فنحن إذن في أمة ترى الموت شرفاً للإنسان ، وهذا هو عين الشهادة في الإسلام ، وإن كانت الشهادة سمت بالنظرة إلى هدف التضحية في النفس ، وهذه التضحية مفتاح السعادة ، والباب العريض لامتلاك الحياة ، قال رسول الله ﷺ : أطلب الموت توهب لك الحياة .

لكن السؤال الذي نطرحه بشدة هو : أليس هنالك اتساق بين روح الشجاعة العربية وبين روح الاستشهاد في الإسلام؟؟ .

### الفرع الثالث : الكرم

وكما كان العربي شجاعاً كان كريماً مسامحاً متهيأً لمقابلة أضيافه ، وهو متهلل الأسارير وطيب النفس قال الشاعر :

نصبوا بمدرجة الطريق قدورهم      يتسابقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه      حب القرى حطباً على النيران

ولقد تفنن العرب في إيصال اللقمة إلى الكبد الجائعة ، لذلك كانوا يوقدون النار في الجبال ليهتدي بها الضالون ، وسميت هذه النار (نار القرى) <sup>١</sup> وفي ذلك قالت الخنساء تصف أحاها :

وإن صخرًا لتهتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وكانوا يضعون الماء في حياض داخل الحرم ليستقي منه الحجاج ، وكانوا يسقونهم مجاناً الزبيب المنبوذ بالماء <sup>٢</sup> ، ومنهم من كان يسقي اللبن والعسل ، وأول من فعل ذلك هو سويد بن عامر الجمحي وأبو أمية بن المغيرة المخزومي المعروف بزاد الركب ، وأبو وادعة بن سعد بن سهم ، وعلي بن نوفل <sup>٣</sup> وفي طبقات ابن سعد أن هاشماً بن عبد مناف - وقد ولي السقاية والرفادة - كان إذا حضر الحج قام في قريش ليقول يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار يعظمون حرم بيته ، فهم ضيوف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به ، وحفظ فيكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه فكانت قريش ترافد على ذلك ، وكان أهل البيت يرسلون الشيء اليسير على قدرهم ، وكان هاشم بن عبد مناف يخرج في كل عام مالاً كثيراً ، وكان قوم من قريش يتراقدون ، وكان كل إنسان يرسل بمئة مثقال هرقلية ، وكان هاشم يأمر بجياض من آدم (جلد) فتجعل في موضع زمزم ، ثم يستقي منها المياه من البئار التي بمكة فيشربه الحجاج .. وكان يثرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسويق والتمر ، ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى <sup>٤</sup> .

<sup>١</sup> جواد علي ج ٤ ص ٨٤١

<sup>٢</sup> تاج العروس ١٠/١٨١

<sup>٣</sup> المخبر ص ١٧٦

<sup>٤</sup> ٧٨/١ وانظر ظافر القاسمي : نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، دار النفائس ، بيروت ٩٨٥ ص ١٥



ولقد عظم الرسول ﷺ ذلك فقال : كل مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج ، وسدانة

البيت <sup>١</sup> ، ولقد ساهم الشعر الجاهلي في رسم هذه الصورة يقول الشاعر <sup>٢</sup> :

على مكثريهم رزق من يعترتهم      وعند المقلين الساحة والبذل

يقول الشاعر: والخالطين غنيهم بفقيرهم      والمطعمين على الفقير المرملة <sup>٣</sup>.

يقول الأعشى :

وأهان صالح ماله لفقيرها      وآسى وأصلح بينها وسعى لها <sup>٤</sup>

وكان عوف بن أبي عمرو بن شيبان ينادي في الناس : والله لا يدخلها جائع إلا شبع ولا

خائف إلا أمن <sup>٥</sup> وروى أن حكم بن حزام كان يقاسم ربه الفقراء <sup>٦</sup>.

ومن تقاليدهم مساعدة الضال والمنقطع والمغرب عن أهله <sup>٧</sup>.

وكانت بعض النفوس الرقيقة تفتدى البنات من الوأد ، ومن هؤلاء صعصعة ( الفرزدق ) الذي

افتدى أربعمئة جارية <sup>٨</sup>.

وفي ذلك قال الفرزدق : وجددي الذي منع الوائدات      وأحيا الوئيد فلم يوأد <sup>٩</sup>

<sup>١</sup> القاسمي : المرجع السابق ص ١٥

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٤ ص ٨٥

<sup>٣</sup> الأمالي للقيلي : ١٥١/٢

<sup>٤</sup> ديوان الأعشى : ٣٥/٣

<sup>٥</sup> المخبر : ص ٢٤١

<sup>٦</sup> جواد علي ج ٤ ص ٨٤

<sup>٧</sup> جواد علي ج ٤ ص ٨٧

<sup>٨</sup> القرطبي : الجامع ٨١٧/١٠

<sup>٩</sup> تاج العروس : ٥٢٠/٢ ( وأد )

وكان عمرو بن طفيل يفتدي المؤودة ويقول لأبيها إن شئت تركتها أو أعدتها إليك ، ومنهم من حبس الحبوس لتكون وقفاً على الفقراء ، وفي ذلك خاطب ابن ربيعة ابن الأسود الرسول ﷺ بقوله يا رسول الله إن أبي كان قد وقف نخلاً فأمضها ، فأمر النبي ﷺ بإمضائها<sup>١</sup> .

وقال معاوية : وددت أن صاحب نخل ربيعة بن أسود مكان الخلافة لي<sup>٢</sup> .  
ولقد ظهر في الجاهلية العديد من الرجال الكملة الجوادين الذين ضرب المثل في كرمهم ، منهم كعب الإبل وأوس الطائي وهرم بن سنان وعبد الله العنبري ، وعبد الله بن جدعان حيث لقب بمطعم الطير ومطعم الريح (أي الشعائر)<sup>٣</sup> .

وقصة تحمل هرم بن سنان والحارث بن عوف ديات قتلى الحرب بين عبس وذبيان ، هذه القصة معروفة حيث انبرى زهير بن أبي سلمى لمدهما في شعره الذائع الصيت .

ومن الذين تصدوا لذلك سعد بن حشمت فقد آل ألا يرى أسيراً إلا فكه<sup>٤</sup> .

ولقد عد العرب إقراء الضيف والرفادة ومن إرث ابراهيم<sup>٥</sup> .

ولقد ظهر العديد من المفاهيم للتعبير عن الكرم ، من ذلك الأريحي - زاد الركب - جفنة الركب ، وهكذا وصف الكرم بالسيد الحمول والخضرم تشبيهاً له بالبحر ووصف بجواد الكلب بسبب أنس كلبه (لا ينهر كلبه)<sup>٦</sup> .

ولقد أعجب المؤرخان ديودورس الصقلي وهيودوت بالعرب ووصفاهم بأنهم يعتقدون بالإرادة الحرة وهم يعشقون الحرية ، ويحافظون عليها ، ويأبون الضيم والخضوع للغير ، ويقفون في وجه

<sup>١</sup> جواد علي ج ٤ ص ٨٤

<sup>٢</sup> المخبر : ٢٤٢

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٤ ص ٥٨١

<sup>٤</sup> الاشتقاق : ١٩٣

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٤ ص ٥٨٣

<sup>٦</sup> تاج العروس : ٤١/٩

كل قوة تحاول استرقاقها وإذلالهم ، وهذا ما أكده أيضاً لامانس بقوله : وإن العربي نموذج فذ للديمقراطية، وقول السير وليم مور : ما يلفت الانتباه هو تفرق العرب إلى جماعات عديدة متشابهة من العادات والتقاليد تتحدث لغة واحدة وتتبع دستوراً أخلاقياً غير مكتوب أساسه الأخلاق والشرف .

وقول صالح أحمد علي : الذي يجمع العرب قبل الإسلام واللغة والمثل الخلقية التي تمجد الحرية والاهتمام بالإنسان ، ولقد تلاحت هذه المثل مع الإسلام فاكتسبت سمة متقدمة في الإسلام ودولته .

وهذا يفسر أنهم كانوا يحبون الحماية عن الشخص الذي يعمل ماجناً في الشرف حيث أطلقوا عليه اسم الخائن واللعين والطريد ، وكانوا يلعنون ذلك في المواضع العامة وفي مواسم الحج ويكتبون كتاباً بذلك<sup>١</sup> :

#### الفرع الرابع : التماسك الاجتماعي

يمكن التأكيد بأن المجتمع العربي كان بالمقارنة مع الفرس والروم خالياً من الفساد ، ذلك أن خلو الجزيرة العربية من الملوك أبعدها عن الاستبداد ، وبالمقابل فلم يكن سيد القبيلة جباراً بل أقرب ما يكون إلى نظام الأبوة لأسرة كبيرة تقوم على التماسك والتراحم ، وهذا ما يعزز الفرد ويوطنه ويوفر له الأمان .

وإلى هذا النظام يرجع فضل ما ظفرت به دعوة الإسلام ، حيث رفض بنو هاشم أن يخلوا بين النبي وبين أعدائه ، وهذا يفسر أيضاً إجارة المطعم بن عدي - وهو مشرك - للرسول ﷺ .

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٤ ص ٣٦١

ولقد بلغ الأمر في نضج نظام الإجارة أنه كان - وهو يقارب الصيغ القانونية الحديثة - يعلن في مواسم الحج والأسواق العامة كي يسري في مواجهة الغير .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى : ( وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ )  
(النساء : من الآية ٣٦ )

وكان أحدهم - لا سيما رئيس القبيلة - إذا أجار الآخر التزم بعقده ، وإذا دخل المستجير ، خباءه أو خيمته أو دار حولها صار آمناً<sup>١</sup> ، وبالمقابل فإن رفض الإجارة يجلب الذل ، وفضلاً عن ذلك فقد أوصوا بالجار خيراً ، كما أوصوا الجار أن يغض طرفه وهذا ما رواه البلاذري بأن مجيراً قال لجار : لولا أنك جار لفتكناك .

وقد استجاروا بقبور العظماء ، مثل عامر بن الطفيل ، فقد وضعوا على قبره ؟ ، حتى إذا اخترقها المستجير اعتبر آمناً<sup>٢</sup> ، لذلك فقد استجاروا بالمعابد المقدسة ، وفي مطلع ذلك الكعبة .

ومن مظاهر حماية الإنسان الأخلاق كما سبق ذكره ، ثم تحريم القتال في الأشهر الحرم وعدم الاعتداء حتى على القاتل كما حرّموا التعرض للحيوان في الأماكن المقدسة<sup>٣</sup> .  
ويكفي لحماية الشخص أن يتقلد لحاء شجر الحرم سواء في قصد الحج أم في أوبته ، أو في حال التجارة .

ولقد ذكرنا سابقاً أن قريشاً تغنت بأنها آل الله وجيران الله وسكان حرم الله<sup>٤</sup> .

---

<sup>١</sup> ٤١/١

<sup>٢</sup> جواد علي ج ١ ص ٣٦١

<sup>٣</sup> ٤١/١

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٤ ص ٢٢٥

ولقد أكد هيرودوت أن للحلف حرمة وقدسيته خاصة عند العرب لا تشاركهم في ذلك أمة من الأمم ، وإنهم كانوا يوقدون النار ، ويدعون بالموت على من ينقض العهد ، كما كانوا يطرحون الملح والكبريت فإذا استشاطت قالوا للحالف هذه النار تهددك ، حتى يحافظ على عهده ، وسموها نار الهول .

وعرفت الجاهلية قوماً سموا (بالذادة) حملوا السلاح للذود عن المظلومين . وكانوا يدونون العهود ، ويحفظونها في المعابد كما حدث بالنسبة لصحيفة قريش في مقاطعة بني هاشم ، وللمعاهدة بين الأوس والخزرج ، ثم للعهد بين عبس وذبيان<sup>١</sup> . قال زهير بن أبي سلمى :

ألا أبلغ الأخلاق عني رسالة      وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

وكان أحدهم إذا أكل من طعام فلان أخلص له ، وكأنهم أرادوا إدخال القسم وفي جسم المتحالفين ، لهذا كانوا يضعون أصبعهم في جفنه دم أو في الطيب ، أو في الماء المقدس ، ثم يلعبون أصابعهم ، أو يشربون من تلك الماء<sup>٢</sup> .

وقد يتحول الحلف إلى نسب لذلك فالأسير إذا تعذر عليه الفداء ، طلب من آسره أن يكون حليفاً له ولقبليته واستحق أن يرث من القبيلة كالصريح من أبنائها<sup>٣</sup> . لم تعرف بطحاء مكة ، ولا ما حولها الكهانة الدينية التي نجدها لدى الديانات الأخرى، مما حرر العرب من هذه السلطة .

---

<sup>١</sup> تفسير الطبري : ٣٨/٦

<sup>٢</sup> العقد الفريد : ٣١٧/٣ - جواد علي ج ٤ ص ٣٨٣

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٤ ص ٣٨٠

أجل لقد عرفت الجزيرة العربية النصرانية أو اليهودية ، لكن ذلك كان محدوداً الأمر الذي يمكن الحديث عن الأمية الدينية لعرب الجاهلية ، وهذا ما هبأ الرحم الطبيعي لتلقي بذور الإسلام .

### الفرع الخامس : العادات الاجتماعية

وقد انعكست الأخلاق العربية على الروابط الاجتماعية حيث تبلور ذلك في عادات اجتماعية أهمها :

#### البند الأول : اللباس

نركز بحثنا على العمامة باعتبارها مظهراً حياً للتوحيد العربي ، وهذا ما يتضح من قول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب : العمام تيجان العرب <sup>١</sup> ، وقول علي بن أبي طالب : جمال الرجل في عمته والمرأة في خفها <sup>٢</sup> .

لذلك قيل اختص العرب بأربع : العمام تيجانها ، الدروع حيطانها ، السيوف سماؤها ، الشعر ديوانها <sup>٣</sup> .

والاعتداء على العمامة اعتداء على الشرف ، واللوذ بها من موجبات الوفاء والإنصاف <sup>٤</sup> .  
وجعلوها لواء ، إذ كان نزعها يعني الإيذان بالمعركة <sup>٥</sup> .

---

<sup>١</sup> البيان والتبيين ٨٨/٥

<sup>٢</sup> البيان والتبيين ٨٨/٢

<sup>٣</sup> الثعالي : ثمار القلوب ص ١٥٩

<sup>٤</sup> بلوغ الأرب ٤٠٨/٣

<sup>٥</sup> البيان والتبيين ٨٠٥/٣

وكان الرسول ﷺ يلبس عمامة اسمها السحاب وكانت تتدلى على كتفه فوق قلنسوته<sup>١</sup>.

### البند الثاني: المأكل والمشرب

حكمة العرب الخالدة المنسوبة إلى حكيمهم الأكبر لقمان : البطنة تذهب الفطنة ، ومعالجة

البطنة تكون بالحمية لأن المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء<sup>٢</sup>.

لذلك كانوا يبكرون الغذاء ويؤخرون العشاء ، وقد انتقل هذا الأدب إلى الإسلام ، وهذا ما

أكده الحديث النبوي .

ولقد بلغت الأنفة أنهم كانوا يغلقون عليهم الباب حتى يموتوا جوعاً .

وكانوا يسمون الجوع أبا هالك ، والخبز جابراً وعاصماً وعامراً<sup>٣</sup>.

والثلاثية المشهورة عند العرب هي الأحامرة : الخمر - اللحم - الطيب<sup>٤</sup>.

لذلك قالوا : أهلك الرجال الأحمران : اللحم والخمر، وأهلك النساء الأحمران الذهب

والزعفران<sup>٥</sup>.

لقد عرف العرب الخنزير لكن لم يأكلوه ، ولم يأكلوا القروذ<sup>٦</sup>.

ولم يعهد العرب كابوس نظام الإقطاع فالعلاقة بين السادة والأتباع أقرب إلى الكرامة الإنسانية

يقول الشاعر :

---

<sup>١</sup> الطبقات : ٢٣/٧

<sup>٢</sup> تاج العروس : ٤٢٦/٢

<sup>٣</sup> الشعالي : ثمار القلوب ٢٤٩/٦

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٥ ص ٦٤

<sup>٥</sup> تاج العروس ١٥٤/٣

<sup>٦</sup> الحيوان : ٤١/٤

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

وجو الحرية الطليق في هذه النجاد أتاح لضيوف الناس الخلق المفعم بالنخوة والإباء والحمية والعفو والحلم والصفح والتضحية والإيثار والاعتزاز والكرامة الاجتماعية والسياسية التي لا نظير لها وهذا ما أكده المؤرخ هيرودوت بأن العرب هم الشعب الوحيد الذي رفض الخضوع للفرس ، بل عاملوهم معاملة الحلفاء .

ولقد امتاز العربي بحدة الفهم وصفاء الذهن ، وإحكام التعبير ، وسرعة الإدراك ، وسهولة العيش .

#### البند الثالث: اللحية والشارب

كان العرب يطلقون على غير العربي تسمية الحمراء اعتزازاً بهويتهم ، وفي الحديث : لا بارك الله بأشقر بعد عمر .

واللحية هي التعبير عن الشجاعة والوقار ، لذلك كان العربي يعطي العهد بها ، ويعتبر ذلك شيئاً عظيماً حتى إذا ما استجار فلان بلحيته وجبت عليه إجارته<sup>١</sup> .

لقد ابتلى الله ابراهيم بسنن الفطرة ، وهي التي ورد ذكرها في القرآن بقوله : وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات<sup>٢</sup> ، وهذه الكلمات هي : خمس في الرأس وخمس في الجسد ، فأما التي في الرأس فهي : المضمضة - الاستنشاق - قص الشارب - الفرق - السواك .

وأما في الجسد فهي : الاستنجاء - تقليم الأظافر - نتف الإبط - حلق العانة - الختان<sup>٣</sup> .

---

<sup>١</sup> جواد علي ، ج ٤ ، ص ٦٠٦

<sup>٢</sup> البقرة / ١٢٤

<sup>٣</sup> بلوغ الأرب : ٢٨٧/٢



والعرب يفاخرون بشعر الرأس ويتركونه دون أن يخلقوه على عكس اليهود والمصريين<sup>١</sup> .  
وكانوا يدهنون شعورهم ويمشطونها ويتركونها تتدلى على المنكبين ويضفرونها عدة ضفائر ولقد  
كنى العربي بالجعد والعجمي بالسبط (القصير الشعر)<sup>٢</sup> .  
وكان الرسول ﷺ يسدل شعره من ورائه ويضفره ، وكان يكثر من دهن رأسه ولحيته ، وكان  
يجب الترجل وتسريح الشعر<sup>٣</sup> .  
وكثيراً ما يمسك العربي عن غسل شعره حتى يأخذ بالثأر<sup>٤</sup> .  
واعتبر العرب الشعر الأشيب إكليلاً أي رمزاً للحكمة والوقار، وكانوا يخضبون شعرهم بالحناء  
ويتكحلون لتظهر عيونهم براقاً<sup>٥</sup> .  
ومن عوائدهم حمل العصا ، وقد اعتبرت رمزاً للطاعة ، فقبل شق عصا الطاعة ، ولقد خص  
الجاحظ فصلاً بعنوان باب العصا للدفاع عن العرب ضد الشعوبية .  
وكان للبيت حرمة لا يجوز دخوله ، ولو كان مهلهلاً تذرؤه الرياح<sup>٦</sup>  
وكانت التحية : أنعم صباحاً أو مساء ، والمصافحة باليد اليمنى ، وتكون الإجابة يا رب وبعد  
السؤال بعبارة لبيك وسعديك أو بنعم وكرامة ، وهي عبارات تنضح بالأدب الجم .  
وكانوا حريصين على عدم النظر إليهن بسوء ، وعدم إخراج ریح من الجوف .

<sup>١</sup> أشعيا الإصحاح السابع الآية ٢٠

<sup>٢</sup> تاج العروس ٣٠٧/٤

<sup>٣</sup> تاج العروس ١٤٩/٥

<sup>٤</sup> زاد الحصاد : ٤٥/١

<sup>٥</sup> تاج العروس ٣٦٩/١٠

<sup>٦</sup> تاج العروس : ١٠٦/١٠

ولقد ذموا الثاؤب ، ويقال للشاب إذا سعل عمراً وشباباً ، ولقد أكد الإسلام التشميت ، وكانت تحيتهم أبيت اللعن ، وكرهوا إطالة الجلوس والزيارة في وقت غير مستحب أو عيادة المريض لمدة طويلة<sup>١</sup> .

وإذا زاروا لبسوا أحسن ما عندهم ، وتكحلوا رجالاً ونساءً<sup>٢</sup> .

وكانوا يستيقظون صباحاً مدعاة للصحة ويتبادلون الصبوح ، وربما تحاشياً للغارات<sup>٣</sup> .

ولم يعرفوا الحمامات العامة لأنها تعرى الرجل ولقد اغتسلوا بالسدر كما غسلوا به الميت ، ولقد أمر الرسول به<sup>٤</sup> .

وتغسل المرأة رأسها بالخطمي وتمشطه كما استعملت ورق الآس والأشنان ثم تطري رأسها بالأفاوية<sup>٥</sup> .

وكانوا يقضون حاجتهم في غرفة أو في ستر أو في الخلاء فينطلقون بعيداً يتوارون بالحشائش أو بالأشجار وكانوا يرفعون ثوبهم إلا من الأمام<sup>٦</sup> .

وعرفوا الكنف والمراحيض ، واعتبرت عورة الرجل بين السرة والركبة ، ويدخل فيها السوءة من الرجل والمرأة والعيب عند العرب بيع الطعام<sup>٧</sup> قال الشاعر:

يا مالك ابن طريف إن بيعكه      رقد القرى مفسد للدين والحسب

---

<sup>١</sup> نهاية الأرب : ٨٧/١٨

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٣٠

<sup>٣</sup> تاج العروس : ٥٣٤/٢

<sup>٤</sup> الطبقات : ٢٦/٧

<sup>٥</sup> زاد المعاد : ٤٣/١

<sup>٦</sup> تاج العروس : ٢٩/٣

<sup>٧</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٦٧

قالوا نبيعهكه بيعاً فقلت لهم      بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

كانوا يتفاخرون ، حيث يتنافس الأغنياء في قطع قوائم الإبل أو الشاة بالسيف ، وقد نهي الإسلام عن ذلك ، وفي الحديث : لا عقر في الإسلام <sup>١</sup> .

ومنهم من كان يغلق عليه باب بيته ليموت جوعاً ولا يقبل الدنية <sup>٢</sup> .

وكان بعض تجار مكة إذا خسرت تجارتهم خرجوا إلى البادية ، وبقوا فيها حتى يموتوا <sup>٣</sup> .

قد اعتبرت السرقة واللصوصية أمراً مكروهاً ، وبالمقابل فقد افتخروا بالغارة ، وسمي الشخص مغواراً لما يتمتع به من قوة وجرأة ، ونشأت لذلك الصعلكة <sup>٤</sup> ، فقد حدا هذا الوضع جد الرسول هاشماً إلى دعوة الأغنياء لأن يخرجوا جزءاً من مالهم للفقراء <sup>٥</sup> .

#### الفرع السادس : المرأة

نقرأ في الأخبار أسماء كاهنات تبوأن مراكز هامة في المجتمع العربي الجاهلي ، وقمن بالحكم في النزاع بين الناس <sup>٦</sup> ، وكان للمرأة الشريفة حظ في المجتمع ، فقد كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية وتستشار في المهام وتشارك الرجل في الكثير من أعماله وكانت تفتخر بزوجها ، كما أن الرجل يفتخر بالمرأة ، يدل على ذلك افتخار الرجل بأمه <sup>٧</sup> .

<sup>١</sup> تاج العروس : ٤١٥/٣ ( عقر )

<sup>٢</sup> تاج العروس : ٣٣٠/٢ دفع

<sup>٣</sup> تاج العروس ٤٤٦/٢ عقد

<sup>٤</sup> السيوطي : الدر المنثور ٣٩٧/٤

<sup>٥</sup> اللسان : ٩٢/١٤

<sup>٦</sup> جواد علي ج ٤ ، ٤١٦

<sup>٧</sup> محمد ابراهيم حسن : ج ١ ، ص ٦٤

لذلك لم تكن الأسر الكريمة تزوج بناتها إلا من ذوي المكانة المرموقة ، وكانوا يستشيرون المرأة في زواجها<sup>١</sup> ، ولم يكن هنالك حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوطه بنظرة الفلته ولا لحظة الخلسة ، دون أن يمنعوا على الحديث والمسامرة ويزدوجوا في المناسبة والمثاقنة ، تحت أعين الأولياء والأزواج ، أي لا ينكرون ما ليس بمنكر ، إذا أمنوا المكر، وبقي الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى الحجاب على أزواج النبي ، وكانت الشرائف من النساء يتحدثون مع الرجال دون أن يكون ذلك مدعاة للعار أو الحرام ، والتشدد في ابتعاد الرجال عن النساء حدث في الإسلام بعد الاختلاط بالأعاجم<sup>٢</sup> .

وقد اشترطت بعض النسوة في الجاهلية أن يكون أمرهن في أيدهن بعد الزواج (حق الطلاق)<sup>٣</sup> وكانت المرأة المنجبة الولود خير من الحسنة العاقر ويقال لها المنجاب وأم البنين وروي عن أكثم الصيفي قوله : الناحح الكريمة مدارج الشرف<sup>٤</sup> ، ولهذا فقد حرصوا على شرط الكفاءة<sup>٥</sup> وهو تقليد طبقة الإسلام ، وفي ذلك يقول الجاحظ : عرق الخال لا ينام ، والعرق دساس ، وعرق الخال أنزع من عرق العم ، وقالوا : عرق فيه أعمامه وأخواله<sup>٦</sup> .

واهتم العرب بالمرضعات ، وفي ذلك يقول المثل: نعم المرضعة التي أرضعته ، والرضاعة عند العرب بمنزلة الأخوة ولهذا قالوا : هذا رضيعك أي أخوك من الرضاع<sup>٧</sup> .

---

<sup>١</sup> كتاب القيان ١٤٩/٢

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٤ ص ٦٣٦

<sup>٣</sup> تاج العروس ج ٤ ص ٦٣٦

<sup>٤</sup> ثمار القلوب : ص ٦٩١

<sup>٥</sup> تاج العروس : ١٠٨/٦

<sup>٦</sup> تاج العروس ١٠٨/١

<sup>٧</sup> تاج العروس ٣٥٦/٥

ولقد استقر العرب على قاعدة أن المال والبنين هي زينة الحياة ، ولهذا كانوا يتمنون للعروسين الرفاه والبنين <sup>١</sup> .

ومن عاداتهم ذبح شاة عند ميلاد المولود وقد أقر الإسلام ذلك <sup>٢</sup> .  
ومن عادات الجاهلية الختان ، وجاء الحديث مقرأً ذلك تأكيداً لسنن ابراهيم ، وكانوا يعيبون من لا يختتن ويسمونه أغلف <sup>٣</sup> .

ولقد تشددوا على المرأة في شرب الخمر ، ولم نسمع أن امرأة سكرت <sup>٤</sup> .

#### الفرع السابع : الوفاء

تميز العربي باحترامه للكلمة المعطاة وحمله لواء شرفها وتضحيتها الغالية للحفاظ على أمانتها ، ولقد بلغ شأنهم في ذلك أنهم كانوا يرفعون للغدار لواء في المواسم والمواضع العامة ، أو يوقدون النار أيام الحج على أحد الأخشبين ، ثم يصيحون قائلين : إلا إن فلاناً قد غدر فالعنوه <sup>٥</sup> .

ومن أمثالهم في ذلك : ألا لكل غدار لواء .

قال الشاعر:

وتوقد ناركم شرراً ويرفع لكم في كل جمعة لواء

وقولهم للغادر: يا غُدْر

---

<sup>١</sup> اللسان ٨١/١

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٤ ص ٦٥٢

<sup>٣</sup> بلوغ الأرب : ٢٨٧/٢

<sup>٤</sup> بلوغ الأرب : ٢٩٧/٥

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٤ ، ص ٤٠٢

وحفظ أهل الأخبار رجالاً عرفوا بالغدر مثل الضيرن ، ومثل الأشعث بن معد يكرب<sup>١</sup> وبالمقابل فقد عهدت أمتنا رجالاً عرفوا بالوفاء مثل حنظله الطائي في عهده للنعمان بأنه سيعود يوم يؤسه ، ثم وفاؤه ، وإبطال النعمان عادته في قتل أول من يأتيه يوم يؤسه ، والسبب في ذلك وفاء حنظلة<sup>٢</sup> وأخيراً وفاء السمؤال في موضوع الدروع التي وضعت لديه وتحمله مسؤولية ذلك<sup>٣</sup>.

### الفرع الثامن : المروءة

لقد ذهب العرب في هذا المضمار مذهباً لم يبلغهم سواهم ، بل إن هذا المفهوم الأخلاقي ليس معهوداً لدى الأمم الأخرى .

ومن مظاهر ذلك الغيرة على الأعراس وصيانة الحرم<sup>٤</sup> .

وهنالك سجايا أخرى تفيض بها النفس العربية ، مثل الصراحة والأنفة<sup>٥</sup> ، وإن كانت المروءة تعتبر النواة النووية في منظومة القيم العربية والمحور الذي يشد كافة أنساق وقيم الحلم والصبر والفقه وقرى الضيف وإغاثة الملهوف ونصرة الجار وحماية الضعيف ، فهي كالدين عند المسلم<sup>٦</sup>.

نجد مصداق ذلك في قوله ﷺ : الدين المروءة ، ولا دين إلا بالمروءة<sup>٧</sup> .

<sup>١</sup> نهاية الأرب : ٢٦١/٢

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٤ ، ص ٤٠٤

<sup>٣</sup> المخبر ص ٣٤٨

<sup>٤</sup> محمد الغزالي : حقيقة القومية العربية ص ٢٩

<sup>٥</sup> محمد الغزالي : حقيقة القومية العربية ص ٢٩

<sup>٦</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٥٧٤

<sup>٧</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٥٧٤

وعلى هذا الأساس قالت العرب : الهامة هو السيد النجد إذا دعي النجد ، وإذا طلب أجاب<sup>١</sup> .  
وفي نظرنا إن هنالك توأمة بين المروءة عند العرب والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر في الإسلام وإن كان النظام الإسلامي أكثر صقلاً وضبطاً للهدف والغاية والأسلوب.

#### البحث الرابع : مسألة الذات العربية في الجاهلية

اتضح لنا من المظاهر الاجتماعية التي عرضنا لها أن العرب وضعوا بصماتهم على الحياة في شتى تضاعيفها وتضاريسها وتموجاتها في مظاهر تنضح بالأخلاق والأدب والكرامة .  
وفضلاً عن ذلك ، فقد ظهر العرب لدى الآخرين بسمات تميزهم ، كما اتضح لنا من رأى هيروودوت أو مما جاء في التوراة ، أو في الآثار المصرية، حيث طالعتنا هذه الآثار بأن العربي يضفر شعره ويقص شاربه<sup>٢</sup>

والمتمفحص لهذه المظاهر الاجتماعية نجد أن العرب سكبوا سكباً وأفرغوا في مسالك وأطر تنضح بالامتلاء النفسي والعقلي والروحي تعبيراً عن الذات والهوية.  
وفضلاً عن ذلك فعري التماسك ووشائج الاتصال ، وهذا الاسمنت الاجتماعي صهرهم في بوتقه ، أخرج منها عربياً يتميز بسمات ، ويتصف بقيم ومعان ، وهذا ما عبر عنه الجاحظ بقوله : إن العرب استنوا في الثقافة واللغة والشمائل ، وفي الألفة وفي الأخلاق والسجايا ، فسكبوا سكباً ، وأفرغوا إفراغاً واحداً.

هذا المركب النفسي والخلقي دفع العربي للاعتزاز بذاته والإحساس بهويته ، وهذا ما نجده في قول الشاعر:

---

<sup>١</sup> تاج العروس : ٣٦١/٨

<sup>٢</sup> القرطبي : الجامع ١٦٠/٦

شربت بماء الدحر ضين فأصبحت زوراء تنفر من حياض الديلم

ولعلنا نجد هذه الصورة في مفاخرة المنذر بن النعمان بقومه في مجلس كسرى الذي كان يعج بوفود الهند والصين ، حيث كانوا يذكرون بلادهم ، وحيث انبرى المنذر لمخاطبة كسرى بقوله : إن الأمم ذكرتها ، فأى أمة تقرنهما بالعرب إلا فضلتها .. فقال كسرى : بماذا... قال المنذر بعزها وحسن وجوهها ، وبأسها وعقولها ، وأنفتها ووفائها..

ولقد شرح النعمان مظاهر هذه الصفات وأتى بالكثير من الأدلة<sup>١</sup> .

ثم أليس علينا أن نتساءل عن سبب معركة ذي قار.. أليس السبب خطبة ابنه النعمان من قبل كسرى ورفض النعمان لذلك بعد أن أدرك أن كسرى بعظمته لا يصلح زوجاً لابنته<sup>٢</sup>

ويرى بعضهم أن هنالك أكثر من بضع وتسعين حديثاً نبوياً بمجد فيها الرسول قومه ، ثم يقدم المهاجرين ليؤكد خلال نسبه<sup>٣</sup>

وهذه الصورة الذي يجدها العربي في نفسه ، نجدها في أعين الآخرين هكذا فقد أعجب المؤرخان ديودورس الصقلي وهيرودوت اليوناني بالعرب ، ووصفاهم بأنهم يعتقدون بالإرادة الحرة ، ويعشقون الحرية ويحافظون عليها ، ويأبون الذل والخضوع للغير ، ويقفون في وجه كل قوة تحاول استرقاقهم وإذلالهم<sup>٤</sup> .

<sup>١</sup> د. عمارة : فجر اليقظة العربية ص ٣٧

<sup>٢</sup> خالد عمر : ص ٩٧

<sup>٣</sup> خالد عمر : ص ٩٨

<sup>٤</sup> أبرزنا صورة عن مقاومة أبو اسماعيل للبابليين والآشوريين



وهذا ما أكده لامانس بقوله : إن العربي نموذج للديمقراطية<sup>١</sup> .

وقول السير وليم مور : ما يلفت الانتباه ، هو تفرق العرب في الجاهلية إلى جماعات عديدة متشابهة العادة والطباع ، وتحدث لغة واحدة ، وتتبع دستوراً أخلاقياً غير مكتوب أساسه الأخلاق والشرف<sup>٢</sup> .

ولم تكن التوراة ترسم للعربي صورة مميزة لكنها في الوقت نفسه تضح ضده بالمشاعر العدائية ، وقد أبرزنا صورة عن الفقه العبراني الذي حرم للعبرانيين الأكل من طعام العرب .

وتطالعنا الآثار المصرية بصورة عن العربي وهو يضفر شعره ويقص شاربه<sup>٣</sup> .

ولعل عدد الكتاب العرب المحدثين الذين رسموا لنا صورة حية عن الجاهلية ، هذا العدد لا يحصى وحسبنا أن نعرض مثلاً شروداً عن ذلك ، يقول الأستاذ صالح أحمد علي : الذي يجمع العرب قبل الإسلام اللغة والمثل الخلقية التي تمجد الحربة والاهتمام بالأنساب ، ولقد تلاحت هذه المثل مع الإسلام فاكسبت سمة مقدسة<sup>٤</sup> .

بيد أن الذي قدم لنا صورة حية ودقيقة لقسمات الأمة العربية قبل الإسلام ، وربط تلك القسمات بالعروبة وأظهر السمات الخاصة لتطور الأمة وسياقها التاريخي الخاص الذي يميزها عما جاءت به المدرسة الأوروبية، هذا الذي قدم ذلك هو ذلك هو الدكتور عمارة<sup>٥</sup>

---

<sup>١</sup> د. جواد علي ، ج ٤ ، ص ١٤

<sup>٢</sup> خالد عمر : ص ٩٢

<sup>٣</sup> د .حتي : تاريخ العرب ص ٦٠

<sup>٤</sup> مقالة العرب في الإسلام .

<sup>٥</sup> التراث في ضوء العقل ص ١٦٥ و ١٦٦

## الفصل الخامس

### صلة العرب بالدول المجاورة

#### تمهيد

يلعب الغير دوراً أساسياً في تحديد الذات بسبب تمهيد بسيط هو أنه من الخطأ تصور لهذه الذات - فرداً أو جماعة - وجوداً أصم أعزل ، وعلى هذا الأساس فقد وجدنا من المناسب التعرض لصلة العرب بالأقوام والدول المجاورة تدليلاً وبرهنة على أممية كثافة حضور ووجود أمتنا التاريخي .

لهذا فسندرس هذه العلاقة مع : الآشوريين - العبرانيين - اليونانيين - الرومان.

#### البحث الأول - العرب والآشوريين

أول ما ظهرت هذه العلاقة في نص شلمنصر الثالث الذي سجل نصراً حروبياً تم في قرية قرقر قرب حماه على حلف تألف من ملك دمشق وعدد من الملوك الآراميين وملك إسرائيل ورئيس قبيلة عربي اسمه جندب، وذلك عام ٨٥٣ ق.م<sup>١</sup>

فقد دفعت الملكة العربية زبيبي الجزية إلى تغلت فلاسفر وهذه الملكة كانت - حسب رواية فلاسفر - تحكم (٧٤٥ - ٧٢٥ ق.م) قبيلة قيذار في أدومو (دومة الجندل) .

قهر تغلت ملكة عربية اسمها شمس ، وعين قيبو (مندوباً) سامياً لدى بلاطها ليراقب سلوكها<sup>١</sup> ، أرسلت هذه الملكة عدة رسل للمصالحة مع الآشوريين ، مثل: بربع (يربوع) وخترنو (خاطر) وجنبو (جناب) .

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٧٤

لقد قامت عدة قبائل وشعوب عربية تدفع جزية إلى الآشوريين للسماح لها بالالتجار مع العراق والشام تلاهم ممالك : مساي - تيما - (سبأ) سبأ - بطننة - خطي - اد بئيل <sup>٢</sup> .

ويحدثنا سرجون الثالث (٧٢٤ - ٧٠٥ ق.م) أنه أدب قبيلة ثمودي وأباديدي ومرسماتي وعباديدي وأنه أخذ جزية من شمس ملكة اريبي ومن برعو ملك مصري ومن تبع أمير السبئي .

لقد أبل هؤلاء الضيم فساعدوا كل عدو للآشوريين ، هكذا أرسلت بطيعة ملكة اريبي أباها بسيقاموا (الباسق) لتقود جيشاً يساعد مردوخ ملك بابل وعدو سنحاريب <sup>٣</sup> .

لقد استولى سنحاريب على المدن الفينيقية والفلسطينية حتى بلغ عسقلان ، وهنالك تغلب على العرب والمصريين ، كما إنه شن حملة على تلخوني ملكة حزائلي ، ثم سارت جيوشه باتجاه ادوموتو ، فتغلب على جيشها وأسر ملكها وحمل أصنامها إلى عاصمته <sup>٤</sup> .

استطاع حزائلي الفرار من دومة الجندل معتصماً في البادية ، ولم يتمكن سنحاريب من مطاردته ، وإن كانت قد تمت مصالحة بينهما ، حيث اعترف اسرحدون بحزائلي ملكاً على قيذار مقابل (اتاو) ولما توفي اعترف بابنه (يا بطبع) ملكاً مكان أبيه ، لكن شعبه ثار عليه بزعامه وهبو ، لأنه أبل الخضوع لرجل فرض عليه ، وإن كان الآشوريون استطاعوا إخضاع الثورة وأسروا أوبو ، وأخذوه إلى نينوى ، ثم اندلعت الثورة ثانية بقيادة يشع مما حدا الآشوريين إلى إرسال حملة ثانية ، هيات هرب يشع إلى البادية وقام أسرحدون بجملة جديدة على القبائل

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٧٦

<sup>٢</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٧٦

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٧٨

<sup>٤</sup> جواد علي ج ١ ص ٥٨٩

العربية التي تنزل بازو، وتمكن في المعركة التي جرت سنة ٦٧٦ ق.م من قتل ثمانية من ملوك العرب هم : كيو ملك خلديلي ، وأكيدو ملك البياني ومنسكو ملك محل اتي والملكة يافا<sup>١</sup> .  
لم تنجح السياسة التي اتبعها الآشوريون مع العرب ، هكذا هبت القبائل العربية على آشور بزعمارة (ابي يشع ) الذي تحرش بالمقاطعات الآشورية لذلك أرسل الآشوريون جيوشاً لصد هذه الهجمات ، الأمر الذي حدا بملكة قدور بطلب مساعدة ننتو ملك نبيء ، فلبى الطلب ، وهاجم الطرفان حدود الآشوريين ، ومعهم قبيلتي عشر سمين ، غير أن الآشوريين تغلبوا على قيدار وحلفائهم ، وأستأنف الآشوريون هجماتهم الانتقامية على العرب حتى بلغت التسع .

### البحث الثاني - العرب والعبرانيون

كان للعرب دورهم البارز في فلسطين عندما تمكن العبرانيون من تكوين حكومة لهم هنالك ، فقد كانوا يسكنون في القدس وطور سيناء وغزة والأقسام الشرقية والجنوبية من فلسطين<sup>٢</sup> .  
ولقد اعتبر ابن عزرا وهو من رجال القرن الثامن قبل الميلاد أيوبا - الذي كان يقيم في عوص (حوران) أو في الفحاة - عربياً ، كما تحدثت التوراة عن غزو أهل سبأ مؤكدة أنه أعظم أسياد البشر ويرى بعضهم أن ملكة سبأ كانت تحكم في العربية الشرقية ، وأن السبئيين كونوا لهم مستوطنات في الأردن<sup>٣</sup> .

---

<sup>١</sup> جواد علي ١ ص ٥٩٦

<sup>٢</sup> ايوب السطر الأول ، الإصحاح الأول ، آية /١٣/

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٣٦

وتشير الكتابات السماوية إلى أن العرب سكنوا غرب طور سيناء وجنوبها قريباً من أيله<sup>١</sup> ويحدثنا الإصحاح السادس والعشرون أن غريبا ملك يهودا خرج ليحارب الفلسطينيين والمعونيين والعرب في (حور بطل) ، الذين كانوا يداً واحدة على العبرانيين<sup>٢</sup>.

ويستدل من أخبار حملة سنحاريب أن ملك يهودا استخدم العرب للدفاع عن أورشليم<sup>٣</sup>. ولقد هاجم الفلسطينيون والعرب والكوشيون مملكة يهودا وأورشليم على يد شافاط (٨٧٦ - ٨٥١ ق.م) وسبوا نساءها وعندما عاد نحميا من فارس بمساعدة ملك الفرس لبناء أورشليم هدده سنليط الحوروني وطوبيا العموني وجشم العربي واستهزؤا بفعله ، واعتبروا ذلك إعادة لدولة يهودا ، أما جشم فقد كان ذو سلطان واسع على جوار القدس ، وإنه أحد ملوك قيذار<sup>٤</sup>.

جاء في رسالة بولس إلى أهل غلاطية أن جبل سيناء في ديار العرب ، وأن طور سيناء موطن أبناء هاجر ، والأمر نفسه بالنسبة للنقب ووادي عربة ، وفي هذا العهد وصلت التجارة العربية أوجهاً بين فلسطين والعربية الجنوبية ، حيث عثر في مواضع متعددة من فلسطين على مواد استوردت من العربية الجنوبية والعكس<sup>٥</sup>.

ورد في سفر المكابيين الأول خبر فرار اسكندر باللس إلى ديار العرب خوفاً من بطليموس وذلك في القرن الثاني قبل الميلاد<sup>٦</sup>.

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٣٣

<sup>٢</sup> اخبار الأيام الثاني الاصحاح ، أية /١٩/

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٤٥

<sup>٤</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٤٨

<sup>٥</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٥٠

<sup>٦</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٥٠

تمكن العربي Antipatir من عسير من تأسيس أسرة حاكمة تحكم اليهود وذلك حوالي ٣٣ ق.م واعترف قيصر بذلك<sup>١</sup>.

تكلمت التوراة عن قبيلة اسمها زبيد سكنت شمال غرب دمشق والأرجح أنها الزيداني ، كتابتها باليونانية والسريانية والعربية ، ويرجع تاريخها إلى ٥١١ ق.م.

في عهد المؤرخ استرابون كان العرب يسكنون القدس ويافا والخليل والأقسام الغربية من اليهودية ، كما سكنوا فلسطين لقرون عديدة قبل الميلاد، وذكر هذا المؤرخ أنهم كانوا يسكنون مع غيرهم أورشليم بمناسبة خمسين يوماً على ولادة السيد المسيح<sup>٢</sup>.

ولقد عرضنا لمصطلح بني قديم (أبناء الشرق) في التوراة فهم يسكنون في بادية الشام شرق العبرانيين ، وهم قبائل عربية وجدوا منذ مدة لا يعلمها إلا الله ، وقد يكون معهم أقوام آرامية.

تكلمت التوراة عن نساء العرب المتحجبات وعن رجالهم المتلثمين والذين يتعرفون على مكان المياه بواسطة الرمال<sup>٣</sup>.

قد حرم كتاب الفقه المسمى بتحوت الطعام العربي وأن الخبر ماير استثنى النبط والعرب والسمونيين من وعد الرب لموسى وجاء في كتاب قد وشيين ما يلي : أعط العالم عشرة من الوقاحة وخص العرب بتسعة<sup>٤</sup> ، وذهب المؤرخ اليهودي كريش إلى أن مدينة (نهر دعة) تعرضت إلى غزو سنة ٢٥٩ ميلادية من قبل أذينة ملك تدمر<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٥٠

<sup>٢</sup> عمال الرسل والاصحاح ٢ آية ٩/

<sup>٣</sup> شيث ٦/٦

<sup>٤</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٥٦

<sup>٥</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٥٨

لقد أطلق التلمود لفظة عرباية على العرب المزارعين الذين استقروا على مقربة من فوموديثة ،  
وإن هؤلاء انتزعوا من الزراع اليهود مزارعهم<sup>١</sup> .

### البحث الثالث : صلة العرب بالكلدانيين

أكد سفرارميا أن بختنصر غزا العرب (٦٠٤ - ٥٦١ ق.م) أيام معد بن عدنان إذ وصل إلى  
موقع ذات عرق ، تمهيداً لإخضاع مصر<sup>٢</sup> .

جرد نبونيد (٥٥٥ - ٥٣٨ ق.م) حملة على أدومو ، ثم سار إلى تيماء فقتل أميرها ، وأعمل  
السيف بها بسبب مقاومتهم ، لكنه طاب له المقام فيها فبنى قصرًا فخماً ، ونقل العاصمة  
إليها ، واستمرت إقامته سنتين ، لكنه عاد إلى بابل بسبب ظهور الفرس .

وسبب ذلك هو السيطرة على الطرق التجارية التي تربط بلاد الشام بالعربية الجنوبية وهذا ما  
يستتبع السيطرة على البحر الأحمر والوصول إلى المياه الدافئة في إفريقيا والهند .

لقد اضطر نبونيد إلى إجراء الصلح مع القبائل العربية بعد أن قتل ملك تيماء (ملكو) وملك  
ديدان وخيبر وفدك ويديع ويثرب<sup>٣</sup> .

لقد سجل العرب هذه الوقائع ، وهذا ما يتضح من كتابه ثموديه سجلت حملة نبونيد وحروبه  
مع ديدان وقدمو ويديع يفع وخيبر وأتريبو (يثرب) ولقد أتاحت هذه المدة الطويلة التي بقي  
فيها العراقيون في تيماء نقل الحضارة العراقية إلى تلك المنطقة ، كما تم نقل بعض السكان

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٦١

<sup>٢</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٠٧

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٦١١

العراقيين ، وأجبارهم على السكن ، وتأمين حمايتهم من الأعراب<sup>١</sup> ، ولعل الذي ساعده هو ملك النبط الذي كان يحكم سيناء وأعالي الحجاز والأقسام الجنوبية من الأردن<sup>٢</sup> .  
أثنى هيروودوت على العرب وعلى شهامتهم وحرصهم على الوفاء بالعهد ، كما أشار إلى أن الأراضي الممتدة من codytis (القدس) إلى jencus " خان يونس " هي عربية<sup>٣</sup> .  
أكد هيروودوت أن العرب كانوا في فلسطين أيام قمبيز ، وقد انتشروا في طور سيناء وفي شرق مصر حتى النيل ، ولهذا السبب أطلقوا عليها اسم العربية<sup>٤</sup> .  
ولقد بقيت غزة وحتى مدينة : phnokolura عربية ويحكمها ملوك عرب (اللخيانون) ، وكانت التجارة إليها من جرّها حاملة تجارة الهند عبر دومة الجندل وتيماء<sup>٥</sup> .

#### البحث الرابع : العرب والفرس

قدم العرب نحو الشمال أثناء حكم الأخمينيين ، فوصلت قبائلهم إلى العراق ثم وسعت مساحة أراضيهم ، كما تقدموا من الجهة الغربية وفي طور سيناء إلى شواطئ النيل ، وساعدوا ملوك الفرس في زحفهم إلى مصر، وهذا ما يتضح من حديث أكستوفون عن حملة كيرس الثاني ٥٥٧ - ٥٢٩ ق.م الذي ولي والياً على العربية ، وهذه العربية تقع شرق (الخابور) ، كما يظهر من هذه الحملة أن جماعة من العرب كانت تركب الجمال في جيشه .

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٧٨

<sup>٢</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٢

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٣

<sup>٤</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٤

<sup>٥</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٥



ويتضح من الموارد اليونانية أنها أطلقت لفظة Araboi على قوم ، وأن العرب زحفوا نحو الشمال وتغلبوا على شعوبها لاسيما بني ارم وغيرهم<sup>١</sup>.

ولما غزا قمبيز مصر عام ٥٢٥ ق.م أمدته العرب بالجمال والماء ، ولولا ذلك لما تمكن من الوصول إلى مصر كان العرب يتحكمون بعقدة المواصلات وهذا ما دفع دارا إلى إقامة مشروع يربط البحر المتوسط بالأحمر عن طريق نهر النيل .

لقد تلقى رمسيس الثاني هذه الفكرة وصمم على تنفيذها ، كما أن الفرعون (نحو) كان قد أرسل بسفينة دخلت البحر الأحمر ، وهذه القناة كانت قائمة منذ الفينيقيين<sup>٢</sup>.

قد تكلم دارا عن الأرض التي يحكمها مشيراً بذلك إلى ماتورابي (بادية الشام)<sup>٣</sup>

أكد هيرودوت أن العرب لم يخضعوا للفرس أيام كورس أو قمبيز، بل الذين خضعوا هم أعراب بادية الشام وفلسطين وطور سيناء<sup>٤</sup>، في حين يرى بعضهم أن الذي خضع هي منطقة سنجار والحضر<sup>٥</sup>.

#### البحث الخامس : العرب واليونان

أول من سجل تلك العلاقة الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) فقد صمم على السيطرة على جزيرة العرب للوصول إلى المحيط الهندي لا سيما أن القبائل العربية لم ترسل له الطاعة ، لكن فشل المشروع بسبب موته السريع<sup>١</sup>.

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٢

<sup>٢</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٤

<sup>٣</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٥

<sup>٤</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٦

<sup>٥</sup> جواد علي ج ١ ص ٦٢٦

وفي طريقه إلى مصر حاصر غزة التي قاومته بقيادة رجل اسمه الياطش واستمرت المقاومة خمسة أشهر كاد المكدونيون أن يهزموا<sup>٢</sup>، وإن معظم سكان المدينة كانوا من العرب منذ زمن طويل قبل الميلاد وإنها كانت الطريق البري التجاري .

يعرض المؤرخ اليوناني استرابون إلى جرها وتجارها بالطيب والمر والبخور مع بابل والهند والحجاز واليمن وإفريقيا والشام وحضرموت مروراً بتيماء إلى موانئ المتوسط ومصر حتى قيل عن تجارها إنهم كانوا يتخذون من الذهب كؤوساً، وجعلوا سقوف بيوتهم منه، وهذا ما حدا انطوخيوخس سنة ٢٠٥ ق.م إلى محاولة الاستيلاء عليها لولا إرسال الجزية له<sup>٣</sup>.

لقد حدث نزاع بين أنطوخيوخس والبطالسة على غزة ولقد انضم العرب إلى انطوخيوخس ومكنوه من احتلال المدينة<sup>٤</sup>.

سبب ذلك أن طليموس كان قد مس المشاعر الوطنية للعرب<sup>٥</sup>.

لقد أعاد بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م) حفر القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر، وكلف الأعراب لحمايتها كما أرسل أرسطون للكشف عن المحيط الهندي فأقام المذكور مستقرات على البحر الأحمر أهمها : Ampelon ولقد تعرض أرسطون في أخباره لقوم ثمود كما إن الملاحين العرب المدرين في العربية الجنوبية ساعده في رحلته الاستكشافية<sup>٦</sup>.

لقد أنشأ بطليموس أسطولاً قوياً في البحر الأحمر وقام برحلات منتظمة إلى الهند وساعده في ذلك الأنباط .

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٦

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٨

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٢ ص ١٥ و ١٨

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٢

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٢

<sup>٦</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٤

لعب ميناء (لويكة كومة أو المدينة البيضاء) دوراً كبيراً في الملاحة وكان بيد الأنباط ، ومنه - حسب قول استرابون - كانت السفن تنطلق إلى الساحل المصري ثم تنتقل بواسطة القوافل أو السفن عبر القناة المحصورة بين البحر الأحمر والنيل نحو المتوسط أو تنتقل براً إلى بصرى والعراق والخليج واليمن <sup>١</sup>.

والميناء الآخر الذي اعتمده اليونان في البحر الأحمر هو muza وكان تابعاً للملك (كرب إيل) الذي امتد سلطانه ليس على سيناء فقط بل على أرضين في افريقيا <sup>٢</sup>.

واعتمد البطالسة أيضاً ميناء (عدن) : Arabio Edeno

وعدة موانئ أخرى في العربية الجنوبية ، وقد عثر على آثار يونانية كثيرة لاسيما في جزيرة فيلكا <sup>٣</sup> إضافة إلى آثار أكادية وآشورية وفارسية وبعضها ينتمي إلى ٣٠٠٠ ق.م ، وأهمها الأكروبولوس والمعبد <sup>٤</sup> فقد كان للنزاع بين السلوقيين والبطالسة دور في توسع العرب في العراق وشرق حمص وفي سيناء ، وهذا ما تؤكدته الكتابات العربية بالمسند التي عثر عليها في الجزيرة بمصر <sup>٥</sup>.

### البحث السادس : العرب والرومان

قام العرب في سوريا ولبنان منذ زمن طويل يمتد قبل الميلاد واستوطنوا وزرعوا ، وحموا الطرق وحسروا القوافل <sup>٦</sup>.

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٨

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٨

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٢ ص ٢٩

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٢ ص ٣١

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٢ ص ٣٤

<sup>٦</sup> جواد علي ج ٢ ص ٣٨

وقد ساعد الحارث ملك العرب (النبط) هركانوس في نزاعه ضد أخيه أرسطو بولس مقابل تنازله عن المدن التي احتلها اليونان من الأنباط ، وهذا ما دفع الرومان لاحتلال فلسطين ، كما أيد قائدهم أرسطو بولس الذي أنذر الحارث إما البقاء في القدس وعداء الرومان أو تركها، فاختار الحارث الارتحال<sup>١</sup>.

هذا النزاع بين الأخوين دفع بومبيوس لاحتلال سوريا ، ورأى الحارث المصلحة في إبرام معاهدة مع بومبيوس وضربت النقود تأكيداً لذلك<sup>٢</sup>.

وساعد العرب كاسيوس (٥٣ ق.م) ، وكراسوس ضد الفرس ، ثم عين يوليوس قيصر (٤٧ ق.م) أنتيباتر العربي والياً على اليهودية<sup>٣</sup>.

ولقد عين بومبيوس الخديموس (الخادم) ملكاً على قبيلة ramboel فانقلب على حليفه بسبب إهانة لحقته منه ، ولكن المذكور استولى على مدينة ارستون (الرسن) حسب رواية استرابون – ، وكان له ولد حاكماً على حمص Emessa ومهيماً على معظم بلاد الشام<sup>٤</sup>.

لقد أنقذ الأنباط (مالك الأول) يوليوس قيصر من مأزقه مع الفرس ، كما التجأ إليهم هيركانوس الفار من وجه الفرس<sup>٥</sup>.

فقد أوعز أغسطس إلى غايوس حاكم مصر بالاستيلاء على الجزيرة العربية فاستعان الأخير بعبادة الثاني ملك الأنباط الذي أعانهم بالمرشدين والسفن لكن هذه الحملة فشلت فشلاً مريعاً.

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٣٩

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٢ ص ٣٩

<sup>٣</sup> جواد علي ج ٢ ص ٤٠

<sup>٤</sup> جواد علي ج ٢ ص ٤١

<sup>٥</sup> جواد علي ج ٢ ص ٤٣

وهذا ما حدا الرومان لعدم التفكير ثانية في حملة جديدة ، بل حسنوا علاقاتهم مع الإمارات العربية واعتمدوا الأسطول الحربي ، واستولوا على بعض الموانئ في البحر العربي بمساعدة الأكسيوميين

وعلى مقربة من الرها (أوديسة) ، كان هنالك قبيلة عربية يحكمها ملك اسمه معنو، وكانت تحكم العديد من القبائل العربية المجاورة ، ولقد فسدت الثقة بين هذه القبائل والقيصر تراجان الذي استدعى معنو إليه ، لكن المذكور اعتصم بجبل سنجار<sup>١</sup>.

وأرسل القيصر سبتموس سفيرس حملة على العربية السعيدة ، بلغت ديار ثمود ، لكنها سرعان ما تراجعت ، وهنالك أكثر من رجل من أصل عربي تولوا عرش روما ، مثل فيليب الذي حاول الوصول إلى الهند .

## الباب الثاني

وسنقسم هذا الباب إلى عدة فصول :

- التأسيس ومسألة عربوية الإسلام
- امتياع الإسلام من العروبة أو السياق العربي للإسلام .
- عرض تاريخي لحوار العروبة والإسلام .
- الموقف من الحضارة العربية الإسلامية .
- تكوين الثقافة العربية الإسلامية وتبلور هوية الأمة
- الانحطاط يواجه الإسلام بالعروبة والعكس .

## الفصل الأول

مسألة امتياع الإسلام من العروبة أو السياق العربي للإسلام

---

<sup>١</sup> جواد علي ج ٢ ص ٦٦

## مقدمة

عقب قراءتي لموسوعة جواد علي الموسومة بعنوان المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام أيقنت أن المنظومة الثقافية العربية تحمل في جوفها أبعاداً أنتولوجية كونية (الموت والحياة والحشر والدهر والنفس والعقل .. الخ...) وسياسية واقتصادية الخ...

وإذا كانت العروبة هكذا قطباً، وهكذا مهاداً وحضانة للإسلام، فهل حدث التفاعل بين هذين القطبين : قطب الإسلام وقطب العروبة، وما مدى ذلك؟ أي ما مدى اكتساب وتأثير الحامل الثقافي للإسلام على المعرفي للثقافة العربية والعكس .

أليس عجباً أن يكون هنالك برزخ انتقلت عبره الحياة العربية إلى الحياة الإسلامية، كيف أن رسول الله ﷺ بعث في أمة تهيأت، واستوت على سوقها، وارتقت مشتلاً وحضانة لتلقي بذور النبأ العظيم، وبذلك فالإسلام لم يكن استئصالياً وحرماً على كل ما هو عربي، بل تعامل مع الحياة العربية على أكثر من مستوى جدلية : الحق والباطل، الحسن والقبيح، الذوقي والمستهجن، وغير ذلك من الجدليات، بحيث كان يأخذ أحياناً الظاهرة العربية برمته، وأحياناً أخرى يستأصلها برمته، وفي المرة الثالثة، يعدلها جزئياً، إلى غير ذلك من صيغ التعامل .

بل يمكن الحديث عن مفهوم عربي للإسلام، أي عن روح العروبة تتسق مع روح الإسلام؟. أجل الجواب عن هذا السؤال، وإن كنا نقرر بداءة أن هنالك اتجاهات إسلامية انتزعت الإسلام من أرض الواقع وحولته إلى قواعد ومثل عامة مجردة<sup>١</sup> يسبح فوق التاريخ، ويعلو على صيرورته وصروفه<sup>١</sup>، وهو منهج مرفوض علمياً لأنه يتأبى على السببية التاريخية.

---

<sup>١</sup> د برهان زريق : الجذور العربية لبعض أحكام الشريعة الإسلامية ( تحت الطبع )

من جهة أخرى فهناك البنيوية structuralisme التي تنطلق من مسلمة هي أن التاريخ محكوم بمبدأ القطيعة المستمرة مع الماضي التاريخي<sup>٢</sup>.

وفي هذا الصدد نذكر بمنهج وسط هو منهج الجدلية الاجتماعية dialectique socialisme الذي يرى أن التطور محكوم بالتحريك التاريخي للمربع التكويني في إطاره الجغرافي ، وهذا المربع يقوم على الحقائق الآتية : ١- إعادة إنتاج الحياة المادية.

٢- إعادة إنتاج الحياة (الجنسية البيولوجية).

٣- النظام الاجتماعي (السلطة والدولة)

٤- العلاقات مع البعد الوطني (الأديان والفلسفات) ٣

حقيقة أن تأثير الإسلام بالعروبة خارج عن نطاق الجدل ويبقى السؤال الثاني مطروحاً ، ألا وهو مدى تأثير العروبة بالإسلام .

إن علم التاريخ يطالعنا بالعديد من المناهج ، وإن كنا سنقتصر على الإشارة السريعة المجتزأة للمنهج التواصلي ، ونقيضه المدرسة البنيوية ، على أساس أننا أمام مجتمع هو المجتمع العربي ، هذا المجتمع - أمام حقيقة الوحي ومعطياته - إما أن يخضع لجدلية التواصل مع حقائقه ، وإما أن حالة انقطاع rupture والتأسيس الحضاري الجديد منبت الصلة مع الماضي ، ملفتين الانتباه إلى مفهوم يسود علم الاجتماع والتاريخ هو (العمق

---

<sup>١</sup> د. فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٥

<sup>٣</sup> المرجع السابق ص ٥

التاريخي للمجال) ، ومآله أنه بقدر ما يتوفر هذا العمق بقدر ما تفعلّ عملية اللقاح والتواصل والتأثير بالأفكار الجديدة<sup>١</sup>.

أجل إن دراستنا هذه تقوم على المفهوم التفاعلي بين العروبة والإسلام ، وليس على المفهوم الإلغائي<sup>٢</sup> بوصفه نباتاً باسقاً في صحرة ليس لأحد عليه يد ، وبالتالي فليس هنالك معنى وراء عروبة محمد<sup>٣</sup>.

في الواقع إن فهمنا حقيقياً للإسلام إنما يقتضي أن نتلقاه في بيئته العربية الصافية غير متزج بالمحيط العالمي الخيالي، أو مكبل بقيود الرمزية أو مثقل بأوزار الكهنوية الجامدة<sup>٤</sup> ، يعني أنه يجب العودة إلى الصورة الأصلية للإسلام ، تلك الصورة التي كانت له قبل أن تعبت به عادات الأمم وتقاليدها الخاصة ، وبالتالي فالحديث عن شمولية الإسلام وعالميته ورحابته التي تتسع للبشرية جميعاً ، هذا الشمول لا يسوغ فصله عن أمة العرب وحياتها ولغتها التي نزل بها القرآن<sup>٥</sup>.

وحاصل القول إننا مع الدكتور عبد العزيز الدوري التي أكد هذا التوافق والاتساق بين روح العروبة وروح السلام ولاسيما في صدر الإسلام ، وبالتالي فالرسالة الحضارية الإنسانية

---

<sup>١</sup> انظر في مفهوم عمق المجال التاريخي . د. فؤاد نحرأ : العددان ٢-٣ لعام ٩٩٠ ص ٥ مجلة الطريق .

<sup>٢</sup> تحدث عن هذه المفاهيم عبد الغني عمادي : الوحدة والتكامل بين المعوقات والممكنات ، مجلة المستقبل العربي ٢٠٠٠/٧ ص ١٧

<sup>٣</sup> عرض لهذا الرأي د. عبد الرحمن البزاز : الإسلام والقومية العربية ، محاضرات ألقى في بغداد سنة في كتابه من روح الإسلام ، ط ١ ، مطبعة العاني ، بغداد ٩٥٩ ص ١٦٥

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص ١٩٠

<sup>٥</sup> المرجع السابق ص ١٧٧



التي أتخفها الإسلام للعرب لم تكن إلا إلى أوج ازدهار الذات الثقافية العربية وتعبيراً كلياً عن نظرتها المفتوحة ووجهتها الإنسانية<sup>١</sup>.

وعلى هذا فالإسلام يعكس النفس العربية ، وإلا كيف نفسر عدم انتشار اليهودية والمسيحية في الجزيرة العربية .

لقد مثل صدر الإسلام المرأة الصافية للإسلام ، وهذا يفسر قول ابن عباس : ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب الرسول ﷺ ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة منهم : يسألونك عن الشهر الحرام<sup>٢</sup>.

وقريب من ذلك قول بعض السلف يخاطب معاصريه : إنكم تسألون عن أشياء ما كنا نسأل عنها ، وتنفرون من أشياء ما كنا ننفر عنها ، وتسألون عن أشياء ما أدري ما هي .. وعن ابن اسحاق قوله : لقد أدركت أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم ، فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقل تشديداً منهم<sup>٣</sup> .

هذه الشفافية والاتساق بين النص القرآني وبين متلقيه في حياة الرسول حداً مذهباً كبيراً في الإسلام هو المذهب المالكي إلى اعتبار حياة الصحابة مصدراً أصلياً وأصيلاً من مصادر الإسلام ، وهو مذهب له وجاهته وأهميته العلمية التي تبحث عن الجذور الواقعية ، أي القاعدة الاجتماعية الانتلوجية للنص .

في الواقع إن الرسول ﷺ تلقى الوحي في بيئته زاخرة بالمعاني وصور الحياة لذلك كان لابد له أن يعانقها ويتكامل معها .

<sup>١</sup> الجذور التاريخية للقومية العربية ، ط ١ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ٩٦٠ ، ص ١٧

<sup>٢</sup> إعلام الموقعين لابن القيم الجوزية ج ١ ، ص ٧١ ، دار الجيل ، بيروت ، ٩٧٣

<sup>٣</sup> يحيى محمد : مدخل إلى فهم الإسلام ، دار الانتشار العربي ، ط ١ ، ٩٩٩ ، بيروت ، لندن ، ص ٢١

وفي جميع الأحوال فسنقوم بعملية استقراء كبرى ، حيث سنفاجئ القارئ بتلك القرائن الاستقرائية التي تدور حول محور مشترك هو الأصرة الوشيحة بين الحياة العربية والنسيج القرآني .

لكننا قبل هذه العملية الاستقرائية سنسجل الملاحظتين الآتيتين :

إننا نطرح مع الدكتور حسن حنفي التساؤلات الآتية :<sup>١</sup>

متى يأتي الوحي ملبياً لرغبة الواقع ، أفراداً وجماعات ، ومتى يأتي مقوماً له ، ومقيداً معترفاً بالضعف البشري ، ومتى يأتي مشدداً من أجل شحذ الهمة الإنسانية ... متى يتداخل الكلام الإلهي ، والكلام البشري... وماذا عن أداء الرسالة وتحقيق الدعوة .. كيف يكشف الوحي الحوادث الماضية ووقائع التاريخ .. متى يتأسس النظر وكيف يتحقق العمل ، الوحي واقع يتحقق ، والواقع وحي متحقق ، ويكون العيب كل العيب جعل الوحي مطلقاً خارج الزمان والمكان في نص مدون .

في نظرنا إن هذا الجدل بين الواقع العربي والنص الإسلامي أكثر ما يتحقق في النص المأثور النبوي ، ومع ذلك فإننا نتابع الإصغاء إلى الدكتور حنفي ، يقول المذكور: لقد تداخل كلام الله وكلام البشر لقد بني الوحي على كلام البشر سواء أكان من الرسول أم من المؤمنين أم من الكافرين والمشركين وأهل الكتاب خاصة اليهود ، ويكون الاقتباس عبارة أو لفظاً أو معنى ، وكأن الوحي بني بلاغياً على كلام البشر ، ويحوله دليلاً أو يستجيب له مطلباً أو يحاوره أو يكلمه... الوحي هنا يقوم بعملية التطوير والتجديد والتغيير إحكاماً

---

<sup>١</sup> الإسلام والحداثة ، مجموعة مؤلفين ، دار الساقى ، بيروت ، ط ١ ، ٩٩٩ مقال د. حسن حنفي المرسوم بعنوان : الإسلام والواقع ص ١٣٧

لكل البشر واستجابة له ، الفرق بينهما في الدرجة ، وليس في النوع كلام البشر هو الشرارة والوحي هو النار ، كلام البشر هو الطلقة الأولى في معركة الواقع .

ومع أهمية هذه الدراسة إلا أننا نخالف الدكتور حنفي لجهة أن كافة آيات القرآن نزلت بحوادث بعينها ليس هنالك مبادرة ذاتية من السماء ، وفضلاً عن ذلك فإننا نخالفه حول تحديد الفارق بين الوحي والواقع لجهة الدرجة لا النوع ، وذلك بسبب وجود آيات في منتهى التجريد الذي يجعلها تختلف نوعاً عن امتلاك الواقع .

وحقيقة الأمر أن العقل يذهب شوطاً واسعاً في هذا المجال التركيبي التجريدي ، وعلينا أن نضرب مثلاً عن ذلك في تعبير القوة السياسية بتحليل هذين المفهومين إلى مركباتهما .

يتكشف لنا أن مفهوم القوة يعني القدرة الكافية لإحداث الفعل يشتمل على مفاهيم القدرة والكمون والوجود والكفاية والحدوث والفعل كما أن مفهوم السياسة يعني جهود أفراد الجماعة لتحقيق مرتجى يشتمل على مفاهيم تنسيق وجهد وجماعة وتحقيق وهدف ورجاء ، فإذا تابعنا عملية التحليل وجدنا أن هذه المفاهيم الناجمة عن مفهومي القوة والسياسة مفاهيم مركبة أيضاً ، مفهوم العقل بمعنى الحركة المتجهة إلى غاية يتركب من مفاهيم الحركة والاتجاه والغاية ، وكذلك فإن مفهوم الحركة بمعنى الانتقال من وضعية إلى وضعية ومن حال إلى حال مفهوم مركب .

والخلاصة إن المفاهيم المستخدمة في العلوم مفاهيم مركبة ينطوي كل مفهوم منها على عشرات المفاهيم الفرعية<sup>١</sup> .

---

<sup>١</sup> لؤي صافي : العقل والتجديد ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٢٢٣ لعام ٩٧ ص ١٣

هكذا يتضح أن النص - لا سيما المأثور النبوي - يقوم على حامله الواقعي ، وهو مسوغ ومعلول بهذا الواقع ومن ثم وفيما عدا التجريدات الكبرى له المصاغة في فلسفات عميقة ومبادئ كبرى مؤسس على الواقع ومحمول عليه .

لكن المهم في هذا الباب اقتراح كلمة قرآن بوصف عربي ، قال تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣) وقوله : ( نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (الشعراء)

ومآله أي قرآن يترجم إلى لسان آخر فهو قرآن على المجاز لا على الحقيقة ، إذ هو تفسير أجنبي للوحي العربي ، أما القرآن - أصل الإسلام ومعجزته وسياس دعوته - فالأسلوب العربي بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصم من جوهره<sup>١</sup> .

لكن الملفت للانتباه الآية الكريمة : (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) الرعد ٣٧ .

لا شك أن صياغة هذه الآية بصورة تختلف عن الآيتين السابقتين تُغري الباحث لمعرفة المقصود من كلمة (حكم الواردة في الآية السابقة).

الحقيقة أننا لم نجد إلا النذر اليسير الذي فسر تلك الكلمة بمعنى الحكمة فماذا كان دليله وهل اعتمد قوله تعالى: (وَأَتَيْنَاهُ الْهُكْمَ صَبِيحًا) (مريم: من الآية ١٢) أي الحكمة .

إذا كان الأمر كذلك فهذه الآية تفتح آفاقاً لاحبةً لصالح العربية ، وبالتالي فهي تؤكد الحكمة العربية التي تعتمدها ، وهنا يثور التساؤل عن إمكان تفسير المقصود بالحكمة ، بأنها أحكام الحياة العربية ، أي الواقع العربي ، وهو أمر يؤكد المنطق إذ أن الجدلية الكبرى في الإسلام - دون إنكار الدور لتجريدي للقرآن - قامت بين النص والواقع

<sup>١</sup> د. محمد الغزالي : حقيقة القومية العربية ص ١٠

العربي ومع ذلك فالتفسير التي تأخذ بالمدلول الضيق لكلمة (حكم) هي الغالبة وفيما يلي بعض التفاسير :

تفسير أوضح التفاسير لابن الخطيب : أي لنقرؤه ونفهمه فكلمة حكم تعني اللسان أو اللغة.

تفسير ابن كثير : كذلك أنزلنا القرآن حكماً معرباً... وتعليقنا على هذا التفسير أن كلمة (حكماً) جاءت في النص القرآني موصوفة في حين أن ابن كثير اعتبرها وصفاً. التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي : منصوب على الحال ، وهو تشبيه مرسل مجمل.. والمعنى أنزلناه حكماً ، أي أنزلنا القرآن يحكم بين الناس في القضايا والوقائع مما تقتضيه الحكمة .

- لكن ألم يقع هذا التفسير في الابتسار عندما فك الارتباط بين كلمة (حكم) وكلمة عربي اعتبر الكلمة الأولى تعني الحكمة ، ولكنه تعمد عدم وصفها لكلمة عربي ليلغي دور العربية وتقديم الحكمة واقتصار هذه العربية على اللسان .

- تفسير الطبري : كذلك أنزلناه حكماً عربياً أي أنزلنا الحكم والدين حكماً عربياً ووصفه لأنه نزل على محمد ﷺ وهو عربي فنسب الدليل إليه<sup>١</sup>.

- أما الزمخشري فيفسر كلمتي حكماً عربياً بمعنى حكمة عربية ويرى شبلي العيسمي أن كلمة العربي لا يقتصر معناها على الجانب اللغوي بل تشمل المضمون والمحتوى والمفهوم العربي والنظرة العربية للحياة .

---

<sup>١</sup> تفسير الطبري ١٣/١١٠

هذه المرحلة تسمى المرحلة الرؤيوية perception ، وتتلو هذه المرحلة مرحلة التصنيع fabrication ، حيث يتلقى الفرد الاستراتيجية فاحصاً جدواها ، وأخيراً تأتي مرحلة التلقي التي تحدث تغيرات في الهوية تتفق مع هضم وتمثل ذلك العنصر الذي دخل مركب الهوية .  
إن أي دين لا بد له من حاضنة أو مشتل أو قرار مكين ، وهذا يفسر قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ) ( ابراهيم من الآية ٤ ) ، كما يفسر نجاح محمد ﷺ وفشل ابراهيم الخليل بسبب عدم ترسيخ دعوته على تربة محددة .

ليس عجيباً أن يعتمد القرآن الكريم على نسج بعض خيوطه من واقع الحياة العربية لأن هذا القرآن يقوم على الحكمة ، والحكمة بدورها تعني السداد والصواب الذي ما صدقه الواقع .

ما هو هذا الهيكل المفصلي لذلك الترافد بين الحقيقة القرآنية وواقع الحياة العربية؟؟

نفرع على هذا القسم بابين الأول نتكلم فيه على تأثير العروبة في الإسلام والعكس .

ويرى الدكتور نورا أن التاريخ العربي هو تاريخ تواصل امبريقي في منهجه لأن كل مذهب يقوم تاريخه المطلق بتحديد الذات القومية ، وكأنه يقول لخصومه هذا هو التاريخ الفعلي ، ولنا دلائلنا الامبريقية الواضحة على ادعائنا .

استناداً إلى ما تقدم ، فسنحاول تطبيق المنهج الامبريقي التواصلي ، إنما ليس على أساس إسقاط الحاضر والماضي والعكس ، بل على أساس تحديد مدى تأثير الإسلام بالعروبة ، ووصولاً إلى هذه الغاية سنبحث المنهج الكمي معولين في المقام الأول على منهج اختيار العينة<sup>١</sup> أي التعامل مع بعض العينات الهامة دون أن يعني ذلك أن تلك العينات هي الوحيدة التي تفسر فرضياتنا الذهنية المطروحة .

---

<sup>١</sup> تكلم على منهج العينة ، مارلين نصر : التصور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر مركز دراسات

## البحث الأول: في الحرب

كانت العرب يسابقون بين الإبل ، واستمر ذلك في الإسلام ، فقد سابق الرسول ﷺ في ناقته القصواء<sup>١</sup> ، وللعرب آدابهم في الحرب ، قيل لأكثم بن صيفي صف لنا العمل في الحرب ، فقال : أقلوا الخلاف على أمرائكم ، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، فثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين ، وادرعوا الليل فإنه أخفى للويل .

وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر يصف عسكر الرسول ( : أما ترونهم خرساً لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعي<sup>٢</sup> والسؤال المطروح هو : هل هنالك علاقة بين كلمة تثبتوا الواردة في قول أكثم وكلمة أثبتوا الواردة في سورة الأنفال .

وتقول العرب : الشجاعة وقاية والجبن مقتلة ، وإن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً<sup>٣</sup> القول الأخير قريب من قوله ﷺ : أطلب الموت توهب لك الحياة .

يطلق العرب كلمة البيات على الغارة المفاجئة ليلاً ، أو عند الصباح<sup>٤</sup> ، ووردت كلمة البيات في القرآن الكريم في قوله تعالى : ( أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ ) (لأعراف: ٩٧)

---

<sup>١</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٣٣ - نهاية ٣٣/١٠

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٤٢

<sup>٣</sup> العقد الفريد : ١١٦/١

<sup>٤</sup> اللسان ١٦/٢ - تاج العروس ٥٣١/١

أطلق الصريخ على الشخص الذي ينذر قومه بدنو العدو<sup>١</sup> ، وهذا المعنى تردد في القرآن بقوله

تعالى : (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ) (يس:٤٣)

إن الأغنياء يفتدون أنفسهم بدفع جعل مقابل عدم الاشتراك في القتال ، وقد اعتبر الإسلام ذلك سحتاً<sup>٢</sup> واعتبر العرب الرماية من الخصال الحميدة ، واشتهر لديهم ما أسموا برماة الحدق ، وقال ( : أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي<sup>٣</sup> .

ومن عادات العرب إنذار الخصم دلالة على الشجاعة ، وكانوا يحتقرون المباغته لأنها علامة الجبن<sup>٤</sup> ، يتواعدون عدوهم للالتقاء في مكان أو زمان معين<sup>٥</sup> ، وإنذار العدو حكم إسلامي فإذا قتل حامل الراية في الحرب قام آخر شجاع يحملها ، وسقوط الراية يعني الهزيمة<sup>٦</sup> ، وقد حرص المسلمون على هذا التقليد ، والمثال الواضح على ذلك في معركة مؤتة وغيرها ، كان موضع القائد في القلب وكان المسلمون يحملون رايتهم بين يدي الرسول<sup>٧</sup> .

واستعملوا كلمة الشوكة للدلالة على القوة ، قال تعالى: ( وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ  
تَكُونُ لَكُمْ) (لأنفال: من الآية٧) .

---

<sup>١</sup> اللسان : ٣٢/٢

<sup>٢</sup> شمس العلوم ، ج ١ ، القسم الثاني ص ٣٣٨

<sup>٣</sup> العقد الفريد : ٢٢٢/١

<sup>٤</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٣٣٤

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٤٣٥

<sup>٦</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٤٣٦

<sup>٧</sup> المرجع السابق ص ٤٣٧



وكان لكل قبيلة خبير بالمفاوز اسمه خريت ولقد استعان القائد خالد بن الوليد برافع بن عميرة لهذه الغاية<sup>١</sup> ، وكان القائد يبذل جهده لخداع الخصم، وفي الحديث: الحرب خدعة<sup>٢</sup>.

وكانوا يسمون الحديث الجيش خميساً ، وفي فتح مكة كان ترتيب جيش المسلمين على خمس فرق<sup>٣</sup>.

فقد يكون القتال صفوفاً ، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ( إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ ) (الصف:٤) ولقد استعان العرب بالنساء في الحروب ، ولما قاتلت بكر بن وائل بني ثعلب قال الحارث بن عباد : قاتلهم بالنساء ، قال له الحارث بن همام كيف قتال النساء ..؟ قال قلد امرأة إناءة من ماء وأعطها هراوة ، واجعل جمعهن من ورائكم، فإن ذلك يزيدكم اجتهاداً ، فإذا مرت المرأة على صريع منكم عرفته فسقته الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من الغيرة ضربته بالهراوة فقتلته<sup>٤</sup>.

وفي نظر جواد علي إن العرب كانوا يعرفون الخنادق لاسيما في اليمن وفلسطين ، والأرجح أن الرسول استشار الصحابة ( سلمان الفارسي ) فأشاروا إليه بحفر الخندق فأخذ برأيهم<sup>٥</sup>.

عرفت العرب الحصون وسمتها المصانع ، وقد ورد في نص أبرهة (مصنعت كدر)<sup>٦</sup> ، وفي القرآن الكريم : ( وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ) (الشعراء:١٢٩) استعمل العرب المنجنيق ،

---

<sup>١</sup> عيون الأخبار للدينوري : ١٤٢/١

<sup>٢</sup> العقد الفريد : ١٢٣/١

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٤ ، ص ؟

<sup>٤</sup> بلوغ الأرب : ١٤٨

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٤٤٥

<sup>٦</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٤٤٥

وأول من استعمله جذيمة الأبرش ، وقد استعمله الرسول في حصار الطائف<sup>١</sup> وقد أعطوا رئيس القبيلة ربع الغنيمة (المربع) ، ورده الإسلام خمساً<sup>٢</sup> .  
وكانوا يكبلون الأسير بالوثاق ، وورد ذلك في القرآن<sup>٣</sup> .  
والقاعدة أن يأخذ القاتل سلب المقتول ، وقد أقر الإسلام بذلك<sup>٤</sup> .

### البحث الثاني : المنظومة الفقهية

يؤثر عن الدينوري أن العرب استعملوا مفهوماً كلمة فقه بالمعنى المستعمل في الإسلام<sup>٥</sup> واستعمل الجاهليون لفظة حلال وحرام بالمعنى الوارد في القرآن .  
وأخذ العرب بحكم العرف ، قال تعالى : ( خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ )  
(لأعراف: ١٩٩) وللسنة أهمية كبيرة في الفقه الجاهلي ، والمراد بها الطريقة ، ووردت في القرآن الكريم : (سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ)(الحجر: من الآية ١٣) ( سُنَّةَ اللَّهِ ) (الأحزاب: من الآية ٣٨) (الفتح: من الآية ٢٣)

ولقد حكم الحكم بن عامر بن الظرب العدواني في الخنثى ، وقد أمر الإسلام بهذا الحكم<sup>٦</sup> .

---

<sup>١</sup> الروض الأنف ص ٣٣

<sup>٢</sup> العقد الفريد ٣/٣٤٢

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٤٦٤

<sup>٤</sup> صحيح مسلم ١٤٩/٥

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٦٥٠

<sup>٦</sup> المحبر ، ص ٢٣٧

وحكم ذى المجاسد<sup>١</sup> وهو عامر بن جشم بن غنم ابن حبيب في توريث البنات على أن للذكر مثل الأنثيين وأكد الدكتور جواد علي أن تنظيم الدين والتداين والشهادة والرهان في الإسلام ، هذه الأمور من صميم عمل العرب<sup>٢</sup> .

وقد وردت كلمة المعاقلة في الصحيفة التي أبرمها الرسول بين يثرب وقريش وهي مفهوم جاهلي والأب هو الولي في الجاهلية يليه في الترتيب الجد عند وفاة الأب أو غيابه<sup>٣</sup> .

وعرف الجاهليون التحكيم ، وفي القرآن الكريم : (وَإِنْ حِفْظُهُمْ شِتْقًا بَيْنَهُمَا فَيَابِعْتُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا) (النساء: من الآية ٣٥)

وقس بن ساعده الأيادي هو الذي وضع قاعدة : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر<sup>٤</sup> .

ويرى الدكتور جواد علي أن وصايا الرسول إلى الصحابة عن كيفية الحكم بين الناس ، وعهد عمر إلى أبي موسى الأشعري وعهد علي إلى قاضيه شريح ، هذه الأصول كانت سنناً متبعة في الجاهلية ، وقد أقرها الإسلام باعتبارها من أصول المنطق وطبائع الأشياء<sup>٥</sup> .

سمت العرب القسم يميناً ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

وإن الحق مقطعه ثلاث : يمين أو نفار أو جلاء

وكان تعليق الخليفة عمر على هذا البيت بقوله : لو أدركته لوليته القضاء لمعرفته بما تثبت به

الحقوق<sup>١</sup> .

---

<sup>١</sup> المخبر ، ص ٢٣٦

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٤٨٣

<sup>٣</sup> المرجع السابق ج ٥ ص ٤٩١

<sup>٤</sup> الأمثال للميداني .

<sup>٥</sup> ج ٥ ص ٥٠٩ - الأحكام السلطانية ص ٧١

وجمع أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله البجيرمي أيمان أهل الجاهلية<sup>٢</sup> مستنتجاً من ذلك أن

العرب كانت تؤمن بالله كما يتضح من قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة                      من وراء الله للمرء مذهب

ومن الأيمان التي استعملها العرب الأيمان الآتية :

والله فإنها تملأ الفم وترقي الدم - لا والذي يراني من فوق سبعة أرفعه .

أكد هذا القسم من قوله ﷺ لسعد بن معاذ : لقد حكمت بينهم بحكم الله من فوق سبعة أرفعه .

- لا والذي شقهن خمساً من واحدة (أصابع اليد)

- لا والذي لا يواريني منه حمر ، أي لا يواريني منه شيء .

- لا والذي لا يواريني منه غيب .

- والذي خلق الحبة وبرأ النسمة .

- لا والذي سمك السماء .

- لا والذي يراني من حيث ما نظر

- لا وفالق الإصباح وباعث الأرواح

- لا ومجري الرياح .

- لا ومميت الرياح .

- لا ومجري البحر .

- ومنشئ السحاب .

---

<sup>١</sup> البيان والتبيين : ٣٠٤/١ - الصناعتين ص ٢٨٦ - العمدة : ٣٠/١

<sup>٢</sup> العرب في الجاهلية ، تحقيق محب الدين الخطيب ، ط ٢ القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٨٢ هـ ص ١٣

- لا والذي دحى الأرض .
- لا والذي سجد له النجم والشجر<sup>١</sup> .
- لا والذي حجت له العمائر (الجمال) .
- لا والذي ذابت له الشعور .
- لا وفاطر الأشباح .
- لا والذي يرصدني أنى سلكت .
- لا ورب الشمس والقمر
- لا ورب البيت والحجر .
- والذي أخرج الماء من الحجر والنار من الشجر<sup>٢</sup> .
- لا ورازق الأنام .
- ورب النور والظلام .
- لا ورب الحل والحرام .

قال الشاعر :

- قتلوا كليياً ثم قالوا ألا أربعوا
- كذبوا ورب الحل والأحرام .
- لا والذي نادى الحجيج له .
- يمين الله لقد كان كذا .
- وأيمن الله - وأيمن الكعبة
- لعمرك الله .

<sup>١</sup> لاحظ قوله تعالى : ( وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ ) (الرحمن:٦)

<sup>٢</sup> لاحظ قوله تعالى : ( الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ) (يس:٨٠)

- ولا رافعها بغير عمد - لا وباسطها - لا وماهدها - لا وداحيها.

- لا والذي يراني ولا أراه - حرام الله.

- أقسم بالله قسماً صادقاً باراً - لا أورد الله لك صافياً ولا أصدر لك وارداً.

كانوا يوقدون النار إذا تحالفوا ويتصافحون ويقولون ، الدم الدم والهدم والهدم ، أي دماؤنا دماؤكم هدمنا هدمكم ، ولقد استعمل الرسول هذا الحلف مع وفد الأنصار في بيعة العقبة .

وإذا تعاقدوا وتحالفوا غمروا أصابعهم في جفنه مملوءة طيباً (حلف المطيبين) ، أو ربما في حلف

الأرياب<sup>١</sup> ولقد بايعت نساء قريش الرسول بعد فتح مكة على جفنة ماء<sup>٢</sup>.

وكان يشترط أن يكون أمر الطلاق بيد المرأة وقد أخذ الفقه الإسلام بذلك.

واشترط العرب أن يكون البيع نقداً بدينار ونسيئة بأكثر من ذلك وقد شهد الرسول على

ذلك<sup>٣</sup> ، وكان الشاهد يؤدي يميناً بأنه صادق .

وإذا نكص شخص عن الشهادة سمي ناكلاً<sup>٤</sup> ، أما إذا نقض العهد سمي ناكثاً ويزدرى عليها

° .

وقد دون العرب العقود التي تبرم بين السيد ومملوكه في كتب سموها (المكاتبة)<sup>٥</sup> ، وإليها أشار

القرآن الكريم بقوله: (وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُواهُمْ ) (النور: من

الآية ٣٣) وأطلقوا تسمية الصحف على العقود والمواثيق والأحلاف وبذلك سميت المعاهدة

التي تمت بين يثرب وقريش في المدينة على يد الرسول .

<sup>١</sup> اللسان ٣٨٨/١ - الأغاني ١٤/٣ - العقد ٥٩/٢ - تاج العروس ٢٦٤/١

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٢١

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٢١

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص ٥٢٣

<sup>٥</sup> تاج العروس ١٤٥/٨ نكل

<sup>٦</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٢٣

ويشير جواد علي إلى نقطة هامة ، وهي أن أهل الحديث والأخبار جمعوا أحكام الجاهلين القريبين إلى الإسلام خاصة أهل مكة ويشرب<sup>١</sup> ، وهذا ما ضيع علينا عطاء ثرا حول ذلك .  
والزواج في الجاهلية كان يتم برضا الطرفين وموافقة الوالدين المتولين للأمر ، وإذا كان أحد الأطراف قاصراً ، فلا بد من موافقة القيم<sup>٢</sup> .

والرجال في الجاهلية قوامون على النساء ، والمرأة للبيت ، فهي المسؤولة عن تربية الأولاد وهي تتبع لبعليها تطيع أوامرهم ما دامت لا تنافي المألوف لذلك قيل له بعل ، وعليه التربية والإعالة ، وهو مسؤول عن أحفاده .

القاعدة العامة في زواج الجاهلية مراعاة علاقة الأصل بالفرع ، فلا يجوز نكاح الأب لابنته ولا الجد لحفيدته ولا للأم أن تتزوج ابنها ، ولا للجددة أن تتزوج حفيدها ، ولا للأخ أخته ، ولا للرجل أن يتزوج ابنة أخته أو ابنة أخيه ، ويجرم نكاح العممة والخالة أو الجمع بين الأختين<sup>٣</sup> .  
ومن القبائح أن يخلف الرجل على امرأة أبيه وسموا ذلك بعل الضيزن ، أو نكاح المقت<sup>٤</sup> وحرّم القرآن ذلك بقوله : ( وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ) (النساء: من الآية ٢٢) ، والصدّاق والمهر هو شرط لصحة الزواج .

وكان يخطب الكفي إلى الكفي ، وكان الخاطب يقول : نحن أكفناؤكم ونظراؤكم<sup>٥</sup> وهو شرط أخذ به الإسلام .

---

<sup>١</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٢٦

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٢٧

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٢٥٩ - بلوغ الأدب ٥٢/٢ - الحصص ١٠٦/١ - الأغاني ٩/١٠

<sup>٤</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٣٠

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٣١

والأصل أن بعض المهر للمرأة ، وقد يأخذه الولي لنفسه استثناء ، لذلك نهى عنه الإسلام بقوله تعالى : (وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) (النساء: من الآية ٤)

للمرأة حق استرداد مهرها إذا فسخ الزوج العقد ، اللهم إلا في حال الزنا<sup>١</sup> ، والمهر المؤجل دين ويدفع إلى التركة في حال الوفاة ، وليس للمهر حد معلوم ، وقد يكون عيناً أو أرضاً ، وليس لزواج الشغار مهراً<sup>٢</sup> وزواج البعولة هو الذي كان سائداً في الجاهلية<sup>٣</sup>.

وكان الوارث يعضل المرأة فيمنعها من الزواج أو يتزوجها أو تفتدي نفسها فيه ، وهي عادة عند العبرانيين والرومان والسريان<sup>٤</sup> ، وقد نهى الإسلام عن ذلك.

وقد أبطل الإسلام عدة صيغ للزواج في الجاهلية ، مثل زواج الشغار (زواج الرجل ابنة الآخر والعكس دون صداق) وزواج الاستبضاع ونكاح الخدن ، وقد نهى الإسلام عن ذلك ، وقال تعالى : (فَبِأَنكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَبِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ) (النساء: من الآية ٢٥)

والطلاق الشائع هو طلاق المرأة ثلاثاً ، وينسبون ذلك إلى سنة ابراهيم ، فكان يطلقها واحدة ويعود إليها إن شاء ، ويطلقها ثانية ، وله أن يعود إليها ، حتى إذا استوفى الثلاث تصبح طالقة طلاقاً بائناً<sup>٥</sup> لا رجوع فيه ، وقد أوجدوا له حلاً مذموماً لديهم ، هو أن تتزوج المرأة الزوجة من رجل غريب ، وهنا يجوز للزوج الأول الرجوع إليها ، ويقال للرجل التيس المستعار أو المححش.

<sup>١</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٣١

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٣١

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٣٣

<sup>٤</sup> المبسوط للسرخسي ٤/٤٦٤ - اللسان ٢/٩٠ - تفسير المنار ٤/٤٥٢

<sup>٥</sup> الأغاني : ٨/٨٠ - بلوغ الأدب ٢/٤٩



طلاق الظهار هو مذموم أيضاً وهو أن يقول لزوجته أنت علي كظهر أمي أو كبطنها أو كفخذها أو كظهر أخي وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله : ( الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ) (المجادلة: من الآية ٢)

وقد عرفوا الإيلاء ، وهو القسم على ترك الزوجة مدة لا يقترب منها <sup>١</sup> .

الطلاق حق الرجل ، وتستطيع الزوجة ذلك لقاء جعل هو الخلع <sup>٢</sup> .

ولقد اشترطت بعد النساء الشريفات حقهن في الطلاق منهن سلمى لبيب بنت خدش الخزرجية وفاطمة الانبارية ومارية بنت حفنة وعاتكة بنت مرة <sup>٣</sup> .

ولم تكن للمطلقة عدة ، أما عدة المتوفى عنها زوجها فعدتها سنة ، وكانت تدخل نعشاً وتلبس شر الثياب ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً ، ولا تمس الطيب أو الكحل <sup>٤</sup> .

وإذا كانت المطلقة حاملاً عد حملها مولوداً من زوجها الجديد ، ولو علمت أنه من الأول° وينسب الولد في العرف الجاهلي للأب (الولد الفراش) .

وأول من حكم في ذلك حكيم العرب أكثم بن صيفي ، ثم أقره الرسول بقوله : الولد للفراش وللعاهر الحجر <sup>٦</sup> .

ومن أسباب الإرث في الجاهلية التبني والحلف وموت الرقيق أو المعتق أو السائبة أي الذي يقول له سيده : لا ولاء لأحد عليك وأنت سائبة <sup>١</sup> .

---

<sup>١</sup> المفردات : ٢٢٠ - الأصلة : ٥/١ - الجصاص ٤١٧/٣

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٥ ص ٥٦٢

<sup>٣</sup> المخبر ٣٩٨ - النهاية ٢٧/٣

<sup>٤</sup> بلوغ الأرب ٥٠/٢ - صحيح مسلم

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٥٦

<sup>٦</sup> المفردات للراغب الأصفهاني - صبح الأعشى ٤٣٥/١ - ارشاد الساري للعسقلاني

لقد احترم الجاهليون الملكية في مظاهر متعددة من ذلك ما عثر عليه المنقبون من آثار في مواقع عدة للجزيرة العربية كتب عليها أن لعنة الله على من يرفع هذا الحجر عن موضعه ، كما سألوا أن تنزل الأمراض والشر لكل متناول <sup>٢</sup> .

عرف الجاهليون الشفعة وقد أقرها الإسلام <sup>٣</sup> وبقي السبأ قائماً حتى أيام الخليفة عمر ، حيث قال: لا سي على عربي <sup>٤</sup> .

والقصاص وهو العقوبة بالمثل كانت سائدة في الجاهلية <sup>٥</sup> .

ولقد فرضوا عقوبة الصلب على قاطع الطريق ، وقد طبق الرسول ﷺ ذلك في عقبة بن أبي معيط ، كما صلب خالد بن الوليد عقبة بن هلال <sup>٦</sup> ، وذلك تطبيقاً لقوله تعالى : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَخُوا مِنْ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (المائدة: ٣٣) وعرفوا عقوبة المثلة ، وقد نهى الإسلام عن ذلك في الإنسان والحيوان <sup>٧</sup> وحكموا العرف في عقوبة القتل الخطأ وقد يحددها الملك عند الجنوبيين ، وهي عقوبة تعزيرية في الإسلام <sup>٨</sup> .

<sup>١</sup> المحبر ص ٢٣٦

<sup>٢</sup> ارشاد الساري ٢٥٦ - اللسان ٤١٠/١٥ - سنن أبي داود ٢٢٣/٢ عمدة القارئ ٨٣/٢ - الجامع الصحيح (كتاب النكاح) - الجصاص ٧٣/٢

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٥٧

<sup>٤</sup> صحيح مسلم ٥٧/٥

<sup>٥</sup> الأغاني : ٧٥/١١

<sup>٦</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٥٧٦

<sup>٧</sup> المحبر ص ٤٧٩

<sup>٨</sup> تاج العروس ١١١/٨ - تفسير الطبري ١٣٣/٦

وعرف والجاهليون عقوبة الجلد ، وأداة ذلك السوط، وكان هذا الحق معطى للوالد على ولده أو أبنائه واستعملها الإسلام في عقوبة الزنا<sup>١</sup>.

وأقرت عقوبة التغريب أو النفي في الإسلام ، حيث أمر بها الرسول والخلفاء بذلك.

وإذا لم يكن القاتل قادراً على دفع الدية فعلى ذوي العصابة ، كما تكون في الإرث وأول من سن ذلك الحكم العدواني فجعلها مائة من الإبل ، وقد نسب ذلك أيضاً إلى عبد المطلب وقد أخذ الرسول ﷺ بذلك<sup>٢</sup>

الإرش هو دية دون النفس ، ويختلف باختلاف التلف الذي أصاب العضو ، وفي الحديث النبوي : في أرش الجراحات التي تفرضها الحكومة<sup>٣</sup>.

وعرفت الجاهلية القسامة ، وقد قررها الإسلام، وفي حديث عمر: القسامة توجب العقل (الدية) لا القود<sup>٤</sup> والقسامة هي أن يقتل شخص في قوم ، ولا تشهد على قتله بينة ، هنا يحلف أهل القتل خمسين يميناً أنه فعل القوم فيستحقون الدية.

ولقد أقر الإسلام ما جاء في حكم الجاهلية حول الحيوان المؤذي ، وقد جاء الحديث : العجماء جرحها جبار ، البئر جبار<sup>٥</sup>

---

<sup>١</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص

<sup>٢</sup> صبح الأعشى : ٤٣٥/١ طبقات ابن سعد ٨٩/١ - ابن رسته : الأعلام ١٩١ - الروض الأنف :

٨٦/١

<sup>٣</sup> اللسان : ١٢ / ١٤٥ ( حكم )

<sup>٤</sup> اللسان : ١٢ / ٤٨١ صحيح مسلم

<sup>٥</sup> صحيح مسلم : ١٢٨/٥

ولقد حبس العرب الماء والنخيل والكروم والأراضي والحيوانات والسوائم والبحائر والحوامي وغيرها للأصنام وبيوت العبادة وللمحتاجين وأبناء السبيل وهذا المفهوم الجاهلي للحبس نفس المفهوم الإسلامي ، حيث يوقف العين فلا يباع أو يورث وتسبل المنفعة<sup>١</sup> .

قد أخذ الجاهليون ببيع الخيار ، وحدد مدته شهر<sup>٢</sup> وهذا ما يقارب الإسلام .

وفي الجاهلية كان حق وفاء الدين ينتقل إلى ورثة المتوفى<sup>٣</sup> كما في الإسلام.

وكان الرهن شائع في الجاهلية ، وهو ما يوضع له وثيقة للدين وقد أقره الإسلام<sup>٤</sup> .

ويؤثر عن عبد المطلب سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها مثل الوفاء بالندور والمنع من نكاح المحارم والجنابة وقطع يد السارق ، والنهي عن قتل المؤودة وتحريم الخمر والزنا ، وأن لا يطوف بالبيت عريان .

ويؤكد الدكتور جواد علي أن الأحكام التي كانت تصدر في الجاهلية - لاسيما في عكاظ - هي أحكام قانونية قائمة على منطق العدالة والحق .

### البحث الثالث

#### المنظومة الدينية

هذا البحث ممتلئ واسع خصب وممتد ولهذا سنكتفي بالفروع الآتية :

الفرع الأول : العقائد والشعائر والمناسك والتقاليد

يرى رينان أن العرب في الأصل كالساميين موحدين ، وهذا التوحيد الديني دليل على التوحيد القومي ، يستدل على ذلك في أصل كلمة " ال " أو (ايل) وحجته في ذلك أن كلمة (ذو

---

<sup>١</sup> تاج العروس : ١٢٥/٤ - جواد علي ، ج ٥ ، ص ٦١٠

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٦١٤

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٦٢٠

<sup>٤</sup> الراغب الأصفهاني ص ٢٠٤ - البقرة / ٢٨٣

سموى) شاعت في اليمن في حين اختفت أسماء الآلهة الأخرى كذلك فقد وردت كلمة رحمن في نص أبرهة وفي نصوص عربية شمالية<sup>١</sup>.

يقول الشنفرى :

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها      الا بتر الرحمن ربي يميناها

يقول سلامة الطهوي :

عجلتم علينا عجلتنا عليكم      وما يشاء الرحمن يعقد ويطلق<sup>٢</sup>

ويقول حاتم الطائي :

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا      وإن على الرحمن رزقكم غدا<sup>٣</sup>

قد سمعوا الرسول ﷺ يقول : يا رحمن يا رحيم فقالوا اسمعوا ما قال بن أبي كبشه دعا الرحمن الذي في الإمامة<sup>٤</sup>.

قالت قريش للرسول ﷺ : بلغنا أنك إنما تعلمك رجل بالإمامة يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به .<sup>٥</sup>

فنزل قوله تعالى : ( كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدِ خَلَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ )

(الرعد: ٣٠) قد تسمى مسلمة الحنفي بالرحمن قبل أن يولد الرسول ﷺ<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٢٧

<sup>٢</sup> تفسير الطبري : ٤٤/١

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٣٩

<sup>٤</sup> تفسير الطبري : ١٣١/٥

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٤

تلبية قيس عيلان كانت : لبيك اللهم لبيك أنت الرحمن <sup>٢</sup> .

كذلك فتلبية عك كانت : نحج للرحمن بيتاً عجبا مستتراً مقبياً محجبا <sup>٣</sup> .

لفظة الرحمن مفردة ليس لها جمع دلالة على التوحيد خلافاً لكلمة رب .

ونشير إلى أن كلمة دين عريقة في الحياة العربية ، فقد وردت في نص ثمودي كما يلي : بدين

ود أمت وتفسيرها أموت على دين ود <sup>٤</sup> ، ولقد عثر في نص على هذه الجملة ( وهـ ل هـ )

وهذه الهاء الأولى تعريف والمعنى في الله ولقد تعبدوا بعلا كما يتضح من قوله تعالى : (

أَتَدْعُونَ بَعِيلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ) (الصفات: ١٢٥) ورد في نصوص المسند ألفاظ

مثل: سمع (سميع) - حكم (حكيم) - حلم (حليم) - علم (عليم) - رحم (رحيم) وهي

صفات ربما لإله واحد <sup>٥</sup> .

ولقد أمر الرسول ﷺ بتسوية القبور، ونهى عن اتخاذها مساجد ومواضع للصلاة لأن الجاهليين

عبدوا أرواح أصحابها <sup>٦</sup> .

قال بعضهم أن المثلث الديني عند العرب القمر - الشمس - الزهرة اسرة عائلية وإن كافة

أسماء الآلهة هي أوصاف تشبه الأسماء الحسنى في الإسلام ، والقمر هو الأب، والشمس الأم

والزهرة الابن <sup>٧</sup> .

---

<sup>١</sup> الروض الآنف ١/ ٢٠٠

<sup>٢</sup> اليعقوبي ١/ ٢٢٥

<sup>٣</sup> اليعقوبي ١/ ٢٢٦

<sup>٤</sup> جواد علي ، ج ٥ ، ص ٦١٧

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٢٤

<sup>٦</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٢٧

<sup>٧</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٤٨ وصحيح مسلم ٢/ ٦٦

ولقد عبد العرب الكواكب ، وهذا هو مغزى الآية القرآنية : ( لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ) (فصلت: من الآية ٣٧)

وقد وصفت الشمس بـ ( ذات حمم ) أي حميم فلم يعبدوها ، وكلمة حميم مستعملة في القرآن الكريم .

وقد كثرت أسماء القمر لأنه دليل للسايرين : سن - شهر - ورخ ، فضلاً عن ذلك فقد لوحظ التشابه في أسماء القمر في العربية الجنوبية وفي الحبشة وفي الأقسام الشمالية الغربية ، مما يؤكد الوحدة العقلية عند العرب والطور المتقدم على طريق تشكل الأمة <sup>١</sup> .

وصف القمر بـ ود أب ، وب عم وكهلن (القدير، العزيز) ، إضافة إلى أوصاف أخرى سبق الإشارة إليها مثل حكم (حكيم) - صدق (صديق) - علم (عليم) .

القمر هو المقه عند السبئيين ، وعم عند القتبانيين وشن عند الحضارمة <sup>٢</sup> .

لقد عبدت الشمس في أماكن متعددة وهكذا فقد نسب إليها فصيل عبد شمس حتى أن التدمريين اعتبروها مذكراً واللات هي الشمس .

لقد استقبل الجاهليون الشمس عند الضحى وقدموا لها الصلاة ، وهذا هو مغزى كراهية صلاة المسلمين في هذه اللحظة .

ولقد عير الجاهليون الرسول بالانحراف في الإسلام ، وقالوا إن هذا الانحراف يشبه انحراف جده في عبادة الشعري ، فرد عليهم القرآن الكريم بقوله <sup>١</sup> : ( وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى ) (النجم: ٤٩)

قال بعض المفسرين أن النجم الوارد في القرآن هو الزهرة التي تعبد لها بعض الجاهليون <sup>٢</sup> .

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ج ٦

<sup>٢</sup> المرجع السابق ص ٥٤

فقد جعلوا للكواكب أثراً في حياتهم ، لذلك جاء الحديث النبوي: لتبطل ثلاثاً الطعن في الأنساب - النياحة - الاستسقاء بالأنواء<sup>٣</sup>.

عرفت الجاهلية التوحيد في أشخاص كثر مثل مالك بن النبهان وأسعد بن زرارة (من السابقين في الإسلام)<sup>٤</sup> وخالد العبسي الذي عد من أنبياء العرب وقيل إن ابنته جاءت إلى الرسول ﷺ فسمعتة يقول : قل هو الله أحد ، فقالت كان أبي يتلوا ذلك<sup>٥</sup> وقال عنه الرسول : هذا نبي ضيعه قومه.

وإن قريشاً كانت تؤمن بإله خالق ، قال تعالى : ( وَأَلَّيْنِ سَيَأْتِيَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَيُّ الْيَوْمِ يُؤْفَكُونَ ) (العنكبوت: ٦١) ومنهم من أقر بوجود إله لكن اعتقد بوجود وسطاء مثل الأرواح والحجارة والأصنام<sup>٦</sup>.

أدعية عند العرب دليل وجود الله :- مسخ الله فاه - جعل الله رزقه فوق فمه - لله مهجته.

قال زهير بن أبي سلمى : فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم<sup>٧</sup>

وتردد اسم الجلالة كثيراً في شعر الشعراء فقد جاء في شعر امرئ القيس العبارات الآتية : لله

- تالله - الله - والله - يمين الله - لحا الله - الحمد لله<sup>٨</sup>.

يقول المذكور: فقالت يمين الله مالك حيلة وما أن أرى عنك القوامة تنجلي<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٥٥

<sup>٢</sup> الإصابة ٥١/١

<sup>٣</sup> تفسير الطبري ١١٩/١٧ - ابن سعد الطبقات ١/١

<sup>٤</sup> تفسير القرطبي ٨/١٧ - تفسير الطبري ٢٤/٢٧

<sup>٥</sup> الأزمنة والأنواء ص ١٣٦

<sup>٦</sup> طبقات ابن سعد ٤٤٨/٣

<sup>٧</sup> بلوغ الأرب ٢٧٨/٢

<sup>٨</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١٠٣



من يسأل الناس يجرموه وسائل الله لا يخيب <sup>٢</sup>.

وقول طفيل بن عوف الغنوي :

لعمرى لقد خلى ابن جندع ثلثة فمّن أين إن لم يرأب الله ترأب <sup>٣</sup>

ويقسم المتلمس فيقول : أبى الله - الله - تقوى الله - عاداك الله <sup>٤</sup>.

وللنابغة الجعدي قصيدة مطلعها : الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلماً <sup>٥</sup>.

ويقول لبيب : من يبسط الله عليه أصبعا .

ويقول عمرو بن شعث : لولا اتقاء الله والعهد قد رأى منيته منى أبوك اللياليا <sup>٦</sup>.

لقد افتتح الجاهليون كتبهم بجملة باسمك اللهم ، وأول مبتدع لها هو أمية بن أبي الصلت ولقد

استبدلها الرسول باستعمال : بسم الله الرحمن الرحيم وذلك بنزول الوحي <sup>٧</sup>.

والله عند الجاهليين رب الارباب وإله الآلهة <sup>٨</sup> ، أي اعتقدوا أن له أنداداً قال تعالى : (وَجَعَلُوا

لِلَّهِ أَنْدَاداً) (ابراهيم: من الآية ٣٠)

الله رب السماء كما يتضح من عبارة بعل سمين في لغة المسند <sup>٩</sup>.

---

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ١٠٦

<sup>٢</sup> شرح ديوان زهير ص ١٨

<sup>٣</sup> ديوانه ص ١٩

<sup>٤</sup> ديوانه ص ١٦٩

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١١٢

<sup>٦</sup> الأغاني ١٠/٦٢

<sup>٧</sup> بلوغ الأرب ٢/٢٧٥ - تاج العروس ٩/٤١١

<sup>٨</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١١٩

<sup>٩</sup> المرجع السابق ص ١٢

اعتقد المؤمنون والدهريون العرب بالخير والأخيار والحساب والعقاب وأكثر من يعلم في ذلك عقبه بن الصلت والأعشى كما اعتقدوا أن سبب الموت هو خروج الروح من الأنف أو الفم ، لذلك قالوا: مات حتف أنفه أو فمه .

اعتقدوا بالبعث بدليل وجوه العقيرة ، وهي ناقة تعقل عند قبر صاحبها ليحشر عليها.

يقول زهير : يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم<sup>١</sup> .

أطلق العرب على جهنم اسم أمه الهاوية وهو مفهوم اسلامي قال تعالى : (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) (القارعة:٩) ، وهكذا يتضح أن القرآن الكريم هو الحقل المعرفي لمعرفة الحياة الجاهلية وإلا كيف يعرف اهتمام العرب بالروح لولا قوله تعالى : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) (الاسراء: من الآية٨٥) .

الدم عند العرب هو النفس ، يقول السموأل :

تسيل على حد الطبات نفوسنا وليست على غير الطبات تسيل<sup>٢</sup>

وفي الحديث : ما ليس له نفس سائلة فلا ينحس الماء .

واعتقدوا أن عظام الموتى تصير هامة فتطير ، وقد نهي الحديث عن ذلك بقوله: { لا عدوى ولا هامة } .

وكانوا يؤمنون بالرجوع إلى الدنيا لذلك وضعوا الطعام للميت في القبر ، وهذا هو مغزى موقف عمر من وفاة الرسول ، وقوله : والله ليرجعن .

---

<sup>١</sup> اللسان ١٤٧/١٠ زهق

<sup>٢</sup> الشعر والشعراء ٧٦/١

وأشار القرآن إلى الدهريين : ( وَقَالُوا مَبَا هَٰئِي إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِبَدَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ) (الجمانية: ٢٤) قالوا : يد الدهر - ريب الدهر، وللسبب نفسه سبوا الدهر وفي الحديث : لا تسبوا الدهر فالله هو الدهر ، والدهر من أسماء الله الحسنى <sup>١</sup> .

وقوله : كلوا اليوم من رزق الإله وأيسروا وإن على الرحمن رزقكم غدا <sup>٢</sup> .  
والقدر والمقدر والمقدور والأقدار والقضاء استعملت في الجاهلية كاستعمالها في الإسلام <sup>٣</sup> .  
يقول لبيب : فما رزقت فإن الله جاليه وما حرمت بما يجرى به القدر <sup>٤</sup> .  
وقول زهير : ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السماء بسلم <sup>٥</sup> .  
وقول عمرو بن كلثوم : وإنا سوف تدركنا المنايا مقدره لنا ومقدرينا <sup>٦</sup> .  
ويقول الأعشى : استأثر الله بالوفاء وبالعدل وولى الملامة الرجل.  
وقول عبيد بن الأبرص : من يسأل الناس يجرموه وسائل الله لا يخيب <sup>٧</sup> .  
ولقد مر الرسول ﷺ بناس يتذاكرون في القدر فقال : إنكم أخذتم في شعبين بعيدي القدر <sup>٨</sup>  
وجاء رجل إلى الرسول ﷺ قائلاً له : يا رسول الله ففيم العمل .. أي شيء نستأنفه قد فرغ منه ..

<sup>١</sup> المعرب للجواليقي ص ١٠٧ طبعة دار الكتب المصرية .

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١٥٤

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١٥٤

<sup>٤</sup> ديوانه طبعة لندن ١٨٩١

<sup>٥</sup> الديوان ص ١١٨

<sup>٦</sup> شرح الديوان لثعلب ص ٣٠

<sup>٧</sup> شرح القصائد السبع للزوزني ص ١٤٦

<sup>٨</sup> البيان والتبيين ص ٢٢٦

فقال الرسول ﷺ : اعملوا فكل ميسر لما خلق له <sup>١</sup>.

ويدخل في هذا الباب موضوع القسمة والنصيب فقد كان مطروحاً بشدة في الجاهلية.

وقول الشاعر : وليس الغني والفقير من حيلة الغنى ولكن حظوظاً قسمت وحدود.

متى ما يرى الناس الغني وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد <sup>٢</sup>.

وقول الشهاب المقرئ : سبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة <sup>٣</sup>.

وقريب من ذلك يقول تعالى : ( نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) (الزخرف:

من الآية ٣٢)

واعتقدوا أن الملائكة بنات الله ، وهنا سأل أبو بكر من أمهاتكن فقالوا الجن <sup>٤</sup>.

ولقد أقسم القرآن الكريم ورد على الجاهلية بمواقع النجوم <sup>٥</sup> ، كما تعرض إلى النجم الثاقب

الذي هو عشتار عند الجاهلية ، والثاقب المرتفع ، وقيل أنه زحل أو الثريا أو الجدي <sup>٦</sup>.

وردت عبارة عشتار نورو (عشتار نور) ، كما تعبدوا الإله مونيموس (المنعم) ، وهذه صفات لله

( اللّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ) (النور: من الآية ٣٥) <sup>٧</sup>.

أطلقوا على عشتار اسم ملك ، ونسبوا إليه فقيل عبد الملك ، والملك من أسماء الله في

الإسلام <sup>٨</sup>.

---

<sup>١</sup> تاج العروس : ٤٥٣/٣ ( غور )

<sup>٢</sup> تفسير الطبري ٦٤/٢٧

<sup>٣</sup> تاج العروس : ٢٥٩/٥ ( خط )

<sup>٤</sup> تفسير الطبري ٦٩/٢٣

<sup>٥</sup> النجم / ١٠

<sup>٦</sup> تفسير القرطبي : الجامع ١/٣٠ تفسير الطبري ٩١/٣٠

<sup>٧</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١٧٣

<sup>٨</sup> المرجع السابق ص ١٧٢

أطلقوا عليه اسم الملكوت ، وجاء في القرآن الكريم : ( وَكَذَلِكَ نُبَيِّرِي إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ) (الأنعام: ٧٥) <sup>١</sup>

والزواج بين القمر والشمس ولد بناتاً هي الملائكة أو الجن <sup>٢</sup>.

لقد سمي الجنوبيون باسم الشمس وصوروها دائرة أو قرص أو كتلة ، أما الزهرة فرمز إليها

بصورة نجمة ذات ثمانية خطوط إشعاعية لدى البابليين ، وهذا يدل على التقارب الثقافي بين

الشعبين <sup>٣</sup>.

والآلهة عند العرب كالإنسان ، فهي حليلة (حلم) ، وسميعة (سمع) ، وقديرة (كهلن) وفخورة

(إيل فخر) وعالية (ال تعالى) ، لكنها لا تلد ، كما جاء في النص: هـ الـ هـ أبتـر أي الذي لا

يلد ولا ولد له <sup>٤</sup> .

لقد تبتلوا في حب الآلهة وعشقوها عشقاً صوفياً ، كما يتضح من هذا النداء : ب ل هـ ي

ج ت - ب ل هـ ي ا م ت استجرت بإلهي <sup>٥</sup>.

اعتقدوا أن من سب الآلهة يصاب بالمصاب ، وقد أشار القرآن إلى ذلك: ( أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ

عَبْدَهُ وَيُجَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ) (الزمر: ٣٦)

وكانوا يدفعون الزكاة إلى معابدهم ، من ذلك ضريبة عصم في قتبان ومقدارها عشر الحاصلات

<sup>٦</sup>.

---

<sup>١</sup> تاج العروس ١٨١/٧

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١٧٤

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١٧٦

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص ١٧٨

<sup>٥</sup> المرجع السابق ص ١٨٢

<sup>٦</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ١٨٧

وعرفوا النذور، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله : ( وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ) (الأنعام: من الآية ١٣٦)

وسمي الذبح في شهر رجب بالترجييب ، وهو من الأشهر الحرم ، وقيل للذباح النسك<sup>١</sup> أو العتيرة ، وفي الحديث: هل تدرن ما العتيرة<sup>٢</sup> ، وقال تعالى: ( فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ) (البقرة: من الآية ١٩٦) .

وكانوا يذكرون عند الذبح اسم الصنم ، وغير الإسلام ذلك<sup>٣</sup> .

أبطل الإسلام الرجيبية ، كما أبطل الفرع ، وهو ذبح أول نتاج الإبل أو الغنم ، وفي الحديث: لا فرع ولا عتيره .

وعرض القرآن لذكر أوصاف بعض الأنعام ، وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وكلها معهودة في الجاهلية ووردت لفظة الهدى في القرآن الكريم في سورة البقرة وهي ما كان يهدي للكعبة ، والأمر نفسه بالنسبة للقلادة قال تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْمِلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ) (المائدة: من الآية ٢) .

كذلك البدن<sup>٤</sup> ، كانت تهدى للكعبة ، قال تعالى: ( وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ) (الحج: من الآية ٣٦)

والنسأة ، هي تعيين موسم الحج ، والأشهر الحرم، وقد أصبحت مفهوماً إسلامياً<sup>٥</sup> .

<sup>١</sup> تاج العروس : ٢٣٦/١

<sup>٢</sup> تفسير الطبري ١٣٤/٢ احمد بن حنبل ١٧٣/٢

<sup>٣</sup> تفسير الطبري ١٢/٨

<sup>٤</sup> تاج العروس : ٤٤٩/٥

<sup>٥</sup> تفسير الطبري : ١٧/١٧

الإجازة من شعائر الحج ومناسكه في الجاهلية والإسلام ، والمجيز الذي يجيز الناس من المزدلفة إلى منى .

وكان في الجاهلية المفتون الذين كانوا يجيبون على أسئلة أهل الجاهلية في الفتيا<sup>١</sup> وكان في الجاهلية زهاد ، منهم عبد الله الغفاري الملقب أبي اللحم لامتناعه عن أكل اللحم<sup>٢</sup> ، وعثمان بن مظعون الذي امتنع عن النكاح ، وصرمة المعروف بأبي قبس فقد ترهب واغتسل من الجنابة، وكان لا يدخل بيته جنب أو حائض ، وهو من السابقين في الإسلام<sup>٣</sup> . ومن هؤلاء وكيع بن سلمة الاماري صاحب الصرح فقد كان صديقاً<sup>٤</sup> اتخذ الصرح بمروره مكة فقد كان يصعد إليه ليناجي ربه، وكان يعظ الناس بالابتعاد عن الأصنام ، والصديق من قرن قوله بفعله قال تعالى (وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) (مريم: ٤١) ونسب إلى الجاهلية فتاوى عديدة أقر الإسلام بعضها<sup>٥</sup> من ذلك فتوى عامر بن الظراب في الخنثى وفتوى ذي الجاسد في الإرث<sup>٦</sup> .

وكانوا يستفتون (الاستفتاء سنة إسلامية) ومظهر ذلك أن يخرج رجل من كل بطن ثم يغتسلون ويتطيبون ويمسسون الركن ويطوفون بالبيت العتيق سبعا ، ويأتون أبا قبس ، فيدعون أعظم رجل منهم وأكثرهم تدينا ، فيستغيث إلى الله ، وقد فعل ذلك عبد المطلب جد الرسول ﷺ .

---

<sup>١</sup> المحير : ١٥٦

<sup>٢</sup> ارشاد الساري : ١٠/٨

<sup>٣</sup> تاج العروس ( صرر )

<sup>٤</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٢١٩

<sup>٥</sup> المحير ص ٢٣٦

<sup>٦</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٨٢٢

كان رجال الدين يلمسون رؤوس المرضى أو جباههم ويتفلون في فم الصبيان كل ذلك للبركة<sup>١</sup> وقد فعل الرسول ﷺ ذلك.

حرم الكثير من العرب شرب الخمر<sup>٢</sup> ، كما حرم الأقرع بن حابس التميمي لعب القمار،  
وحرم في الزنا : بن جدان<sup>٣</sup> .

ويمكن القول إن الأصنام ساعدت في نسج عرى التواشج بين العرب للأسباب الآتية :<sup>٤</sup>  
عبدت اللات من قبل الأنباط ، حيث وردت في نصوص الحجر، وصلخد وتدمر وفي أرض  
مدین عند اللحيانيين وفي نص يوناني أن اللات إله عربي<sup>٥</sup> ، وقد كان لهذا الصنم مظاهر  
التعظيم التي للكعبة كالكسوة وغيرها<sup>٦</sup>.

ونسب العرب إلى العزى فقیل عبد العزى<sup>٧</sup> ، وكانوا إذا فرغوا من حجهم إلى الكعبة لم يخلوا  
حتى يأتوا العزى ، فيطوفون بها ويحلون عندها ويعكفون يوماً ، بمعنى أن تعظيمها كان من قبل  
معظم العرب لاسيما مضر .

٥ - لقد تعبد من عرب العراق وبلاد الشام والنبط والصفويين اللات والعزى ، وقد وردت في  
نص جنوبي (امت عزى)<sup>١</sup> .

---

<sup>١</sup> صبح الأعشى ٤٣٧/١

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٢٢٥

<sup>٣</sup> د. جواد علي ، ج ٦ ، ص ٢٣٠ وما بعدها

<sup>٤</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٢٣٣ - الاصنام للكليبي ص ١٨ - المخبر ٢١٣

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٢٣٠

<sup>٦</sup> الاصنام ص ٨١٦/١

<sup>٧</sup> الأزرقى ١ / ٧٤



٦- والأمر نفسه بالنسبة لمناة - وهو صنم على بعد سبعة أميال من المدينة على ساحل البحر الأحمر فقد كان موضع تعظيم العرب جميعاً<sup>٢</sup> ، وقد سمي عند الأنباط منوتن ، كما أن الناس كانوا يسمون أبناءهم عبد مناة .

٧- وبالنسبة لهبل فقد كان يوضع وسط الأصنام في الكعبة تقديراً له ، وكانت قريش تصوم عاشوراء ، وقد صام الرسول في الجاهلية.

وأشير إلى غسل البيت في شعر للأفوه الأزدي ، وإلى تكفينه والصلاة عليه في شعر منسوب للأعشى ، وكانت قريش تحنط موتاهما<sup>٣</sup> .

وكانوا يدعون آلهتهم: ربنا آتنا غنماً وهب لنا إبلاً ، فنزلت الآية : ( فَمِنَ النَّاسِ مَنُ يَتَّخِذُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ) (البقرة: من الآية ٢٠٠) <sup>٤</sup> .

#### الفرع الثاني : الحج والعمرة

ولقد أطلقوا على شهر الحج اسم ذي الحجة - وهو ما فعله الإسلام - منذ مدة طويلة بدليل ظهوره لدى افيفانوس<sup>٥</sup> .

وأشار كبيوس وفوتيسوس إلى أن العرب جعلوا شهرين من السنة حرماً لا يغزون فيهما<sup>٦</sup> .

---

<sup>١</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٢٣٨

<sup>٢</sup> الاصنام ١٣

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٣٣٤ - المحير ٣١٩

<sup>٤</sup> تفسير الطبري ١٧٤/٢

<sup>٥</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٣٤٨

<sup>٦</sup> المرجع السابق ص ٣٤٩

ولقد اختلفت المناسك من قبيلة لأخرى إلا أن الطواف بالبيت كان ركناً من أركان الحج<sup>١</sup> ، وكان بعضهم يطوف ويده بيد الآخر وقد نهي الرسول ﷺ عن ذلك<sup>٢</sup> .

وكان الحلة يطوفون رجال ونساء وهم عراة إذ كانت المرأة تضع يداً على قبلها وأخرى على دبرها ونهى الإسلام عن ذلك ، وكان الحمس لا يزوجون بناتهم من غيرهم وكانوا لا يخفرون الذمة ولا يظلمون ، ولا يأكلون الاقط أو السمن أو الزبد عند الإحرام ، وقد نبذوا الغزو والدخول بالسبايا ، وقد أقرؤوا الضيف ودعوا إلى عبادة البيت ، وإغاثة الملهوف وتقديم الرفادة ، والانفاق على المحتاجين وأبناء السبيل .

وهذه الظاهرة لم تقم على أساس قبلي ، وإن كان معظم قريش دخلت فيها لذلك سميت مكة الحمساء<sup>٣</sup> .

ولقد نزل الذكر الحكيم ليصحح الظاهرتين السابقتين قال تعالى : ( يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَكَلِمُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ) (الأعراف: ٣١) فهنا رد على أهل الحلة والعري ، وعلى الحمس<sup>٤</sup> ، التي منعت بعض المأكولات .

وفي نظرنا إن ظاهرة الحمس مهدت لبذور الإسلام ، ولا أدل على ذلك دخول قسم من الحلة في اليهودية والنصرانية وتزندق القسم الآخر .

ولقد عرفت الجاهلية فئة الأحناف حيث أشار القرآن الكريم إليهم بأنهم لم يعبدوا الأصنام ، وليسوا من اليهود أو النصارى ، ولقد آمنوا بإله واحد ، قال تعالى : ( وَقَالُوا كُونُوا هُبُوداً أَوْ

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٣٥٤

<sup>٢</sup> صحيح البخاري ١٧٩/٢ - ارشاد الساري ١٧٧/٣

<sup>٣</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٣٦٤ - الثعالبي ثمار القلوب ٦٨

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص ٣٧٦

نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (البقرة: ١٣٥) وقوله ﷺ

: لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنفية السمحة<sup>١</sup>.

ويذكر الأخباريون أن العرب جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعي على دين ابراهيم<sup>٢</sup>.

ومن هؤلاء قس بن ساعدة ، وقد أدركه الرسول وسمعه يخطب في عكاظ خطبته الشهيرة ، وقد

حفظها عنه ، زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان يستقبل القبلة ويسجد على الأرض<sup>٣</sup> ، وكان

يقول إلهي إله ابراهيم وديني دين ابراهيم<sup>٤</sup>.

ومن مآثر النبي أنه يحب الانفراد في شعاب مكة ، وكانت تلبيته : لبيك حقاً حقاً تعبداً ورقاً

، وقد قال عنه الرسول ﷺ يبعث أمة وحده يوم القيامة<sup>٥</sup>.

ومن هؤلاء أيضاً عثمان بن الحويرث وأمّية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل ووكيع بن سلمة

الاماري .

أما أحكام الحنفية فهي: الإيمان بآله واحد، الحج وطواف البيت ، العمرة ، الوقوف على

عرفة، الإهلال بالحج والعمرة<sup>٦</sup>.

وكانوا دعاة مثقفون نادوا بالإصلاح ورفع مستوى العقل والرجوع إلى الفطرة<sup>٧</sup>.

وقد عبد بعضهم الرحمن<sup>٨</sup>.

---

<sup>١</sup> اللسان : ٢٩٩/١

<sup>٢</sup> مسند ابن حنبل ١١٦/٤

<sup>٣</sup> اللسان ٤٠٣/١٠ - بلوغ الأرب ١٩٥/٢

<sup>٤</sup> المرجع السابق ص ٣٧٦

<sup>٥</sup> المحبر ص ١٧١ ، جواد علي ، ج ٦ ، ص ٤٦٤

<sup>٦</sup> البغدادي : الخزانة ٩٩/٣ - الذهبي : تاريخ الإسلام ٥٤/١

<sup>٧</sup> البخاري ٥٠/٥ - الأغاني ١١٧/٣ - الاشتقاق ٨٤ - ارشاد الساري ١٧١/٦

لقي الرسول عامر بن صيفي المعروف بالراهب (للبسه المسوح) فسأله ما هذا الذي جئت به، فقال الرسول ﷺ جئت بالحنفية فقال : أنا عليها ، فقال الرسول ﷺ : لست عليها، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها وسماه الفاسق<sup>٢</sup> .

---

<sup>١</sup> بلوغ الأثر : ١٩٦/٢

<sup>٢</sup> جواد علي ، ج ٦ ، ص ٤٥٧ - الإصابة ٥/٣ الاسيعاب ٤٩١/٢ - معجم البلدان ٦٤/٩

### الفروع الثلاثة : القسم والتلبية وبعض الضعائر

وكان لكل قبيلة تلبيتها، وفيما يلي بعض هذه التلبيات: <sup>١</sup>

- تلبية فريش: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك - لا شريك هو لك تملكه وما ملك.
- التلبية للعزى: لبيك اللهم لبيك، ما أحب إليك.
- التلبية لود: لبيك اللهم لبيك معزة إليك.
- التلبية لذى الخلصة: لبيك اللهم لبيك بما هو واجب إليك <sup>٢</sup>.
- أما التلبية الإسلامية فقد أصبحت: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك <sup>٣</sup>.

وذكر الأخباريون أن قوماً من المسلمين قالوا: يا رسول الله لا تطوف بين الصفا والمروة لأنه كان عليها الصنمان أساف ونائلة <sup>٤</sup>،  
فأنزل الله ﷻ: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ} البقرة/١٥٨

ورأى أحد الصحابة رسول الله يقف بعرفة وأنكر ما رأى لأنه من الحمى، وما كان يظن أنه يخالف قومه فيساوي نفسه بسانن الناس <sup>٥</sup>،  
فأنزل الله ﷻ: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ...} البقرة/١٩٩

ويذكر الأخباريون أن قصي بن كلاب أوقد النار على المزدلفة حتى يراها أهل عرفة واستمرت هذه السنة في الإسلام <sup>٦</sup>.

وكان المشركون لا يفيضون حتى تطلع الشمس، فأفاض المسلمون قبل طلوع الشمس <sup>٧</sup>.

<sup>١</sup> المحبر ص ٣١٣.  
<sup>٢</sup> البغوي ١/ ٢١٥.  
<sup>٣</sup> البخاري كتاب الحج الحديث ١١ - عمدة القارئ ٢٧٢/٩ - بلوغ الأرب ٢/ ٢٨٨.  
<sup>٤</sup> حواد علي ١ ح ٦ ص ٣٨٠.  
<sup>٥</sup> إرشاد الساري ٣/ ٢٠٠ - تفسير الطبري ٢/ ٢٩٦ - تفسير ابن كثير ١/ ٢٤٢.  
<sup>٦</sup> حياة الأرب ١/ ١٠٩ - صحح الأعدنى ١/ ٤٠٩ - الأوزمي ٣٦٠ - ابن هشام ص ٧٧ - ابن سعد ٧٢/٣.  
<sup>٧</sup> إرشاد الساري ٣/ ٢١٠.

ومن الشعائر المتعلقة بمنى نحر الذبائح وهي الأضحية في الإسلام  
والتعائر في الجاهلية كانوا ينحرونها على الانصباب وعلى مقربة من  
الأصنام .

وسمي التشريق ذلك لأن الهدى لا تنحر حتى تشرق الشمس<sup>٢</sup> .

وإذا قضاوا مناسكهم، وفرغوا من الحج كانوا يجتمعون ليتفاخروا،  
فنزل الوحي: {فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْخُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ  
أَشْدَّ نَكْرًا} البقرة/٢٠٠/١

وكانوا لا يتبايعون حتى يقضوا الحج، فنزلت الآية: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ  
جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} البقرة/١٩٨/٣

ولقد أفاد أهل مكة كثيراً من مواسم الحج، قال عنه: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا  
الْبَيْتِ\* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ} سورة قريش

ومن أهم أركان الحج عند الجاهلين نظافة الجسم والثياب، فقد كانوا  
يلبسون لباساً خاصاً وجديداً هي الإحرام.

### الفروع الرابع : بيوت العبادة

وهذه الشعائر نفسها موجودة لدى الأنباط كما كان لديهم ينسرفي  
معبدهم يستقون منه، تشبه سوق عكاظ ولهذا أطلق الجاهليون اسم  
الكعبة على البيت المربع، وكان لربيعة بيت يطوفون به يسمونه  
الكعبات، قال الشاعر: والبيت ذي الكعبات من سندان، أما المسجد  
فهو كل موضع يتعبد به، وذلك في لغة بني آدم والنبطية والصفوية<sup>١</sup>.

وأطلق الديدانيون على البيت (بعل سمن) لفظة أحرم، والحرم أي  
المسجد الحرام تمجيذاً وتعظيماً له يقول الشاعر: فبني والذي حجت  
قريش: محارمه وما جمعت حراء<sup>١</sup>.

1 ابن هشام، ص ١٠٠  
2 تاج العروس ٣٩٣/٦  
3 تفسير الطبري ٦١٤/٢  
4 اللسان ٧١٨/١ - المفردات ٤٤٦ -  
5 تاج العروس ٣٧١/٢ (سجد) اللسان ٥٤/٣  
6 جواد علي، ج ٦ ص ٤٠٢

ولقد تحنث الرسول في أبي قبيس ومن حجارته بني البيت<sup>١</sup>.

وذكر ابن هشام أن أبا قبيس يسمى الأمين لأن الركن (الحجر الأسود) كان قبة وقد استودعه الله ذلك زمن الطوفان، فلما أقام إبراهيم قواعد البيت جاء بالحجر الأسود، والظاهر أن بيتاً للعبادة كان عليه، وهذا يؤكد الصلة بالبيت العتيق ويؤكد عراقية الجذر العربي في صلته بالإسلام من خلال الصلة بين ديانات العرب القديمة - وقد تكون توحيدية - بالبيت العتيق.

ولقد أطلقت الكتابات النبطية كلمة حرم على معبد الإله ذي الشرى، وقد تردد هذا الاسم في بقية أرجاء الجزيرة العربية.

وإذا لجأ إلى الحرم شخص أحدث حدثاً كان آمناً وسمى ضرورة، كما منع الصيد في هذا الحرم، من ذلك حمى اللات في الطائف ووادي مكة الذي هو حمى لرب البيت.

ولقد سمي معبد ذي الشرى في النبطية بيت الرب، وهذا يذكرنا باستعمال رب البيت في الجاهلية أو رب البيت وهو مفهوم إسلامي<sup>٢</sup>.

وكان للعرب كعبات مثل معبد ذي الشرى بالبتراء وكعبة سندان وكعبة نجران، وإن كعبة ذي الشرى لم تكن خاصة بالأنباط، بل لغيرهم من العرب، كذلك فقد بنوا بيوت الأصنام الكبرى على هيئة كعبة مربعة<sup>٣</sup>، حيث التكعيب يعبر عن التجريد الذهني الذي يتسق مع فكرة التوحيد.

وصيروا في المعبد مذبحاً سموه النصب، ولقد حرم القرآن الكريم ما ذبح عليه، قال تعالى: ﴿وما ذبح على النصب... المائدة/ ٣﴾.

وسموا خدم المعابد السدنة، وسموهم في الجنوبية (رشو)، وكانت السدنة في الكعبة لبني عبد الدار، وأقرهم الرسول عليها<sup>٤</sup>.

وكان في الكعبة صور الأنبياء وصور للشمس والملائكة، فلما كان يوم الفتح أمر الرسول ﷺ بثوب فأخذ يطمس الصور ما عدا صورة

<sup>١</sup> المرجع السابق ص ٤٠٤ الأزرقى أخبار مكة ٢٦/١

<sup>٢</sup> المفردات ١١٣

<sup>٣</sup> جواد علي، ج ٦ ص ٤٣

<sup>٤</sup> اللسان ١٤/ ١٩٩

عيسى وأمه، ثم نظر إلى صورة إبراهيم وقال: قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالآزلام<sup>١</sup>.

وكان للحجر الأسود منزلة تفوق الأصنام بدليل اختلافهم حول وصفه<sup>٢</sup>.

وكسوة الكعبة تقليد قديم يمتد إلى تبع أسعد الحميري، الذي كساها بأعلى الأتواب<sup>٣</sup> وكانوا يكسونها في عاشوراء<sup>٤</sup>.

### الفرج الخامس: تسخير عالم الأرواح والجن والشياطين والصحر وتغيرها

وكان لعالم الأرواح، وكل ما لا تراه العين أثر في عقائد الجاهلية حتى أنهم صوروا وجود قوى خارقة في الأحجار- والأشجار- والابار- والكهوف.

لذلك فقد نسبوا للجن أعمالاً لم ينسبوا إلى الأرباب<sup>٥</sup>، بل جعلوا للجن نسبا مع الله، قال عليه السلام: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا...} {الصافات/١٥٨}.

كما جعلوهم شركاء لله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ...} {الأنعام/١٠٠}.

واعتقدوا أن الله تزوج الجن، وأن الملائكة بناته<sup>٦</sup> لذلك فقد عبدوهم، قال عليه السلام: {... بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون} {سبا/٤٦}.

واعتقدوا أن الجن تقتل الإنسان وهذا ما اعتقده المسلمون، كما في مقتل سعد بن عبادة، يقول الشاعر<sup>٧</sup>:

ورميتاه بسهمين فلم تخطى فؤاده

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ويعرض الجاحظ إلى موضوع زواج الإنس من الجن والعكس<sup>٨</sup>.

١ البلدان ١٥٠/٥  
٢ حواد علي، ج ٦ ص ٤٣٧  
٣ الأزرقى ١/١٦٥  
٤ حواد علي ج ٦ ص ٤٤٣  
٥ المرجع السابق ٧٠٩  
٦ المرجع السابق ٧٠٩  
٧ لياب النقول في أسباب التزول للسيوطي ٨١/٢  
٨ الحيوان: ٢٠٩/٦



وكانوا يستجيبون بالجن، فيقولون: نعوذ بأعز أهل هذا المكان<sup>١</sup>.  
وقال عليه السلام: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ مَنْ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}...<sup>٢</sup>

ويروى أن عمر بن الخطاب سأل المفقود الذي استهوته الجن قائلاً:  
ما كان طعامهم، قال: الفول، قال فما كان شرابهم، قال: الحنق<sup>٣</sup>.

وكانوا يكفنون ويدفنون الحية لأنها من الجن، وهذا ما جعله عمر بن  
عبد العزيز في حية وجدت في القلاة<sup>٤</sup>، وفي حديث آخر: من خشى  
خبثهن وشرهن وارتهن فليس منا<sup>٥</sup>.

والحيات شياطين، وقد أطلقوا اسم رؤوس الشياطين على شجر  
الصوم، وهو شجر كرية المنظر، وقد ورد هذا التعبير في القرآن<sup>٦</sup>.

واعتقدوا أن الشياطين تملي على الشاعر شعره، وزعم حسان بن  
ثابت، أن شيطانه يلهمه الشعر وهو من بني شيبان<sup>٧</sup>.

وكان خط المسند هو السائد في الجزيرة العربية لكن الخط الأرمسي  
تغلب عليه بسبب سهولته، ولما جاء الإسلام كتب الوحي بقلم أهل  
مكة الأرمسي، وبذلك قضى على المسند<sup>٨</sup>.

لقد أسماوا المحبرة (ن)، وبذلك فالقسم {ن\* وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْتَفْرِوْنَ}  
القلم<sup>٩</sup>./ تعني الدواة والقلم<sup>١٠</sup>.

ولقد كتب الجاهليون على العصب (حرب النحل) وكتب الحيوان  
والجلود البيضاء (العظم) والرقاق<sup>١١</sup> قال عليه السلام: {وَالطُّورِ\* وَكِتَابِ  
مَسْطُورِ\* فِي رِقِّ مَشْشُورِ} الطور<sup>١٢</sup>/٣-١.

١ جواد علي، ج ٦ ص ٧١٥

٢ المرجع السابق، ص ٧٢٠

٣ الحيوان ٢١٠/٦

٤ اللسان ٩٥/٢

٥ تاج العروس ١٤٥/١

٦ تاج العروس ٣٧٢/٨

٧ جواد علي ج ٨، ص ١٥٣

٨ اللسان ٤٣٧/١٣

٩ جواد علي ج ٨ ص ٢٥٩ - تاج العروس ٥٢٩/٦ - الطبري ١٩٣/٣ - الفائق ١٥٠/٢

واستعملوا الكراتيف والكرب مادة للكتابة، ولقد استعمل كتابة السوحي ذلك<sup>١</sup>.

وأطلقوا كلمة المصحف على الجامع للمصحف المكتوبة<sup>٢</sup>.

ولقد نهى الرسول ﷺ عن شراء الصكوك، وذلك أن الأمراء كانوا يكتبون كتباً للناس بأرزاقهم وأعطياتهم فيبيعون ما فيها قبل أن يقبضوها<sup>٣</sup>.

ولقد أشير في القرآن الكريم إلى الكاتب بالعدل، وهو كاتب العهد عند الجاهليين.

وابتدوا كتبهم بعبارة باسمك اللهم التي ابتدعتها أمية بن أبي الصلت، ولقد اتبعتها الرسول بادي الأمر ثم أبدلت بعبارة: باسم الله بعد نزول سورة هود ثم بسم الله الرحمن الرحيم بعد نزول ﴿وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾<sup>٤</sup> / ٣٠.

وكان التقليد لديهم أن يبدؤوا كتاباتهم بعبارة: من فلان إلى فلان، ونجد ذلك في كتب الرسول.

وزعمت قریش أن الذي كان يعلم الرسول رجيل رومي، وقد رد القرآن على ذلك في قوله ﷺ: ﴿لِسَانَ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي﴾<sup>٥</sup> / ١٠٣.

ولقد ذهب شبر نكر إلى وجود صحف إبراهيم عند الجاهليين، وإن الرسول قرأها وأخذ منها، كما زعم أنه قرأ كتاب لدى الجاهليين اسمه: أساطير الأولين<sup>٦</sup>.

وفسر بعضهم الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾<sup>٧</sup> لقمان/٦.

١ تفسير الطبري ٦٣/١ - الفائق ١٥٠/٢

٢ المفردات ٢٧٦ - تاج العروس ١٦١/٦

٣ اللسان ١٠ / ٤٧٥ (مكلاان) - مفاتيح العلوم ص ٣٨ تفسير الطبري ٥٩/١٥

٤ بلوغ الأرب ٣٧١/٣ - جواد علي ج ٨ ص ٨٧٩

٥ الجهنشباري ص ١٢ - أدب الكتاب للصولي ٣١ - الأغاني ٣٢٣/٢ - تفسير الطبري ٥٩/١٥

٦ الجامع: ١٩٢/١٣

٧ يراجع في الرد على ذلك جواد علي ج ٨ ص ٣١٩

٨ يراجع في الرد على ذلك جواد علي ج ٨ ص ٣١٩

فسروا ذلك بأنها نزلت في قوم كانوا يشتركون الكذب من أخبار السحر والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن الكريم.<sup>١</sup>

وبخصوص مفهوم الحكمة، فقد وردت في القرآن الكريم بمعان متعددة منها الإصابة في القول والفعل<sup>٢</sup>

ويؤكد الدكتور جواد علي التشابه بين الحكمة المنسوبة إلى أجيقلر والحكمة الجاهلية.

ولقد استعمل المذكور عبارة يا بني المستعملة في القرآن على لسان لقمان، هذا الحكيم الذي له تقدير لدى العرب<sup>٣</sup>.

و(إبليس الأباليس) كان يلقي على جرير بالشعر<sup>٤</sup>.

ولقد كنوا الشيطان بالشيخ النجدي، واعتقدوا أن قرن الشيطان يطلع من نجد، وجاء في الحديث: إن الشمس تطلع بين قرني الشيطان.

وزعم الكهان أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فيخبرونهم عن أمور الأرض، وذكروا أن النجوم تقذف الشياطين<sup>٥</sup>.

وكلمة إبليس كلمة يونانية (ديابوليس) نفذت إلى العربية، واستعملت بمعنى الشيطان<sup>٦</sup>.

ومن أسماء إبليس فترة، ومن المجاز أبو فترة، وجاء في الحديث: نعوذ بالله من الأعميين، ومن فترة (الاعميان: الحريق والسيل).

والفترة هي الحية التي لا ينجو سميها<sup>٧</sup>، كما إن القرآن استعمل هذه الكلمة بقوله عز وجل: {ترهقها فترة} عن ٤١/١.

ولقد فسر بعضهم كلمة الجبت القرآنية بمضى السحر والكهانة والأصنام وكل ما يعبد دون الله<sup>٨</sup>.

١ العقد الفريد ٩/٦

٢ تفسير الطبري ٤٣١/١

٣ ج ٨ ص ٣٤١

٤ البيان والتبيين ١٨٤/١

٥ النعماني: مآثر القلوب ص ٦٩ - الخيران ٢٢٥/٦

٦ تاج العروس ٣٠٦/٩ (قرن)

٧ الروض الأنف ٣٥/١

٨ اللسان: ٢٢٥/٥

٩ اللسان: ٧٣/٥ - تاج العروس ٤٨/٣

١٠ المفردات ٨٣ - تاج العروس ٥٣٥/١ - شمس العلوم ج ١ ص ٢٤٤

ووردت مشتقات كلمة سحر في مواضع متعددة من القرآن، وهذا يدل على تأثير السحر على الجاهلية، وكان أكثر السحرة في الجاهلية من اليهود يقصدون من كل فح عميق، وهذا الدور للسحر يظهر في قوله تعالى: {...فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ...} البقرة/١٠٢.

ومن طرق السحر التي يبيحها لهم النفث في العقد<sup>١</sup>، وقد أشارت إلى ذلك الآية: {ومن شر النفثات في العقد} الطلاق/٤، وسبب نزول هذه الآية الكريمة أن لبيدا بن المعصم اليهودي سحر الرسول، ودس ذلك السحر في بئر لبنى زريق<sup>٢</sup>.

والنشرة رقية يعالج بها المجنون والمريض، وفي الحديث، إنها من عمل الشيطان والجبب والطاغوت فهي معرفة المغيبات أو الكهانة، قال ﷺ: {...يؤمنون بالجبب والطاغوت...} النساء/٥١.

ولقد اتهمت قريش الرسول ﷺ بأنه كاهن فرد عليهم القرآن بقوله: {فذكر فما أنت بنعت ربك بكاهن ولا مجنون} الطور/١٢٩. ونهى الرسول ﷺ عن سجع الكهان بقوله: أسجع كسجع الجاهلية<sup>٣</sup>.

ولقد عبروا عن العين التي تصيب بالنفس، وفي الحديث، أنه نهى عن الرقية إلا في النملة والخمة والنفس، ولقد نهى الرسول ﷺ عن الرقية التي تكون بلسان غير عربي بسبب لجونهم إلى الكهان اليهود<sup>٤</sup>.

ولاذ الجاهليون بالتمائم، ولقد اعتبرها بعض الصحابة من الشرك<sup>٥</sup>.

ونهى الإسلام عن أمور في الجاهلية مثل التنجيم والقرعة والعيافة والزجر وحرم القرآن الكريم الاستقسام بالأزلام، قال ﷺ: {وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ نَذْرٌ لِّلْمَالِدَةِ} المائدة/١٠٤.

1 جواد علي، ج ٦ ص ٧٤٠  
 2 عمدة القارئ ٢١/٢١٣ - الطبري: ٢/٤٣٩ - العقد الفريد ٦/٧٦ - تفسير الرازي ص ١٧ - سنن ابن ماجه ٣/١١٧٣ - روح المعاني ٣/٢٨٢.  
 3 الكشف ٤/٢٤٤ - تاج العروس ١/٦٥٠ (نفث)  
 4 الطبري ج ١، مجلة ص ٥٦٨ - إرشاد الهادي ٨/٤٠٢  
 5 تاج العروس ٣/٥٦٦ - الحيوان ٤/١٨٥ - اللسان ٥/٢٠٩ نشر  
 6 الطور/ ٢٩ - تفسير الطبري ٢٧/١٨  
 7 البيان والتبيين ١/٢٨٧  
 8 تاج العروس ٤/٢٥٩ (نفث)

والطرق الضرب بالحصى لمعرفة المستقبل، أما العيافة فهي التنبؤ من خلال ملاحظة حركات الطيور.

وللأحلام دور كبير في حياة الجاهلية، وهي ما يراه المرء مزعجاً في نومه على عكس الرؤية، ولقد صنف المسلمون في ذلك كتباً عديدة أهمها مؤلف ابن سيرين

### الفهرج السادس : الطيرة

- وكانوا إذا وجدوا الطير يطير عن يمينهم تيمنوا والعكس، لذلك كانوا يفتعلون تحريك الطائر إذا عزموا على أمر، وكان الرسول ﷺ يتفاعل وقد خاطب الناس بقوله: أقرؤا الطير على مكنتها، ولا تزجروها<sup>١</sup>.
- والغراب لديهم رمز الشؤم، قال ﷺ: اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك<sup>٢</sup>.
- ونسب إلى الرسول حديث حول ذلك<sup>٣</sup>، لكن عائشة رضي الله عنها فسرتة بأنه على سبيل الحكاية<sup>٤</sup>.
- والعطاس والتثاؤب اعتبرها الجاهليون من عمل الشيطان، قال ﷺ: إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب.
- ولقد رددوا عند الخوف عبارة: حجراً محجوراً، وورد هذا التعبير في القرآن الكريم.

### الفهرج السابع : الإقتصاد

قلنا إن الجاهلية خبرت كافة أبعاد الحياة وجوانبها، ولقد عثر على صورة مكتوبة بالمسند تصور حارثاً يتألق بالمرح وقد شد وسطه

<sup>١</sup> شرح الإمام النووي على سنن مسلم ٣٩/٩ - إرشاد الساري ٣٩١/٨ - سنن أبي داود

<sup>٢</sup> ١٠٠/٤ - اللسان ٣٢/١٤

<sup>٣</sup> جامع الأصول ٤٥٨/٨ - أمالي المرتضى ٢٠٢/٢

<sup>٤</sup> الأصول ٢٩٦/٨ - عنده القارئ ٢٨٩/٢٠

<sup>٥</sup> اللسان ٢٣٦/٦ ص ٩٣

<sup>٦</sup> جامع الأصول ٣٩٩/٧

إرشاد الساري ٧٣/٥

بحزام، وأمسك بيده اليسرى الحبل المتصل بالمحراث، وباليمينى آلة من خشب يستعملها في ضرب ثوري المحراث<sup>١</sup>.

وجاء في الحديث أن الرسول ﷺ تحدث إلى الصحابة عن الجنة، وعن رجل زرع في الجنة، وكان بينهم رجل أعرابي فلما اتته الرسول قال الأعرابي، والله لا نجده إلا قرشياً أو أنصاريًا، فهم أصحاب زرع (٧)، وهذا لا شك صعود تاريخي لصالح العمل الزراعي وتهميش للأعرابية.

وروى عن أبي أمامه الباهلي أنه رأى شيئاً من آلة الحرث، فقال: سمعت النبي يقول: لا يدخل هذا بيت قوم إلا نلوا لما يترتب عليهم من المطالب القاسية للولادة.

وينصح الموقف الحاسم من الزراعة في قوله ﷺ: ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة.

وكانت اليمامة وهي أحسن بلاد الله خيراً وشجراً ونخيلاً - مركز تموين قريش بالحبوب، وقد أسلم أميرها فاتبه المشركون على صوته فقال لهم: أقسمت لا يصل إليكم من اليمامة شيء حتى تتبعوا محمداً، فجاجعوا متشفعين طالبين الميسرة المقطوعة، فكتب إليه الرسول أن حل بين قومي وبين ميرتهم، ونترك للقارئ تقدير الأبعاد السياسية والإنسانية لهذا الخبر في حين نرى السلطات السياسية في العالم تقاطع مقاطعة اقتصادية وكاملة العدو، كما فعل اليهود بأهل غزة.

وتطلق لغة المسند كلمة البر على الحنطة وكذلك في القرآن الكريم<sup>٥</sup>، وهذا العمق اللغوي دليل على الخلفية الثقافية الواحدة للأمة.

وذكر عن الرسول قوله: خير المال سكة مأبورة، أراد النخيل<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> الصاحبي ص ٩٣

<sup>٢</sup> إرشاد الساري ١٩٠/٤

<sup>٣</sup> إرشاد الساري: ١٧٢/٤

<sup>٤</sup> صحيح البخاري، كتاب الزراعة - صحيح مسلم، البيوع زاد المسلم ٣٣/٢ - ١٢ - الاستيعاب

<sup>٥</sup> ٢٠٦/١ - الإصابة ٢٠٦/١ - الإصابة ٤/١ صحيح البخاري - كتاب الصلاة - صحيح مسلم -

<sup>٦</sup> باب الجهاد - زاد المسلم ٢٧٨/٢

عمدة القارئ: ١٥٩/١٢

<sup>٦</sup> جواد علي، ج ٧ ص ٦٧.

ونهى الرسول ﷺ عن كسر شيء من أغصان الإيدع والشبهان لأنها مقدسة عند العرب بسبب ظلالها التي يلجأ إليها من الحر والقر<sup>١</sup>.

ولقد فسروا كلمة شجرها الواردة في قوله ﷺ: {أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَجْنُ الْمُنْشَوْنَ} الواقعة<sup>٧٢/</sup>، بأنها شجر المرخ<sup>٢</sup>، كما فسروا عبارة {وَطَلِحَ مَنُضُودٌ} الواقعة<sup>٢٩/</sup> بأنها الطلع<sup>٣</sup>.

والأيكة هي الشجر المتلف، ولقد استعملها القرآن بهذا المعنى في سورة الحجر والشعراء وص وق.

ولقد أكلت الجاهلية الجراد ولقد أكله الرسول والمسلمون<sup>٤</sup>.

وعرفت الجاهلية المراعي العامة لجميع أهل القبيلة (الحمى)، ولقد أخذ الإسلام بذلك فيما يتعلق بالمراعي قال ﷺ الناس شركاء في ثلاثة: الماء والنار والكلاء<sup>٥</sup>.

ولم يكونوا يبيعون الإبل النجيبة، ويسمونها الحرائر جاء في الحديث: لا تأخذوا من حرزات أموال الناس شيئاً.

ولقد سموا العوامل البقر والإبل التي كانوا يشتغلون عليها، وفي حديث الزكاة: ليس في العوامل شيء، ولقد استعمل العرب والمسلمون العسل في التطبيب كما يتضح من كتب الحديث<sup>٦</sup>.

ولقد أطلقوا كلمة العركي لصياد السمك، وفي الحديث: عليكم ربع ما أخرجت نخلكم وربع ما صارت عروكم<sup>٧</sup>.

ولم يتذوقوا أهل الجاهلية أكل لحم الخنزير وحرمة بعضهم ومنهم الأحناف ونسب ذلك إلى سنن إبراهيم، وقد عيروا نصارى العرب بذلك<sup>٨</sup>.

١ تاج العروس ٥/٥٦١.  
٢ تاج العروس ٣/٤١٣.  
٣ تاج العروس ٢/١٩٠ طلع.  
٤ إرشاد الساري ٨/٢٧.  
٥ الأحكام السلطانية ٢٠٨.  
٦ حواد علي ج ٧ ص ١١٨.  
٧ تاج العروس ٧/١٦٧.  
٨ حواد علي ج ٧ ص ١٢٤.

ولقد أخذوا الكرارير على ضراب العجل (نزو العجل على الناقاة)،  
واعتبر الإسلام ذلك من السحت<sup>١</sup>.

ولقد وضعوا علامات على الحدود بين الدور والأرضين وسميت  
الجمار، وفي الحديث: إذا وقعت الحوامد فلا شفعة في الحدود<sup>٢</sup>.

وكان الرجل في الجاهلية إذا أصلح أرضاً ميتة أصبحت له، وفي  
الحديث: من أحيا أرضاً ميتة فهي له.

ولقد أشارت نصوص المسند إلى نظام الإقطاع، ويشمل الموات  
والعامر والمعادن، حيث أقطع الحكام ذلك، وإن كان العرب لم يعرفوا  
العبيد المرتبطين بالأرض، ولقد أطلق المسند على الإحماء لفظة  
نحمت ومحسم<sup>٣</sup>.

وفي كتب السير والتاريخ أن الرسول ﷺ أقطع بعض سادات القبائل  
ورؤساء الوفود، وكتب لهم بذلك، فقد أعطى للزبير ركض فرسه من  
موات النقيع (النقيع)<sup>٤</sup>، وأقطع الأبيض بن حماده بلح مارب<sup>٥</sup> ووائل  
بن حجر أرضاً بحضرموت<sup>٦</sup>.

وكان الشريف يستعوي الكلب فيحمله له مدى عواء هذا الكلب  
ويسمى الحمى، ولقد نهى الرسول عن ذلك إلا لخير المسلمين، ولقد  
حمى الخليفة عمر النقيع لنعم الصدقة والخيل المعدة في سبيل الله<sup>٧</sup>.

والملك في العربية الجنوبية - كما في الإسلام - لله، أما المشارك  
فهو الخليط وفي الحديث: ما كان من خليطين فإتھما يتراجعا بينهما  
بالسوية<sup>٨</sup>.

وهناك تقليد عربي وسامي بتقدیس الآبار والعيون ولقد قدس الإسلام  
بئر زمزم

١ تاج العروس ٣٤٦/١ (ضرب) - زاد المعاد ٣٥٧/٤

٢ تاج العروس ٣٢٥/٢ حد

٣ ابن سعد: الطبقات ٢٨٨/١ - جواد علي، ج ٧ ص ١٥٢

٤ الأحكام السلطانية ص ١٩٠

٥ جواد علي، ج ٧ ص ١٤٧

٦ إرشاد الساري ٢١٠/٤

٧ تاج العروس ٩٩/١٠ حمى

٨ تاج العروس ١٣٣/٥ (خليط)

٩ جواد علي، ج ٧ ص ١٥٨



والشريعة هي مورد الشاربية، ولا تسمى كذلك إلا إذا لم يكن فيها انقطاع، وفي المسند مشترعن .

وإذا انحسب المطر تقربوا إلى الآلهة بتقديم القرابين والصلوات وإيقاد النار وسموا هذه الصلاة صلاة الاستسقاء، وقد أبقاها الإسلام وأبطل إيقاد النار .

وأطلقت لغة المسند كلمة ذن م م على المطر، وفي القرآن الكريم: {أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ} الواقعة/١٩١. وكان أهل يثرب يغرسون الشجر على جانبي النهر ويسمونه السعيد وفي الحديث: كنا نزرع على السعيد .

وأطلق أهل اليمن على ساقية الماء والجدول الصغير لفظ (الفيل) وفي الحديث: ما سقي بالفيل ففيه العشر .

وكان يحدث نزاع أثناء شح المطر بين أهل الأرض العالية والواطنة، وقضى الرسول ﷺ أن لأهل النخل إلى العقبين ولأهل الزرع إلى الشراكين، ثم ترسل الماء إلى الأسفل .

ويقال للماء الجاري القائم (العد)، ولقد نهى الرسول ﷺ عن إقطاع الأعداد .

ونهى الرسول ﷺ عن المحافظة والمزارعة والمواكلة لما كان يقع حولها من نزاع، قال: من كانت له أرض فليرزعها، فإذا لم يفعل فليمسك أرضه .

ولقد نهى الرسول عن بيع المحاقلة وهي بيع الطعام في سنبله .<sup>٧</sup>

كما نهى عن المزابنة وهي بيع التمر في رؤوس النخيل وبيع الزبيب بالكرم، وبيع الحصى والمنافسة النسبية وبيع الشخص على بيع أخيه وبيع التلقي للركبان بسبب ما يتمتع به من المجازفة.

١ حواد علي ج ٧ ص ١٥٨  
٢ تاج العروس ٥٤/٣ - بلوغ الأرب ١٦٤/٢  
٣ تاج العروس ٥٣/٨  
٤ تاج العروس ٦٢٠/٣ (هزر) - البلاذري، فوح ٢٤  
٥ جامع الأصول ٢٢٨/١١  
٦ عمدة القارئ: ١٢ - ١٨٠ - تاج العروس ٣٦٨/٥  
٧ إرشاد الساري ١٨٠/٤  
٨ عمدة القارئ ٢٦٠/١١ - القاموس ٢٣٠/٤ - تاج العروس ٢٢٤/٩ (زين)

يتبين من كتب التفسير والحديث والأدب والأخبار والسير أنه كان للعرب وخاصة أهل مكة خبرة في تنمية الأموال واستثمارها واستقلالها، وهذا ما يتضح من النص الذي أصدره الملك شهر هلال بن بدع اب في تنظيم التجارة، حيث أخذ شكل إعلان أو مرسوم ملكي موجه إلى التجار من أهل قُتبان والغرباء<sup>١</sup>.

ولقد وصف الجاحظ أهل مكة فقال: كانوا أهل حمس ديانين فترفعوا عن الغزو لأن فيه استحلال الأموال والفروج، ولم يعتريهم بخل التجار فأعطوا الشعراء وطعموا الفالوذج، وكانوا لا يخرجون إلا من دار الندوة: دار الرأي والحكمة ومجلس أهل المال<sup>٢</sup>.

وفي القرآن الكريم الآيات الكثيرة عن البيع والقروض والرهن والشركات والتكاتب والتعامل التجاري..

وكان الرسول ﷺ يخطب يوم الجمعة، وصادف ذلك مجيء قافلة من بلاد الشام، فأخذ المصلون يتسللون، فويخهم الله<sup>٣</sup>، في قوله: (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها...)<sup>٤</sup> الجمعة/٨١.

ولقد أبطل الرسول ﷺ ربا العباس وفضل كان يضاف على رأس المال<sup>٥</sup>.

والصفقة عند العرب هي البيعة، ووصفت بذلك لأنهم كانوا يتصافقون بالأيدي، وفي حديث ابن مسعود: صفتان في صفقة ربا<sup>٦</sup>.

ولقد عين الخليفة عمر أشخاصاً للإشراف، وكان المأ في الجاهلية يشرفون على ذلك<sup>٧</sup>، وكان هنالك قوم يستحلون المظالم (سموا المحليين)، وظهر قوم من أهل مروءة يقاومون ذلك سموا (الذاده)<sup>٨</sup>.

وأهم أسواق العرب: عكاظ وذو المجنة وذو المجاز، ولقد دعا الرسول فيها إلى الإسلام<sup>٩</sup>، وهذه الأسواق مجامع أهل اللسان من شعراء وخطباء ومواضع لعقد العقود والمعاهدات وإعلان التبني

١ جواد علي، ج ٧ ص ٢٣١

٢ جواد علي ج ٧ ص ٢٩٠ - ابن سعد: الطبقات: ٧/١ كتاب البلدان ٤٦٧

٣ تفسير الطبري: ٦٦/٢٨ - تفسير ابن كثير ٣٦٦/٤ - مسند الامام أبي حنيفة ص ٧٣

٤ الإصابة ٢٨٠/٢

٥ تاج العروس: ٤٠٦/٦ ص ٤٠٦

٦ جواد علي، ج ٧ ص ٣٦٩

٧ البيهقي: ٢٤٠/١ - جواد علي، ج ٧ ص ٣٧٠

٨ البكري ٢٥٩/٥ - ابن كثير: البداية ١٤١/٣

والخلع وساحات محاكم، وقد اختص بنو تميم في ذلك وأهم رجالها الأقرع بن حاسب<sup>١</sup>.

وكانوا يشهدون ويكتبون في البيوع وأكد القرآن الكريم ذلك: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ...﴾ البقرة / ٢٨٢

عرفوا العربون وأسماء المسند به (ودعت) كما سمي العربون، وهو أن يدفع الشاري مبلغاً من أصل قيمة المبيع وبعد مدة يراجع الشاري وإلا أصبح حقاً للبائع، وقد نهى الرسول عن ذلك<sup>٢</sup>.

عرفوا المنحة، وهي الناقة أو الشاة تعطى للصديق لمدة يعيش من إنتاجها ثم يردها وفي الحديث: المنحة مردودة والعارية مؤداة<sup>٣</sup>.

عرفوا السفتجة وهي كتاب صاحب المال لو كيله أن يدفع ما لا قراضاً يأمن به من خطر الطريق ونهى الرسول ﷺ عن قرض ما يجرنفعاً<sup>٤</sup>.

ولقد عرفوا الصرف، وهو بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة، وأحدهما بالآخر، وقد أجاز الرسول ﷺ القرض وكان يبدأ بيد في المجلس ونهى عن نسائه<sup>٥</sup>.

وكان إذا حل الأجل طلب الدائن أن يزيده، فيؤخره قالوا نزيدكم وتؤخرون، ونهى الرسول ﷺ عن ذلك<sup>٦</sup>، كما نهى عن الأكل في آنية من الفضة والذهب ولبس الحرير والملابس المقصبة بالذهب وحل الديباج، كما حرم كنز الفضة والذهب<sup>٧</sup>.

وكانوا يكتبون الدين ورياه في صحيفة والغالب أنه لا يذكرون أصل الدين، بل المبلغ وفائضه ويشهدون على ذلك، ولقد لعن الرسول ﷺ أكل الربا وموكله وكتابه وشاهديه<sup>٨</sup>.

١ صح الأعرشي ٤١٠/١

٢ تاج العروس ١٧٧/٧ (مسك)

٣ المرجع السابق، ٢/٢٣٢/٢/مح

٤ المرجع السابق ٥٩/٢ (السفتجة)

٥ تاج العروس ١٦٤/٦ صرف

٦ تاج العروس ج ٧ ص ٤٢٦

٧ إرشاد الساري: ٧٩/٤

٨ البخاري ٥٠/٥ - عقود الجواهر ٣٣/٢

وكانوا يسلفون المزارع مالا ويشترطون عليه أن يعطيهم حصلاً، فقال الرسول ﷺ في ذلك من أسلف فلا بأسف الأخ في كيل معلوم ووزن إلى أجل معلوم<sup>١</sup>.

سُمي الكنز الجاهلي بالسيوب، وكان من عثر عليه يأخذه بكامله وفي كتاب الرسول إلى وائل بن حجر: وفي السيوب الخمس<sup>٢</sup>.

عرفوا الوأد ويتصل ذلك بعقيدة وبضمير ديني إضافة إلى الفقر، وقد خاطب أحدهم الرسول بقوله: إن أمي مليكة بنت الحلو كانت تفك العاني وتطعم البائس وترحم المسكين، وإنها كانت قد وأدت إبنتها الصغيرة، فقال الرسول: الوأدة والموعودة في النار<sup>٣</sup>.

وكانت العوائل تتبع أولادها، مشترطة أن يكون الولاء لهم، وقد جاءت بريرة إلى عائشة فقالت لها يا أم المؤمنين اشتريني واعتقيني، وإن أهلي يشترطون ولائي قالت عائشة: لا حاجة لي بك، فسمع الرسول ﷺ، فقال: اشتريتها فاعتقها وليشترطوا ما جاؤوا، فاشترتها، واعتقها، فقال النبي ﷺ: الولاء لمن اعتق وإن اشترطوا مائة شرط<sup>٤</sup>.

ونهى الرسول عن بيع الولاء وهيبته، وهو أنه إذا مات المعتق ورثه شرعاً معتقاً<sup>٥</sup>.

ولقد خرج بعض العبيد من كنانة ومزينة واعتصموا في جبل تهامة، وأخذوا يفتنسون المارة ولقد كتب لهم الرسول قائلاً: إنهم إذا أمنوا بالله فعبدهم ومولاهم محمد، ومن كان منهم في قبيلة فلا يرد إليها، وما كان من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم.

وحث الإسلام على العطف على الرقيق<sup>٦</sup>، والجواري والإحسان إليهن وعتقهن وتزويجهن<sup>٧</sup> وكان الرقيق سباقون إلى الإسلام وإذا دخلوا صاروا أحراراً.

١ البخاري ٥٥/٥ (كتاب البيوع)

٢ تاج العروس: ٢٥٥/١ سب

٣ ابن سعد: الطبقات ١/٣٢٥

٤ إرشاد الساري ٤/٤٣٩

٥ زاد مسلم ٥/٥٠٣

٦ ابن سعد: الطبقات ١/٢٧٨

٧ ابن الساء ٣٦/

وكان العشر من أهم سمات الجاهلية، وفي الحديث إن لقيتم عاشراً فاقتلوه، وفي كتابه لقيس بن الحصين: إن لكم ذمة الله ورسوله لا تحشرون ولا تعشرون.<sup>١</sup>

وكانوا يؤدون عشر حاصل الزرع وعندما فرضت الزكاة سن الرسول ﷺ العشر ونصف العشر، وفي الحديث: فما سقت الأنهار والقيم العشور وفيما سقي بالسائبة والدلاء نصف العشر.<sup>٢</sup>

ولقد حملت النقود في العربية الجنوبية بعض الرموز من ذلك إشارة الهلال وإشارة كوكب ذي رؤوس هو الشمس، وإن إشارة الهلال التي نضعها على المساجد هي من رواسب الجاهلية.

وعرفوا من مظاهر التطبيب الفصد والحجامة، ولقد حجم الرسول رجلاً.<sup>٣</sup>

ولقد لبس الرسول ﷺ العباة التي لبسها الجاهليون.<sup>٤</sup>، كما لبس المستنقة (الفراء) الجاهلية وليس ابن الخطاب ذلك.<sup>٥</sup>

واشتهرت اليمن بالحبر وهي البرد الموشاة المخططة، ولقد لبسها الرسول، ولما توفي وسجي وعليه الحبرة: ولبس الرسول الثياب المستوردة من بلاد الشام بعد أن كان يزيل ما عليها من الصلبان.<sup>٦</sup>

ووردت كلمة السنديس في القرآن الكريم وتعني رقيق الديباج، ولقد أرسل الرسول ﷺ إلى عمر جبة سنديس.<sup>٧</sup>

وكره الرسول ﷺ لبس السراويل الواسعة الطويلة لأنها من سنة الأعاجم (١٥)، كما نهى الرسول ﷺ ما يفعله الجاهليون من صبيغ الثياب بالعصفر، ونهى عن الاشتمال وهو إدارة الثوب على الجسد

١ إرشاد الساري ٢٢١/٤

٢ ابن السعد الطبقات ٢٦١/١

٣ صحيح مسلم ٦٧/٣ - تاج العروس ٤٠٥/١ - الأحكام السلطانية ص ١١٨

٤ ح ٧ ص ٤٩١

٥ عمدة القارئ ٢٢١/١١ - تاج العروس ٢٣٧

٦ البيان والتبيين ٢٣٦/١

٧ جامع الأصول ٤٧٨/٧ - تاج العروس ١١٨/٣ ح ١

٨ المغرب ص ٣٠٥

٩ اللسان ٨٢/٧ - صحيح مسلم ١٤٤/٦

كله، وفي الحديث المكيال مكيال أهل المدينة والميزان ميزان أهل مكة<sup>١</sup>.

واستعمل الجاهليون المكاييل وفي ذلك قال تعالى: {وَيَلْ لِلْمُطَفِّينَ\* الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا} <sup>١-٢/٧</sup> أسطفين لكن الذراع الجاهلي يختلف عن الذراع الإسلامي، وجاء في القرآن الكريم: {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ} <sup>الحاقة/٣٧</sup>.

والمثقال من الأوزان عند العرب استعملت هذه اللفظة في القرآن الكريم، وفي الحديث: لم يصدق الرسول أمراً من نساته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، والأوقية في الجاهلية أربعون درهماً.

ولما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة وجد أهلها يبايعون اليهود الأوقية من الذهب بالدنانير، فقال لهم: لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا وزناً بوزن.

واستعملوا القنطار، وقد وردت هذه الكلمة في سورة النساء آية/١٩، كما استعملوا من المد المكاييل والصاغ وامتد ذلك إلى الإسلام، وجاء في كتب الحديث صاع النبي وصاع عمر. واستعملوا الوسق وهو حمل بعير، ووردت هذه الكلمة في سورة يوسف.

واستعملوا المكوك وهو طاس يشرب به وكان الرسول يتوضأ به<sup>٢</sup>.

١ جامع الأصول ٣٧١/١ - اللسان

٢ المرجع السابق ٢٤٥/٧ نقل

٣ اللسان ٤٠٤/١٥ - تاج العروس ٢٠٢/٨

٤ صحيح مسلم ٤٦/٥

٥ عمدة القارئ ٢٤٧/١١ جامع الأصول ٣٧٤/١ - المخصص ٢٦٤/١٢ - اللسان ٨٢/١٠ -

٦ تاج العروس ٤٢٣/٥ صاع

٧ تاج العروس ١٨٠/٧

## البحث الرابع : في دائرة العلوم

وأول ملاحظة نبديها في هذا المقام هي المفهوم الذي ساد في تاريخنا والذي يدل بأن الرسول ﷺ كان لا يجيد القراءة والكتابة ثم انصراف هذا الوصف إلى العرب في الجاهلية.

وبالطبع فالغرض في فتحنا هذا الملف هو التدليل بأن النبا العظيم لم يتفاعل إلا مع أرض جذباء ليس فيها زرع أو ضرع، وبالنسبة لأمية الرسول ﷺ فإتنا نجتزئ الأمور الآتية:

- يرى الألويسي أن الرسول ﷺ تعلم الكتابة بعد انتشار الإسلام<sup>١</sup>، إذ كيف بالرسول - وهو المثل الأعلى - يدعو إلى أمة العلم، ويستتني نفسه من ذلك قال تعالى: ما كنت تتلو من قبله من كتاب، أي ما كنت يا محمد تقرأ قبله حديث أبي كبشة السلولي بأن الرسول ﷺ قرأ صحيفة لعينيه بن حصن<sup>٢</sup>.

- محيا الرسول ﷺ في صلح الحديبية عبارة رسول الله وكتب بدلا منها عبد الله<sup>٣</sup>.

- قوله لزيد بن ثابت: إذا كتبتم بسم الله فبين السين.

- عندما نزلت سورة إقرأ، قال ﷺ ما أنا بقارئ، ولم يقل أنا لست بقارئ<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> تفسير الطبري ١٤٣/٣ - جواد علي، ح ٨، ص ٦٧

<sup>٢</sup> المرجع السابق، ص ١٩

<sup>٣</sup> الجامع الصغير ص ٨٣٠ -

<sup>٤</sup> جواد علي، ح ٨، ص ١٠٦

- قال الرسول ﷺ لمعاوية، وهو يكتب بين يديه: ألف الدواة وحرف الكلم وانصب الباء وفرق السين ولا تعوم الميم وحسن الله ومد الرحمن وحدد الرحيم .
- أما بالنسبة لأمة العرب في الجاهلية، فالأدلة على عدم صحة ذلك هي:
- قوله ﷺ: {... وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ...} صرنا/٢٠٠.
- فهذه المقابلة بين أولى الكتابة ومن لا كتاب لهم .
- كره الرسول ﷺ أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم .
- قوله ﷺ: {وَمَنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ...} البقرة/١٧٨.
- وقوله ﷺ: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا...} الجمعة/٢.
- كان لدى ملوك الحيرة دواوين تدون أخبارهم وحكمتهم وخبر صحيفة الملتمس تؤكد ذلك وتشير إلى وجود كتاتيب يتعلم بها الصبيان .
- وكان الأحناف يقرؤون ويكتبون ومنهم من يكتب بأقلام أعجمية.
- كان لقيط الإيادي كاتباً ومترجماً في بلاد كسرى، وقد كتب لقومه يحذرهم من كسرى
- أرسل سعد بن ملك ابنه الشاعر المرقش إلى رجل من الحيرة ليعلمه الكتابة . .
- لما رأى خالد بن الوليد أهل الأنبار يكتبون بالعربية فسألهم من أنتم ... فقالوا: قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا - فكانت أوائلهم نزلوا أيام بختنصر فقال: متى تعلمتم الكتاب؟ ... قالوا تعلمنا الخط من إباد .<sup>٧</sup>

١ حكمة الأشراف ٦٧  
 ٢ تفسير الطبري ١٤٣/٣  
 ٣ روح المعاني ١٧/٢١ - تفسير الطبري ٣١/٢١  
 ٤ الأعرابي ١٨/٢  
 ٥ البكري: للمعجم ٥٢/١  
 ٦ جواد علي، ج ٨ ص ١١٠  
 ٧ البلدان: ٨٠٧/٤



- وجد خالد إحدى قري عين التمر يعلمون أبناءهم في كنيستها ، كما وجد في بيعة عين التمر أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل.
- كان العديد من الشعراء يكتبون الشعر وينقحونه ويحققونه من هؤلاء سويد بن الصامت الأوسي والذيرقان بن بدر وكعب بن زهير والربيع بن زياد العبسي .
- كان أهل دوقة الجندل يقرؤون ويكتبون، وقد تعلم منهم أهل مكة، والأمر نفسه بالنسبة لطيء .
- أتى بشر بن عبد الملك الحيرة فتعلم منها الخط، ثم علم أهل مكة والطائف ذلك .
- ذكر الإخباريون أن رجلين من بني نهد هما حزن وسهل كانا يقرآن ويكتبان .
- اتضح لنا أيضاً أن الصفويين كانوا يقرؤون ويكتبون والأمر نفسه بالنسبة لأهل العرب الشمالية .
- اتضح لنا أن العرب عهدوا الكتابة منذ قوم ثمود، وهؤلاء من العرب البائدة لب العرب ومادتهم<sup>٧</sup>، أما الكتابة في العربية الجنوبية، فحدث عنها ولا حرج.
- ولقد عدد الدكتور جواد علي أسماء كثيرة من الأوس والخزرج كانوا يحسنون القراءة والكتابة<sup>٨</sup>.
- أطلق الجاهليون نعت الكملة على الذين يكتبون ويحسنون العوم والرمي والشجاعة وقول الشعر والشرف والنسب<sup>٩</sup>.

١ الطبري: ٧٧/٣  
 ٢ الأغاني ١٨٠/٢  
 ٣ الشعر والشعراء ٩١/٥ - ابن هشام ٨٧/٢  
 ٤ جواد علي، ج ٨ ص ١١١  
 ٥ فتوح البلدان ص ٤٥٧  
 ٦ المرجع السابق، ص ١١٠  
 ٧ المرجع السابق ص ١١٣  
 ٨ المرجع السابق ص ١١٤  
 ٩ المعارف ٢٥٩ - الأغاني: ٢٥/٣ - ابن سعد الطبقات ٥٤٢/٣

- وكان في مكة عند نزول الوحي سبعة عشرة رجلاً يحسن القراءة والكتابة،<sup>١</sup> وهؤلاء هم المشهورون وهناك أكثر من ذلك.

- هنالك الكتاب الكثيرون لدى الرسول لكتابة البريد والرسائل وتدوين المغنم وأموار الزكاة والحرص والصدقات .

- كان هنالك مجموعة من النساء يقرؤن ويكتبون.<sup>٣</sup>

- ويروى عن الحكيم لقمان أن مولاه قال له إذبح شاة واخرج أطيب مضغتين فأخرج اللسان والقلب، ثم قال له إذبح أخرى واخرج أسوأ مضغتين منها فأخرج القلب واللسان.<sup>٤</sup>

وهذا قريب من قوله ﷺ: المرء بأصغريه قلبه ولسانه.

ويروى أن الرسول ﷺ دعا سويد بن صامت وهو من الكملة إلى الإسلام، فقال للرسول لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال الرسول: وما معك؟؟ .. قال: مجلة لقمان.. فقال الرسول ﷺ: أعرضها علي فعرضها فقال له: كلام حسن لكن الذي معي أفضل.

ومن المحتمل أن تكون هذه المجلة قد جمعت حكم لقمان أو أجيبار، أو حكم الجاهلية، أو حكم مستقاة من التوراة والإنجيل.

ومن حكم العرب في الجاهلية والإسلام الأمثال، وهذه تتميز بـإيجاز القول وإصابة المعنى .

ولقد ترددت هذه الكلمة كثيراً في القرآن الكريم: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا...} الروم/٢٨. {... وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ...} إبراهيم/٢٥.

وينسب إلى عمرو بن العاص أنه حفظ للرسول ﷺ حوالي ألف مثل.<sup>٥</sup>

١ فتوح البلدان: ص ٤٥٧

٢ العقد الفريد ٤/٤٦ - الطبري ٣/١٧٣ - التتبع والإشراف ٢٤٥ - الوزراء والكتاب ص ١٢

٣ جواد علي، ح ٨ ص ١٣٧

٤ جواد علي، ح ٨، ص ٢٤٠

٥ الزهر ١/٢٧٤

٦ الاستيعاب ١/٢٣٩ حاشية على الإصابة

ومن أمثال الجاهلية: إن من البيان لسحراً وينسب إلى الرسول ﷺ<sup>١</sup> والقصاص من مظاهر الفكر الجاهلي، فقد شاع في الجاهلية، واحتوى على عناصر تسلمت من الخارج (٥)، وعلى أحاديث تتعلق بالجن والسعالى والغيلان والمجون والخلاعة، لذلك كان للإسلام بعض المواقف من هذا الفن إذ ينسب للرسول ﷺ قوله: إن بني إسرائيل لما قضاوا هلكوا أو لما هلكوا قضاوا أي امتلكوا على القول دون العمل<sup>٢</sup>. لقد طلبوا من الرسول أن يقص عليهم، فنزل قوله تعالى: **لَنْحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ...** {يوسف/٣٧}.

ومن مشاهير القصاصين النضر بن الحارث، فقد كان من شياطين قريش الذين أدوا الرسول، فقد زعم أن كل ما في القرآن من الأساطير فرد عليه القرآن: **لَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...** {الأعراف/٣٧}.

وقد أرسلته قريش إلى يهود يثرب ليأخذ منهم أمور التوراة كي يجادل الرسول، وقد نزلت في حقه ثماني آيات، وأشير في القرآن إلى محاججته<sup>٣</sup>.

ولقد عهدت الجاهلية العديد من الأطباء: الحارث بن كلدة الثقفي - النضر بن الحارث - ابن أبي رقية التميمي، وقد مرض سعد بن أبي وقاص فعاده الرسول إلى الحارث فداواه وشفاه، وهو القائل: **الطب الأرم، والبطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وعودوا كل بدن ما اعتاد وشر الدواء إدخال الطعام على الطعام.**

ومن وصاياه: يا بني عود نفسك الأثرة ومجاهدة الشهوة والإكثار من الطعام وإدمان النكاح، واحذر سرية الكظة وشرف البطنة، فإذا كنت بطينا، فعد نفسك مع الزمنى<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> العسكري جمهرة الأمثال ١١/١

<sup>٢</sup> جواد علي ج ٨ ص ٣٧١ - تاج العروس ٤٢٢/٤ قصص - تفسير الطبري: ١٢/٩٠

<sup>٣</sup> ابن هشام ١٨٨/١ - الاستيعاب ص ٩٩ - كتاب نسب قريش ٢٥٥ - ابن هشام ١٩٠/١ - جواد علي ج ٨ ص ٣٧٧

<sup>٤</sup> جواد علي، ج ٨ ص ٣٨٢

<sup>٥</sup> بلوغ الأرب ٣٢٨/٣ - شرح ديوان لبيد ص ١٠٢ - عيون الأنباري

<sup>٦</sup> الجمال في تشبيهات القرآن ص ٢٥٦ - أبي أصيبعة - أخبار الحكماء ص ١١١ - ابن القفطي تاريخ الحكماء ص ١٦

ومن حكمه: لا تنكحوا من النساء إلا الشابة، ولا تأكلوا من الحيوان إلا الفتى ولا من الفاكهة إلا النضيج<sup>١</sup>.

ولا حاجة للتأكد أن الأدب النبوي تحلى بهذه القيم.

والشفاء عند العرب في ثلاثة: شربة عسل - شرطة محجم - كبة نار.

ولقد اعتمد الطب الجاهلي على العسل لوحده أو ممزوجاً بمواد أخرى لتكوين عجائن ولصقات<sup>٢</sup>، وهذا ما اعتمده الطب النبوي.

واستعمل الجاهليون الحلبة لمداواة الربو والسعال والبلغم والكبد والمثانة والبولاسير، وورد في الحديث: لو تعلم الناس ما في الحلبة لاشتمروها بوزنها ذهباً<sup>٣</sup>.

وتداووا بالقسط وعرف يقسط المر، ويروى عن الرسول قوله: عليكم بهذا العود فإن فيه سبعة أشفية<sup>٤</sup> وعالجوا بالترياق، وفي الحديث: إن في عجوه ترياقياً<sup>٥</sup>.

وعالجوا بالبيان أمراض البرش والنمش والكلف واستعمل ذلك في الإسلام<sup>٦</sup>.

وعالجوا بالزيت وبالحمية السوداء وذكروا أن الرسول ﷺ قال: إن هذه الحية السوداء شفاء من كل داء إلا السام (الموت)<sup>٧</sup>.

واستعملوا السواك لنظافة الأسنان، وورد في الحديث القول: السواك مطهر للضم<sup>٨</sup>.

وتعاملوا مع الجذام بوصفه مرضاً سارياً، وجاء في الحديث: فر من المجنوم فرارك من الأسد<sup>٩</sup>.

١ محاسن الأضداد ص ١١٠ - حواد علي، ج ٨، ٥٣٩ - عمدة القارئ ٢/٢٣٢

٢ عمدة القارئ ٢/٢٣٢

٣ ديوان لبيد ص ٣٥

٤ تاج العروس ٢/٣١٢

٥ إرشاد الساري ٨/٣٦٧ - اللسان ٧/٣٧٩

٦ اللسان ١٠/٣٢١

٧ تاج العروس ٨/١٣٤٧ - تفسير الطبري ٣/٢٠٠

٨ إرشاد الساري، ص ٣٦٥

٩ البيان ٣/١١٤

١٠ تاج العروس ٨/٢٢٧ - تفسير الطبري ٣/٢٠٠

ولقد داووا الذبحة بالكي، وقد عالج الرسول ﷺ بذلك<sup>١</sup>.

وإذا انتقلنا إلى الشعر أمكن القول بأن الإسلام لم يقف ضد الشعر بطبيعته وجوهره ولكن بأغراضه ومواقفه المخالفة.

تروى الأخبار أن عمر بن الخطاب سمع حسان بن ثابت، وهو ينشد الشعر فقال له: أرغاء كرغاء البكر.. فقال حسان: إنك لتعلم أنني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك، فقال عمر: صدقت<sup>٢</sup>.

لقد ردد الرسول القول: أنا النبي لا كذب: أنا ابن عبد المطلب<sup>٣</sup>.

وفي قول للخليل بن أحمد: كان الشعر أحب إلي رسول الله من كثير من الكلام<sup>٤</sup>، لذلك فقد كان الخليفة عمر عالم بالشعر ويحفظه، كما كانت عائشة تحفظ منه وتروى غريبة<sup>٥</sup>.

وأثر عن ابن عباس قوله: وإذا أعياكم تفسيراً في كتاب الله فاطلبوه من الشعر فهو ديوان العرب<sup>٦</sup>.

أجل لقد أرسل سعد بن أبي وقاص في يوم أرمان إلى قادة الكلام من رجال النثر والشعر يدعوهم إلى استخدام سلاحهم، وقد خاطبهم بقوله: أنتم من العرب بالمكان الذي أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطبائهم ونوو رأيهم ونجدتهم، فسيروا في الناس فذكروهم وحرصوهم على القتال<sup>٧</sup>.

ولقد وصف الخليفة عمر الشعر بقوله: هو علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه، لذلك فقد كتب إلى أبي موسى الأشعري: مر الناس يتعلموا الشعر فهو يدل على معاني، الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب<sup>٨</sup>.

١ اللسان ٤٣١٠/٢ - الإصابة ٥٠/١

٢ العمدة: ٢٨/١

٣ جواد علي، ج ٩ ص ٢٤٨

٤ تفسير القرطبي ٥٢/١٥

٥ العمدة ٧٦/١ - البيان والتبيين ٩

٦ العقد الفريد ١٢٥/٦ - الأغاني ١١٧/٣

٧ المزهري ٤٧/٢ - طبقات الشعراء للجمعي ص ١٠. بلوغ الأرب ٨٢/٣ - العمدة ص ٣٠٠

٨ الطبري ٥٣٣/٣

٩ العمدة ص ٢٨

لقد وضع الرسول ﷺ لحسان منيراً في المسجد يقوم عليه ليهجو  
المشركين<sup>١</sup>، ولما أنشده النابغة الجعدي شعراً قال له: لا فض الله  
فوك<sup>٢</sup>.

وأثناء حفر الخندق كان ﷺ يردد أرجوزة: اللهم لو لا أنت ما اهتدينا  
ولا تصدقنا ولا صلينا<sup>٣</sup> والمؤكد أن الشعر عريق في حياة العرب فقد  
وصف القديس بيلوس المتوفى ٤٣٠م غارة للعرب على دير سينا  
وقعت سنة ٤١٠م، أشار إلى تغني هؤلاء بأشعارهم، وهذا ما أكده  
المؤرخ سوزيموس من تغنيهم بأشعارهم في المعارك التي وقعت مع  
الروم عام ٤٤٠م وفي معركة ذي قار<sup>٤</sup>، كل ذلك دليل على عراقية  
الشعر في حياة العرب.

ويروى عن ابن فارس وجود الإعراب عند العرب العاربة وفي  
الحديث: أعربوا القرآن، فإني عربي<sup>٥</sup>.

ويروى عن عمر بن الخطاب قوله: تفقهوا في السنة وتفقهوا في  
العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي<sup>٦</sup>.

وروى عن عثمان المهري قوله: أتانا كتاب عمر بن الخطاب ونحن  
بأذربيجان يقول: تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيد في  
المروعة<sup>٧</sup>.

كما أثر عنه أن لا يقرأ القرآن إلا من أحسن العربية.

روى عن الرسول ﷺ: عليكم بتعلم العربية فإنها تدل على المروعة  
وتزيد في المروعة: وذكر أهل الأخبار أن أبا الأسود الدؤلي كان أول  
من وضع العلامات التي تدل على الرفع والنصب والجر والجزم<sup>٨</sup>،  
كذلك فقد وضع النحو في الإسلام، وكان أبو الأسود الدؤلي أول من

١ تاج العروس ٦٩/٥  
٢ الإصابة ٣٢٥/١  
٣ إرشاد الساري ١٥٧/٥  
٤ جواد علي، ج ٩ ص ٦٣  
٥ الصاحي ص ٣٥  
٦ كسر العمال ٢٢٨/٥  
٧ صبح الأعشى ١٦٨/١  
٨ المعارف ٤٣٤ - الصاحي ٣٧

ساهم في ذلك على إثر دخوله على الخليفة، حيث وجده مطرقاً برأسه يفكر في أمر فساد الألسن<sup>١</sup>.

ذكر الطبري أن السنة العرب كانت كثيرة يعجز إحصاؤها<sup>٢</sup>، وذكر مؤلف كتاب الطواف حول البحر الأحمر، أن سكان سواحله كانوا يتكلمون بلهجات مختلفة لا يفهمها أحدهم عن الآخر<sup>٣</sup>، ويتعاملوا مع اللهجات على أساس طابعها اللغوي، بل كانت مراجعهم علوم القرآن والحديث، ولغتها الفصحى التي تلو على اللغات وما دونها مضيعة للوقت.

واعتقدوا أن لغة القرآن اكتملت بالوحي التي هي لهجة إسماعيل على حد قول سيبويه<sup>٤</sup>، وبالمقابل فقد ابتعدوا عن بقية اللهجات لأنها منحلة وتبتعد عن الأصل<sup>٥</sup>.

وحديث ابن عباس مفاده قوله ﷺ: أقرأني جبريل علي حرف فراجعه فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهيت إلى سبعة أحرف<sup>٦</sup>.

وفي كتب التفسير والحديث والأخبار أحاديث تشير إلى أن بعض الصحابة كانوا يقرؤون قراءات متباينة<sup>٧</sup>، وهذا دليل على أن القرآن لم ينزل بلغة قريش، بل بأفصح لغة وأبين بيان<sup>٨</sup>. وهذا مغزى القول بأن نزول القرآن بلسان قريش إنما ظهر في العصر الأموي، والأرجح قوله ﷺ: **لَوْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...** {إبراهيم/٤}

قال ابن قتيبة: قيل للرسول يا رسول الله إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ونحن العرب حقاً فقال: إن ربي علمني فتعلمت<sup>٩</sup>.

- ١ جواد علي، ج ٩، ص ١٥
- ٢ تفسير الطبري ١٥/١
- ٣ جواد علي ج ٨، ص ٥٦٣
- ٤ المرجع السابق ص ١٣٣/١
- ٥ المرجع السابق ١٣٤/١
- ٦ الانتقال ١٣١/١ - الزرقاني، مناهل العرفان ص ١٣٢
- ٧ تفسير الطبري ٩/١
- ٨ جواد علي ج ٨، ص ٦٠٩
- ٩ المرجع السابق، ص ٦٠٩
- ١٠ جواد علي، ج ٨، ص ٦٢٣

ويذهب بلاشير إلى أن علماء اللغة والنحو غربلوا اللهجات وتوغلوا بين الأعراب بعقلية تنهيج وتنقية للغة، مما أدى بهم إلى توحيد لغة القرآن الكريم والشعر، وبذلك فالعربية الفصحى لهجة ولدت من لغة الشعر ولغة القرآن قامت على تشذيب اللغة وتنقيحها<sup>١</sup>.

وإذا كان دور الإسلام في بلورة الفصحى وتثبيتها وتنقيتها وتأصيلها فله دور آخر في تقدسها، وهو الأمر الذي تأكد من حديث الرسول ﷺ بأن لغة أهل الجنة العربية وقوله حسب رواية ابن عباس بأن لغة آدم في الجنة كانت العربية فلما عصا ربه سلبه العربية فتكلم السريانية فلما تاب رد الله عليه العربية<sup>٢</sup>.

والعربية المحضة هي العربية الخالصة، وهي العربية الأصيلية عربية إسماعيل، وقد نعتت بالعربية المتينة، قالوا أول من فتح لسانه بالعربية المتينة إسماعيل.

ويروي أن الرسول ﷺ تلا قوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِتَعْلَمُونَهَا الْكَلِمَاتَ الَّتِي أُتِيَ بِهَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَلِمَاتِكُمْ وَاللَّغَةَ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ فِيهَا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ} فصلت/٣، ثم قال: اللهم إسماعيل هذا اللسان الهام<sup>٣</sup>.

ونكر أن عمر بن الخطاب قال للرسول ﷺ يا رسول الله، مالك أفصحنا فقال: كانت لغة بني إسماعيل قد درست فجاء بها جبريل فحفظناها فحفظتها<sup>٤</sup>.

والعربية الفصحى أو المتينة أتتنا من موارد إسلامية لعدم ورود نصوص جاهلية، اللهم إلا نص النمارة وحران اللجاء سنة ٦٨ م، فقد كتب بعربية قريبة من العربية المحضة، وهما في الحقيقة لهجة من اللهجات العربية الشمالية متأثرة بالإرامية (النبطية)، فهي إذن ليست من نصوص العربية الفصحى الخالصة اللسان الذي نزل به القرآن الكريم، وهو اللسان العربي الفصيح الشامل ليكون بينا واضحا ظاهرا قاطعا للعر مقيما للحجة دليلا على المحجة<sup>٥</sup>.

١ جواد علي؛ ج ص ٦٢٩  
٢ الزهر ٣٠/١  
٣ الزهر: ٣٤/١  
٤ الزهر - ٣٥/١  
٥ تفسير ابن كثير ٣٤٧/٣



لذلك قالوا في تفسير الآية الكريمة، وكذلك أنزلناه قرآننا عربياً.. أنه لسان العرب جميعاً ولم يخصه تعالى بلسان معين من السنة العرب المتعددة .

وما دنا في حقل العلوم العربية وعلاقتها بالإسلام فسنولي اهتمامنا في حقل جديد هو النوء عند الجاهليين الذي هو النجم إذ مال للغروب.

ولأهمية الأمطار عندهم اهتموا بمراقبة مظاهر الأنواء والسوان السحب، لذلك نجد لها أسماء كثيرة من حيث ترتيبها وأوصافها وقربها وبعدها عن الأرض وبسبب التعارض بين عقيدة الجاهلية والإسلام في الحلف والأسباب.

فقد جاء النهي عنها بقول الحديث النبوي: من قال سهيت بالنجم فقد آمن بالنجم وكفر بالله .

لذلك نجد الإسلام يحرم القيم الجاهلية الآتية: الطعن في الأسباب- النياحة- الأنواء<sup>٢</sup>.

أجل لقد اتخذ الجاهليون النجوم دليلاً لهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، هكذا أشار إلى ذلك القرآن الكريم: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...} الأنعام/٩٧.

لقد قسموا السماء إلى بروج، وفي ذلك يقول تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا..} الحجر/١٦.

واعتقدوا أن للكواكب أفلاكاً تدور فيها علي هيئة حجر الرجي، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم يقول: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} الأنبياء/٣٤.

١ تفسير الطبري: ١٥٩: ١٦ - جواد علي ج ٩ ص ٥٤٣  
٢ تاج العروس ١/٤٧٤  
٣ الأنواء ٢٣  
٤ تفسير الطبري ١٦/١٧

ورأوا أن القمر يأخذ كل ليلة في منزل من المنازل حتى يصير هلالاً،  
قال ﷺ: { وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مِنْ مَنَازِلَ } بس/٣٩/.

ولقد قال أحد حكمائهم: أضمنوا ما بين مغيب الثريا إلى طلوعها  
أضمن لكم سائر الله، لذلك قالوا: ما طلعت العاهة في الناس والإبل،  
وفي الحديث: إذا طلعت النجم لم يبق في الأرض من العاهة شيء إلا  
رفع<sup>١</sup>.

وسب بعضهم الدهر، فجاء الحديث النبوي: لا تسبوا الدهر، فإن الله  
هو الدهر<sup>٢</sup>.

وسارت الجاهلية على التقويم الشمسي فقسمت السنة إلى: الربيع -  
الصيف - الخريف - الشتاء وقد أخذ الإسلام به مع أن التقويم الرسمي  
للإسلام هو القمر<sup>٣</sup>.

والإهلال هو المبدأ الذي سار عليه الجاهليون في تعيين أوائل الشهر،  
فإذا اختفى الهلال انتهى الشهر، ولذلك جاء في الحديث الشهر مرة  
تسعة وعشرون يوماً ومرة ثلاثين يوماً<sup>٤</sup>.

ومحرم هو أول السنة لدى الجاهليين وهو أيضاً في الإسلام<sup>٥</sup>.

ولقد قسموا شهور السنة إلى قسمين: أشهر اعتيادية هي ثمانية  
أشهر وأشهر أربعة حرم مقدسة خصت بالهتمة لا يجوز فيها قتال أو  
بغى وهي: ثلاث متواليات سردها: ذو القعدة - ذو الحجة - المحرم -  
وشهر منفرد هو رجب.

وسمي ذو القعدة لأنهم يقعدون عن الأسفار والغزو، ويحجون في ذي  
الحجة<sup>٦</sup>.

١ الجمان ص ٢٠٧  
٢ تاج العروس ٢٢٧/٩  
٣ حواد علي ص ٨٣  
٤ إرشاد الساري ٣٧/٣٥٩  
٥ مروج الذهب ١٨٨/٢ - اليعقوبي ١/٥  
٦ بلوغ الأرب ٨٢/٣ - تفسير ابن كثير ٣٥٥/٢

ولقد سموا رجب الأصم وروى في كتب قد الحديث أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء (اليوم العاشر من المحرم) ولقد صامه الرسول في الجاهلية وبقي يصومه حتى فرض رمضان، فخير المسلمون بصومه أو تركه .  
وكانوا يرجبون في شهر رجب فيقدمون الرجبية<sup>١</sup>، ولقد أشرنا إلى ذلك.

وسمي بالأصم لعدم سماع استغاثته فيه<sup>٢</sup> وتشير كتب الحديث إلى أن الجاهليين عظموا شهر شعبان ورمضان<sup>٣</sup>.

وكانوا يستحلون ترك الحج في الوقت ويؤجلونه إلى وقت آخر، وقد ندد القرآن بذلك: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ...} التوبة/٣٧.  
على هذا الأساس يؤكد الدكتور محمد عابد الجابري بأن المروءة هي لب منظومة القيم في الجاهلية، وأن هذا اللب في الإسلام هو العمل الصالح .

لكن هل العمل الصالح في نهاية المطاف ليس إلا مروءة مصقولة مهذبة خضعت إلى ضوابط وحدود.

لقد قال الرسول ﷺ بأن المروءة هي دين الجاهلية وقال في حديث آخر من لا مروءة له لا دين له... إذن ألبست منظومة القيم العربية تشكل حيزاً مرموقاً في عقد نظام القيم الإسلامي.

لنا أن نتساءل بقوة: ألبست هناك قيمة إلهية أمام انزال هذا السوحي في قوم معين هم العرب.. وبمعنى أوضح لماذا اختار سبحانه وتعالى الجزيرة العربية مهبطاً لرسالته، هل كان ذلك صدفة أم حكمة إلهية خالدة؟.

١ تاج العروس ٤٠٠/٣ - الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٧٢٦/١ - إرشاد الساري ٤٣١/٣

٢ تاج العروس ٧٢/٣ - عمدة القارئ ٤١/١٨ روح المعاني

٣ اللسان ٥٣٧/٤

٤ جواد علي، ج ٨ ص ٤٨٥

٥ كتابه العقل الأخلاقي العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، سنة ٢٠٠١.

ولنا أن نَسْأَلَ مرةً أخرى لماذا لم تنتشر بقوة اليهودية أو المسيحية في الجزيرة العربية؟؟

كل هذه التساؤلات تؤكد أن الحضارة العربية كانت مشتتاً مناسباً لبذور الإسلام وأن الشرارة الإلهية صادفت برميل البارود الإسلامي، وهكذا فإن انتشار الإسلام في الجزيرة العربية لا يمكن فهمه على أساس المعجزة الإلهية، إذ أن هذه المعجزة تمثلت في القرآن الذي هو المعجزة، وبذلك فنحن نفسر المعجزة تفسيراً موضوعياً ليس بالمعنى الخارق، وإنما القوة الذاتية الموضوعية لأحكام القرآن التي انطوت على المبادئ الإنسانية الخالدة والقيم الإنسانية الرفيعة، ومن خلال هذه القيم وتلك المبادئ ثم التفاعل مع الروح والمروءة فكانت الانطلاقة العربية، وهذا بالطبع لا ينسبنا -بالمقابل- الدور الكبير الذي لعبه الإسلام في حياة العرب، لا سيما كما اتضح لنا لجهة بلورة اللغة العربية وتنقيحها، ثم تثبيتها في نموذج الفصحى، هذا فضلاً عن بوتقات جرت للتشكيل الاجتماعي العربية في رحم وبوتقة الإسلام، كالبوتقة السياسية مثلاً، كل ذلك أدى في النهاية إلى اكتمال تشوّه الأمة العربية حضارياً وسياسياً واجتماعياً في رحم الإسلام، الأمر الذي يصعب معه إجراء عملية فصل بين العروبة والإسلام، إذ مثل هذا الفصل لن تكون عاقبته إلا إفراغ العروبة من مضمونها، وبالتالي تدمير نسيجها الثقافي.

### تقدير وتقويم عام

ليلاحظ القارئ أننا لم نلهث وراء التشعبات والمسالك الفرعية دون رؤية أو منهجية مسبقة تحكم المسار والخطى، بل كان هدفنا من ذلك التأسيس على الثقافي والمعرفي تأسيساً يحررنا من أسرار الرؤية الأيديولوجية وأحكامها الجزافية.

وواقع الأمر أن هذه اللوحة المتعددة الألوان التي قدمناها تسمح لنا بإعطاء حكم دقيق على علاقة المشروع الثقافي العربي في الجاهلية مع المشروع الثقافي الإسلامي، علاقة لا تقوم على التناظر أو الانفصال بقدر ما هي علاقة تقوم على التمييز في إطار الترابط.

وفي الحقيقة إن ألوان هذه العلاقة متعددة وثرية، فهناك الحالات التي يتم فيها التناظر، وأخرى التي يتم بها التناذر والإلغاء،

وثالثة تقوم على إجراء تعديل كبير ورابعة تعتمد التصوير البسيط وغير ذلك من المواقف، وإن أمكننا التأكيد بأن الخطاب القرآني ينطوي على انطلاقات بعيدة في عالم التجديد والإبداع الذي لا يمكن نسبه إلى العالم الأرضي الواقعي النسبي.

وعلى هذا فنحن نعارض الدكتور جمال الدين الخضور في قوله بالحرف الواحد: الخطاب الإسلامي برسالته المحمدية العظيمة (وأقصد به الحامل الثقافي للإسلام) لم يكن إلا مظهراً معرفياً للثقافي العربي.

وفي نظرنا إن المشروع الثقافي الإسلامي حتى في مظهره الحديث النبوي أترع المشروع العربي ولم يكن فعلاً ميكانيكياً أو امتداداً خطياً، بل هو عملية ارتقائية تؤكد ما الصور التي كنا حريصين على إيرادها تدليلاً لهذا الإخصاب والإيناع، وإن كنا نؤكد أن المشروع الثقافي الإسلامي الذي تغلغل في رحم المشروع الثقافي الجاهلي كان لا بد له من أن يستعين بالكثير من الأدوات والآليات الفنية للمشروع الثقافي الجاهلي تعبيراً عن السياق التاريخي وإحداثيات السيرورة وجدلية المكونات، والقول يغير ذلك يعني أننا نتكلم عن حالة انقطاع كاملة بين الحياتين، وهذا ما لا تقبله الطباع السليمة.

فالإسلام جزء من السياق الحضاري العام وهو استمرارية تاريخ لثقافة العرب والشرق العربي وذلك يؤكد أهمية الحضارة العربية.

وعلى ضوء هذا التحليل نناقش أيضاً مقولة الدكتور عبد الرحمن البراز بأن الإسلام تعبير عن روح العروبة، نناقش ذلك على أن الإسلام فعلاً لا يتعارض مع هذه الروح وينطلق من الكثير من جوانبها - باعتبار العروبة تمثل نظام الفطرة وحقيقة جوهر النفس الإنسانية - لكنه في الآن نفسه يمثل الروح الإنسانية الخالدة وجوهرها وضميرها ونجارها، بدليل أنه لاقى استجابات فذة وطوعية وانبثاقية لدى الغير، وما ذلك إلا تعبير عن هذا التكامل والثقافة.

هذا ونسجل فيما يلي الملاحظات الآتية:

١- إذا استعرضنا تاريخ أمتنا منذ بداية العصور للجيولوجية الأولى يتضح لنا وجودها الثقيل، وإنها نشأت في التاريخ، في

<sup>1</sup> مقالة السالف الذكر، المشروع النهضوي القومي العربي ص ٧٨

المكان والزمان، في الفكر والواقع نشأة طبيعية، وتخلقت  
باستمرار بعقوبة الأحداث، وفعل الزمان.

نقول بفعل الزمان دون نفي ذلك عن بعض الأمم الأخرى، وإنما نندلل  
بعقوبة المكان وإن هذه العبقرية تركت بصماتها واضحة على تاريخ  
أمتنا.

أجل هنالك محاولات لغزو واختراق الجزيرة العربية (الآشوريون)  
وحروبهم مع الأمراء الإسماعيليين - مشروع نبونيد البابلي وارتداده  
واتخاذه تيماء عاصمة له - مشروع الإسكندر لغزو الجزيرة العربية -  
فشل غزوته، لكن هذه المحاولات جميعها باءت بالفشل الذريع،  
وانتصرت عبقرية المكان، واستقر الاعتقاد لدى القوى العالمية  
(الفرس والروم) باستحالة أخذ العرب بالقوة.

وهذا يعني أن أمتنا لم تتكامل أو تتعامل مع الشعوب المجاورة، وكل  
ما تعنيه أن هذا التعاون حكمته مصلحة أمتنا وإرادتها، نجد ذلك في  
الخليج واليمن وعدن (وجود أقليات عرقية تجارية، وغير ذلك.

٢- لقد شكلت الجزيرة العربية القانون الأساس لأمتنا بحيث أن  
خصائص هذا القانون هي التي احتضنت السمات الجوهريّة  
لهذه الأمة..

صحيح أن الأمة امتدت باتجاه الشام (وكلية في مصر  
والمغرب العربي)، وصحيح أن هذه الأقطار حكمت بقوانين المكان  
وغيرها، ولكن مصدر خصائصها هو الجزيرة العربية، حيث كانت  
هذه الأمم تقدم مكوناتها وخصائصها إلى هذه الأقطار، وهذا القانون  
الأساسي إن كان يرفدنا بمعطيات إيجابية تتعلق بالمنعة القوة، فهو  
من جهة ثانية ذو عطالة نسبية - لا تقدم لنا قاعدة حضارية قوية  
ومتمايكة، فإذا ما تفاعلنا معه داخل الجزيرة العربية، فقد لا نجده  
صالحا للسكن إلا الواحات الصغيرة هنا وهناك، ولكن يجب أن لا نفهم  
أن الجزيرة العربية كانت فراغا كاملا بدليل تلك الطرقات التي ربطت  
اليمن في كل من العراق وسوريا، وربطت العراق بسوريا.

وإذا كانت الحياة محكومة بطبيعتها بالظروف الموضوعية فهي  
محكومة بالإرادة الإنسانية المصممة التي كثيرا ما تتجاوز وتخرق  
الصعاب، وهذا ما وجدناه، مثلا في مملكة ديدان الشمالية التي  
أسسها اليمينيون وقريش (أصلها من اليمن)، وغير ذلك كما نجد ذلك

في انطلاقاً للإسلام التي استطاعت أن توحد الجزيرة العربية خلال عشرة سنوات<sup>1</sup>.

٣- ولقد تمخضت روح الأمة العربية باتجاه الشمال والغرب، وإننا نسجل لوجودها في بلاد الشام الخصائص الآتية:

أ- كان نزوح أمتنا إلى بلاد الشام مستمراً لم ينقطع، ولم يحل دونه حائل طبيعي أو بشري والقسم الأعظم في هذه النزوح عبر عن نفسه سياسياً: الأنباط- الحضريون- الكنديون- إمارة المناذرة والغساسنة تدمر- والخ...

ب- إن ضعف القوى العالمية الكبرى (الفرس والروم) هو الذي سمح للعرب في بلاد الشام بهذه التعبيرات السياسية أضف إلى ذلك القوة الذاتية لهذه القوى السياسية التي انفلتت تأثير القوى العالمية.

ج- لقد استطاع الفرس والروم أن يقضوا أخيراً على التعبيرات السياسية العربية في بلاد الشام لكنهم لم يستطيعوا إقصاءهم سكانياً عن تلك الديار وبقي هؤلاء الأجانب مجرد حاميه عسكرية في المدن.

د - إن الذي وضع قانون الحياة في بلاد الشام هم العرب وأبناء عمومته الساميون، حيث تعاون هؤلاء مع العرب، وكونوا وحدة وطنية متماسكة نجد مثلاً فذاً على تلك الوحدة الوطنية فيما كونه الأنباط والتدمريون وأهل حضر والحيرة، وغير ذلك.

هـ - كانت إقامة العبرانيين في فلسطين محدودة وعدائية، ولهذا نجد الشعوب السامية -وعلى رأسها العرب- تناصبهم العداء فترات متعددة هذا فضلاً أن أنهم كانوا محكومين بنظرتهم العدائية للسكان الأصليين، وكان هؤلاء في حال حرب مستمرة معهم، وهذا ما سهل اقتلاعهم.

و- الملاحظ على العرب أن دورهم الاستيطاني والحضاري، أخذ تدريجياً بالقوة والتفوق في بلاد الشام، في حين أخذ الساميون بالضعف وسبب ذلك القاعدة الصلبة للعرب في

<sup>1</sup> انظر حديث د - رضوان السيد في مجلة المستقبل العربي عدد ٩٩٧/٧ ص ٩٧



الجزيرة العربية التي بقيت مصدر قوة ومنعة، بينما أبناء العمومة أخذوا بالضعف ولم يتمكنوا من الحفاظ على قوتهم ووحدهم إلا على يد الإسلام، فقد جاء الإسلام محرراً وفي الوقت نفسه فقد كان رنوا وتشوقا وحلما وأملا بتحقيق الذات.

٤- هذا التطور الطبيعي لسكان الجزيرة العربية يقصد حمايتها من الجنوب والشرق (شاطئ البحر الأحمر مرجاتي لا يصلح للملاحة)، وهكذا سمعنا أن اليمن وعدن مأهولتان بالسكان في العصر الجيولوجي (النيوليتي)، وسمعنا قائدا رومانيا يتكلم عن سبأ بأنها جنة الدنيا، وسمعنا المؤرخين العرب يتكلمون عن العرب البائدة بسبب قدمهم، وعن تطور الجزيرة وبروزها بعصر الأمومة والطوطمية، وأخيرا سمعنا من يصف دلمونة بأنها لا ينق بها غراب، ولا يعتدي فيها الذئب على الحمل.

٥- هذا التطور التلقائي والعيش والنمو في قلب الزمان ومعظياته، هو الذي ولد الحكمة عند العرب بصفتها معطى تاريخي طبيعي يلبي حاجات العيش ومتطلبات الحياة.

لقد سمعنا سليمان بن داود يصف العرب بأنهم محبو الحكمة ويتميزون في ذلك من أهل سكان الأرض، وسمعنا هؤلاء يقدسون لقمان ووجدنا القرآن يخصص له سورة، ويرسم له نموذجا فذا، كما سمعنا هبرودوت اليوناني يتكلم عن العرب بأنهم يحبون الحرية ويعطون الكلمة الصادقة ويتميزون بالوفاء والإباء والتضحية، وقد وصفهم الرسول ﷺ بأن دينهم الحلم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان مشرق النور المحمدي له سابقة في تلك الديار - على حد تعبير لعبد الرحمن شهبندر - الذي نشر نوره في تلك الديار؟



أجل لقد مرت الإنسانية منذ سيدنا آدم بأدوار عدة: المرحلة الوثنية المشاعية من آدم حتى نوح -مرحلة الضبط الاجتماعي من نوح إلى إبراهيم- المرحلة الحنفية التوحيدية من إبراهيم حتى محمد<sup>1</sup>.

وتشكلت خلال هذه المدة في الجزيرة ممالك وإمارات عديدة، فكيف لا نجد تأثير الإسلام واضحا في العرب؟، وقد علمنا أن سيدنا إبراهيم غرسه في أبنائه وتعهده بهم وإنما نجد هذا التأثير قليلا على يد قصي بن كلاب.

٦- تعبير الأمة عن نفسها بالإسلام، ينطلق من طبائع الأشياء والنسب المركزة فيها، والإسلام - كما يقول ميشيل عفلق -: صيرورة صادقة ورمز كامل خالد لطبيعة النفس العربية وبهذه الرؤية يمكن اعتبار الأمة تتجدد دوما في روحها والتجزئة الحضارية التي عاشها العرب بالإسلام ليست حادثا تاريخيا يذكر للعبرة، بل هو استعداد دائم في الأمة<sup>١</sup>.

هذا وسنتقري هذا المنهج محاولين تتبع قوانين التاريخ فسي ذاتها، مبتعدين قدر الإمكان عن الأيديولوجيا، ذلك النسق الإجرائي الخاص لتطور التاريخ وفهمه ومجراه، وسنلاحظ أن الأمة العربية تزكو وتزهو كلما اقتربت من الإسلام وقيمه ومعانيه، وبالعكس تنضب وتجف عروقها كلما فهمت الإسلام على أنه مجرد مناسك وعبادات.

وإذا كان قد خصصنا الباب الأول لدراسة التجربة الذاتية الخاصة بالأمة العربية فسنحاول في الأبواب القادمة دراسة مقاربة الأمة للإسلام وربط مصيرها بروحه، وهذا الربط بين العروبة والإسلام لا يقصد منه هذا الربط الفقهي فقط وإنما يقصد منه المثاليات والربط الروحي والخلقي والفلسفي الكلي، والغايات العليا، أي ذلك الربط الذي يقصد منه جواهر الأمور دون حرفيتها ونصها، وهذا ما يعبر عنه مصطلحا بالفقه الحضاري، هذا الفقه نجده بارزا في تجربة الرسول - تجربة المدينة، كما نجده لدى الأمويين والعباسيين، ونجده

<sup>1</sup> نعيم الياحي: دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع مجلة المستقبل العربي عدد ٨٠ ١٩٦٦ ص

لدى الصحابة والفقهاء ولدى جماع الأمة - وبصورة خاصة لدى فقه  
المالكية الذي انطلق من عمل المدينة واعتبر هذا العمل صورة  
صادقة للإسلام الصحيح، وعمل المدينة هذا هو صورة حياة فعالة  
صادقة لما كانت عليه هذه المدينة في زمن الرسول بعد أن هذب  
وأزِيل منه ما هو جاهلي منكر.

## الفصل الثاني

### التأسيس ومسألة عروبة الإسلام وإسلام العروبة

هذا التأسيس تم على يد سيدنا إبراهيم فهو إذن تأسيس فعلي واقعي وليس خياليا افتراضيا كتأسيس الحضارة الغربية على اللوجوس (العقل) والميتوس (الأسطورة) وعن انفصالها عن أوقيانوس الولادة. والتأسيس هو البحث عن الأساس العميق الصلب الذي نشأت منه الظاهرة، أي كيف ولماذا وجدت؟، هذا وسنعانق الموضوع من خلال مرجعيتين لا يعتورهما الشك النص القرآني والمأثور النبوي الشريف.

## البحث الأول : التأسيس القرآني

وسنبحث في هذا المجال الفرعين الآتيين:

### الفرع الأول : الإسلام قبل البعثة المحمدية

والحقيقة فهذا الترابط العضوي بين الإسلام والعروبة تمتد جذوره إلى ما قبل البعثة المحمدية ونجد مظهره فيما يلي:

(١) دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

(٢) أديان الأمة العربية في الجاهلية

### المطلب الأول

#### دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

من المعلوم أن العرب المستعربة هم ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، لذلك فعندما يدعوان الله تعالى أن يجعلهما مسلمين أو أن يجعل أمتهم مسلمة، فإنما يقصدان الأمة العربية، قال ﷺ: **ذُرْبَنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتْنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَارِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَسَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** البقرة/١٢٨

وفضلاً عن ذلك فهما يدعوان الله أن يبعث في أمتهم رسولاً يبلغهما رسالته، قال ﷺ: **ذُرْبَنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...** البقرة/١٢٩

ولقد استعان سبحانه وتعالى بهذه الدعوة: **وَمَنْ يَرْغِبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسَهُ وَلَقَدْ صِطَّقْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** \* إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين البقرة/١٣٠-١٣١

وقوله ﷺ: **{وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** البقرة/١٣٢، وقوله ﷺ: **{هُوَ**

الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ... {الجمعة/١٦}

ويشهد القرآن الكريم أن تسمية العرب بالمسلمين كانت منذ سيدنا  
إبراهيم: {مِثْلَةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ  
قَبْلِ... {التح/٧٨}

ويؤكد القرآن الكريم أن ما جاء به محمد ﷺ إن هو إلا امتداد لملة  
إبراهيم، قال ﷺ مخاطباً الرسول: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ  
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {التحل/١٢٣}. وقال ﷺ: {قُلْ إِنَّمَا  
هُدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ  
مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {الأنعام/١٦٦}

### المطلب الثاني

#### الاديان في الأمة العربية قبل البعثة

ونقل إليها طوائف بدليل اعتقاد كل منها أنه على حق، قال ﷺ:  
{وَقَالَتِ الْيَهُودُ نَبِيُّنَا نَبِيُّ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى نَبِيُّنَا نَبِيُّ النَّصَارَى نَبِيُّ  
الْيَهُودِ عَلَى شَيْءٍ... {البقرة/١٣٣}

وكانوا يدعون العرب إليهم: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى  
تَهْتَدُوا... {البقرة/١٣٥}  
وقولهم: {وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ  
نَصَارَى... {البقرة/١١١}

وجاء القرآن الكريم ليحسم هذا الخلاف، قال ﷺ: {وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ  
الْكِتَابَ إِلَّا لَتَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ... {التحل/١٤}

وحسم الخلاف باتباع دين ملة إبراهيم، قال ﷺ: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا  
أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ} {البقرة/١٣٥}

وقوله ﷺ: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا... {آل عمران/٦٨}

وقوله ﷺ: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ  
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا... {النساء/١٢٥}

وبطبيعة الحال فالإسلام ينكر الشرك ويندد به قال ﷺ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} النساء/٤٨.

ونجد أن الإسلام جاء علاجاً لوضع عربي كان قائماً قبل الإسلام، ومن هنا تظهر العلاقة العضوية بين دين العرب والإسلام.

### الفرد الثاني : التطلعات العربية

لقد توجه العرب إلى الله ﷻ مقسمين أنه لو استجاب لهم وأنزل لهم كتاباً ليكونن أهدى من اليهود والنصارى، قال ﷻ: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونَ أَهْدَى مِنَ إِحْدَى الْأُمَمِ...} قاطر/٤٤.

وقوله ﷻ: {وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ • لَوْ أَنْ عَدْنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ • لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ} الصافات/١٢٧-١٢٩. وجاءهم هذا النداء: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا} قاطر/٤٢.

ويمان الله عليهم أن لبي حاجاتهم: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} آل عمران/١٠٤.

وقوله ﷻ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} التوبة/١٢٨.

ويخاطب القرآن الكريم الرسول ﷺ بقوله ﷻ: {لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} الأنبياء/١٠.

### المطلب الأول : الله في الوعي العربي قبل البعثة

كان المجتمع العربي الجاهلي يدرك عناية الله به ورعايته لصالحه، ويقيم علاقته بالله على هذا الأساس فيعبد الله ويفعل ما يرضيه.

قال ﷻ: {مُصَوِّرًا ذَلِكَ {وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ} العنكبوت/٦٣.

لكن هل كان الله يُعبد وحده أم معه شركاء ؟؟

بعضهم من عبد الله وحده وهؤلاء الأحناف على ملة إبراهيم، قال  
﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا  
كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ <sup>آل عمران/١٠٧</sup>

أما الكثرة، فقد كانوا يعبدون الله ومعهم غيره هؤلاء هم المشركون،  
وفلسفتهم في ذلك أن عظمة الله يجعلانه من علو المنزلة بحيث لا  
يتصل بالبشرية اتصالاً مباشراً، ولا يد من الهة لونه في المنزل  
تكون الواسطة بينه وبين البشر، وهؤلاء هم الشفعاء، قال ﴿ قَالَ ﴾ {  
وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ  
رِزْقًا} <sup>الزمر/٣١</sup>

وهؤلاء هم بنات الله، قال ﴿ قَالَ ﴾ { وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا  
يَشْتَهُونَ } <sup>التحل/١٥٧</sup>

وقوله ﴿ قَالَ ﴾ { أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ لَهَا وَاجِدًا إِنْ هَذَا نُشَيْءٌ عَجَابٌ } ص/٥١،  
وقوله ﴿ قَالَ ﴾ { مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ } ص/٧.

والشهادة التي يقدمها القرآن الكريم في أن عناية الله بالمجتمع  
العربي قد اقتضت أن يبعث في هذا المجتمع من يحمل رسائل الله تلك  
الرسائل التي تخرج هذا المجتمع من الظلمات إلى النور.

وهذه الدعوة لإحداث تغيرات جذرية في الآراء والعقيدة والتقاليد  
والعادات والقيم الأخلاقية والمعايير السلوكية أي إعادة بناء المجتمع  
العربي من جديد على أساس جديد، وهذا الأساس هو الإسلام، وهو  
البدائل الإلهية للمتغيرات العربية.

## المطلب الثاني : الله والعروبة

وعلاقة الذات الإلهية بالمجتمع العربي تتجلى في الشهادات الآتية:

الشهادة الأولى: وتتضمن أن الله تعالى اتخذ له بيتاً في الأرض  
العربية - مكة المكرمة - وهي الكعبة الشريفة، فكان العرب يدركون  
في جاهليتهم أن لبيت الله حرمة المقدسة، ومن هنا كانوا يحجون  
إليه ويطوفون حوله.

<sup>١</sup> خلف الله ص ٥٧

وامتدت هذه الحرمة إلى المسجد الذي سمي بالكعبة، وإلى البلدة التي تقع فيها الكعبة - مكة - وإلى الأشهر التي يتم فيها الحج ويتحقق فيها الطواف.

قَالَ ﷺ: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ\* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا...} عمران/٩٦-٩٧

وقال ﷺ: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} البقرة/١٢٥

وجاء فيه: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ} المائدة/٩٧

وقال ﷺ: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ\* وَأَن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} الحج/١٧-١٦

وقال ﷺ: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ...} التوبة/٣٦

الشهادة الثانية: وهي التي يقدمها القرآن الكريم في صدد تحقيق الأمن الغذائي استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، كما يقدمها بصدد الحديث عما يجب على العرب القيام به تجاه من تفضل عليهم بالأمن على أنفسهم ومعيشتهم، قال ﷺ: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} إبراهيم/٣٧

وقال ﷺ: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ...} البقرة/١٢٦

وجاء فيه بصدد الموقف الذي يجب أن يفعله للعرب تجاه من تفضل عليهم بالأمن والرخاء: {إِلِيلَافٍ قَرِيْشٍ\* إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ\* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ\* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} سورة قريش



وقوله: {أولم يروا أننا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حويلهم  
أقبل الباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون} <sup>التكوير/١٧</sup>

وقوله: {أولم نمكن لهم حرمًا آمنًا يجنبى إليه ثمرات كل شيء} <sup>القصص/٥٧</sup>

وجاء على لسان محمد ﷺ: {إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي  
حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين} <sup>التكوير/١٧</sup>

الشهادة الثالثة: وهي التي تشهد بأن الله تعالى قد ربط بين الإسلام  
والعروبة بأكثر من رباط، فلقد جعل الله تعالى لغة الوحي هي اللغة  
العربية إذ صارت هذه اللغة لغة دينية، وصار المسلمون يؤدون  
صلاتهم بها، وذهب الفقهاء إلى ضرورة تعلمها من قبل غير العربي  
المسلم حتى يستطيع تأدية شعائره الدينية.

وأصبحت هذه الديانة الإسلامية جاتبا هاما من الثقافة العربية فقد  
صارت المكتبة العربية تزخر بالكتب التي تبحث في شأن الديانة  
الإسلامية من حيث هي عقيدة وشريعة.

ولم يقف الأمر باللغة العربية عند هذا الحد وإنما تجاوزه إلى ما  
يأتي:

١- إن الله سبحانه وتعالى أورد في رسائله إلى الأمة العربية  
التاريخ الديني للأنبياء والمرسلين باللغة العربية، وليس  
باللغة الأصلية للرسل، كما في قصص موسى ويوسف مع  
ملوك الفراعنة وفي قصص سليمان ومملكة سبا وفي قصص  
أهل الكهف.

٢ - إن المولى تعالى قد جعل عروبة الوحي المعجزة الدالة على  
صدق محمد ﷺ وعلى أن القرآن الكريم من عند الله، فقد كان العرب  
يذهبون إلى أن القرآن إن هو إلا إفك افتراه وهو أساطير الأولين:  
{وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة  
من السماء أو آتنا بغذاب أليم} <sup>الأفقال/٣٢</sup>

وعند هذا الحد يتحداهم المولى أن يأتوا بسورة من مثله أو بعشر  
سور مفتريات وعجزوا عن ذلك وثبت القرآن أنه المعجزة، وأنه  
المعجزة العربية الكبرى.

وليست اللغة العربية الرباط الوحيد الذي يربط الإسلام بالعروبة، فهناك رباطان آخران إلى يوم الدين هناك الأزمنة العربية فالقرآن يعهد التقويم الهجري، والأشهر العربية في تأدية الفرائض وخاصة الصوم والحج.

### المطلب الثالث : الرسول والعروبة

كانت الحياة الجاهلية تموج بادئ ذي بدء بالمواقف الدينية، ولكن الرسول بعد أن استوت شخصيته ونضج وجرب رقبض اليهودية والنصرانية واختار طريق سيدنا إبراهيم، قال ﷺ: {قل إني هُديتُ ربي إلى صراطٍ مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا...} <sup>الأعمش/١٦١</sup>

وقال ﷺ: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} <sup>ال عمران/٦٧</sup>

وكون الرسالة والرسول والمرسل إليهم من العرب، إنما يعني أن هذه العطية عطية عربية بحتة، والقرآن الكريم يشهد على ذلك بقوله ﷺ: {نزل به الروح الأمين\* على قلبك لتكون من المنذرين\* بلسان عربي مبين} <sup>الشعراء/١٩٣-١٩٥</sup>

وقوله ﷺ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ} <sup>إبراهيم/٤</sup>

فالصيغة الأدبية في القرآن الكريم هي الصيغة العربية، والذي يتحدى بهذه الصيغة العربية هم العرب، وليسوا الفرس والرومان أو غيرهم.

• قال ﷺ: {...بِلِسَانِ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} <sup>نحل/١٠٢</sup>

• وقوله ﷺ: {كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} <sup>فصلت/٣</sup>

• وقوله ﷺ: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} <sup>الزخرف/٤٤</sup>

• وقوله ﷺ: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكْمًا عَرَبِيًّا...} <sup>الرعد/٣٧</sup> أي  
حكمة عربية.

<sup>١</sup> د - محمد احمد حلف الله، المرجع السابق، ص ٧٠  
<sup>٢</sup> د - محمد احمد حلف الله، المرجع السابق ص ٨٣

إنه يصف الرسل بأنهم أخوة القوم حريصين على مصالحهم أما في حالة الرسول فالمسألة أوضح من ذلك بكثير.

• قال ﷺ: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ...} البقرة/١٥١.

• وقال ﷺ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} التوبة/١٢٨.

والمخاطبون هم العرب قال ﷺ: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} الزخرف/٤١.

ويرى بعضهم أن كثيراً من الأحكام الشرعية كالظهار واللعان وكثيراً من القيم الأخلاقية والمعايير السلوكية الواردة في القرآن الكريم، والتي جاءت بها هذه الرسائل الإلهية، ليست إلا حلولاً للمسائل التي كانت قائمة في العصر الجاهلي.

والكثير من الآليات القرآنية التي جاء بها الرسول في باب المعتقدات الدينية لم تكن إلا البدائل الدينية السماوية للمعتقدات الوثنية التي كانت تمارس بها الحياة الدينية في العصر الجاهلي.

وإلى جانب تلك الرسائل الإلهية المتعلقة بالغزوات والحروب التي قامت بين من أسلم من العرب وبين من ظلوا على دينهم، ولا يعني هذا أن الديانة الإسلامية ليست ديانة عالمية، بل هي ديانة عالمية في قوميتها العربية، وأن علاقة هذه الديانة بالعروبة هي علاقة عضوية لا انفكاك لها.

• وإن قوله ﷺ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ...} يقصد من ذلك العرب أو أهل مكة.

#### المطلب الرابع: الرسائل الإلهية تربط الإسلام بالعربية

اقتضت حكمة الله وإرادته أن تبذر بذور الإسلام في الأرض العربية، وأن يصبح الإسلام النظام الديني للأمم العربية، وأن يصبح ديانة

١ د - حلف الله ص ٨٤ لا تقبل عرضية وتوفيت هذه الأحكام ولتحتفظ على هذا الرأي، ونسرى للثبوت به وبمحت تفريد الحكم بالنسبة لكل قضية بالذات. المرجع السابق، ص ٨٥، ونعتقد أنه قد يكون المخاطب هم العرب، ولكن الحكم يتعلق بالناس جميعاً فمثلاً قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى}، فهذه الآية حكمها بعم الناس جميعاً.

عربية عالمية على أيدي العرب وفي إطار من الثقافة العربية -  
الثقافة القومية للأمة العربية.

هذا المفهوم العربي للإسلام نجده واضحاً عند المفكر العراقي عبد الرحمن البزاز<sup>١</sup>، فقد أصرّ المذكور على علاقة القومية العربية من حيث هي عقيدة وحركة بالشريعة الإسلامية من حيث هي دين وحضارة وفلسفة.

وفي رأيه إن الإسلام انتزع من المواقع، وحول إلى قواعد ومثل عامة مجردة لا صلة لها بالحياة، هكذا أعطي صورة ذات طابع عالمي، ومقطوعة الصلة بالعرب.

ويؤكد د. خلف الله ذلك من خلال دراسة القصص في القرآن وبذر هذه البذور الإسلامية في التربة العربية وكانت الغزوات فتالاً بين عرب وعرب في الأرض العربية وعلى أساس من النظم القتالية العربية<sup>٢</sup>.

ولقد ورد في الرسائل الإلهية التي سجلت وقائع هذه الغزوات أمور عديدة تثبت إلى أي حد جاء الإسلام مرتبطاً بالعروبة.

فهناك أمر الجهاد وهناك أمر الهجرة في سبيل الله فيما يتعلق بها من أحكام دينية إسلامية، وهناك الأفعال في سبيل الله وهناك الأفعال والغنائم، والناس هنا هم العرب الذين كانوا لا يزالون على الشرك.

إن كل هذه الأمور إنما تثبت حقيقة واحدة هي أن وقائع هذه الغزوات قد وقعت في الأرض العربية وحققت أمراً لا يزال قائماً حتى اليوم وهو أن الديانة الإسلامية قد أصبحت بفضل هذه الغزوات الكثرة الكاثرة من أبناء الأمة العربية وأنها قد أصبحت النظام الديني للأمة العربية.

ورسالة إلهية جديدة وجهت إلى الرسول ﷺ تكشف عن ظاهرة اجتماعية تلك هي ظاهرة النفاق<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> المرجع السابق، ص ٩٨.

<sup>٢</sup> كتابه وحي العروبة، دار القلم، القاهرة ط ٢، ١٩٦٣.

<sup>٣</sup> المرجع السابق ص

د - خلف الله المرجع السابق ص ١٠٤.

قال تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} <sup>التكوير/١١</sup>، هذه الرسالة تُحدد أبعاد هذه الظاهرة الاجتماعية الذي وصفها الله تعالى بأنها عرض وحده، قومية القائم بها قال تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ} <sup>التوبة/١٠١</sup>. وقال: {الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...} <sup>التوبة/١٠٢</sup>.

إن تناول الرسائل الإلهية لهذه الظاهرة الاجتماعية التي برزت في قوة أيام الدعوة إلى التغيير العربي من مجتمع جاهلي إلى مجتمع إسلامي هو الذي يكشف لنا عن مدى تفاعل الإسلام مع العروبة في الظواهر الاجتماعية العربية، وفي الوقت نفسه تبين لنا أن الرسائل الإلهية الداعية إلى الإسلام قد زودت العروبة بقيم ثقافية جديدة.

وهناك رسالة جديدة توجه إلى النبي ﷺ في شأن أهل بيته وتصبح أساساً لقاعدة إسلامية هي أن تحريم الحلال وتحليل الحرام ليس ذلك من حق أحد من الناس ومن يفعل ذلك يكون من المفترين.

قال ﷺ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ...} <sup>التحریم/١</sup>

وجاء في رسالة أخرى تتصل بعبادة الله هي قتل الأولاد تضحية في سبيل تحقيق رغبات الشرك.

قال ﷺ: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ...} <sup>الأنعام/١٤٠</sup>.

فالذين يحرمون ما أحل الله بغير علم أي بغير نص ديني واضح صريح قطعي الدلالة إنما يعتدون على الله.

وهناك رسائل موجهة إلى النبي ﷺ تربط الإسلام بالعروبة من ذلك قوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} <sup>هود/١٢٢</sup>. وقوله: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} <sup>التكوير/١١٨</sup>.

وقوله: {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَانِقٌ بِهِ صَدْرُكَ} <sup>هود/١٢٢</sup>.

وقوله: {أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا أَوْ جَاءَنَا مَعَهُ مَلِكٌ} <sup>هود/١٢٢</sup>.

وقوله: {الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَانَهُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ...} <sup>المجادلة/١١</sup>.

<sup>١</sup> المرجع السابق، ص ١٠٥

فهذه الرسائل كانت أداة قوية في تحقيق تغييرات في القيم الثقافية العربية، وهذه التغييرات كانت في سبيل الارتفاع بالمستوى الحضاري للأمة العربية<sup>١</sup>.

وهناك نوع من الرسائل الإلهية وجهت لتكون إجابة عن أسئلة سئل عنها الرسول ﷺ وفتاوى استفتى بها.

من ذلك التي تجيب على سؤال تقدم به أبناء المجتمع الجديد من صدقوا الرسول ﷺ وأخذوا يعملون في سبيل ممارستهم لحياتهم على أساس هذه الدعوة الجديدة وخاصة العلاقة بين الطوائف الدينية المختلفة قال ﷺ: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ...} <sup>البقرة/٤١</sup>

وهذه الرسالة إنما تجيب عن سؤال عربي في المجتمع الجديد، والإجابة عن ذلك يضع قواعد السلوك في المجتمع العربي الجديد وتقوم هذه الإجابة بدور ربط فعال لا يزال حيا فاعلا حتى اليوم هو ربط الإسلام بالعربية في هذا المجال من مجالات الحياة<sup>٢</sup>.

والرسالة الثانية هي التي تجيب عن وضع قاعدة الميراث المتعلقة بالكلافة قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتَكِحُ فِي الْكَلَالَةِ...} <sup>النساء/١١٦</sup>، حيث أصبحت هذه الإجابة قاعدة جديدة ارتبط بها الإسلام بالعروبة<sup>٣</sup>.

وهناك الإجابة عن سؤال يتعلق بالأهلة، وهي أداة من أدوات المواقف العربية وارتباط الإسلام بالعروبة فيها لا يكون في كل حالة من الحالات، بل الربط يظهر في تأدية الفروض الدينية أما في غيرها فالغالب هو التقويم الشمسي.

قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ...} <sup>البقرة/١٨٩</sup>

وهناك رسالة الأشهر الحرم التي كانت مجرمة قبل الإسلام، ثم أقر الإسلام ذلك قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قُلْ فِيهِ...} <sup>البقرة/٢١٧</sup>. قال: {قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ} <sup>البقرة/٢١٧</sup>، فكل ما في هذه الرسالة من وقائع الحياة هي وقائع عربية صرفة.

١ - حلف الله ص ١٠٦  
٢ - المرجع السابق ص ١٠٧  
٣ - المرجع السابق ص ١٠٧

وهناك أسئلة ربطت الإسلام بالعروبة وتتعلق بممارسات الحياة الخاصة والعامّة للإسنان العربي من ذلك قوله تعالى: {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس...} البقرة/٢١٩. وقوله: {... ويسألونك ماذا ينفقون قبل العقوبة...} البقرة/٢١٩. وقوله: {ويسألونك عن المحيض قل هو أذى...} البقرة/٢٢٢. وقوله: {يسألونك عن الأفعال قل الأفعال لله والرّسول...} الأفعال/١، فهذه الإجابات تفتح معايير للسلوك العربي الجديد في الحياة العربية الجديدة التي يرتبط فيها الإسلام بوقائع الحياة العربية.

### المطلب الخامس : الرسائل الموجهة لأهل مكة

لنا وقفة ثانية مع ما يمكن تسميته بالرسائل الإلهية لأهل مكة، فما هي هذه الرسائل؟؟

لا بد للقول بادئ ذي بدء إن هذه الرسائل كانت تبذر الإسلام في القلوب وتدعو أهل مكة لإجراء تغييرات جذرية في آرائهم ومعتقداتهم وقيمهم الأخلاقية وعاداتهم وسلوكهم، وفي هذا الصدد نسجل ما يلي:

١- صدق الرسول في مكة قلة قليلة جداً ونمت هذه القلة بمعدلات ضئيلة جداً وذلك بسبب عنف المعارضة، لذلك كانت الهجرة إلى الحبشة هي المخرج الوحيد لذلك.

٢- كانت الكثرة الكاثرة من صنديد قريش تقف في وجه المسلمين وتضع فيهم العقاب الصارم حتى إذا نما البذر وأبغ وأتي أكله صار التوجيه للأمة العربية لا إلى هؤلاء الصناديد الذين قاوموا الإسلام، قال ﷺ: {... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً...} المائدة/٣، فالرسائل الإلهية تعتبر إلى قادة المعارضة بأوصافهم وليس بأسمانهم تستثني من ذلك حالة أبي لهب، قال ﷺ: {تبت يدا أبي لهب وتب} المدثر/٣٧.

هذا وإتنا نورد بعض هذه الرسائل التي تناولت تلك الصفات الخاصة.

الرسالة الأولى: قوله ﷺ: {أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى} \* أرأيت إن كان على الهدى \* أو أمر بالتقوى} (١٢) الملق/٩.



وقوله ﴿كَلَّا لَا تَطَّعُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ {علق/١٩}.

قال ابن عباس جاء أبو جهل إلى الرسول فقال ألم أنك عن هذا.  
الرسالة الثانية وهي: ﴿ذُرِّي وَمِنْ خَلَقْتِ وَحِيدًا﴾ وَجَعَلْتِ لَهُ مَا لَا  
مَمْدُودًا {الممتزج/١١-١٢}. عن ابن عباس وعن مجاهد أن  
هذه الرسالة وردت في شأن الوليد بن المغيرة.

الرسالة الثالثة هي: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ  
الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ {النمل/٦}.  
وقوله: ﴿وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا...﴾  
{النمل/٧}.

الرسالة الرابعة: نزلت في النضر بن الحارث. وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لَّكُلِّ  
هَمَزَةٍ لَمَزَةٍ﴾ {الهمزة/١}. وقوله: ﴿وَلَا تَطَّعْ كُلَّ حِلَافٍ مَّهِينٍ﴾ {النمل/١٠}،  
وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ﴾ {الماعون/١}.

هذه المعارضة كانت في الأغنياء الأثداء من أهل مكة وكان لهؤلاء  
أتباعهم ياتمرون بأمرهم ويقاومون حركة التغيير الإسلامية.  
والرسائل القرآنية تكشف عن عناصر المقاومة، وفيما يلي الآيات  
التي تصور لنا ذلك.

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾  
{سبأ/٣١}
- ﴿... يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا  
مُؤْمِنِينَ﴾ {سبأ/٣١}
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا...﴾ {سبأ/٣٣}.
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ  
كٰفِرُونَ﴾ {سبأ/٣٤}
- ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ {سبأ/٣٥}.
- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ...﴾ {سبأ/٣٧}.
- ﴿... وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ  
مِّبِينٌ﴾ {سبأ/٤٣}.



تلك هي صورة المعارضة المكية لما تدعو إليه والرسائل الإلهية وهي رسائل موجهة فصدنا إلى المجتمع المكي العربي، وينبغي أن نؤكد هذه الحقيقة بحقيقة قوية أخرى هي أن هذه البدائل اختارها الله تعالى لتحل محل التغييرات العربية أي أن هذه البدائل إنما كانت تبذر في التربة العربية بما يربط الإسلام بالعروبة<sup>١</sup>.

والبديل الأول - وأقوى البدائل - هو الذي عرفت به الديانة الإسلامية فقبل عنها: إنها ديانة التوحيد وهو بديل الشرك العربي، الذي تتعدد فيه الآلهة، مثل: اللات والعزى ومناة الخ... وقد أنكر المكيون هذا البديل، قال ﷺ: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ...} ص/٤١.

- وقال: {... فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} فصلت/٤. وقالوا: {وَقَالُوا قَوْلُنا فِي أَكْثَرِ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ...} فصلت/٥.

- وقال: {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً...} الزخرف/١٩.

- وقال: {قَالَ أَوْلَوْ جِنَّتُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ...} الزخرف/٢٤.

- وأعتقد أنه من حقنا الآن - بعد الشهادات البسيطة التي قدمناها أن نقرر أن الشرك كان عنصراً هاماً في العقيدة العربية الجاهلية والتوحيد هو البديل في الثقافة العربية<sup>٢</sup>.

- وليس يخفى أن المستويين في حضارة واحدة هي الحضارة العربية، فقد تخلى العرب عن عنصر باطل من عناصر عقيدتهم الدينية وأحلوا محله عنصر الحق.

٢- البديل الثاني هو البعث، وما يستتبعه من يوم الحساب، فقد كان العرب ينكرون البعث، ويذهبون إلى أن الميت ليس له حياة إلا حياة الدنيا قال ﷺ: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} الأنعام/٢٦.

<sup>١</sup> د - خلف الله المرجع السابق ص ١٠٤  
<sup>٢</sup> د - خلف الله، المرجع السابق ص ١١٥

- {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} <sup>الأعراف/٣٠</sup>

- {أَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} <sup>القيامة/٤٠</sup>

أما القصص التي وردت في ذلك فعديدة من ذلك قوله <sup>١٦٠/البقرة</sup> {وَأِذْ قِيلَ لِبَرَاهِيمَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ...} <sup>١٦٠/البقرة</sup>، وقوله: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا...} <sup>البقرة/١٥٩</sup>

والخلاصة أن هذا العنصر (البعث) أصبح قيمة ثقافية كبرى في الثقافة العربية.

٣- وهذا البديل يتعلّق بفعل الأولاد، وبعض رسائل الجلال والحرام، قال تعالى: {وَكذلكَ زَيْنَ لَكثيرَ مِنَ المَشركينَ قَتيلَ أولادِهِمُ شركائِهِم...} <sup>الأعراف/٢٢٧</sup> . وقال <sup>٢٧/المؤمنون</sup> {إِنَّ هِيَ إِلا حَيَاتِنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}

فقد علمت الرسائل الإلهية المتعلقة بهذا البديل الإلهي، على إقناع العقول العربية بالحوار مع بعض الشخصيات العربية التي تنكر عقيدة البعث وتستبعد أن يعود الإنسان خلقاً آخر جديداً، وبالقصص التي تشير إلى أن إحياء الموتى وبعثهم قد تحققت أكثر من مرة في هذه الحياة الدنيا، قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ} <sup>القيامة/٣</sup>

فقد نزلت هذه الآية في عمر بن ربيعة، وقال: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} <sup>القيامة/٣٦</sup>

هذه الآيات، ومثلها معها من آيات كثيرة كافية لتقديم الدليل على عطية التغيير والتي قادها في المجتمع العربي النبي العربي ابن عبد الله، ذلك التغيير الذي يستهدف الارتفاع بالمستوى الديني والاجتماعي للأمة العربية.

فالدعوة الجديدة لم تكن مجردة، بل كانت عملية تاريخية عيانية مشخصة ومجسدة تستهدف تصور المجرّد من خلال واقع محدد للأمة العربية، وبهذه العملية ارتبط الإسلام بالضرورة من خلال ذلك بالهدف العام، الذي انطلق من نصوص محددة.

بيد أنه لا بد من ولوج تجربة المدينة لجهة علاقة الإسلام بالعروبة فما هي هذه العلاقة.

نلاحظ أن الآيات المدنية تكلمت كثيراً على البيع والشراء، والكسب والخسارة وتدور كلها حول الإيمان والكفر العمل الصالح، والعمل الفاسد، الأمر الذي يدل دلالة قوية على أن الرسائل الإلهية كانت تعمل دائماً على ربط الجديد بالقديم أي ربط الإسلام بالعروبة، هذا يعني أن هذه الرسائل كان تبرز الثقافة الجديدة بالثقافة الإسلامية، وأنها بذلك ترفع من المستوى الحضاري للأمة العربية<sup>١</sup>.

والآيات في هذا الصدد كثيرة من ذلك قوله ﷺ:

- {... إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ...} <sup>الجمعة/٩</sup>

- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} <sup>الصف/١٠</sup>

- {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} <sup>فاطر/١٢٩</sup>

- {فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ\* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ...} <sup>النور/٣٦-٣٧</sup>

- والشهادة الثانية المؤكدة لعلاقة العروبة بالإسلام تنصب على القديم تأييداً له، أو إحداث بعض التغيير عليه مما يؤكد أن العروبة الحجر الأساس في بعض الأحيان في بناء الإسلام (١).

- والآيات عديدة - وقد تعرضنا سابقاً إليها - وحسبنا هنا أن نعرض لبعض هذه الآيات:

- {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا...} <sup>البقرة/١٥٨</sup>

- عن عائشة، قالت: أنزلت هذه الآية في الأتصار إذ كانوا يخرجون لمناة، وكانوا يخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك، فأنزل الله ﷻ هذه الآية:

١ - حلف الله، ص ١١٢

٢- قوله ﷺ: {...فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ...} البقرة/١٩٨

وعن عائشة قالت: كانت العرب تفيض من عرفات وقريش من المشعر الحرام فأنزل الله ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس يعني عرفة.

٣- قوله ﷺ: {لِّلَّذِينَ يُؤْتُونَ مِن نِّسَانِهِمْ تَرْبِصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...} البقرة/٢٣٤

عن ابن عباس كان الإيلاء السنة والسنتين وواضح هنا أن الحكم الشرعي الخاص بالإيلاء قائم على أساس من عملية الإيلاء في الجاهلية.

٤- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا...} النساء/١٩، فقد قال الكثيرون إن أهل المدينة في الجاهلية كانوا إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابة عصبية، فالقى ثوبه على تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها، فأنزل الله ﷻ هذه الآية.

والشهادة الثالثة: التي تربط الإسلام بالعروبة هي هذه الرسائل الإلهية المدنية الواردة في التشريعات الإسلامية التي قدرت المجتمع العربي في تلقي التغيرات المطلوبة، وهذا ما نلاحظه في القاعدتين الأصوليتين التدرج، والنسخ.

لقد كان التدرج والناسخ والمنسوخ، من أجل الموازنة بين الجديد والقديم، تلك الموازنة التي تحتاج إلى فسحة من الزمن يتمكن فيها الإنسان العربي من طرح القديم وممارسة الحياة على أساس من الجديد.

### المطلب السادس : مواقف شتى لربط الإسلام بالعروبة

قلنا إن الإسلام يسعى جاهداً للمطابقة بين البناء التحتي والبناء الفوقي فيسعى لأن يوجد لكل بناء فوقي بناءه التحتي الملائم، وإذا استثنينا بعض المبادئ العليا الكبرى نكاد لا نرى بناء فوقيا إلا ونرى تغطيته في الواقع.

هكذا كان على الإسلام أن يفجر الواقع العربي ليستخلص مبادئه وأفكاره وأحكامه فيدخل في عراك وجدال وحوار مع الحياة العربية من أجل الوصول إلى صوابته وآماله وقيمه، ومن جهة أخرى فقد وجدنا هذا الملموس العربي عريضا لا حبا إذ كان مجالا للنخل والغربة والفحص والتأمل.

فقد كان على القرآن الكريم أن يعطي تقويماً عاماً على الحياة العربية والوعي العربي والنحال العربية ليقرر صلاحها وعطالتها ومطابقتها وارتكاسها وملاءمتها وفقرها، وغير ذلك من صور التقويم والفحص. ولقد أوردنا بعضاً من صور التقويم التي يمكن أن توضع في أطر وأبواب، وسنلاحق هنا الصور التي لهذه العلاقة العربية الإسلامية كما هو في الآيات:

١- عاتق الإسلام كثيراً رمز الأمة وماضيها وتليدها وذكرياتها، وغير ذلك من أحلام ماضيها وأمجادها كما يتضح من الأمثلة الآتية:

تكلم عن هذه النعمى المكية التي أسبغها علي قريش في رحلة الشتاء والصيف، قال ﷺ: {إيلاف قريش\* إيلافهم رحلة الشتاء والصيف\* فليعبدوا رب هذا البيت\* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف} سورة قريش

أ- تحدث عن كيد أصحاب الفيل ومصرعهم وأبلولتهم الذليلة التي كانت تتويجا لانتقام الله وغضبه، قال ﷺ: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل\* ألم يجعل كيدهم في تضليل} الفيل/١-٢. {ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل....} الفيل.

ولا يخفى أن عام الفيل هو هذا العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وأن القرآن الكريم تحدث عن كيفية هزم الله الجيش المعادي بأن أرسل إليه طيراً أبابيل.

ج- لم يضمن القرآن الكريم عن وصف مملكة سبأ وجلالتها وعظمتها وسلطانها، قال ﷺ: {لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم وأشكروا له بلدة طيبة ورب غفور} سبأ/١٥.

اعتمد الإسلام إشعاع الحرم متكلماً عن المدن الشمالية كنماذج لمدن عربية مصابة باللعنة الإلهية، فالقرآن الكريم يدمج بقوة تقليد الشمال العربي المنسي، ويضعه في أساس ذاكرته وتفكيره المحض عربيين .

وكثيرة هذه الآيات التي تكشف عن العروبة بصفتها حاملة للدين الجديد، ومن هذه الآيات:

- قوله ﷺ: {...اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...} /الأنعام/ ١٢٤.
- وقوله ﷺ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...} /البراهيم/ ٤١.

يقول الطبري في تفسيرها: يقول تعالى ذكره: وهكذا أوحينا إليك يا محمد قرآنا عربيا بلسان العرب لأن الدين أرسلت إليهم قوم عرب، فأوحينا إليك هذا القرآن بالسنتهم ليفهموا ما فيه من حجج الله وذكره لأننا لا نرسل رسولا إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم .

ثم يمضي قائلا: غير جائز أن يخاطب جل ذكره أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب، لأن المخاطب والمرسل إليه إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه، فما له قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده سواء .

- قوله ﷺ: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} /التوبة/ ١٢٨.

قال ابن كثير القرشي: منكم وبلغتكم ويعز عليه الشيء الذي بعثت أمته ويشق عليها، وقال جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي والمغيرة بن شعبه لرسول كسرى... إن الله بعث فينا نبيا فعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته .

وهذه الآيات هي التي جعلت الدكتور محمد أحمد خلف الله، يقول: إن الإسلام ليس إلا النظام والدين للأمة العربية أولا وقبل كل شيء .

١ د. برهان زريق: الوطن في الإسلام، دار الأنصار، دمشق ١٩٩٧، ط ١ ص ٣١٨

٢ تفسير الطبري ج ٢٥، ص ٧

٣ د. خلف الله ص ١٢٢

٤ تفسير القرآن العظيم لابن كثير، المجلد الثالث ص ٤٠٣

٥ د. محمد أحمد خلف الله / العروبة والإسلام، ص ١٥

- قوله ﷺ: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ\* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ\* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ\* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} الشعراء/٤٣-٤٤-٤٥
- وقوله ﷺ: {أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ.....} الأعراف/١٣٠. {أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ...} الأعراف/١٤١
- وقوله ﷺ: {فَاتِمَا يَسْرَتَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} المدخان/٥٨.
- وقوله ﷺ: {... إِمَّا أَنْتَ مُنذِرٌ وَكُلُّ قَوْمٍ هَادٍ} الرعد/٧.
- وقوله ﷺ: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ.....} الرعد/٣٠.
- وقالت خديجة لورقة عن محمد ﷺ: إنه نبي هذه الأمة<sup>١</sup>.
- قوله ﷺ: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا...} الرعد/٣٧. (وسبق لنا مناقشتها).
- قوله ﷺ: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا...} الشورى/٧.
- قوله ﷺ: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} الزخرف/٤٤.
- وتفسير هذه الآية عند الطبري - أن نزول القرآن شرف للرسول ولقومه، لنزوله بلغتهم وسوف تسألون عن القيامة بحقه<sup>٢</sup>.
- نزلت آيات كثيرة تعكس حياة العرب وهمومهم الاجتماعية، ومنها الآيات التي تبدأ بأسئلة وتساولات مستمدة من البيئة العربية، وتدور حول مسائل يعانيها العرب، ويريدون لها حلا.
- وقد أشرنا سابقاً إلى ذلك في قوله ﷺ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...} البقرة/٢١٩ - {... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى...} البقرة/٢٢٠. {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ...} البقرة/٢٢٢.

<sup>١</sup> تاريخ الأمم للطبري ج ٢، ص ٢٠٧.  
<sup>٢</sup> شبلي العيسمي، ص ٥١.  
<sup>٣</sup> شبلي العيسمي، ص ٥٧.



وهناك الآيات الكثيرة التي نزلت في أشخاص في الجاهلية في وقائع محددة (النضر بن الحارث - أبو لهب أمية بن أبي خلف).

أضف إلى ذلك، فقد كانت أكثر الصور التشبيهية في القرآن مطبوعة بطابع البيئة العربية، مثل عبارة {تجري من تحتها الأنهار}.

لقد كان القرآن الكريم رغم بلاغته وإعجازه - مفهوماً عند العرب لأنه جاء (على طرفهم وأساليبيهم)<sup>١</sup>، ولناخذ مثالا على ذلك في قوله {كلما نضجت جلودهم بدلنا لهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب}، فهذه الصورة، تؤثر في العرب آنذاك، وتفيد في تخديرهم ولوا أن القرآن الكريم أشار إلى التعذيب بالكروسي الكهربائي مثلا، لانتفى المطلوب.

قوله ﷻ: {فَاتِمَا يَسْرَتَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} النخاع/٥٨.

فقد كان القرآن الكريم يدعوهم إلى التفكير والتمعن بالقرآن الذي أنزل بلغة العرب، وبما في ذلك من خير لهم وتعريزا لمستقبلهم؛ وقوله ﷻ: {قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} الأنعام/١٦٥، فقد كان القرآن يسعى لطمانتهم وتشجيعهم على قبول الإسلام والاتضمام إليه، عندما كان يؤكد لهم أن تعاليمه ليست غريبة عن تراثهم وتاريخهم، هو بعث لدين جدهم إبراهيم.

قوله ﷻ: {وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين} البقرة/١٣٥.

رغم وجود ديانات سماوية تدعو إلى وحدانية الله في جزيرة العرب كاليهودية والمسيحية، فالعرب لم يقبلوا عليها ولم يتحمسوا لهما لأنهما لا يعبران عن تراثهم ومشاعرهم القومية كالإسلام.

ذلك أن كل دعوة فكرية إنما تجد تأسيساً فكرياً لها، وقد وجد الإسلام أساسه في الجنتية دين إبراهيم وسيدنا إبراهيم كان شخصية عراقية بالولادة عربيا في قوميته التي ترجع إلى وطنه الأصلي الجزيرة العربية، فقد كان شخصية عظيمة، وزعيما سياسيا وروحيا، لعب

١ شيلي العسمي، ص ٥٨  
٢ على حد قول الرمخشري انظر شيلي العسمي، ص ٥٨  
٣ المرجع السابق، ص ٥٩  
٤ شيلي العسمي ص ٦٠



أكبر دور في تاريخ الإنسانية، وهو عربي متصل بالقبائل العربية في جزيرة العرب، وليست له أية صلة بعهد موسى، واليهود جاؤوا بعد عهده بحوالي سبعمئة عام<sup>١</sup>، خلافا لعروبة إسماعيل كما سبق قوله.

وقوله ﷺ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...} البقرة/١٤٤

وقوله ﷺ: {وَلَنُنَزِّلُ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ} البقرة/١٤٥

وكان العرب يرغبون في أن تكون الكعبة قبلتهم في الصلاة تمييزاً لهم عن أصحاب الديانات الأخرى، فحقق لهم الإسلام ذلك وفق الآيتين السابقتين.

قوله ﷺ: {..... وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ..} البقرة/١٢٥

جاء في تفسير القرآن العظيم لابن كثير إنه لما طاف النبي ﷺ وقال له عمر هذا مقام أبينا قال: نعم.. قال أفلا تتخذة مصلى.

فأنزل الله عز وجل الآية السابقة<sup>٢</sup>.

قوله ﷺ: {...وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَلَا تَبِينَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...} آل عمران/١٠٣

إذ كان الرسول ﷺ يذكرهم بأن في الإسلام مصلحة لهم ونعمة لأنه السبيل إلى توحيدهم بعد أن تعذر عليهم تحقيق الوحدة بسبب التناحر القبلي.

قوله ﷺ: {كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} فصلت/٣

فقد ذهب عقبه بن ربيعة بتكليف من قريش لإقناع الرسول بالعدول عن دعوته مقابل ما يريد من مال أو رئاسة فقال له الرسول الآية السابقة وبعدها عاد عقبه على قريش قائلاً: خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> العرب واليهود في التاريخ، أحمد موسة ص ٢٥٠

<sup>٢</sup> مجلد أول صفحة ١٦٩

<sup>٣</sup> شبلي العسيمي صفحة ٦١

<sup>٤</sup> شبلي العسيمي صفحة ٦١

قوله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ  
بِالْمُهْتَدِينَ} {الفصل ١٥٦/}

يقول الطبري أنه بعد أن نزلت على الرسول ﷺ الآية: {وَأَنْذِرْ  
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} الشعراء/٢٤٤، طلب الرسول ﷺ من علي بن أبي  
طالب بأن يقيم وليمه لقادة قريش فصنع لهم مدا من طعام وحضر  
حوالي أربعين، ثم قال لهم النبي ﷺ: يا بني عبد المطلب إني والله ما  
أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به إني قد جئتمكم  
بخير الدنيا والآخرة، ومن الواضح أن مخاطبتهم كانت بمنطق البيئته  
أي بأنهم سيملكون الدنيا والآخرة وأن ما جاءهم به أفضل مما جاء  
به أي عربي .

قوله ﷺ: {وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ  
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ...} {الأنفال/١٢٣}، فسياق الكلام يشير  
إلى أن المخاطبين هم العرب، وإن فضل الإسلام في توحيدهم وجمع  
كلماتهم مع إضفائه الصفة الرسالية والسماوية على هذه المسألة،  
والتبويه بدور المؤمنين في تأييد الرسول ونصره قوله ﷺ:  
{وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ  
الْبَنَاسُ فَأَوَّاكُم وَأَيْدِكُمْ يَنْصُرُهُ...} {الأنفال/١٢٤}، وقوله ﷺ: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ  
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ  
...} {آل عمران/١١٠}، وقوله ﷺ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا  
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...} {البقرة/١٤٣}.

إن هاتين الآيتين نزلتا في وقت لم ينتشر فيه الإسلام بين العرب ولم  
يخرج بعد إلى خارج الجزيرة العربية، وبالتالي فإن المخاطبين من  
الوجهة العملية والواقعية هم العرب المسلمون .

وهذا ما أكده الإمام محمد عبده في تفسيره للآية {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ}:  
هذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولا وهم النبي ﷺ  
وأصحابه الذين كانوا معه منهم الذين كانوا أعداء فآلف بين قلوبهم  
فكانوا بنعمته إخوانا .

1 شلي العيسمي ص ٦٢  
2 شلي العيسمي ص ١٠٥  
3 وفي تفسير الحلالين: أن الأرض هنا مكة والناس أهلها.  
4 شلي العيسمي ص ١٣٧

ومجمل القول إن المسلمين المخاطبين، لم يكونوا إلا عرباً قبلوا تعاليم الإسلام، فالصفة الإسلامية هي تعريف جديد لهم لا يغير سمة العروبة فيهم، وهكذا فإن الآيتين السابقتين إذ تخاطبان العرب المسلمين بوصفهم خير الأمم فلأنهم آمنوا بالإسلام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ونشير بالمناسبة إلى وجود آيات كثيرة تؤكد نزوله بالعربية مثل قوله ﷻ:

- {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} يوسف/٢ - {... وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مَبِينٌ} الشعراء/١٠٣.

- {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} الزمر/٢٨ - {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} الأعراف/١٧.

- {كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} فصلت/٣.

- {... وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ} الأعراف/١٢.

يقول الدكتور جواد علي: (لو كان القرآن قد نزل بلغة قريش وحدها فلم كان الصحابة من قريش مثل أبو بكر وعمر وغيرهما يتحبرون في تفسير ألفاظ وردت فيه أو يلجأون إلى الشعر يستعينون به في تفسير القرآن والشعر هو شعر العرب فإن الشعر ديوان العرب، وكان إذا مثل عن شيء في القرآن أنشد شعرا.

١- تكلم الإسلام عن فخر العرب بالإسلام واعتزازهم وانتصارهم به؛ وإنه عونهم وملاذمهم وأريجهم الروحي قال ﷻ: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} الأعراف/١٤.

٢- لقد حقق العرب بالإسلام التوحيد السياسي فكان أشبه لا بالمعجزات، بل بالمستحيلات، قال ﷻ: {وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} الأنفال/٦٣.

ومما هو خارج عن نطاق الجدل أن هذا التوحيد لم يخل من طابع قومي ومن ملامح عربية واضحة، ومن ثم فهذا المجتمع الذي كان ثمرة من ثمرات الدين الجديد، كان يحس بشخصية متميزة كمجتمع

عربي يواجه تحديات الأعداء الذين زحفوا عليه، لاحتوائه حضارياً وسياسياً، وما فتئوا يترصدون به الدوائر حتى بعد أن دانت لهم شبه الجزيرة العربية، واتصهت جموعها في بوتقة المجتمع الإسلامي الجديد، وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة بقولها: **لَوْ اذْكُرُوا اِذْ اُنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْاَرْضِ تَخَافُونَ اَنْ يَسْبِخَتْكُمْ النَّاسُ فَاَوَاكُم وَاَيُّدِكُمْ يَبْصِرُهُ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** <sup>الأنفال/ ٢٦</sup>.

وتحقيقاً لهذا التوحيد فقد وجدت الدولة الجديدة نفسها ملزمة للتخلص من تلك الجيوب غير المأمولة التي مارست ضدها الغدر والخيانة في قلب القاعدة الجديدة لهذا الدين الجديد.

وبالمقابل فلم تعد هذه الدولة الوليدة تقبل من سكان الجزيرة العربية إلا الخيار بين الإسلام والسيوف بينما كان في وسع الذين سكنوا باقي أجزاء الدولة العربية أن يدفعوا الجزية.

ولقد شاركت القبائل العربية غير المسلمة في القتال ضد الروم والفرس، فأعطت هذه المشاركة لذلك الكيان السياسي الذي تمثل في الإمبراطورية العربية طابعا عربيا وقوميا، وللسبب نفسه كانت أرض شبه الجزيرة العربية كلها عشوية، في حين أن أرض العراق والشام ومصر كانت خراجية.

ونوجز هذا البحث بالقول إن هذا التوحيد الذي حققه الإسلام للجماعية العربية الأولى كان ذا طابع قومي ومتسما بملامح عربية واضحة، وإن هذا المجتمع الذي كان من ثمار الذين الجديد كان يحس بشخصية متميزة كمجتمع وفي هذا المقام يقول الدكتور عمارة: لتطبيق هذا الدين في الحياة العربية سمات قومية وقسمات عربية، وإذا كان التوحيد هو جوهر الإسلام، فإن وحدة الشخصية العربية وبناء وحدتها ودولتها الوجه الآخر، لأن أحداث ظهور هذا الدين ومعارك نبيه بالنسبة للعربي له دلالات قومية.

وهذا الطابع العربي للوحدة التي تمثلت في المجتمع الجديد الذي بناه الإسلام لم يكن طابعا عنصريا ولا عرقيا، بل لا نغالي إذا قلنا إنه كان نتاجا لفكر يستهدف ويستشرف أعماق الأفكار القومية ذات المحتوى الإنساني النبيل.

وبإيجاز نقول مع الدكتور محمد عمارة الإسلام ثورة عربية<sup>٢</sup>.

١ د- برهان زريق، الوطن في الإسلام، ص ٣١٨

٢ كتابة الوعي بالتاريخ، ص ١٣٠

٣ كتابة: فجر اليقظة العربية، دار الوحدة، بيروت، ط ٣، ص ٩٨١ ص ٤١ ص ٥١

## البحث الثاني : التأسيس الرسولي لعلاقة الإسلام بالعروبة

إنه لأمر يدهي أن يكون الرسول ﷺ هو القرآن على الأرض تبياناً وتوضيحاً وتجسيدا، وأن تظهر هذه المحجة البيضاء واضحة لديه في علاقة العروبة بالإسلام لا سيما أن العروبة وطنه، ومن مثل النبوة في حبه للوطن، وهذا ما وجدناه عند خروجه ﷺ من مكة مهاجرا فقد التفت إليها قائلا:

والله لولا أهلك أخرجوني منك لما خرجت.

ولئن كان مشروع الرسول ﷺ - بصورة عامة - يدخل في إطار البنين والتوضيح والشرح إلا أنه في علاقة الإسلام بالعروبة، كان على المشروع الرسولي أن يختار القاعدة الثقافية البشرية للمشروع الإسلامي، هكذا - كما مر منطقي - اختار العرب لذلك، وهذا أمر يدهي لأنه ما من مشروع عام - كالإسلام - إلا وبحاجة إلى قاعدة خاصة متسامحة تحمل المشروع العام، وهذا ما نلاحظه في برهنتنا المعاصرة.

فها هي مظاهر التعبير للمشروع العام في روسيا التي كانت أبرز دولة في حمل المشروع الشيوعي، والشيء نفسه بالنسبة للولايات المتحدة في حمل المشروع الرأسمالي.

ما هي علاقة المشروع العام الإلهي بالقاعدة البشرية؟ وكيف ذابت هذه القاعدة البشرية بالمشروع العام وحملته فيما يلي الأحاديث النبوية التي أسست لذلك؟.

١- عندما يتجادل نفر من أبناء العرب الأصلاء مع نفر من الذين اندمجوا في الكيان الجديد يغضب الرسول، ويدرك أن هنالك حاجة ماسة للتأكيد على المعيار غير العرقي للعروبة، باعتباره هوية المجتمع الجديد، فيصعد منبر مسجد المدينة، ويخطب الناس قائلا: أيها الناس ليست العربية بأحدكم من أب وأم، وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي .

<sup>1</sup> كتابه عن العروبة والإسلام: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١ آذار / ١٩٨٦، ص ٧٣

وفي تعليقه على ذلك، يقول الدكتور عصمت سيف الدولة: والحق أنه حيث نبحث عن حضارة إسلامية خالصة من الآثار الشعوبية لا نجدتها إلا في الحضارة العربية، وحيث نبحث عن حضارة عربية خالصة من الآثار القبلية لا نجدتها إلا في الحضارة الإسلامية، كذلك أصر الأكثر علما بالتاريخ على التوحيد بين كلمة (مسلم) وكلمة عربي في الدلالة على الحركة الحضارية يوم كان العرب ينتصرون للإسلام، فينتصر الإسلام لهم<sup>١</sup>.

وفي حديث ثان للرسول ﷺ يقول: مولى القوم منهم وقوله: لحمة الولاء كلحمة النسب، وقوله يخاطب المسلمين عند إسلام أحد الأشخاص: عربوا أحاكم.

وتقول الصحيفة، وهي أول دستور لحقوق الإنسان وشهادة ميلاد الأمة العربية<sup>٢</sup>: هذا كتاب من محمد ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة دون الناس.

فليلحظ أن هذه الأمة لم تقم على عرق أو عنصرية وأثنية بل مفتوحة لكل الناس.

وجاء في الصحيفة إن يهود بني عوف أمة من المؤمنين، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف (ونكر هذا النص بالنسبة ليهود بني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس وبني ثعلبة، وبني جفنه)، فهذه النصوص السابقة التي مثلت شهادة ميلاد الأمة العربية كافية لإعطائنا صورة عن تلك الدولة التي نشأت بعيدا عن كل تعصب أو عنصرية.

٢- وقول الرسول ﷺ: أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي.

٣- تقدير الرسول لحلف الفضول، ذلك الحلف الذي دعا إلى وحدة العرب على مبدأ نصر المظلوم وإطعام الجائع.

١ د - محمد عماره: فجر اليقظة القومية، المرجع السابق ص ٥١  
٢ المرجع السابق ص ٦١.  
٣ شبلي العيسوي، ص ٥٤  
٤ د - عماره: التراث في ضوء العقل، ١٨٧

- حديثه مع عمه أبي طالب الذي يربط التوحيد الديني بالتوحيد السياسي، وقوله: يا عم ألا أدعوهم إلى كلمة يقولونها تسدين لكم بها العرب، وتؤدي لكم العجم الجزية<sup>١</sup>.

- تعليقه على معركة ذي قار وقوله: اليوم أول يوم انتصر به العرب على العجم وبني نصرنا.

- قوله في الحديث الذي يرويهِ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: لا يبغض العرب إلا منافق.

- الهم الذي انتاب الرسول لأنه لم يجد لأمته قبلة يهفو إليها قلبها وتهز مشاعرها<sup>٢</sup>.

- تلخص القول - وكما جاء في قول الأعشى - بأن الرسول محمدا صلى الله عليه وآله هو سيد الناس وديان العرب، والأمة المحمدية (العروبة) انتماء، والإيمان بالله اعتقاد، والمسيحي ينتمي إلى محمد انتماء وتاريخها ولغة وحضارة ووطنًا وجنسا، ولا يخضع إذن للتقسيم الديني، فمحمد خلاصة العرب وأصفي ما فيهم ومن أحبه فقد أحب أرضه ووطنه وأهله وعشيرته<sup>٣</sup>، وهذا الجمع الذي أراده الله بين العروبة والإسلام، جمع التاريخ والجغرافيا والتشريع والعادات والفكر والثورة والسياسية والقيم الأخلاقية<sup>٤</sup>.

لقد سكنت رسالة السماء في قلب نبيها، فكان عنصر الحياة لأمتنا من تفاعل هذين العنصرين: العروبة والإسلام ودعانا الله أن نفعل هذا التفاعل بينهما، فالرسالة عنصر أول والعروبة عنصر ثان، والتفاعل تم في لحظة إرادة إلهية<sup>٥</sup>.

يقول سيرتوماس أرنولد: وقد جمعت فكرة الدين تحت زعامة واحدة في نظام سياسي واحد، لذلك النظام الذي سرب مزاياه فسي سرعة

١ - عمارة: التراث في ضوء العقل ص ١٨٩

٢ - عمارة: التراث في ضوء العقل ص ١٦٤

٣ - عمارة: فجر البقعة القومية ص ٥٥

٤ - محمد خالد عمر: الإسلام والعروبة ص ٤٢

٥ - محمد خالد عمر: الإسلام والعروبة ص ١١

٦ - محمد خالد عمر: الإسلام والعروبة ص ٥٩

٧ - د. حسن إبراهيم حسن: الإسلام والعروبة ج ١ ص ٦١

٨ - د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ج ١ ص ١٠



تبعث على الدهشة والإعجاب، وإن فكرة واحدة هي التي حققت هذه النتيجة تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية<sup>١</sup>.

لقد جمع الإسلام قبائل العرب تحت لوائه، وألف بين قلوبهم، وقضى على العصبية الدينية، وبذلك قامت في بلاد العرب حكومة واحدة، وكان حماس العربي للإسلام وبذل النفس والنفيس في سبيل نشر الدين حتى دانت قبائل العرب، وأصبحت ترى في الإسلام رمز وحدتها وشعار مجدها وقد جمعهم على الاستجابة في نشر الدين ما ضمن فيهم ثواب الدنيا والآخرة<sup>٢</sup>.

وتكملة لهذا البحث نسوق بعض الأحاديث النبوية التي قيلت في العرب:

- إذ نلت العرب ذل الإسلام<sup>٣</sup>.

- من أحب العرب فقد أحبني ومن أبغض العرب، فقد أبغضني<sup>٤</sup>.

- ومن غش العرب لم يدخل في شفاعتي، ولم تنله مودتي<sup>٥</sup>.

وروى الترمذي عن سلمان الفارسي قوله: قال لي رسول الله ﷺ يا سلمان لا تبغضني، فتفارق دينك فقلت يا رسول الله كيف أبغضك وبك هدانا الله، قال: تبغض العرب، فتبغضني<sup>٦</sup>.

- من أحب الله ورسوله أحب العرب، ولغتهم العربية<sup>٧</sup>.

هذا وتجدر الإشارة إلى ما يلي:

١- عامل الرسول ﷺ أهل مكة وزعماءها كأبي سفيان بروح العفو والتسامح، وراعى جانباً من تقاليدهم وبخاصة بنى أمية حتى لا يظنوا أن انتصار الإسلام يحمل معه انتصاراً لبني هاشم، وربما كانت مصاهرته لأبي سفيان تحمل هذا

١ د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ج ١ ص ١٩٤

٢ د. حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ج ١ ص ١٩٧

٣ شبلي العيسمي ص ٥٤

٤ شبلي العيسمي ص ٥٤

٥ كثر العمال في سنن الأفعال والأفعال ج ١٢ ص ٤٢ و ٤٤

٦ سنن الترمذي: مجلد ٥ ص ٣٧

٧ د. معن زياد طه: الندوة القومية العربية والإسلام مركز دراسات الوحدة العربية



المعنى، بل إن الرسول عزل سعد بن عبادة عندما أفصح عن رغبته بالتشدد مع قريش، وعين ابنه قيساً بدلاً عنه<sup>١</sup>.

٢- بعد غزو المسلمين لحنين وحصار الطائف، أعطى الرسول من نصيبه المؤلفة قلوبهم، مئة من الإبل لكل من أبي سفيان وابنه معاوية وحكيم بن حزام والحارث بن هشام وسائر الأشراف ورؤساء العشائر ممن تألف قلوبهم بعد فتح مكة وعددهم أحد عشر شخصاً.

قال الرسول لأبي رافع إذ كان مولى الرسول ثم اعتقه عندما بشر بالإسلام: يا أبا رافع نحن أهل البيت لا تحل لنا الصدقة، وإن مولى القوم منهم، أي لا تحل الصدقة أيضاً على أبي رافع لأنه من أهل البيت، وقال ذكوان (مولى الحسين بن علي في معرض رده على بن الزبير بن العوام بحضور معاوية): هذا العبد خير منك: قال رسول الله ﷺ: مولى القوم منهم: فأنما مولى الرسول، وأنت الزبير بن العوام، فنحن أكرم ولاء وأحسن فعلاً.

- قال ﷺ: إذا سألتكم الحوائج فاسألوا العرب، فإنها تعطى لثلاث خصال: كرم أحسابها، واستحياء بعضها من بعض، والمواساة لله.

### الموقف من الحضارة العربية الإسلامية

هذا الموقف له مظاهر متعددة شجياً ونقداً وتخريجاً، حيث كان لذلك مواقف وأصداء على السنة الفاعلين الاجتماعيين، وعلى السنة الشعوب المختلفة، ونحن هنا سنقتصر على بحث ذلك في موقف المسيحيين العرب، ثم موقف الجاحظ بصفته أنموذجاً يمثل تيار الموالي المستنير، ثم نتكلم على رأي ابن تيمية المتشدد باعتباره يمثل الخط الشعبي لدى أهل السنة.

١ المغازي: للواقدي، ج ٢، ص ٨٢٢

٢ تلميح سيرة ابن هشام ص ٣٧٧

٣ طبقات ابن سعد، المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٥٣

٤ العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي بالجلد ٤، دار الكتاب العرب، بيروت ص ١٥

٥ د - عادل العوا: المزاج الحضاري في الفكر العربي دمشق المطبعة الجديدة دمشق ٩٩٢ دار شمال للطباعة والنشر، ط ص ١٨

## (١) المسيحيون العرب:

إن العرب المسيحيين في العراق والشام انضموا إلى إخوانهم العرب، ففي العراق اشترك حشد كبير من النمر وبني تغلب وهم نصارى مع قوات المسلمين بقيادة المثنى بن حارثة في معركة البويب، وقالوا: نقاتل مع قومنا، ويروى الطبري عن أخبار هذه المعركة أن فتية من بني تغلب عبروا عن اشتراكهم مع قومهم المسلمين بقولهم: نقاتل العجم مع العرب<sup>١</sup>.

وفي حين أنهم تلقوا الجيوش العربية الإسلامية بالترحاب، فإن المحاربين تحت لواء الفرس والروم من غير العرب كانوا أشد وأعنف في مقاومة العرب المسلمين.

ويذكر اليعقوبي في تاريخه أن يزيد بن أبي سفيان أرسل إلى جبلة بن الأيهم الغساني لما انهزم الروم في اليرموك، يقول له: اقطع علي أرضك بالخراج وأداء الجزية، فقال: إنما يؤدي الجزية العلوج، وأنا رجل من العرب<sup>٢</sup>.

وفي رواية أخرى أن جبلة كان قد أعلن إسلامه قبل معركة اليرموك مع جماعة من قومه، وانحاز للأصوار، وقال لهم: أنتم أختنا وبنو أينا وأظهر الإسلام والذين اشتركوا مع عرب الجزيرة في الفتوحات الإسلامية التي شملت إمبراطورتي الفرس والروم هم العرب الذين كانوا تحت نفوذها، وكانوا يعتبرون المسلمين إخوانهم العرب المؤمنين، وفي ذلك يقول بروكلمان: لقد كان فريق من العرب يعيش في ظل الإمبراطورية البيزنطية، كما كان فريق منهم يعيش في ظل الإمبراطورية الفارسية، فمن الضروري أن يحمل إليهم إخوانهم المؤمنين بركات الإسلام وأسراره، ويضمونهم إلى الدولة القومية التي أنشئوها حيث كان لذلك مواقف وأصداء على ألسنة الفاعلين الاجتماعيين، وعلى ألسنة الشعوب والأقوام المختلفة.

<sup>١</sup> الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، ص ٧٣  
<sup>٢</sup> تاريخ اليعقوبي: ج ١، ص ١٣٢

## ٢) ابن تيمية بصفته أنموذجاً لأهل السنة

يقيناً يعتبر ابن تيمية، من أهم من كتب عن العروبة من السلف الصالح، بل إن كتابه (اقتضاء الطريق المستقيم) من أهم الكتب التي امتدت واتسعت للحديث أهمية العرب ودورهم وأخلاقهم ومناقبتهم وخلالهم الحميدة.

فقد ابتدأ حديثه بالمقارنة بين العرب والعجم (فسيلاحظ القارئ أنه استعمل كلمة العجم مع أن من هؤلاء -ليس بالقليل- مسلمين).

يقول المذكور<sup>١</sup>: وذهبت فرقة من الناس إلى أنه الأفضل لحب العرب على حب العجم، وهؤلاء يسمون الشعوبية لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل، فقبل القبائل للعرب والشعوب للعجم، ومن الناس من قد يفضل بعض أنواع العجم على العرب، والغالب أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن نوع من النفاق، ولهذا جاء في الحديث حب العرب إيمان وبغضهم نفاق.

وينبري ابن تيمية، فيتعرض للمنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ في حب العرب وبيان فضلهم وأهميتهم، فهو ﷺ خيار من خيار، وصفوة من صفوة.

ولقد صعد الرسول ﷺ المنبر فقال<sup>٢</sup>: من أنا... فقالوا: أنت رسول الله فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب... قال: إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً، قال الترمذي هذا حديث حسن.

والفريقان هما العرب والعجم، ثم جعل الله العرب قبائل فكانت قريش أفضل قبائل العرب، ثم جعل قريشاً بيوتاً فكانت بنو هاشم أفضل البيوت<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> اقتضاء الطريق المستقيم ص ٧١  
<sup>٢</sup> اقتضاء الطريق المستقيم ص ٧٢  
<sup>٣</sup> اقتضاء الطريق المستقيم ص ٧٢  
<sup>٤</sup> اقتضاء الطريق المستقيم ص ٧٤

فقانون الخيار يستتبع قانون آخر هو قانون المحبة، يقول ابن تيمية:  
والحديث صريح بفضل العرب على غيرها، وقد بين ﷺ: أن هذا  
التفضيل يوجب المحبة لبني هاشم، ثم لقريش ثم للعرب.

ففيما رواه أحمد ومسلم والترمذي: إن رسول الله ﷺ قال إن الله  
اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى  
من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم<sup>١</sup>.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: أنا خيار من خيار من أحب العرب فيحبنى  
ومن أبغض العرب فيبغضني لبغضهم، قال رسول الله ﷺ: يا سلمان  
لا تبغضني فتفارق دينك قلت يا رسول كيف أبغضك وبك هداني الله  
قال: تبغض العرب فتبغضني، قال الترمذي هذا حديث حسن، فحسب  
العرب من الإيمان وبغضهم من الكفر<sup>٢</sup>.

قال رسول الله: أحب العرب لثلاث لأنني عربي، والقرآن عربي  
ولسان أهل الجنة عربي، قال الحافظ هذا حديث حسن<sup>٣</sup>.

واستطرد ابن تيمية في كيل المديح إلى العرب، فهم أفهم من غيرهم،  
وأقدر على البيان والعبارة ولسانهم أتم الألسن بيانا وتمييزا للمعاني  
وحدقا بجمعها في اللفظ القليل، والعمل عندهم مبناه الأخلاق وغرائر  
أطوع للخير من غيرهم، فهم أقرب إلى الحياء والهمة والشجاعة  
والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة، وقد أجمع لهم الكمال  
بالقوة الكامنة فيهم، والكمال الذي نزل إليهم بمنزلة أرض جيدة في  
نفسها لكن هي معطلة عن الحرث، قد نبت فيها شجر العضاة  
والعوسج وصارت مأوى الخنازير والسباع تزرع بها أفضل الحبوب  
والثمار فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق  
الله بعد الأنبياء، وصار أفضل الناس من تبعهم بإحسان إلى يوم  
القيامة من العرب والعجم<sup>٤</sup>.

١ اقتضاء الطريق المستقيم ص ٧٥

٢ اقتضاء الطريق المستقيم ص ٧٥

٣ اقتضاء الطريق المستقيم ص ٧٦

٤ اقتضاء الطريق المستقيم ص ٧٧

## موقف المسيحيين العرب

ولن نستطيع متابعة استقصاء هذا الموقف المجلي ومدى مساهمتهم الحية في الحضارة العربية الإسلامية، وحسبنا عرض بعض الأسماء:

• حنين بن بلوغ (نحو ١١٠ هـ — ٧٢٨ م): وهو شاعر، وموسيقي، ومن كبار المغنين..

• وجورجس بن جبرائيل (بعد ١٥٢ هـ — ٧٦٩ م): وهو طبيب، سرياني الأصل، ترجم كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية، وله مؤلفات أيضاً.. وكان من المقربين لدى الخليفة العباسي المنصور.

• تيوفل بن توما الرهاوي (١٧٤ هـ — ٧٨٥ م): وهو منجم، نصراني ماروني، كانت له حظوة عند الخليفة العباسي الرشيد.

• أبو سهل الفضل بن نويخت (كان حياً قبل ١٨٤ هـ — ٨٠٠ م) وهو عالم، مجوسي، ترك العديد من المؤلفات في الفلك والنجوم.

• جبريل بن بختيشوع (٢١٣ هـ — ٨٢٨ م): طبيب، كان مقرباً للخلفاء العباسيين: الرشيد، الأمين، والمأمون... وترك مؤلفات عدة في الطب والمنطق.

• سهل بن سابور [٢١٨ هـ — ٨٣٣ م]: طبيب... له مؤلفات في الطب.

• سلمويه بن بنان (١٢٢٥ هـ — ٨٤٠ م): طبيب الخليفة العباسي المعتصم... وصاحب الشهرة في المعارف السياسية وشؤون الدولة...

• أبو زكريا يوحنا بن ماسويه (٣٤٣ هـ — ٨٦٥٧ م): من الأطباء العلماء، تولى ترجمة كتب الطب القديمة بتكليف من الرشيد، ورأس جهاز الترجمة، وخدم المأمون، والمتوكل... وأشاره الفكرية، تبلغ الأربعين في الطب والمنطق والفلسفة.

## موقف المسيحيين العرب

ولئن نستطيع متابعة استقصاء هذا الموقف المجلي ومدى مساهمتهم الحية في الحضارة العربية الإسلامية، وحسبنا عرض بعض الأسماء:

- حنين بن بلوغ (نحو ١١٠ هـ — ٧٢٨م): وهو شاعر، وموسيقي، ومن كبار المغنين..
- وجورجس بن جبرائيل (بعد ١٥٢ هـ — ٧٦٩م): وهو طبيب، سرياني الأصل، ترجم كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية، وله مؤلفات أيضاً.. وكان من المقربين لدى الخليفة العباسي المنصور.
- تيوفل بن توما الرهاوي (١٧٤ هـ — ٧٨٥م): وهو منجم، نصراني ماروني، كانت له حظوة عند الخليفة العباسي الرشيد.
- أبو سهل الفضل بن نوبخت (كان حياً قبل ١٨٤ هـ — ٨٠٠م) وهو عالم، مجوسي، ترك العديد من المؤلفات في الفلك والنجوم.
- جبريل بن بختيشوع (٢١٣ هـ — ٨٢٨م): طبيب، كان مقرباً للخلفاء العباسيين: الرشيد، الأمين، والمأمون... وترك مؤلفات عدة في الطب والمنطق.
- سهل بن سابور [٢١٨ هـ — ٨٣٣م]: طبيب... له مؤلفات في الطب.
- سلمويه بن بنان (١٢٢٥ هـ — ٨٤٠م): طبيب الخليفة العباسي المعتصم... وصاحب الشهرة في المعارف السياسية وشؤون الدولة...
- أبو زكريا يوحنا بن ماسويه (٣٤٣ هـ — ٨٦٥م): من الأطباء العلماء، تولى ترجمة كتب الطب القديمة بتكليف من الرشيد، ورأس جهاز الترجمة، وخدم المأمون، والمتوكل... وأثاره الفكرية، تبلغ الأربعين في الطب والمنطق والفلسفة.

- سابور بن سهل (٢٥٥هـ - ٨٦٩هـ): طبيب، ومؤلف، ترك آثارا فكرية في الطب.
- بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع بن جرجس (٢٥٦هـ - ٨٧٠م): طبيب، سرياني الاصل، خدم الخلفاء العباسيين: الواثق، والمتوكل، والمستعين، والمهدي، والمعتز... وله مؤلفات.
- أبو زيد حنين بن اسحاق العبادي (١٩٤-٢٦٠هـ - ٨١٠م - ٨٧٣م): طبيب، ومؤرخ، ومترجم، وشاعر.. رأس ديوان الترجمة في مصر المأمون... عاصر تسعة من خلفاء بني العباس.. واثاره الفكرية، ترجمة وتاليفا، تزيد على المائة..
- صاعد بن مخلد (٢٧٦هـ - ٨٨٩م): وزير، بغدادي، من أصل نصراني، أسلم على يد الخليفة العباسي الموفق، ولقب بلقب: "ذي الوزارتين"!
- أبو الحسن ثابت بن قرّة بن زهرون (٢٢١-٢٨٨هـ - ٨٣٦م - ٩٠١م): طبيب وحاسب، وفيلسوف.. من الصابئة.. له نحو من مائة وخمسين مؤلفا في الطب والفلك والهندسة والموسيقى والحساب.
- يوحنا - (يحيى) - بن بختيشوع (نحو ٢٩٠هـ - ٩٠٣م): طبيب، ومترجم.. خدم الخليفة العباسي الموفق... وترك آثارا فكرية في الطب والصيدلة والنجوم..
- قسطا بن لوقا البعلبكي (نحو ٣٠٠هـ - ٩١٢م): فيلسوف، رياضي، ومترجم، ومؤلف... عاصر الخليفة العباس المقتدر.. وله آثار فكرية كثيرة في الزراعة والهندسة والفلك وعلم النفس والاجتماع.
- سيد بن البطريق (٢٦٣-٣٢٨هـ - ٨٧٧ - ٩٤٠م): طبيب، ومؤرخ، نصراني.. مصري.. تولى منصب البطريرك في الإسكندرية باسم انيشيوس سنة ٣٢١هـ (سنة ٩٢٢م) ... وله آثار فكرية.

- بختيشوع بن حنا بن بختيشوع (٣٢٩هـ - ٩١٤م): طبيب. كان مقرباً من الخلفاء العباسيين، خدم منهم: المقتدر بالله، والراضي بالله.
- يوحنا بن يوسف بن الحارث بن البطريرق (القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي): مترجم، ورياضي.. من قساوسة النصارى... اشتغل بتدريس كتب الهندسة، وله مؤلفات فيها.
- أبو الفضل بن جداي: وهو يهودي، أندلسي، برع في اللغة العربية، والشعر العربي، وكذلك في الهندسة والموسيقى والطب.
- متي بن يونس (٦٥٧هـ - ٩٤٠م): عالم في المنطق، ومترجم... من الصائبة.
- أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرّة الحراني (٣٣١هـ - ٩٤٣م): طبيب وعالم، من الصائبة.. رأس الأطباء علي عهد المقتدر العباسي، وخدم القاهر بالله، والراضي بالله. له آثار فكرية في الطب والهندسة والدين والتاريخ.
- أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرّة الحراني (٣٦٥هـ - ٩٧٦م): طبيب، ومؤرخ.. من الصائبة.. خدم من خلفاء بني العباس: الراقضي بالله، والمنقفي بالله، والمستكفي، والمطيع.. وله مؤلفات في التاريخ.
- جبرئيل بن عبيد الله بن بختيشوع (٣١١ - ٣٩٦هـ - ٩٢٣ - ١٠٠٦م): طبيب، وعالم.. اتصل بالدولة البويهية، وقربه عضو الدولة البويهية، والصاحب بن عباد... وله مؤلفات في الطب والفلسفة الإلهية.
- جورجس بن يوحنا بن سهل بن ابراهيم البيرودي (٤٢٧هـ - ١٠٣٥): طبيب، سرياني الاصل، من نصارى اليعاقبة بدمشق.. له آثار فكرية في الطب.
- أبو الفرح عبد الله بن الطيب (٤٣٤هـ - ١٠٤٣): فيلسوف، وطبيب، وعالم.. من نصارى بغداد.. له شروح على آثار أرسطو في الفلسفة، وكتب جالينوس في الطب.



- ابن زرعة، عيسى بن اسحاق بن زرعة بن مرقس (٣٧١-٤٤٨هـ - ٩٨٢-١٠٥٦م): عالم في الفلسفة والمنطق، ومترجم.. له آثار فكرية في الفلسفة والمنطق والفلك.
- سليمان بن يحيى بن جببرول: وهو شاعر، يهودي، بلغ من تشبعه بالحضارة العربية وتأثيرها عليه أن ظهر أثرها في شعره العبري.
- أبو عمران موسى بن ميمون (٥٢٩ - ٦٠١هـ - ١١٣٥ - ١٢٠٤م): فيلسوف، وطبيب.. يهودي.. من أكبر فلاسفة اللاهوت اليهودي في القرون الوسطى.. ولد وتعلم بقرطبة، ودرس اللاهوت على أبيه، وعلوم العربية على العلماء المسلمين.. حفظ القرآن، وتفقه بالفقه المالكي.. انتقل مع أسرته حتى استقر في القسطنطينية.. عمل طبيباً لصالح السدين الأيوبي، ثم لابنه من بعده.. تأثر بالرازي، وابن سينا، وابن زهر.. وأنشأ بالإسكندرية أهم مدارس اللاهوت اليهودي في تلك العصور، ورأس الطائفة اليهودية في زمنه.. له العديد من المؤلفات في الطب والفلسفة واللاهوت.. مات بمصر، ودفن بطبرية.
- أبو الفرج صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما (٦٢٠هـ - ١٢٢٣م): طبيب، بغدادي، بلغ منزلة الوزراء على عهد الملك الناصر.
- أبو اسحاق ابراهيم بن سهل الأشبيلي (٦٠٥ - ٦٤٩هـ - ١٢٠٨ - ١٢٥٢م): كاتب، وشاعر.. يهودي.. من أصل أشبيلي، سكن سبتة، وله ديوان شعر..
- يعقوب بن رافائيل صنوع (١٢٥٥ - ١٣٣٠هـ - ٨٣٩ - ١٩١٢م): يهودي، مصري، ولد بالقاهرة، وتعلم في إيطاليا. حفظ القرآن، وعمل بالمسرح سنة ١٨٧٠م، وكتب نحواً من ست وثلاثين، رواية، للمسرح وخيال الظل.. واشتغل بالصحافة فأصدر (أبو نظارة) سنة ١٨٧٧م، وبعد نفيه إلى باريس أعاد إصدارها بنفس الاسم، أو باسم (الحوي) و (الوطن المصري).. وهو من تلاميذ جمال الدين الأفغاني، وأصدقاء الشيخ محمد عبده، ومن أعضاء (الحزب الوطني

الحر) الذي أنشأه الأفغاني قبل الثورة العربية بمصر.. له،  
غير صحيفته، عدة رسائل.

• داود حسني (١٢٨٧ - ١٣٥٦هـ - ١٨٧١ - ١٩٣٧م):  
ملحن، يهودي، مصري، تتلمذ على المقنى عبده الحامولي،  
والملحن مجمد عثمان.. اشتغل بالغناء، ثم تفرغ للتلحين..  
وضع الحاناً لروايات مسرحية، وارتاد تلحين الأوبرا  
الكاملة.. وترك ثروة لحنية زادت على الخمسمائة لحن.

• الخ... الخ... الخ..

• تلك أمثلة من الأعلام العرب، غير المسلمين، الذين أسهموا  
مع العلماء العرب، الذين تدينوا بالإسلام، في بناء صرح  
الحضارة الواحدة، حضارة العرب.. العرب جميعاً، بأديستهم  
المختلفة وشرائعهم المتعددة ومذاهبهم المتميزة.

• وبهذه المعالم على طريق بناء هذه الحضارة تتأكد الحقيقة  
القائلة: إن في مقدمة ما يوحدنا، نحن العرب: وحدة  
الحضارة، التي أسهم في بنائها الجمع، ومنحوها جميعاً  
الحب والوفاء والولاء.

ويروي ابن تيمية لشخصيات بارزة من السلف قولهم: عن أبي جعفر  
محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: من ولد في الإسلام فهو  
عربي.

فهنا إن صح هذا الحديث فقد علقت العربية فيه بمجرد اللسان،  
وعلقت في النسب بأن يدرك له أبوان في الدولة الإسلامية العربية.

يقول ابن تيمية: فإن نفس اللغة العربية من الدين وفرضها فرض  
واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة  
العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقال: كتب عمر إلى  
أبي موسى الأشعري، وأما بعد: فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في  
العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي.

<sup>1</sup> انظر في هولاء الأعلام: [الأعلام] للزركلي. طبعة بيروت. وقرى حافظ طوقان: [تراث العرب  
العلمي في الرياضيات والفلك] طبعة القاهرة ١٩٦٢م.

<sup>2</sup> اقتضاء الطريق المستقيم ص ١٦٤

<sup>3</sup> اقتضاء الطريق المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ط ١ المطبعة الشرقية، ٩٠٧ م

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس في أحد أعداد مجلة الشهاب: إن المستعمرين علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعلم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه ولا تعلم له إلا بتعلم لغته: فناصرها تعليمها العداة وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء قد فهمنا والله ما يراد بنا وإنما نعلن لخصوم الإسلام أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا وسنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا<sup>1</sup>.

ويقول ابن باديس ليس تكوين الأمة يتوقف على اتحاد دمه، ولكنه يتوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحاد يظهر في وحدة اللسان وآدابه، واشتراك الآلام والآمال<sup>2</sup>.

ويقول الشيخ البشير الإبراهيمي: ومن أباطيل الاستعمار وتهافته أن المتجنس بالجنسية الفرنسية ليومه وساعته فرنسا، ويلحقه بنسبه، ويساويه به في حقوقه ومميزاته، ثم ينكر على البربري من أجداده على الاستعراق، لا يعرفون إلا العربية لغة، يتكلمون بها ويتأدبون ويتعبدون... ليت شعري: أيهما أقرب إلى الواقع: البربري المستعرب أم السوداني المتفرنس، وأيهما أنفذ، حكم الله أم حكم الاستعمار<sup>3</sup>.

يقول السيد محمد ميلي، لو لا القرآن والإسلام لتمكن الفرنسيين من إجلال اللغة الفرنسية محل العربية في أقطار المغرب العربي وصولاً إلى فرنسية هذه الأقطار، وإبعادها عن الجناح الشرقي للأمة العربية، ولا تزال هذه الأقطار تعاني من منافسة الفرنسية للعربية وتسعى جاهدة، بل تخوض معركة ضد التعريب والاستقلالية أو بأخرى بتلك المثلثة الأطراف التي تقوم على محاربة الإسلام، واللغة العربية وتشويه التاريخ، ومن المفيد أن نشير هنا إلى الدور الحاسم الذي اضطلع به الإسلام في أقطار المغرب العربي.

أ- تنتشر نتيجة طبيعته ومبادئه من جهة، ونتيجة وجود تقارب مؤكد بين العرب وسكان المنطقة في الفعاليات وأنماط الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك، من جهة ثانية.

<sup>1</sup> مجلة الوطن العربي ١٣/٧/٩٨٤ مقال للسيد محمد ميلي  
<sup>2</sup> شبلي العيسوي، ص ٢٧٤  
<sup>3</sup> مجلة الوطن العربي، العدد ٣٨٨ تاريخ ٢٠/٧/٩٨٤

ب- إن الإمبراطورية التي أقامت ممالك وإمارات في ظل الإسلام حكمت باسم الإسلام لا باسم أي تمييز عرقي، بل لقد لعبت دوراً أساسياً في نشر الإسلام وتعميم اللغة العربية، فدور المرابطين والموحدين معروف في هذا المجال، مثلما هو معروف وإن بدرجة أقل دور صنهاجة وفروعها المختلفة.

ج- إن اللغة العربية هي لغة الثقافة والتعليم والإدارة والتكامل الاقتصادي.

د- انصهرت مجتمعات المغرب العربي في ظل الحضارة العربية الإسلامية بفعل ما لوحده هذه من مدلولات واتصالات في أنحاء العالم الإسلامي الشاسعة انصهاراً يصعب معرفة العربي الأصيل من البربري الأصيل، فالأغلبية الساحلية من البربر تعربوا، وهناك أسر عربية استقرت في مناطق جبلية، وأصبح أبناؤها يتحدثون اللهجة البربرية<sup>1</sup>.

### ٣) الجاحظ بصفته أنموذجاً لتيار الموالي المستنير

كان الجاحظ واسمه: أبو عمرو بن عثمان بن بحر (١٦٣ - ٢٥٥هـ - ٧٨٩ - ٨٦٩م) - من أبرز العلماء والمتكلمين - والأدباء ومفكري السياسة والاجتماع في عصره... والآثار الكثيرة التي خلفها لنا تشهد بموسوعيته التي جعلته يحيط بمعارف عصره، فيكتب فيها الكتب والرسائل والفصول، كما يشهد العمق الذي تناول به القضايا التي عرض لها بأنه قد جمع إلى الشمول الموسوعي عمق كبار العلماء والمفكرين.. حتى ليتمكن أن نقول إنه كان شاهداً على عصره، وتجسيدا له.. فإذا علمنا أن عصره كان ذروة الرقي والازدهار لحضارتنا العربية الإسلامية أدركنا أي غنى وثراء يمثله بالنسبة لنا فكر هذا العملاق..

ومن الجوانب الهامة في فكر الجاحظ والتي لم تحظ بالاهتمام اللائق من دراسة، قضية التبلور لشخصية الأمة العربية على عصره، والامتزاج الذي كانت تشهده أرض الواقع البشري والقومي في

<sup>1</sup> مقال السيد الميلي: مجلة الوطن العربي تاريخ ١٥/٦/٨٤ وقد أشار إلى الأساليب الاستعمارية الحديثة في محاربة اللغة العربية والعروبة في أقطار المغرب العربي مستندا إلى وثائق تاريخية مهمة.

الدولة العربية الإسلامية، امتزاج العرب بالذين تعربوا ويتعربون، من ذوي الأصول العرقية غير العربية، وما صاحب هذه العملية القومية من تناقضات وصراعات بين التيارات الشعبوية، من جانب، والمتعصبة للعرب بمنطق العصبية القبلية الجاهلية، من جانب آخر... ثم بروز طلائع التيار القومي العربي، الذي عبر عنه الجاحظ، ليؤلف بين عناصر الأمة، وليضع المعايير القومية التي تقود التأليف والامتزاج القومي في الطريق القويم...

ولهذه المهمة التاريخية خصص بعض الرسائل التي كتبها، كما تناول الحديث فيها ضمن بعض الكتب والرسائل الأخرى... وهو في تقديمه لواحدة من هذه الرسائل يتحدث عن الصراعات والتناقضات التي كانت تغذيها الشعبوية والعصبية العربية بين طوائف الأمة وأبنائها، باعتبارها مخططا خبيثا لن يفيد منه سوى الأعداء، ومن ثم يحدد أن الهدف هو إبراز نقاط الاتفاق والسمات الجامعة والموحدة لهذه الطوائف، وتبيان كيف أنها هي السمات النامية المتطورة على حين أن الخلافات ومظاهر التمايز إما أن تكون بقايا ماض يتوارى، أو مصدر غنى وثراء نابع من التعدد في الإمكانيات.

وفي مقدمة القضايا الجوهرية التي تمثل المعيار في فكر الجاحظ القومي ما دعا إليه من التخلي عن (الدم والنسب) كمعيار للاتفاق والاختلاف، ذلك أن المعايير الحقيقية والجديرة بالاعتماد هي تلك المؤسسة على الحضارة والثقافة والعادات والتقاليد واللغة والأعراف..

فالذين يتحدثون في هذه السمات يؤلفون كلاً واحداً ومتحداً، حتى ولو كانت أصولهم العرقية مختلفة ومتعددة.. كما أن الذين يختلفون في هذه السمات لن يؤلفوا كلاً قومياً واحداً، حتى ولو اتحدت أنسابهم في التاريخ، فالاتفاق في هذه السمات (القومية) هو -عند الجاحظ- (رحم) جديدة تولد منها هذه الجماعات كأمة واحدة جديدة، وهذه الولادة تقوم مقام النسب الواحد، بل وتفوقه في متانة الارتباط..

ولقد ضرب الجاحظ لذلك الأمثال من الواقع والتاريخ.. فالعرب العدنانيون -أبناء إسماعيل ابن إبراهيم الخليل - هم أبناء عمومة العبرانيين- أبناء إسحاق بن إبراهيم - لكنهم قد أصبحوا أمتين - رغم اتحاد النسب - لاختلاف العادات واللغة والتقاليد والشمائل والأعراف.. على حين أصبح العدنانيون يؤلفون مع العرب

القحطانيين - عرب اليمن والجنوب- أمة واحدة - لاتحاد السمات القومية - رغم اختلاف العرق والنسب.

وبعد أن فصل الجاحظ في هذه المعايير والسمات والقسمات القومية، حتى صارت صياغاته لها بمثابة بواكير الفكر القومي العربي شرع يطبقها على الطوائف والجماعات التي أصبحت (عربا) بالحضارة والولاء للحضارة العربية الإسلامية، وخلص إلى أنها قد غدت، تكون كلا واحدا، وجماعة واحدة، رغم اختلاف الأصول والمواريث.. فحق لهذا الرائد العملاق أن يأخذ مكانه، أيضا، بين - بل في طليعة- مفكرينا القوميين .

١ د - محمد عمارة: التراث في ضوء العقل: بيروت - دار الوحدة، ط ١ ٩٨٠ ص ٢٦٣

## الفصل الثالث

### الوعي العربي للذات في الإسلام ومسألة استجابة أمتنا للحية للإسلام

مقدمة:

اتضح لنا مما سبق أن العرب قبل الإسلام، خبروا تجربة تاريخية كبرى نتوجت بتشكيل الذات الاجتماعية لأمتنا ونظامها القيمي وتصورها لذاتها ونظامها الثقافي<sup>١</sup>.

لكن هل كان لهم مشروعهم السياسي الواعي؟؟

كيف يمكن أن يكون الجواب إلا بالإيجاب بعد أن عرضنا لتلك التشكلات السياسية: ممالك اليمن - الأنباط - مملكة الحيرة - الندميين - مملكة كندة - الخ...

ألم تتأكد لنا محاولات ممالك اليمن الهامة والجادة في الجزيرة العربية (كندة - الغساسنة - المناذرة - جرهم - وخزاعة الخ...).

ألم تستطع قريش أن تبسط نفوذها وقوتها على الجزيرة العربية لا سيما من الوجهة التجارية، بما لذلك من أهمية سياسية، الأمر الذي تعددت المحاولات للسيطرة على الجزيرة العربية، وكانت آخرها محاولة الأحباش على عهد جد الرسول ﷺ، وهذا هو مغزى قوله ﷺ: هذا الأمر لهذا الحي من قريش.

فالرسول هنا لا يعطي حكماً قيمياً، وإنما يكشف عن حقيقة تاريخية اجتماعية سياسية هي أن الشوكة لقريش، والشوكة هي أساس السلطة.

<sup>١</sup> فاتح عبد الجبار: تأملات في الثقافة العربية، مجلة النهج، شتاء عام ١٩٩٨ السنة ١٤ العدد ٤٩ ص ١٨.



ويؤكد الدكتور محمد عمارة أن العرب اتخذوا لهم على الساحل الشرقي لإفريقيا عدة مستعمرات: لامور - مميسة - زنجبار - موزمبيق، حيث مارسوا فيها جميع أنواع التجارة بما فيها تجارة الرقيق، وتلك الصلات تضرب إلى أعماق التاريخ بما يزيد على ثلاثة آلاف من السنين<sup>١</sup>.

ماذا نفهم من مشروع قصي التوحيدي سياسياً ودينياً وانتزاعه السلطة من خزاعة؟؟

لقد وضع قصي البذرة الأولى للدولة العربية المركزية التي عليها أن تبدأ في مكة لأسباب ميتولوجية وتاريخية واقتصادية واجتماعية وجغرافية تمثلت في قدرة الاجتياحات الأجنبية الوصول إلى مركز تلك الدولة وليكمل حفيده عبد المطلب تلك المهمة المتمركزة في محور الطموح نفسه، موضحاً ذلك بقوله: إذا أراد الله إنشاء دولة خلق لها أمثال هؤلاء، وهو ويشير إلى أبنائه وحفدته، ومن ثم فقد نقل النبي محمد عبر رسالته ذلك الطموح إلى واقع التطبيق العملي، بإيجاد التعبير الاجتماعي السياسي، ليس فقط كرد تاريخي على الفرس والروم، بل كاستجابة تاريخية سيروية لوحدة البناء الثقافي والإتاسي المعرفي للشرف العربي، بحيث يشكل تكوين الدولة الواحدة على كل الجغرافية العربية الهدف الواعي لتلك الرسالة، إذ يروي (صحيح البخاري ٦٢/٢) أن عمر بن الخطاب خاطب الرسول ﷺ بقوله: ادع الله فليوسع على أمتك، فإن الفرس والروم وسع عليهم، وأعطوا الدنيا، وهم يعبدون الله، وكان النبي متكئاً فقال: أوفي شك أنت يا ابن الخطاب.

ماذا نفهم من تعليق الرسول ﷺ على انتصار العرب في ذي قار وقوله: هذا أول يوم انتصر به العرب على العجم وبني انتصروا.

هذا الوعي بالذات العربية قديم جداً، فهو أقدم من ذي قار وأقدم من المناظرة التي جرت بين النعمان بن المنذر وكسرى ملك الفرس، وافتخاره بقومه، وأقدم من قول عنتره يخاطب ناقتة:

<sup>١</sup> كتابه فجر البقعة العربية، دار الوحدة، بيروت ط ٣، ٩٨١ ص ٢٣.  
<sup>٢</sup> رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ١٧، ٩٨٤ ص ١٢.  
<sup>٣</sup> د - جمال الدين الحضور: المشروع الهضوي القومي العربي، مجلة الفكر السياسي، دمشق، شتاء ٢٠٠٠.



شربت بماء المحرضين فأصبحت

زوراء تنفر عن حياض الديلم

وقول لقيط بن يعمر الإيادي في القائد الذي يجب أن يتولى أمر قتال  
الفرس:

يا قوم لا تلمنوا إن كنتم غيراً

على نساكم كسرى وما جمعاً

نذكر على سبيل المثال ما يذكره الأخباريون عن اكتشاف صخرة على  
قبر النبي هود كتب عليها بالمسند ما يلي: لمن ملك ذمار، لحمير  
الأخبار لمن ملك ذمار، للحبشة الأشرار. لمن ملك ذمار.. لقريش  
التجار.

فعبارة (الحبشة الأشرار) تؤكد تكون - ومنذ أعرق الأزمان - ضمير  
عربي جمعي له إرادته وطموحه وتطلعه إلى المستقبل.

أجل اتضح لنا أن التاريخ العربي يسجل قانوناً مطرداً هو الصعود  
التاريخي الارتقائي للحياة العربية باتجاه المدرية والتوضع  
والاستقرار المستمرين مقترنا ذلك بحركة هجرة وانتقال دائمين من  
حياة الوبر إلى حياة المدر، ويظهر ذلك الانتقال المستمر إلى بلاد  
الشام والعراق، والوشاح القوية بين العربية الشمالية وتلك المناطق  
التي سبق الإشارة إليها.

هذا ونؤكد ما قلناه سابقاً بأننا أقمنا عماد هذا الكتاب وأسناها على  
الحدث التاريخي، والسبب واضح هو معانقتنا للموضوع على أساس  
معرفي صرف بعيداً عن تقولات الإيديولوجية وانسياباتها وهواها،  
وتبعاً لذلك سنلتمس المراحل التاريخية المختلفة لتاريخ أمتنا  
مستندين في عملية الحفر التاريخي هذه إلى دور العرب في الإسلام،  
وعلى أن لا ينسينا ذلك تتبّع فعالية المسلمين غير العرب وفهمهم  
للإسلام.

وبطبيعة الحال فهذه القراءة التاريخية أقرب ما تكون إلى القراءة  
الميتودولوجية، ونقصد بها القراءة النقدية العامة للتاريخ والمجتمع،  
مقارنة بالمرجعية التاريخية العامة القائمة على التفصيل.

<sup>1</sup> مجلة الاجتهاد، بيروت، دار الاجتهاد العدد ١٢ لعام ٩٩١ ص ٣٨  
<sup>2</sup> جواد علي ج١، ص ١٩

هكذا كانت ثمرة فهم الرسول وجهده في توحيد العرب تحت سلطة مركزية واحدة، وربطهم برابطة واحدة جديدة فوق القبيلة هي رابطة العروبة وعقيدتها الإسلام .

ويتضح مما سبق أن الأمة العربية لم تكون خواء وفواتاً تاريخياً وحضارياً، بل يمكن الجزم أن عبقرية المكان وفرت لهذه الأمة ما يسمونه بزمن القوميات، أي الزمن اللازم لمخاض الأمة وتخلقها ونشونها، كأمة تاريخية بفعل فاعل الإجماع الطبيعي.

وتاريخ الأمة العربية يؤكد هذه العبقرية الخاصة للمكان كمشتل استقبل بذور الحياة واحتضنها وتعهدها بالرعاية والنشوء.

هذا الزمن القومي - وبفضل عبقرية المكان - أتاح للأمة العربية - وفق قانون الصيرورة - أن تصقل لغتها، وتنشئ أدبها ونظرتها إلى الوجود وحماسها القومي وفلسفة قصاصها الشعبي ومنظومة قيمها الروحية وشبكة نسيجها الاجتماعي واتساق نظرتها إلى الوجود.

وهكذا تجاوزت الأمة العربية مرحلة تكوين الأمة كظاهرة اجتماعية، ثم دخلت المرحلة السياسية، حيث قامت محاولات عدة لإجاز هذه المهمة التاريخية - وحدة الأمة، مثل مدنيات اليمن ومملكة كندة، ثم تجربة مكة التي وصفت بأنها حققت نظام المدينة - الدولة - كما في اليونان - وأخيراً دولتي المناذرة والغساسنة، وغير ذلك من المحاولات، منوهين بأن العربية الجنوبية (دولة اليمن) ما فتئت تحكم العربية الشمالية، تحقيقاً لنوع من الوحدة السياسية، عبر كافة المراحل التاريخية ولم تتحقق السيادة على الجزيرة العربية لعرب الشمال إلا على يد الإسلام، ثم كان الإسلام كمشروع عالمي إضافة إلى كونه مشروعاً سياسياً توحيدياً صك عملية أهد وجهتها التوحيد الديني والوجه الثاني التوحيد السياسي.

هكذا يؤكد الدكتور محمد عابد الجابري أن الدعوة المحمدية كانت تحمل منذ بدايتها مشروعاً سياسياً واضحاً هو القضاء على دولتي الفرس والروم والاستيلاء على كنوزها، ولقد استدل على رايه هذا بخبر يرويه المؤرخون مفاده أن شخصاً اسمه عفيف الكندي قال: كنت امرءاً تاجراً فقدمت مكة أيام الحج، فأتيت العباس (عم النبي)

<sup>1</sup> د - فاروق عمر: التاريخ الإسلامي، المرجع السابق، ص ١٤٨

فبينما نحن عنده، إذ خرج رجل فقام تجاه الكعبة يصلي، ثم خرجت امرأة تصلي معه، ثم خرج غلام يصلي معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين، فقال: هذا محمد بن عبد الله ابن أخي زعم أن الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه<sup>١</sup>.

هكذا أعد الإسلام العرب لامتلاك ناصية التاريخ، وإنجاز المعنى الحضاري الكبير للحياة وعلى هذا، فنحن لا نفهم - ومعجزة الإسلام القرآن - أن يكون نزول هذا الدين في الجزيرة العربية أمراً طارئاً أو حدثاً عارضاً يسبج فوق التاريخ وفواعله ويصد عن نواميس الله في التاريخ والثقافة والاجتماع والاقتصاد.

لقد وصف أحد المفكرين الرسول بأنه عظمة العظماء، لكن على أي شيء تقاس هذه العظمة الخاصة ليس على أمور متعددة منها عظمة أخرى هي عظمة حواريينه صحابته الذين تحلقوا حوله وشدوا أزره، لكن من أين لهؤلاء تلك العظمة؟؟ أليس مرد ذلك إلى التقاء قطبي الحياة.. المثال والواقع.. المثال الإسلامي والواقع العربي... الشرارة الإسلامية التي فجرت برميل البارود العربي أو السيف الإسلامي الذي امتشق من الغمد العربي.

لقد أطلقت الشرارة الإلهية هذه المارد العربي، ثم انداحت هذه الموجة لتصل الصين وجنوب فرنسا.. وفي نظرنا إن هذه العلاقة بين المثال والواقع في منظومة الوعي العربي الإسلامي محكومة بقوانين عدة أهمها تمييز القطب العربي من القطب الإسلامي دون انفصاله عنه أو افتتاته عليه.

ولعل المنهج الذي يفسر قانون التمييز دون الفصل الأنف الذكر هو منهج الصيرورة لا الكينونة الذي تحدث عنه الدكتور البيطار<sup>٢</sup>.

فالأمة في نظر المذكور ليست حقيقة تهيم فوق التاريخ وتغوص فوق الواقع، إنما هي صيرورة تاريخية تخضع لقانون النشوء والتطور والارتقاء، وهذا هو قانون الاستجابة: فما هو هذا القانون؟؟ يجيب عن ذلك الدكتور البيطار معيياً التفسير البيولوجي العرقي مؤكداً أن

<sup>١</sup> كتابه العقل السياسي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط١، ١٩٦٠ ص ٥٧.  
وقد عرض لهذا الخبر وأخبار أخرى مثل قول الرسول لقريش: كلمة واحدة تعطونها ملكون بما العرب وتدنين لكم العجم.

<sup>٢</sup> كتابه حدود الهوية القومية، دار الوحدة، بيروت ط١، ١٩٨٢.

الطبيعة الإنسانية تقوم على مجموعة من الإمكانيات لا الخصوصيات أو الميول المتأصلة والموروثة، إذ في مرونة طبيعة الإنسان وقدرتها على التكيف مع أوضاع الوسط الخارجي المتحول نجد العامل الأساس في تطور الإنسان والتاريخ، وهذا يعني أن ظروف البيئة الوراثية: بين الأفراد والأجناس أقل أهمية من إمكانيات التكيف<sup>1</sup>.

وما يعتبره الناس طبيعة إنسانية هو الواقع طبيعة ثانية تتحقق في حدود إمكانيات الإنسان ضمن ثقافة معينة، والطبيعة الإنسانية قالب، أو أنموذج *pattene* للسلوك ومجموعة من الإمكانيات، وهي قسادة على التحول ليس فقط من جيل إلى آخر، بل في حياة الفرد نفسه، وبذلك يمكن للتعليم والتربية خلق فروق هائلة ضخمة بين الجماعات والأفراد<sup>2</sup>.

وهذا يعني أن الهوية القومية، أو أي سلوك إنساني يرجع إلى طبيعة إنسانية ذات احتمالات، وإمكانيات عامة ووضع اجتماعي تاريخي محدد<sup>3</sup>.

استناداً إلى ما تقدم يمكن التأكد بأن للأمة العربية إمكانياتها الخاصة والمميزة *sui generis* للاستجابة ومواجهة حقائق الحياة استجابة ومواجهة تميزها من غيرها من الأمم الإسلامية، ومن ثم لا يمكن الحديث عن أمة إسلامية نشأت في المثل الأعلى وتأسست على جسم قوامه خلايا مترابطة متجانسة متحدة متطابقة..

ذلك أن الإسلام - بالنسبة للأمة العربية - عنصر إضافة - وإن كانت إضافة بالغة وهامة - إلى نسيجها وحقيقتها ووجودها.

ثم كان التاريخ الإسلامي، لكنه في النهاية تاريخ ككل تاريخ وصيرورة ككل صيرورة وواقع ككل واقع وحقيقته أمبريقية ككل حقيقته أمبريقية لحمتها وسداها الحياة والواقع.

وإذا كان العرب حافظوا على الأخوة الإسلامية، وأسبغوا عليها رداء المحبة والعدل والتضامن والتجانس والتماثل مع الغير الإسلامي، ومع ذلك فالقانون الذي يفسر تاريخها هو قانون التمييز دون الانفصال.

<sup>1</sup> حدود الهوية القومية، ص ٢١٠

<sup>2</sup> حدود الهوية القومية، ص ٢٣٦

<sup>3</sup> حدود الهوية القومية، ص ٢٢٩

وحقيقة الأمر أنه مهما حاولنا أن نلوي عنق التاريخ، ونبتسر حقائق الحياة لا يمكننا أن نمائل قانون الاستجابة العربي، بأي تاريخ لأمة إسلامية أخرى، والعكس هو الصحيح وهذا يؤكد تدليل أحدهم بوجود تفصلات ضمن الحضارة الإسلامية، وبالتالي فهناك أدب باكستاني وأدب تركي وأدب إيراني، وغير ذلك من أوجه الثقافة والحضارة والعمران.

وإذا كان المجال لا يتسع لتبيان آلية نشوء الدائرة العربية، فحقائق التاريخ تؤكد أن العربي كان يدرك أن الإسلام إضافة إلى وعيه الخاص وضميره الخاص، ولقد اتضح هذا الأمر أكثر ما اتضح في نزعة الاستكبار والاستعلاء على يد جماعة الاتحاد والترقي.

وأبعد من ذلك، وبعد تصوح العالمية الإسلامية وتقطع أوصالها وبزوغ شأن القومية على الطريقة العربية، انفكأت الشعوب الإسلامية على ذاتها، وأصبحنا نرى جزرا متباعدة هنا وهناك، وإن كان من العبث والمكابرة إنكار الأسس الثقافية والروحية والفكرية التي تشكل جذورا حضارية عميقة في حياة هذه الشعوب، والتي هي وليدة الحضارة الإسلامية الأم التي سادت في العصر الوسيط، وإن كانت هذه الجذور ثاوية في الأعماق، وتحتاج إلى من ينفض عنها الغبار ويجدد فيها الشباب.

وإذا كانت الحضارة هي الحامل الكبير والسقف الأعلى والأصل العميق لكل عمل سياسي، كما عبر عن ذلك ريمون يولان بقوله: الدولة حضارة بأسرها، وقد أفصحت عن نفسها في مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات.

إذا كان الأمر كذلك، فإن علي أية سياسة إسلامية بصيرة مبصرة أن تفتح من الحضارة الإسلامية وتؤسس عليها، بحيث يعاد النظر بالفاعل السياسي وديناميته انطلاقا من الدينامية الحضارية للأمة الروحية الإسلامية.

على الأمم الإسلامية أن تعيد ترتيب البناء السياسي على الصرح الحضاري بحيث تلتقي العيون والمصائر والأكف، أو كما عبر عن ذلك أحد السياسيين الباكستانيين مخاطبا أحد الساسة العرب قائلا: نظرنا إليكم فإذا بكم تنظرون إلى غيرنا، ثم نظرتم إلينا فوجدتمونا

مشغولين عنكم، أو لم يئن الوقت لأن تلتقي العيون والمصائر  
والمصالح.

ولا شك فهذا اللقاء تراكمي، ولا يمكن أن يكون هنالك قفزة في  
الزمان واللامكان، بحيث نتكلم عن أمة إسلامية قائمة وحية، بل  
الأصح الكلام على علامات إسلامية، واستجابات إسلامية، ومن ثم  
فكما حدث التراكم الناجم من هذه الإمكانيات والمتفوق والمتفتح عن  
هذه الاستجابات، كلما علا البناء السياسي - والفاعل السياسي -  
وإن كان الناموس الأكبر الحاكم لهذه المسيرة هو الانطلاق من قاعدة  
القومية استبصارا بقطب الواقع والمصلحة في تفاعله مع قطب المثال  
(التعاون مع الآخر الإسلامي).

وفي نظرنا إن هذا هو معنى قوله تعالى: ليا أيها الناس إنا خلقناكم  
من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله  
أتقاكم.

إذن هنالك شعوب (قطب الواقع) وهنالك التعارف والتعاون (قطب  
المثال والواجب)، والقول بغير ذلك يعني الوعي المتعثر المبعثر،  
وبالمقابل فهذان القطبان هما جناحا هذا الطائر المأمول الذي يحلق  
بنا إلى أفاق الغد المرتقب.

ونخلص من كل ذلك للقول، لقد حدثت استجابة خلافة حية مبدعة  
بين أمتنا والإسلام، فكانت الحضارة العربية الإسلامية، تلك التي  
أبدعناها في العصر الوسيط، والتي - كما سنوضح - هي مشروع  
تعاوني قادته أمتنا مع شعوب المنطقة الحية، وتم في رواقه أعظم  
حوار بين أمتنا والإسلام والواقع.

والخطأ كل الخطأ أن ننكش على الماضي معتقدين بانتهاء عملية  
الحوار والخلق والإبداع، والعطاء المستمر بأصالة وعمق واستجابة  
مع الواقع وظروف الحضارات القائمة.

لا لتيار الانكفاء، ولا لتيار الانغماس ونعم لتيار الاستجابة الخلافة  
المنطلق من الذات تجددا وعطاء وتراكما واستمرارا حضاريا.

إذا كانت الرموز الثقافية للأمة هي المنطلق للتأسيس السياسي  
(الدولة حضارة استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها)، فهذه الرموز

ليست كينونة، بل صيرورة يجب أن نحافظ عليها متجددة نشيطة حياة فاعلة معطاء.

في الصفحات القادمة سنكشف عن هذا الحوار بين أمتنا والإسلام، لعل ذلك مقدمة حياة نابضة ترهص للاستمرار في الحوار والعطاء مع قطب الإسلام.

## الفصل الرابع

مكانة ودور الإسلام في التاريخ العربي الإسلامي



## البحث الأول : مكانة العروبة والإسلام في العهد الراشدي

وبالطبع سنتعرض لتلك المكاتب والإمكانات في عهد الخلفاء الراشدين  
الأربعة

### المفرد الأول : العرب في الإملاء على محمد الخليفة أبي بكر السديق

لقد كان الخليفة المذكور تلك البوصلة التي حددت وجهة الدولة  
والمجتمع بعد وفاة الرسول، فلقد سار هذا الخليفة على خطا سيده  
ورفيق دربه الرسول فيما يتعلق بالربط بين العروبة والإسلام،  
ومظهر ذلك الفتوحات التي تمت على عهده، ثم موقفه الحازم من  
المرتدين، إذ بفضل هذا الموقف ثبتت نواة التوحيد الروحي والثقافي،  
وأصبح الإسلام عقيدة كل سكان الجزيرة العربية، وبذلك تطابق معنى  
العروبة والإسلام.

واستطراداً فأهل المدر (مثلث مكة- يثرب- الطائف) لم يرتد  
إدراكاً منهم بأهمية الإسلام في حياتهم ومستقبلهم، وفي هذا الصدد  
نذكر تعرض سهيل بن عمرو لنبا الارتداد وتعنيفه لهم وقوله: يا أهل  
مكة لا تكونوا آخر من أسلم، وأول من ارتد، والله ليتمكنن الله هذا  
الأمر، كما ذكر رسول الله.

ولا ننسى الأهمية المترتبة على جمع هذا الخليفة للقرآن، وبذلك  
أحاطه بسياج من الفولاذ والحديد في وجه الدساسين، حيث عهد بذلك  
إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت أحد كتاب الوحي والحافظ للقرآن،  
كما لا ننسى أن هذا الجمع قام على أدق وجوه البحث العلمي  
والتحري، هذا فضلاً عن ظفره بإجماع الأمة<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> د - فاروق عمر: التاريخ الإسلامي ص ١٤٨  
<sup>٢</sup> د - فاروق عمر: التاريخ الإسلامي ص ١٤٨

- ويؤكد الدكتور عمارة أنه ما كان لهذه الدولة الجديدة أن تلجأ إلى ذلك لولا خيانة هذه الجيوب (اليهود) أو انشدادها إلى المراكز الحضارية السامية خارج الجزيرة العربية<sup>1</sup>.

- والأمر على خلافه بالنسبة للفلاحين الآراميين والسوريين فقد رحبوا بالفاتحين العرب.

هذا ويمكننا أن نضيف إلى الترابط بين العروبة والإسلام عند هذا الخليفة ما يلي:

١- لم يراع أبو بكر الأسبقية في الإسلام عند تعيين قادة الجيوش، بل اختارهم من القبائل مراعاة للواقع العملي وإن أكثرية القادة للجيوش الكبيرة في عهده كانوا من أبناء الذين تأخروا بالدخول في الإسلام من أبناء شخصيات بارزة في مقاومتها للمسلمين في أول الدعوة، مثل عكرمة بن أبي جهل، الذي أسلم بعد فتح مكة، وكان أبوه من أشد المقاومين للرسول، ثم يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص الذي فاوض النجاشي على إخراج المهاجرين المسلمين، وخالد بن الوليد الذي كان قائد خيالة المشركين في غزوة أحد.

٢- ومن المواقف التي راعى فيها أبو بكر المكاتبة القبلية المؤثرة أنه لم يتقيد في مسألة الأعطيات بالأسبقية إلى الإسلام، وكان يقول عن السابقين منهم: أتؤجرهم على إيمانهم فتعطيهم بمقدار ذلك الإيمان وكان هذا رداً على اعتراض عمر بقوله: أعطني من حارب الرسول، كما تعطي من حارب مع الرسول<sup>2</sup>.

ويدخل في هذا الباب أيضاً أن أبا بكر استمر في إعطاء المؤلفة قلوبهم، كما أنه لم يعاقب خالد بن الوليد بالعزل،

<sup>1</sup> د - عمارة: فخر البقعة، ص ٥٥  
<sup>2</sup> شبلي العيسمي: عروبة الإسلام وعالمته، ص ٧٧

في الأرياف، إضافة للأسباب الدينية وهي اعتقاد الساميين السوريين بأن للمسيح طبيعة واحدة لا طبيعتين كما جاء في المجمع الخقلدوني .

أما بالنسبة للعرب فقد كان لهم عهود متطاولة من الاستقلال والوحدة القومية، حيث استطاعوا أن يحاربوا الروم لمدة أربعمئة سنة، ومع ذلك فقد انتشرت اللغة العربية زهاء ثلاثة قرون وكانت لغة التأديب ووسيلة الثقافة، بل اللغة المحلية عند بعض العوام، كما إن الروح الدينية لم تخذل .

وفي هذا الصدد نسجل الوعي الاستراتيجي لهذا الخليفة، فقد أخذ يبكي عندما جيء بأموال كسرى إليه، وهنا قال له عبد الرحمن بن عوف، هذا موقف من مواقف الشكر لا البكاء، ولكن عمرا - جريصا على وحدة العرب والمسلمين - أجابه بأن الله لم يعط قوما هذه الأموال إلا ألقى بينهم العداوة والبغضاء .

هكذا يتضح - خلافاً لرأى الدكتور حتى<sup>١</sup> - أن دوافع الفتح ليست اقتصادية بل إن الخليفة عمر رضي الله عنه كان حريصا على عدم انخراط العرب في حمأة المال ومنتنه، كما إنه كان حريصا على أن يبقى المجاهدون والمقاتلون في معسكراتهم دون أن يمتزجوا بكافة البلاد المفتوحة، وما ذلك إلا لتبقى شعلة الإيمان في قلوبهم، وهذه هي إستراتيجية الفتح وأبعاده.

ونحن لا نتفق أيضاً مع الدكتور حتى في مقولته المدللة بأن وقائع الفتح وخاصة في زمن أبي بكر وعمر لم تنفذ بناء على خطة شاملة، وبعد نظر بقدر ما كان القصد منها الوصول إلى منافذ جديدة لروح القبائل الثائرة بعد أن حيل بينها وبين الحرب .

لا نتفق مع الدكتور حتى على ذلك بل نؤكد أن الفتح فعل استراتيجي هادف يقوم على حامل إرادي واع ومصمم، إذ لنا أن نتساءل هل كان لسيدنا أبي بكر وعمر، أن يضحيا بمسلم واحد في عمل عشوائي متخبط، والدليل على ذلك أن بعض الصحابة عارضوا الفتح، وهذا

١ - د - حتى: تاريخ العرب ص ١٤  
٢ - د - حتى: تاريخ العرب ص ٢٧٦  
٣ - د - عمارة: فجر اليقظة العربية ص ٥٦  
٤ - كتابه تاريخ العرب ص ٢١٧  
٥ - تاريخ العرب ص ٢٠١

يؤكد أن هذا الأمر كان مطروحاً بقوة في هذا المجتمع الجديد، وهذا ما يتأكد أيضاً من قول المغيرة بن شعبه إل القائد الفارسي رستم ليلة القادسية: لقد أصبحنا أصحاب رسالة.

لقد وصف جيش المسلمين بأنه خلاصة الأمة العربية، فقد بعث عمر إلى مختلف أقاليم الدولة وولاتها أن ينتخبوا أو يختاروا خيار العرب، فكل قبيلة تقدم أبرز رؤسائها وأمهر مقاتليها وفرسانها وخير جنودها وأقصى سيوفها، واحتشد أيضاً أصحاب الراية والشرف والسلطة إضافة إلى الخطباء والشعراء والحكماء وضم عمر إلى هذا الجيش سبعين مقاتلاً من الذين شهدوا غزوة بدر، وأكثر من ثلاثمائة من صحابة رسول الله وسبعمائة من أبنائهم، وثلاثمائة من الأبطال الذين شهدوا فتح مكة.

كما انضم إلى هذا الجيش الكثيرون من الأبطال الذين شهدوا أيام العرب وموافقهم ضد الفرس قبل ظهور الإسلام إضافة إلى العديد من فقراء الفرس الذين لم يدخلوا الإسلام، وأخيراً فقد انضم إليه بعض القبائل العربية غير المسلمة، ومن ثم فقد كان هذا الجيش جيش العرب بل جيش الثائرين على الفرس.

ويحكي المؤرخون أن الناس علقوا بقاء الدولة وزوالها على نتائج تلك المعركة، بل علقوا الكثير من أمور حياتهم عليها حتى أن الرجل يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية.

وتحكي الموارد التاريخية أن ما قاله المغيرة لرستم: إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً، فلما سمع الفقراء ذلك قالوا صدق هذا العربي، أما الأغنياء فقد توجسوا خيفة من ذلك، وقالوا: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه.. قاتل الله أسلافنا حين كانوا يصورون أمر هذه الأمة العربية.

ومما قاله المغيرة: لقد أحيا الله قلوبنا بالإسلام فكانت ميتة.

ولقد تحدث المؤرخون عن أن فريق التعبئة - الذي ضم أهل السراي والنجدة والشعراء والخبراء - كان يقرأ على الجند أفكاراً صاغوها

1 المرجع السابق، ص ٤٢

2 المرجع السابق، ص ٤٣

3 د - عمارة: الوعي بالتاريخ، ص ٤٥

وسموها سورة الجهاد، كما حركوا في النفوس الثارات التي للعرب ضد الفرس وما للعرب من تقاليد الرأي والنجدة'....

وقبل انتهاء هذا الموضوع، نقدم هذه الصورة التي يعثها المقوقس يصف بها العرب المسلمون، قال المذكور: رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة، رغبة وتواضعا في الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة، إن جلوسهم على التراب، وأكلهم عل ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد، إذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد<sup>1</sup>.

ختاماً لهذا الموضوع فكل ما قاله الفاروق عمر بالعروبة: ما كانت العرب لتقتلني . قال: والله لأضربن ملوك العرب بملوك العجم.

إن القبائل العربية المسيحية شاركت في الفتح وفي وصيته للخليفة الذي بعده: أوصيك بالعرب خيراً فهم أصل الإسلام.

ويذكر الأستاذ محمد سعيد رصاص أن الخليفة عمر فضل زواج المسلم من المسيحية العربية على المسلمة الفارسية<sup>2</sup>، كما حصل منه مع واليه حذيفة بن اليمان.

بعد حرب الردة أخذ المنطق القبلي يضعف ليحل محله منطق الدين والقومية العربية، فقبل معركة اليرموك كان أبو سفيان يقف على كراديس المقاتلين، ويقول: الله الله منكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك<sup>3</sup>.

وفي هذه العبارة نلاحظ امتزاج العروبة بالإسلام بشكل واضح.

- من المعروف أن العرب المسلمين لم يرغبوا العرب المسيحيين على ترك دينهم، على الرغم من أن الخليفة عمر سعى لتلا يكون في جزيرة العرب دينان<sup>4</sup>، بل يروى أنه سمع

1 - عمارة: الوعي بالتاريخ، ص ٤٥

2 - فيليب حبي: تاريخ العرب، ص ٢٢٢

3 - الكامل لابن أبي

4 - كتابه ما بعد موسكو، بيروت دار الفارابي، ١٩٩٦، دار البنايع، دمشق، ص ٥٨

5 - الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٤٨٤

6 - المصدر السابق ج ٤، ص ٦٤

رسول الله ﷺ يقول: لأجلين اليهود و النصارى فلا أترك فيها إلا مسلماً<sup>١</sup>.

- بقي لنا أن نشير إلى ما ذكره البلاذري وابن الأثير من أن النصارى كانوا يسلمون في الغالب، وكان اليهود والمجوس يفضلون دفع الجزية، وهذا يفسر لنا دور العروبة وأثرها عند المسلمين العرب في إقبالهم على الإسلام.

كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري يقول: أما بعد فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية وأعربوا القرآن فإنه عربي، وقال تعلموا العربية فهي من دينكم وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم.

- كان عبد الله بن مسعود يقول: كان عمر أعلمنا بكتاب الله وأفقهنا في دين الله، ولكنه كان يوصي العرب بقوله: تعلموا النسب، ولا تكونوا كنبط السواد، وإذا سئل أحدهم عن أهله قال من كذا<sup>٢</sup>.

- وكما قلنا سابقاً فهذا الإدراك لأهمية العرب من أجل قوة الإسلام باعتبار العرب مادة الإسلام حسب قوله.

- لقد قامت سياسة عمر العربية على اعتبار الجندية قاصرة على المسلمين وحدهم دون أهل الدمة، ولذلك منع المحاربين العرب من امتلاك الأراضي في الشام ومصر والعراق خشية أن يفتر حماسهم الحربي، فأقامهم في معسكرات منعزلة عن العمران مستهدفاً منع اختلاطهم بالمغلوبين، والحفاظ على أصولهم العربية، وقد راعى أن يدمج في هذه المعسكرات القبائل بعضها ببعض حتى يخفف من النزاعات القبلية<sup>٣</sup>.

- إن معظم المؤرخين القدماء والمحدثين يتكلمون عن المقاتلين في الفتوحات الإسلامية وعهد الراشدين فيسمونهم العرب، وهم يعنون بذلك المسلمين فلو أخذنا الطبري على سبيل المثال لوجدنا أن أكثر ما أطلق على الجيوش التي خرجت من

١ رواه الترمذي المجلد ٣ و ١٨١ ومسلم مجلد ٣ ج ٥ ص ١٦٠  
٢ فتوح البلدان للبلاذري ص ٨٨ وتاريخ ابن الأثير ٣  
٣ ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ص ٧٠٤  
٤ عبقرية عمر: العقاد ص ٥٧٤  
٥ عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية ص ٥٢٦

الجزيرة لفتح العراق اسم الجيوش العربية وليس الإسلامية  
فمثلاً لناخذ الحوادث التي جرت بين تقدم العرب إلى أطراف  
العراق وبين موقعة نهاوند وهي أهم الفترات ازدحاماً  
بالحوادث نرى بأن كلمة العرب تكررت أكثر من عشرين  
مرة، أما كلمة المسلمين فتكررت في أربعة مواضع، وقد  
تكررت كلمة العرب مقابل العجم (العرب والعجم) في ستة  
مواضع.

- رد سيدنا عمر السببايا من أهل الردة إلى عشائريهم، وقوله:  
إني كرهت أن يصبر السبي من العرب .

- حرر المسترقين من العرب، ودفع فدية التحرر ممن لم يكن  
بإمكانه دفعها، ومنع استرقاق العرب وقال: أيها الناس تعلموا  
أنسابكم لتصلوا بها أرحامكم، ويروى أنه منع زواج المقاتلة  
بالسواديات وأمر بفسخ ما تم عقده من هذه الزيجات، وكان  
يريد إخلاء الجزيرة العربية من غير العربي.

- وهو القائل: لا تجلدوا العرب فتذلوهم<sup>٣</sup>، وهذا ليس تعصباً  
قبلياً بقدر ما هو فهم لواقعهم وتقدير لمكانتهم في الإسلام.

- قال عمر مخاطباً الهرمزان: كيف رأيت وبال القدر وعاقبة  
أمر الله.

لقد تفتق هذا الوعي في الثلاثين الحصري (أهل مكة ويشرب  
والطائف) الذي يمثل نواة الجزيرة العربية فقد كان النواة النووية  
التي وقفت في وجه الردة إدراكاً منها بالمصير التاريخي الخطير  
للأمة.

- لقد أطلق هذا الوعي الجديد الخيارين الآتيين:

- الأول داخلي غايته القضاء على العادات والقيم التي تحكم  
المجتمع القبلي، وأداته في ذلك مجاهدة النفس.

- الثاني: خارجي امتدت بفعله أبصارهم وسيوفهم إلى الأخطار  
التي كانت تحيط بهم إحاطة السوار في المعصم .

١ د - صالح أحمد العلي: امتداد العرب في صدر الإسلام ص ١٢٥.

٢ تاريخ البغوي: ج ٢ ص ١٤٩.

٣ تحديات أمام العروبة والإسلام: صابر طعمه ث ١١٧.



وفضلاً عن ذلك ففتح العراق والشام هو حرب تحريرية استردت الأراضي العربية المغتصبة من قبل الاستعمار البيزنطي الذي كان الامتداد للسيطرة الغربية على الشرق منذ فتوحات الإسكندر الأكبر، وكذلك ضد الاستعمار الفارسي المتخلف والمتهاك، وبالتالي فالفتح لم يكن ضد السكان الأصليين الذين قدموا المساعدة له، وإنما ضد الحاميات الفارسية والبيزنطية<sup>١</sup>.

ولا أدل على ذلك أن هذا الفتح استطاع أن يقيم خلال ثمانين عاماً دولة امتدت من شبه جزيرة الأندلس والمحيط الأطلسي إلى حدود الصين.

وقد يستغرب البعض أن هذه الدولة بقيت محكومة بأقلية مسلمة لعدة قرون، وهذا هو شأن انتشار اللغة العربية<sup>٢</sup>

أجل لم يكن لإنكار الذات حدود، وهذا ما تشير إليه رواية رسول الله ﷺ القادسية إلى عمر بن الخطاب الذي قدم إليه يخبره عن نتائج معركة القادسية قال الرسول ﷺ: استشهد فلان وفلان وآخرون لا يعلمهم إلا الله، والسؤال المطروح هو ماذا كان سيحدث للعرب لو خسروا معركة القادسية؟؟

ومرة ثالثة نختلف مع الدكتور حتى في مقولته المتضمنة أن الانتصار الأول للدولة (القومية العربية) لا للدين، في حين أن الانتصار فيما بعد للإسلام، وحجتنا من ذلك أنه من الصعب في هذه المرحلة الفصل بين حقيقتين متماهيتين هما الإسلام والعروبة.

لقد أدرك الخليفة عمر بأن المعركة ستكون مع الفرس في القادسية لأنها - حسب قوله - بوابة الفرس، لذلك قرر الاشتراك بنفسه في المعركة، لكن الصحابة لفتوا انتباهه إلى خطورة ذلك وطلبوا إليه البقاء، وبالمقابل فقد أدرك ملك الفرس يزدجرد خطورة هذه اليقظة فقرر أن يسحقها، فجمع كلمة الفرس، وأعد كل طاقة لذلك<sup>٣</sup>.

١ - عمارة: فجر اليقظة العربية ص ٥٧.

٢ - عمارة: التراث في ضوء العقل ص ١٨٩

٣ - عمارة: التراث في ضوء العقل ص ١١٨

٤ - فاروق عمر: دور التاريخ والتوعية القومية، المحلة التاريخية العدد ٥ ص ١١٧

٥ - تاريخ العرب ص ١٠٢

٦ - عمارة: الوعي بالتاريخ، دار الوحدة، بيروت ط ١، ٩٨١ ص ٤١



لقد بلغ عدد جيش الفرس مائتا ألف مقاتل، وحشدوا فيه خير ملوكهم وحكام إقائهم، وأمهر المقاتلين إضافة إلى ثلاثة وثلاثين فيلاً. فأجابه الهرمزان: لنا وإياكم في الجاهلية، وقد خلى الله بيننا وبينكم فغلبناكم، فلما كان معكم غلبتمونا.

هكذا يتبين الفهم الواقعي للإسلام والمجتمع العربي، إذ لم يأخذ سيدنا عمر بالتفسير الغيبي للهزيمة والانتصار الذي أراده الهرمزان، بل اعتبر وحدة العرب التي حققها الإسلام سبب لهذا الانتصار.

لما علم سيدنا عمر أن قتله أبو لؤلؤة قال: كنت نهيتكم أن تجلبوا علينا من علوجهم أحداً فعصيتُموني وقال: الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاججني عند الله بسجدة سجدها له قط، وما كانت العرب لتقتلني<sup>1</sup>.

- رفضت جماعة من بني تغلب دفع الجزية، لأن فيها مذلة بينما هم عرب وأصحاب أنفه، وطلبوا تسميتها باسم آخر فأبى عمر، وهنا تدخل علي أن تدفع الصدقة مضاعفة<sup>2</sup>.
- وهكذا يتبين أن كلا من عمر وعلي يفهم نفسية العرب ويراعيها ويريد المحافظة على شعورهم بالعزة.
- ذكر البلاذري في فتوح البلدان أن قوماً قدموا على عامل لعمر بن الخطاب فأعطى العرب منهم وترك الموالي، فكتب إليه عمر قائلاً: حسب المرء في الشر أن يحقر أخاه المسلم<sup>3</sup>.
- وقال حين حضره الموت: لو أدركني أحد رجلين، جعلت هذا الأمر إليه: سالم مولى حذيفة، وأبو عبيدة بن الجراح، فهذا الموقف لم يفرق بين الموالي وغيرهم<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> الفاروق عمر: هيكل ج ٢ ص ٣٠٧

<sup>2</sup> المرجع السابق ص ٦٩

<sup>3</sup> فتوح البلدان، ص ٨٤٥

<sup>4</sup> الفاروق عمر، ج ٢/٢، ص ٣١١، د. عمارة: الوعي بالتاريخ، ص ١٢٨

## الفرع الثالث : العرب في الإسلام على عهد الخليفة عثمان

استمرت الفتوحات على عهد هذا الخليفة في بلاد الروم ومصر وفي شمال إفريقيا وأذربيجان وأرمينية وفارس وكرمان وسجستان وخراسان، وبصورة عامة لم يستطع العرب تثبيت أقدامهم في آسيا الصغرى حيث قامت جبال طوروس والجبال التي تقابلها حاجزا منيعا أمامهم على اعتبار أنهم لا يستطيعون الحياة في المناطق الباردة، وهكذا فقد تجمدت اللغة العربية على منحدرات هذه الجبال فلم تجزها إلى الأناضول<sup>1</sup>.

أما نطاق الحصون الإسلامية التي امتدت من منطيا على أعالي الفرات إلى طرسوس قرب الأبيض المتوسط فقد شملت أضنة المصيطية، مرعش، وهي مراكز إستراتيجية تمتد عند تقاطع الطرق العسكرية، داخل الممرات الجبلية وسميت هذه المعازل العواصم، أما خط الحصون الخارجي الشمالي فتسمى الثغور ويسمى الخط المقابل للدفاع عن العراق الثغور الجزئية كما أن خط الدفاع عن سوريا سمي الثغور الشمالية<sup>2</sup>.

ولقد قاتل العرب عن كل شبر في هذه الأراضي قتالاً عنيفاً في فترات متعددة في عهد الأمويين والعباسيين، ولعله ليس في آسيا كلها أرض خضبت بدماء المقاتلين، كما خضبت هذه الأرض<sup>3</sup>.

وذكر صاحب الأغاني أنه عند حصار القسطنطينية نظر القائد يزيد بن معاوية، فإذا كان النصر لصالح المسلمين ارتفعت الدفوف، ويقال إنها ابنة جبلة بن الأيهم ملك غسان<sup>4</sup>.

وفي هذه الحملة قتل أبو أيوب الأنصاري الذي كان يحمل راية الرسول، وكان النصرارى يتباركون من قبره<sup>5</sup> لا سيما إذا قحطوا.

1 فليب حني: تاريخ العرب ص 209  
2 البلاذري ص 183  
3 فليب حني: تاريخ العرب ص 260  
4 المرجع السابق، ص 260  
5 ابن سعد، ج 3، ص 50

وفي الحملة الثانية على القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك استشهد القائد عبد الله البطل، ودفن هنالك وقد جعلت التقاليد قبره مقدساً، حيث سمي بالسيد الغازي واعتبر من أبطال الأمة التركية، وأنشئ على قرب قبره تكية لأبناء الطريقة البكباشية<sup>١</sup>.

ولقد نما المجتمع الإسلامي على عهد هذا الخليفة نمواً كبيراً وكان من نتائج ذلك ظهور اللهجات المتعددة إذ في بعض الغزوات التي اشترك فيها الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان راعته الطرائق المتعددة التي يقرأ بها القرآن بعد أن أصبح كتاب شعوب كثيرة لكل منهم لهجته ولسانه، فقد كان أهل الشام يقرؤون على قراءة المقداد بن الأسود وأبي الدرداء، وأهل العراق على قراءة عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري، هكذا امتطى حذيفة راحلته يسابق الريح حتى إذا أدرك الخليفة عثمان قال له: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتابها، كما اختلف الذين من قبلهم في كتبهم<sup>٢</sup>.

هكذا كان قرار الخليفة عثمان بجمع القرآن، أي ضمه في مصحف واحد بعد أن كان متفرقاً.

### الفصل الرابع : العرب في الإسلام على عهد الخليفة علي بن أبي طالب

لا حاجة للتأكيد بأن هذا الخليفة كان المثل الأعلى لخلق العربي والمسلم الكريم بما عرف من البسالة والحكمة والفصاحة وحفظ العهود والعفو عند المقدرة، وهكذا فقد كانت هذه السمات منطلقاً لتقاليد إسلامية عليا، كما صيرته تيجان الآداب العربية مثلاً أعلى لهذه السمات بما حاكت حول اسمه من الأشعار والأمثال والحكم

<sup>١</sup> فليح حق، ص ٢٦٤  
<sup>٢</sup> المرجع السابق، ص ٣٦١

والمواظ، كما أن حركة الفتوة، وما رافقها من رموز ومراسم جعلت منه نموذجا الأعلى<sup>١</sup>.

وعلى عهده ظهر أول واضع للنحو العربي هو أبو الأسود الدؤلي، وزعم ابن خلكان أن عليا هو الذي وضع له المنهج الذي سببته، وذلك بتقسيمه كلام العرب إلى ثلاثة أحرف اسم، فعل، حرف - .

وقال مخاطباً عمراً حين عزم على قيادة الجيش بنفسه، كن غصبياً واستدر بالعرب ودونك نار الحرب، وأما العجم إن ينظروا إليك غدا يقولون هذا أصل العرب واسترحم فيكون أشد تقلبهم عليك وجمعهم فيك.

### مسألة وسطية الشافعي

جمع القرآن الكريم على عهد الخليفة عثمان مع أن ذلك تم في عصر الرسول ﷺ، ولكن هذا التدوين والجمع كان متفرقا، فلما كانت خلافة أبي بكر جمعت هذه المتفرقات في أصل واحد بناء على اقتراح عمر بن الخطاب، وأخيرا كان العمل الجليل الرابع الذي اقترحه الخليفة عثمان بن عفان معتمدا منهجا علميا رائعا في مستواه وصوابيته ودقته العلمية الفذة.

ويمكننا الجزم بأن قرار العظمة هذا للخليفة عثمان يتضاءل أمامه كل نقد كالتقول إنه كان هنالك نسخة أخرى عن القرآن مثل نسخة ابن مسعود وغيره وإن أول عمل يجب عمله في مجتمع أخذ في النمو والتوسع والاختلاط والابتعاد عن الفطرة.

كان على الخليفة عثمان اتخاذ قرار حماية الأساس الذي يقوم به المجتمع، صحيح أننا واجهنا ونواجه في عصر الخليفتين أبي بكر وعمر بعض القرارات التي لا تخلو من سمات إيديولوجية، لكننا لا نستطيع أن نشك أو نشكك في جوهر الاجتماع الإسلامي والعربي الذي هو القرآن الكريم وفي أي قرار يتعلق به، اللهم إلا إذا أردنا أن نرى في أية فرجة ضئيلة قبرا جماعيا منسقا وكبيرا لهذه الأمة، وبالتالي فإن الحرص على العقيدة، -وراء ذلك الأمة العربية- يدفعنا للالتفاف والتجذر حول ذلك النص، والقول مع الدكتور رضوان

<sup>١</sup> د - حتى: تاريخ العرب، ٢٤٢  
<sup>٢</sup> د - حتى تاريخ العرب، ص ٢٤٣

السيد بأننا أمة نصية ولعمري، لقد انتقل هذا الصراع إلى وسطية الإمام الشافعي، على اعتبار أن الإمام الشافعي دافع عن هذا العمل الجليل، هذا فضلا عن أنه دافع عن أصالة التجربة العربية الإسلامية وعن اللغة العربية كونها لغة القرآن الكريم.

ولا يخفى أن الدكتور نصر حامد أبو زيد هاجم الشافعي لعدة أمور منها قوله: بفضل قريش ولغتها ثبت القرآن على هذه اللغة (القرآن أنزل على سبعة أحرف والأحرف تعني لهجات) في حين أن عثمان ثبتها على لغة قريش<sup>1</sup> وقوله بوجوب قراءة الفاتحة في الصلاة بالعربية، ثم قوله بهوية النص القرآن، واعتبار العربية جزءا جوهريا في بنيته.

مع أنه لا يخلو الأمر من وجود أئمة آخرين دافعوا عن العروبة وخاصة الإمام مالك والإمام أحمد ابن حنبل والإمام ابن تيمية، إلا أننا لا نستطيع إلا الترحيب بموقف الخليفة عثمان من جمع القرآن الكريم ومن وسطية وأصالة الشافعي، ونعتقد أن ما فعله الخليفة عثمان يشبه ما فعله الكثير من زعماء ورجال الدول في العالم.

كيف كانت اللغة الإنجليزية على عهد الشاعر شوسر؟ ولماذا حرص الإنكليز على تثبيتها على صيغتها واحدة؟ هل نقول ونؤيد ما قاله الدكتور أبو زيد حول كون الأحرف التي نزل بها القرآن هي لهجات؟ وهل نقف على هذه اللهجات تحت دعاوى الخصوبة والغنى أم حول صحة الرأي الواحد التوحيدي الموحد؟

<sup>1</sup> الشافعي وتأسيس الوسطية وتأسيس الإيديولوجية الوسطية، المرجع السابق ص ٢٤  
<sup>2</sup> خالد عمر، ص ٨١

## البحث الثاني : العرب في الإسلام في العصر الأموي

يقول ميشيل دوبريه: إذا أردت أن تلتمس السياسية فالتمسها في الإيديولوجية وإذا أردت أن تلتمس الإيديولوجيا، فالتمسها في الدين، وإذا أردت أن تلتمس الدين فالتمس في الفيزياء الاجتماعية، فما هي فيزياء المجتمع العربي والإسلامي في العصر الأموي؟؟...

أول ملاحظة نبيدها هي أن المجتمع الإسلامي بعمامة والعربي بخاصة أقل توتراً روحياً بالمقارنة مع العصر الراشدي، ولعل هنالك أسباباً عدة أهمها انكماش كتلة الصحابة التي أعطت هذه المرحلة خصائصها ومقوماتها، بالمقابل فالمعين الروحي تقلص بالمقارنة مع المعين العربي لا سيما أن الشوكة - أساس السلطان - يمكن إعطاؤها إلى رابطة أخرى في تلك الفترة، وإن كان أمراً طبيعياً معبراً عن طبائع الأشياء والنسب المركوزة، فيها أن تكون السيادة في يد العرب، بل في يد تحالف قبلي يضم القبائل العربية ويستبعد غيرها مع ما يترتب على ذلك من إعلاء الثقافة العربية.

وهذا ما نجده في قول الحجاج لأهل الكوفة، وكتاتوا قد نحوا يحيى بن وثاب - وهو مولى وقارئ - عن إمامه الصلاة وبحكم إني قلت عربي اللسان.

لهذه الأسباب لقد وصفت دولة بني مروان بأنها عربية أعرابية، بل نستطيع القول إنها عربية، وإن الأعرابية كانت مسفهة منذ مدنيات اليمن كما أشرنا إلى ذلك بالتفصيل.

ونضيف إلى الخليفة الأموي عبد الملك استحضر إلى بلاطه أعرابياً، فقال له: قل لي كيف تعيش؟ فأجاب: إنه يضع عباءته فوق عصا في الصحراء ثم ينام في ظلها، فذلك أحب إلي من القصر المنيف، وهنا امتلأ شديداً بالخليفة تندراً وضحكا.

ولقد ذكر فيليب حتي عن معاوية بأنه مثال الملك العربي، فقد استعان بالعرب السوريين لا سيما اليمانيين وظهر على يده أول جيش نظم

1 كتابه العقل السياسي  
2 الدكتور ثروت البلوي: أصول الفكر السياسي القاهرة النهضة العربية ٦٧ ص ٧  
3 البلاذري: أنساب الأشراف ص ٢٢٣٥

في الإسلام، واستخدمه لضبط الأمن الداخلي والجهاد، وأصبحت بادية الشام مدرسة للأمرء يتعلمون العربية الخالصة، وكلنا يعلم زواج معاوية من ميسون الكلبية، ثم الأبيات الشعرية التي أطلقها مفضلة حياة الصحراء على القصور العامرة قالت:

ليبت تخفق الأرياح فيه      أحب إلي من قصر منيف  
ولبس عباءة وتقر عيني:      أحب إلي من لبس الشفوف

ولقد اصطحب معاوية ابنه يزيد إلى البادية، حيث تعلم فيها الفروسية والصيد وشرب الخمر وقرض الشعر ولقد تأسى الأمرء بذلك، فكانوا يلجأون إلى البادية للتخلص من وطأة الآرامية، حيث بنوا لهم هنالك القصور المنيفة.

ولقد ساهم العرب النصارى في إشادة الدولة الأموية، فكان منهم منصور بن سرجون، ويوحنا الدمشقي نديم يزيد، ثم ابن آثال الذي ولاه معاوية على جباية خراج حمص .

ولا ننسى الأخطل الذي تبوأ شاعر البيت الأموي، فكان يدخل على عبد الملك، والصليب متدل على عنقه ولحيته تفوح خمرا، ولقد كان اليعاقبة والموارنة يتكلمون إلى الخليفة، ويعزى إلى معاوية أنه بنى بيعة للنصارى في الرها<sup>٣</sup>.

وأبرز سمات هذا العهد اتساع حركة الفتح حتى بلغت الصين شرقا، والاندلس غربا، كما تميز بنشوء حركة التعريب التي اتخذت من اللغة العربية لغة للدواوين إضافة إلى تعريب السكة<sup>٤</sup>.

وحركة التعريب هذه تعنى أن الأمويين عزموا على تكوين دولة عربية بحق وحقيقة، وتعني شعور العرب بدورهم الحضاري وبالعالمية رسالتهم الإنسانية المتفتحة على الثقافات والنظم الأخرى، ويؤكد بعضهم أن الأمة بمعنى العرب ظهرت في زمن الأمويين، ولقد بلغ

<sup>١</sup> تاريخ العرب، ٢٥٧

<sup>٢</sup> د. قبيلب حتى: تاريخ العرب، ٢٥٦

<sup>٣</sup> ابن عساکر ج ١ ص ٨٠

<sup>٤</sup> فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٢٥ ص ١٥



الأمر مداه على عهد الخليفة الأواه المنيب عمر بن العزيز، فلم يرسم  
ضريبة على المسلم سواء أكان عربياً أم غير عربي<sup>١</sup>.

ولقد عمد الوالي الحجاج على وضع علامات في الخط العربي لتمييز  
الحروف المتشابهة، كما أنه ساعد على نقل صور الحركات من فتح  
وكسر عن السريانية، كما عمل على ضبط نسخة عن القرآن الكريم  
لتكون مرجعاً يرجع إليه، وكلنا يعلم أنه في عهد الأمويين تم بناء  
الجامع الأموي ومسجد قبة الصخرة في بيت المقدس، ثم المسجد  
الأبيض الذي بناه سليمان في الرملة.

وباختصار بنى الأمويون المقوم أو الذروة الثقافية بالإضافة إلى  
الأساس الديني، وفضلاً عن ذلك فقد بنو جيشهم من أهل الشام ومن  
العرب الذين استقروا في ربوع الشام.

ولقد تمتع أهل الذمة في هذا العهد بقطر وفر من الحرية، واستقلوا  
بأمورهم المدنية والقضائية والجنائية<sup>٢</sup>.

ولقد بنى خالد بن عبد الله القسري عامل هشام على العراق كنسية  
لأمة النصرانية، كما سمح للنصارى واليهودية ببناء المعابد  
وللزراشتيين الدخول في وظائف الدولة<sup>٣</sup>.

واشتهرت البصرة والكوفة بعلوم الصرف والنحو، وبدراسة اللغة  
العربية، وذلك لتعليم الأعاجم الداخلين في الإسلام<sup>٤</sup>.

ولقد ازدهر علم الحديث، ومن المحدثين الحسين البصري وابن شهاب  
الزهري الذي قيل عنه إنه عرف سبعين رجلاً ممن شهدوا بدرًا.

ونشأت في هذا العهد في فترات عديدة في هاتين المدينتين حيث مثلتا  
مذهبيين في النحو والأدب، ومن المحدثين عامر ابن شرحبيل الشعبي  
الذي سمع الحديث عن ١٥٠ صحابياً.

١ د. قليب حتى: تاريخ العرب، ص ٢٨٠.  
٢ المرجع السابق: ص ٢٩٠.  
٣ المرجع السابق: ص ٢٩٧.  
٤ ابن خلكان ج ٦ ص ٣٠٢.  
٥ قليب حتى: المرجع السابق ص ٢٩٩.



وفي عصر الأمويين بدأ تدوين التاريخ الذي اتخذ شكل الحديث، وكان أحد المناهج التهذيبية التي نهجها العرب المسلمون في إبراز القصص المتعلقة بسيرة الرسول وأصحابه.

وظهرت في هذه الحقبة أصول الحركات الدينية الفلسفية بعد أن ظهر وأصل بن عطاء مؤسساً مدرسة المعتزلة، كما ظهر يوحنا الدمشقي ولقب بدقاق الذهب لفصاحته وكان أرامي اللسان سوريا وجده منصور ابن سرجون القائم على إدارة الأموال في دمشق، وكان يوحنا هذا نديم يزيد ومن مؤلفاته محاوراة مع مسلم في موضوع ألوهية المسيح، وهي دفاع عن النصرانية، ومن ذلك كتاب لإرشاد النصارى في مجادلاتهم مع المسلمين.

ولقد اشتهر يوحنا ك مترجم ولاهوتي وخطيب وهو يمثل تفتح ومفاخر الكنسية التي ازدهرت في العصر الأموي (٨)

ولقد اشتهر العصر الأموي بنمو الخطابة ومن الخطباء زياد بن أبيه والحجاج وخالد القسري وأبو حمزة الخارجي.

وازدهر أيضاً الشعر لا سيما الذي تناول أغراض الحب والجمال؛ حيث ظهر عمر بن أبي ربيعة وجميل بن معمر، كما تناول قيما أخرى: كالشجاعة والصبر ومراعاة الجوار والمروعة والكرم الخ....

وكان خالد بن يزيد المسمى حكيم آل مروان أول من أمر بنقل كتب الكيمياء والطب والتنجيم إلى العربية من اليونانية والقبطية<sup>١</sup>.

ونشأ الفن العربي الإسلامي في هذا العصر متأثراً بالثقافات اليونانية والرومانية والكلدانية والآشورية والقوطية الغربية<sup>٢</sup>.

أما في الصين فكان المسجد يحاكي تماماً طراز الهيكل البوذي<sup>٣</sup>.

ومظهر الإبداع واضح في الفن الإسلامي في هذا العصر في استلهامه مملكة النباتات، ثم مزج ذلك بقرائح الشعوب بما يتفق مع روح الشريعة.

١ المرجع السابق ص ٣٠٦

٢ ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣١

٣ د - حني، المرجع السابق، ص ٣١٨

٤ د - حني، المرجع السابق ص ٣٢٣

٥ د - حني، المرجع السابق ٧ ص ٣٣

وظهر في هذا العصر دور الموالي، لكن هذا الدور لم يظهر فجأة، بحيث إن العرب كانوا هم مادة الإسلام، كما أنهم هم الذين شجعوا الموالي على الدخول في الإسلام، فليس صحيحاً القول بأن الاضطهاد نشأ في العصر الأموي على أساس عصري، بل كان موجهاً على الضعفاء من قبل بعض الخلفاء والولاة والأسيد.

ولعل الأزمة المالية التي وقع بها النظام المذكور كان من الأسباب الهامة المؤدية إلى سقوطه، يؤيد ذلك أن أول من تحرك باسم الضعفاء هم القبائل اليمنية العربية في خراسان<sup>١</sup>، كما أن الذين قادوا الحملة على الأمويين هم العرب بصفتهم الكتلة التاريخية التي في يدها زمام الأمور، ولقد ساروا من أجل تحقيق المساواة، وبالفعل فقد أيقظت النفوس والمشاعر التي كان قسم منها مباشراً ومسلماً والآخر غير مباشر وغير مسلم، وهذه هي الشعوبية الإيرانية<sup>٢</sup>، والأمر نفسه بالنسبة للدولة العباسية فلم تكن المعارضة العربية ضدها لأنها غير عريضة بل لأنها غير مسلمة ونستطيع سحب ذلك على الدولة العثمانية التي استولت على السلطة السياسية في بلاد العرب من أبناء عربية، ومع ذلك لاقت تأييد الشعب العربي باسم الإسلام.

ويرى البروفسور جب أن الشعوبية بدأت عندما تمكن الإيرانيون من إنتاج لغتهم، وعندما ظهرت اللغة القوطية في إسبانيا و صقلية ولغة البربر في إفريقيا واللغة القبطية في مصر والأرامية في الجزيرة الفراتية<sup>٣</sup>.

ولقد كان هذا الصراع عنيفاً استهدف الثقافة العربية الإسلامية بكل ما أفرزته من قيم ومثل واتجاهات، وهذا ما أكده جب بقوله: تأصل النزاع بين التراثين العربي والفرسي حتى أنه مس الجذور، ولم يكن جوهره مسألة سطحية تتناول الأساليب والأشكال، وإنما كان جوهره يتناول الوجهة الثقافية للمجتمع الإسلامي الجديد برمتها، أي أن هدف الشعوبية صياغة الحياة الاجتماعية والسياسية والروح الداخلية للثقافة الإسلامية على مثال النظم والقيم الساسانية.

<sup>١</sup> فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٥١

<sup>٢</sup> فاروق عمر: دراسات في حضارة الإسلام، بيروت ١٩٦٤

<sup>٣</sup> - عبد الإله بلقزيز، مقالة: العروبة والإسلام، مجلة المستقبل العربي، عدد ٢٥٤/٢٠٠٠ - ١٢٥

<sup>٤</sup> فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية، بيروت ١٩٧٠

وفي نظره إن الشعوبية العنصرية فقدت فاعليتها أمام مرونة وتسامح أنصار العروبة، وقد اعترف الكتاب الشعبويون بفشلهم أي اعترفوا بأن العلوم العربية الإنسانية قد انتصرت<sup>١</sup>.

وكذا رد الثعالبي على الشعوبية، واعتبار معرفة العربية من التدين، قال المذكور: إن الأمثال على تفهمها من الديانة<sup>٢</sup>.

ويرد التوحيدى على هجوم الشعوبية على اللغة العربية، فيظهر محاسن استعاراتها البديعة واختصاصاتها البليغة وغرانب تصرفها ولطف كتابتها لذلك فالعربية عنده نسبا<sup>٣</sup>.

ولقد اتبرى أنصار العروبة للرد على الشعوبية لا سيما على مقولة إن العرب ليس لهم تاريخ، وهكذا فقد ظهرت لنا فلسفة ووعي جديد هو وحدة التاريخ العربي الثقافي، حيث إن كل عنصر متمم للآخر، وأهم هذه الكتب كتاب عيون الأخبار والبيان والتبيين والمفضليات والحماسة<sup>٤</sup>.

ولم يقتصر الأمر على التاريخ الثقافي، بل امتد إلى التاريخ السياسي، حيث أبرز العديد من المؤرخين وحدة التاريخ العربي، ومن أهم هذه الكتب: كتاب المعارف الذي أظهر وحدة التطور التاريخية للأمة العربية، والأمر نفسه بالنسبة لكتاب البلاذري الذي أبرز دور العرب في الفتوح والإدارة والسياسة.

ولقد ألف أبو عبيده والأصمعي في تاريخ العرب وملوكهم في الجاهلية، ورد يحيى بن مسعده على ابن عرسية مذكرا إياه بكتابات العرب السياسية قبل الإسلام يقول المذكور: أم لك منهم بعض الملوك العاربة والكواكب الطالعة الثمودية والعادية والطسمية والجديسية ما يقرع سمعك<sup>٥</sup>.

ووصف الجاحظ سمة الفطرة في العرب فقال: لم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغنى الذي يسورث السبلادة

١ فاروق عمر: دراسات في حضارة الإسلام من ص ٨٨ - المرجع السابق، ص ١٥٦  
٢ كتاب فقه اللغة، القاهرة ٢٢٨٤ هـ ص ٣  
٣ فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٥٧  
٤ فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٥١  
٥ عبد السلام هارون: نوادر المخطوطات القسم الثالث ص ٢٠٦

والثروة التي تحدث العزة ولم يحتملوا الغنى فيميت قلوبهم وتَصغُر  
عنده أنفسهم<sup>١</sup>.

وأكد الجاحظ أن هذه العدنانية القحطانية ليست إلا مظهراً من مظاهر  
الأمة الواحدة ذات الخصائص المشتركة، وهكذا فالعرب قد استتوا  
في التربية وفي اللغة والشمائل والهمة، وفي الأنفة وفي الحمية  
والأخلاق والسجية فسكبوا سكباً واحداً وأفرغوا إفراغاً واحداً<sup>٢</sup>.

لقد اتخذت العروبة نسباً لها هو اللغة، وهكذا فقد جعل الجاحظ  
إسماعيل وهو غير عربي عربياً لأنه تكلم العربية على غير التلقين،  
فأكتسب أخلاق العرب وشمائلهم وكرمهم وأنفتهم وهمهم<sup>٣</sup>.

لقد هاجمت الشعوبية عقيدة العرب أي الإسلام يقول الجاحظ: لقد  
جاءت هذه عن طريق الشعوبية، فإن أبغض شيء لها حب العرب،  
يقول الثعالبي: من أحب الرسول أحب العرب ومن أحب العرب أحب  
اللغة العربية<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> ثلاث رسائل للجاحظ، تحقيق فلوتن ص ٤٤

<sup>٢</sup> المصدر السابق، ص ١٠٥

<sup>٣</sup> رسالة الترك تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٦٤

<sup>٤</sup> فقه اللغة ص ٣

## البحث الثالث : اكمال نشوء الدار العربية

وسندرس في هذا البحث الفرعين الآتيين

الفتح الأول:

الفتح بصفته فاعلحة تحففة للمفءم العربف

"ومسألة توسع الدار العربفة"

لقد أصبحنا أصحاب رسالة.

هذه هف العبارة النف أطلقها الصحابف المففرة بن شعبه لفة معركة القادسة فف وفه القائد الفارسف رستم، وقد ذهل هذا القائد وذل وتحرر من هؤلاء القوم العرب بعد أن كان يعتقد أنهم - كعادتهم - جاؤوا لئحاربوا من أجل الغنالم.

وفف الواقع لقد تمخضت حركة الإسلام عن الأمة النف تستند إلى العقفدة .

وقبل الخوض فف تضاعف هذا الفءح وآثاره العمففة فف فكوفن الأمة، لابد من التفلل بنقطة مركزفة، وهف أن لغة العقفدة كانت فاعدة هذا الفءح، ومن فهة أخرى فأنه ولنن كان البدو عناصر قتالفة فنفة، فأن القفادة والتوففبه والبناء كانت لعرب المءن، وهذا ما فمفز الفءوح العربفة الإسلامفة من الغارات البدوفة فف السابف من ففء التنظيم والهدف والأسلوب، وهذه الفءوح أعادت للمنطقة العربفة سفادتها بعد أن غزتها القوف الشرقفة والفربفة مع عوامل أخرى فف عصور نالفة من فءفد رقعة الوطن العربف .

وحقفة الأمر أن الإسلام اتخء موقفا سلفباف من البءاوة، فقد وفه العرب إلى الاستقرار والحفاة المءنفة، وءء على القراءة والتنظم وجعلها من لوازم العقفدة، وقد بذلت جهود واسعة فف عصر الرسالة

<sup>1</sup> د - عبء العزفء الدورف: الفكوفن التاريخف للأمة العربفة، دراسة فف الهوفة والوعف، مركز دراسات للوءة العربفة، ط ١، ٩٨٤، بفروت، ص ٣٧  
د. الدورف: المرجع السابق، ص ٣٨٧

وبعد لتعليم القراءة والكتابة كانت بداية وضع الأسس للحياة الثقافية، وفضلاً عن ذلك فقد فرض الرسول الهجرة إلى المدينة ابتداءً، ثم كان من سياسة الخلافة تشجيع الهجرة من الجزيرة إلى الأمصار الجديدة، مما أدى إلى انتشار العرب في الأرض واستمرار تدفقهم من الجزيرة في صدر الإسلام خاصة، وكان هذا الاتجاه وراء إنشاء عدد كبير من المراكز والمدن الجديدة في دار الإسلام، وهو اتجاه كان له أثر بارز في تكوين الأمة العربية والحضارة العربية.

وبفضل هذه الروح، وتلك العقيدة وذلك التنظيم السياسي انطلق العرب من جزيرتهم، وهم آنذ أمة الإسلام، وبعد أن توحدوا في الجزيرة في دولة واحدة إثر حروب الردة - وكان خروجهم للفتوح طوعياً - ولعل مجموع من شارك في فتوح الشام والعراق ومصر لم يتعد الستين ألفاً، وكان خروجهم تحت لواء الجهاد الذين أعلنته المدينة، وقد يكون بينهم من اندفع وراء الكسب، لكن الواضح أن الإسلام حمل العرب رسالة وقضية أمة واحدة.<sup>١</sup>

وبعد فتح الشام والعراق أنشأ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الديوان سنة ٢٠ هـ ليكون سجلاً باسماء المقاتلة وأنسابهم وأعطياتهم، وكان هذا الديوان مفتوحاً للعرب جميعاً، حتى التحقوا بالمقاتلة في المراكز التي خصصت لهم.<sup>٢</sup>

وإذا كانت الهجرة إلى المدينة شجعت من الرسول، إلا أنها أصبحت بعد ذلك نية وجهاداً، وكان هذا الجهاد المهمة الأولى للأمة أيام الراشدين حيث اتخذت الأمة سياسة ثابتة لتشجيع الهجرة إلى الأمصار الجديدة والاستقرار فيها، وذلك للحاجة المتزايدة للمقاتلة باتساع الجبهات من جهة ولدفع القبائل إلى الاستقرار من جهة أخرى، وصارت إلى الهجرة إلى الأمصار شرطاً للمشاركة في الفياء، إذ اقتصر العطاء على الخارجين إلى الأمصار وأما من بقي في الجزيرة فليس له من العطاء شيء.<sup>٣</sup>

١ محمد بن الحسن الشيباني، السير، ج ١ ص ٨٨

٢ د. الدوري: المرجع السابق، ص ٤٧

٣ المرجع السابق، ص ٤٧

٤ جمال جوده، العرب والأرض في العراق في صدر الإسلام، عمان ٩٧٩ ص ١٨٧

٥ د. الدوري: المرجع السابق، ص ٤٧

واعتبرت العودة إلى البادية (أو التعريب بعد الهجرة) مكروهة، بل وفسر البعض بالردة، واتخذت الخلافة سياسة ثابتة في الأراضي المفتوحة فلم توزعها بين المقاتلة، كما أراد هؤلاء وفق النظرة القبلية، بل تركها بيد زراعها مقابل الخراج، واعتبرها فينا للأمة الإسلامية، أو وفقاً عليها بصرف وارجها على عطاء المقاتلة ونفقات الدولة الأخرى، وكان الدافع إلى ذلك قلة المقاتلة وضرورة وتوجيههم إلى الجهاد والخوف من توزعهم على الأرض، وراء كل ذلك، كما قلنا مفهوم الأمة والصالح العام.

وعلى ضوء ذلك، فقد أسكن المقاتلة في مقرات خاصة بهم، وهي إما مدن جديدة (أو دور هجرة) أنشأت لهذا الغرض، (الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان مثلاً)، وإما في مراكز بجوار المدن الرئيسية مثل (حمص ودمشق).

وكانت الفكرة إزالهم في جماعات كبيرة لتكون منطلقاً لفتوح جديدة، واختيرت هذه المواقع على أساس اعتبارات المقاتلة لجهة المناخ والتموين والرعي والمواصلات، بحيث يكون مناخها قريب من مناخ البادية وبحيث يكونون على صلة مستمرة، وهكذا فقد كانت هذه المراكز قريبة من بوادي الكوفة والبصرة التي يتجول فيها بكر بن وائل وتميم، فكانت تغذي المركز باستمرار بمجموعات جديدة، وكان المقاتلة يخرجون في الربيع بجيولهم وإبلهم ومواشيهم إلى البوادي المجاورة أو الأرياف للتربيع.

استمرت حركة الفتح طيلة القرن الأول الهجري، وقد تطلب ذلك توجيه التنظيم والاقتصاد بما يخدم أغراض الجهاد، ومن مظاهر هذه السياسة قلة اختلاط المقاتلة بالآخرين، وعدم تشجيعهم على الإقامة في الريف، حفاظاً على كيانهم.

وأقام في كل مركز مجموعات من قبائل متعددة، لذلك نجد في القبيلة الواحدة جماعات في الكوفة والبصرة، وفي أجناد الشام، كما أن

<sup>1</sup> الطبري: تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١ ص ٢٨٦ وانظر ابن منظور: لسان العرب ج ١٥، بيروت، دار ضياء، ١٩٦٨ مادة عرب  
<sup>2</sup> الطبري، المرجع السابق، ج ١ ص ٢٥٨٢  
<sup>3</sup> د. الدوري: المرجع السابق، ص ٤٨.  
<sup>4</sup> جودة العرب والأرض في العراق في صدر الإسلام ص ١٥٣  
<sup>5</sup> حض خليفة عمر بن الخطاب العرب أن يحافظوا على النسب.  
<sup>6</sup> البلاذري: أنساب الأشراف، مخطوطة مكتبة أحمد الثالث، اسطنبول، ص ٧٥١.



القبائل في خراسان جاءت من قبائل البصرة والكوفة، وكان القادمون الجدد (الروادف) ينضمون إلى أقربائهم وعشائرتهم<sup>١</sup>

وكان لاستقرارهم أثره في تكوين مصالح وروابط جديدة، إذ حصل اتصال واختلاط ومظاهرات بين قبائل المصر الواحدة، وتكونت ظروف مشتركة صهرتهم في بوتقة واحدة مثل اشتراكهم في الظروف، ولأن وارد البلاد التي يفتحها مقاتلة المصر كانت تعود بالدرجة الأولى إليهم، هذا إضافة إلى الملكيات التي تكونت لرجال القبائل وبخاصة الأشراف في الأراضي التابعة للمصر<sup>٢</sup>، كل ذلك أدى إلى تكوين لهجة مشتركة تميزت ببعض المفردات والاستعمالات الخاصة.

وكما قلنا فقد اجتمع في كل مصر مجموعات قبلية من عرب الشمال والجنوب من بدو وشبه مستعربين وحضر، وكانت هذه البلورة والتخلف في اتجاه التكوين الجديد للأمة ألا وهو القاعدة التحتية لبناء أسس الثقافة العربية الجديدة.

هذا المناخ الجديد كان مدعاة لتطوير العصبية القبلية في اتجاه إضعافها وتوليد عصبية سياسية جديدة تقوم على مصلحة كل مصر، وهكذا فقد ثار التنافس على السلطة بين الأمصار، ويمكن القول إنه في الحالات القليلة التي ظهرت فيها تنازع بين مجموعتين قبليتين أو أكثر في مصر واحد في البصرة سنة ١٤هـ بين الأزدي وتميم فقد كان محدودا وسوي بسرعة<sup>٣</sup>.

صحيح أنه شب تنافس بين عرب الشمال وعرب الجنوب على السلطة، كان محدودا، وبالتالي فلم يكن هنالك موقف موحد في بلاد الخلافة لأي من المجموعتين أي لم يكن عاما ولفترات طويلة، إذ ظهر في الشام والجزيرة الفراتية بعد مرج راهط (٦٤هـ) بين قيس ويمن، إلا أن هذا الصراع على السلطة لم تظهر خطورته إلا في

١ د. الدوري: المرجع السابق ص ٤٩.

٢ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٢٥٨٣، الكامل للمبرد، القاهرة ٩٣٣، ص ١٤١  
إبلائي: فوح البلدان ص ١٧٧

٣ في عساکر: تاريخ مدينة دمشق، ج ١، ص ٥٩٧

٤ الدوري: المرجع السابق، ص ٤٩

٥ د. الدوري: المرجع السابق، ص ٥٠



نهاية الربع الأول للقرن الثاني للهجرة، وكان سبباً لزعة الكيان الأموي، كما ظهر في خراسان بين الأزد ومصر في الفترة نفسها<sup>١</sup>.

والملاحظ أن قبائل خراسان كانت تشعر بالعدو المشترك (الترك)، على الحدود الشرقية، وكان سندها في ذلك رابطة الإسلام في وجه الشرك، لكن الفتنة اشتعلت نتيجة الخلاف على السلطة في إمارة نصر بن سيار، وهيأت لنجاح الحركة العباسية.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن القبائل اليمانية كانت موجودة في الشام قبل الإسلام، وقد عرفت الاستقرار في الأرض، وتكون لديها مفهوم للدولة في حين أن القيسية جاؤوا بالفتح وبعده، وهم في القلب قبائل بدوية في خراسان فقد كانت الأزد قبيلة عرفت الملاحة والاستقرار في الزراعة في حين أن تميم كانت بدوية، ولكل مجموعة خلفية حضارية تعكس نظرتها إلى الحياة، ويمكن القول إن التجمعات والأحلاف القبلية حلت في الحياة العامة العشيرة أو القبيلة<sup>٢</sup>.

وكما قلنا سابقاً فقد أحسن العرب بمديونيتهم للإسلام وأنهم أصحاب رسالة، وقد تطور هذا الإحساس باتجاه الإحساس بقدر مشترك، وبدور تاريخي متميز بعد أن قاموا بالفتوح ورفعوا راية الإسلام، وكونوا دولة سيطرتها بأيديهم، ثم إن هذه الأمة الإسلامية التي تكونت، كانت في الأساس عربية لغتها عربية، وهذا ما ولد عندهم اعتزاز بالنسب العربي والشعور بالتفوق على الشعوب<sup>٣</sup>.

وكانت القبائل تعترز بأسبابها وتحرص عليها وترى في صراح النسب مقياس الانتماء العرب، وهي نظرة ولا شك تنطوي على المحافظة وتحد من المفهوم الموسع للعروبة، وهكذا كثرت الإشارات - وبخاصة في الشعر - أحياناً إلى العربية نسباً وفق المفهوم القرآني<sup>٤</sup>، وهذا ما يتضح مما ورد لدى البلاذري بأن الحجاج قال لأهل الكوفة لا يؤمنكم الأعرابي، فنحوا لذلك يحيى بن وثاب، وهو مولى فارسي عن إمامة الصلاة فأنبهم الحجاج قائلًا: ويحكم إنما قلت عربي اللسان<sup>٥</sup>.

١ د. الدوري، المرجع السابق ص ٥٠.

٢ د. الدوري: المرجع السابق، ص ٥٠.

٣ د. الدوري المرجع السابق ص ٥٠.

٤ أنساب الأشراف ص ١٢٣٥.

٥ د. النوي: المرجع السابق، ص ٥١.

ونشير إلى أن الجهات القبلية هي التي راحت تحد من أثر هذه النظرة الجديدة للعروبة بتأكيدا أن الفصاحة وسلامة اللغة إنما تكونان سليقة لا بالتعليم.

ومقابل هذه النظرة الضيقة، فقد كان الإسلام يكتسب مواقع جديدة، وهذا ما أدى بدوره إلى إكساب العربية قاعدة أرحب يقوم على اللغة وعلى القاعدة الثقافية الجديدة.

ولعلنا نجد مثلاً واضحاً على هذا الصراع ما جاء في كتاب الرسالة للشافعي فقد ناقش المذكور بإسهاب مسألة نزول القرآن، مما يدل على أن ذلك كان موضع جدل في عصره.

ويمكن القول إن هذه النظرة كانت زمن الإمام ابن تيمية الذي كان أكبر منتصر لهذا المفهوم القرآني للعروبة خاصة في وجه العجمة.

وبطبيعة الحال فقد كان الدخول في الإسلام مدعاة إلى تعلم العروبة، وإلى المشاركة في الثقافة العربية، كما فعل الكثير من الموالى، بل إن العربية تكاد تكون في الفترة الأولى مرادفة للإسلام إذ حين سأل أبو جعفر المنصور مولى لهشام ابن عبد الملك سنة ١٣٢هـ عن هويته قال المولى: إن كانت العربية لسانا فقد نطقنا بها، وإن كانت دينا فقد دخلنا فيه.

هكذا تبلورت مؤسسة لهؤلاء، فكان غير العربي الذي يسلم يجد محله في المجتمع، وبخاصة في المدن بالارتباط بالولاء بشخص أو بعائلة أو بقبيلة، مع التنويه بأن هذا المفهوم الإسلامي للولاء ذو جذور عربية خالصة فقد عرف في عرب الشمال (بالفعل أو الحلف أو بالجماعة) كما عرف في اليمن على أساس الارتباط بفلاحة الأرض.

على ضوء ما تقدم نلاحظ أنه عندما أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الديوان وضع فيه القبيلة ومواليها في سجل واحد ورسم لهم العطاء

<sup>1</sup> الرسالة تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، القاهرة، مكتبة مصطفى الباي الحلبي، ٩٤٠، رقم ١٤٩ و

١٥٩

٢ كتابه اقتضاء الصراط المستقيم

٣ البلاذري: أنساب الأشراف ص ١٤٨ تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١ ص ١٥٠

٤ مفهوم إسلامي، ببلييل قوله رضي الله عنه: لحمه الولاء كلحمه النسب.

٥ البلاذري: أنساب الأشراف ج ١ ص ٢

٦ البلاذري: أنساب الأشراف ج ١ ص ١٩٢

نفسه<sup>١</sup>...، هكذا تحالفت في البصرة كتائب فارسية (حمرَاء ديلم والأساورة) مع عشائر من تميم، ولما انتقل بنو العجم من الأهواز إلى البصرة حالفوا بني تميم .

وكانت الجماعات الأولى من الموالي أرقاء (أسرى حرب) اعتقوا وارتبطوا بمواليهم، وكانوا كثر في مراكز الأمصار، وتوسع عددهم بانتشار الإسلام وانتقال العدد الكبير من أحرارهم إلى المراكز العربية<sup>٢</sup>، مع التنويه بأن الخليفة الراشد عمر أوقف سبب العرب، وعق الأرقاء منهم، وهكذا صارت كلمة الموالي تشير إلى المسلمين من غير العرب، بينما ترد كلمة حليف إشارة إلى العرب .

وكان الموالي يتعلمون العربية، ويتقنون دراستها ويتخذونها لغة، وخاصة من يشغل بالعلوم العربية أو الإسلامية، وقد اعتبر الحجاج القراء من الموالي عرباً.

ومع أن الولاء لا يساوي النسب إلا أنه في بعض الحالات أدى إلى الاندماج الكامل<sup>٣</sup>، مما أدى إلى توسع العروبة وتجاوز إطار النسب القبلي، إذ كان الولاء يحمل معنى الإسلام والعرب في آن واحد، وكان الأعاجم يروا من دخل الإسلام صار عربياً<sup>٤</sup>.

ولقد تمثلت الروح العربية بأسمى معطياتها في الإسلام الذي جعل العربية سمة العرب، واعتبر الأنساب سبباً للتعارف، وتحديد بعض المسؤوليات الاجتماعية<sup>٥</sup>.

لكن القبيلة أكدت كما قلنا على النسب، واعتبرته أساساً للتمايز بين العرب وغيرهم، وإن المفهوم الإسلامي أخذ مع الزمن في الترسخ والتوسع<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> البلاذري: المرجع السابق: ص ١٩٣. فقد ذكرت الأحاديث الأحباش سجلوا في الديوان وأعطوا العطاء

<sup>٢</sup> الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٢٥٣

<sup>٣</sup> د. الدوري: المرجع السابق ٢ ص ٥٢

<sup>٤</sup> اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، تحقيق هوتساج، ٣، النجف: المكتبة المرتضوية، ٩٣٩ ص ١٠٥٨

<sup>٥</sup> البلاذري: أنساب الأشراف ص ١٤٧

<sup>٦</sup> أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني، ج ٣٤، القاهرة، دار الكتب المصرية ٩٢٧، ص ١٧

<sup>٧</sup> البلاذري: أنساب الأشراف ص ٥٩٥ - د. الدوري: المرجع السابق، ص ٥٣

<sup>٨</sup> د. الدوري، ص ٥٤

ويمكننا أن نضرب مثلاً على هذا التفاعل بين المفهومين فيما ذكره المبرد بأن أحدهم قال:

يسموننا الأعراب والعرب اسمنا وأسماؤهم فينا رقاب المزود

يريد القول: أسماؤهم عندنا الحمراء... وقال المختار لإبراهيم بن الأستر يوم خازر: إن عامة جنك هؤلاء الحمراء، وإن الحرب إن ضرستهم هربوا، فأحمل العرب على فنون الخيل والرجل الحمراء أمامهم.

هذا ونشير إلى أن هذا الولاء - الذي ابتدأ في صدر الإسلام - اقتصر على من جاء إلى الجديدة من المراكز العربية والتحقق بالعرب، أفراداً وجماعات أما الفلاحون في القرى فقد بقيت غالبيتهم في قراها دون أن ترتبط بالولاء<sup>١</sup>.

وكان الموالي من مختلف شعوب بلاد الخلافة، فكان بينهم التاجر والحرفي والفلاح (النازح) والعامل في الديوان، والمشتغل في العلوم العربية والإسلامية، والمقاتل.

وكان أسرعهم إلى إتقان العربية والمساهمة في الحياة العامة الموالي الذين ارتبط ولأولهم بشخصية ما سواء أكانوا موالي عتق أم موالي تباعه، وكان جل من تعرب وشارك في الدراسات الإسلامية من هؤلاء، ومن أبنائها وإن كل ذلك لا ينفي مشاركة البعض من غيرهم.

وكانت هنالك التزامات متبادلة بين القبائل ومواليها، منها مشاركتهم في غزواتها إضافة إلى التزامات الإرث بين المولى ومولاه إن لم يكن له وريث، وعلى الموالي نصره مواليهم (العرب) عند الحاجة وإعانتهم مالياً وقد يحاربون بدلا عنهم، وبالمقابل يتمتع الموالي بحماية سيادتهم، وعشيرتهم، وتدفع العشائر عنهم والدية.

هكذا انضم الموالي إلى الأحزاب السياسية الإسلامية، وشاركوا في الثورات التي قامت بها القبائل (مثل ثورة ابن الأشعث)، حيث كانوا

١ الكامل/ ج ٢ ص ٦١

٢ د. الدوري: المرجع السابق ص ٥٤

٣ البلاذري: أنساب الأشراف ص ٥٤

٤ ابن سعد: كتاب الطبقات الكمية ج ٦ ص ٥٦

ينضمون إلى مواليتهم العرب، ولم يلحظ تكوّن حزب خاص بالموالي، أو نرى ثورة واحدة قاموا بها في العصر الأموي .

ويمكن القول إن انصهار الموالي بالعرب، كان ينطلق من مواقف فردية، خلافاً للروح العربية التي هديها الإسلام، وهكذا نجد إشارات أكثر إلى إصهار العرب للموالي، وصار ذلك مألوفاً في الثلث الأخير من القرن الأول الهجرة، ونجد مثلاً على ذلك في رد إبراهيم بن النعمان الأنصاري على من عبره بتزويج ابنته من يحيى بن أبي حفصة مولى عثمان بن عفان<sup>١</sup>، وهذا ما حدا أمير الكوفة أن يكتب إلى عمر بن عبد العزيز طالبا رأيه بذلك، وكان رد الخليفة: لم أجد أحداً من العرب بتزويج إلى الموالي ولم أجد أحداً من الموالي يتزوج إلى العرب إلا الأشر البطر، ولا أحرم حلالاً، ولم أحل حراماً.

وكان لسياسة التعريب التي اتخذها الأمويون أثرها البالغ في نشر العربية برزت هذه السياسة منذ زمن عبد الملك بن مروان، منوهين بأن تعريب النقد أدى إلى إلغاء الصور والكتابات غير العربية، وإحلال كتابات عربية محلها، وهذا ما أدى إلى تعزيز العربية والإسلام، فقد أصبح هذا النقد العربي الإسلامي عمله دولة بين الشرق والغرب.

ولا يخفى ما لتدوين الدواوين من أثر بالغ في ترسيخ العربية، وتوسيع انتشارها، وإغنائها بمصطلحات جديدة كما أن ذلك دفع غير العرب لاعتناق العربية من أجل العمل في الدواوين<sup>٢</sup>.

بدأ دور الكتاب في الثقافة بالظهور في أواخر العصر الأموي، وأصبح دورهم واضحاً في العصر العربي، والملاحظ أن بعض هؤلاء لم يفصل عن ثقافته القديمة، لذلك عملوا على ترسيخ هذه الجذور بدل المفاهيم الإسلامية واندفع بعضهم إلى التقليل من شأن الثقافة العربية الإسلامية ومع ذلك فهم وإن ساهموا في رفد الثقافة العربية بالنقل

<sup>١</sup> تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص ٦٤٩  
<sup>٢</sup> البلاذري: أنساب الأشراف ص ١٥٧  
<sup>٣</sup> - الدورى: التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ٥٦

من الفارسية، إلا أنهم أشاروا إلى رد فعل عربي إسلامي تركز في العناية بالدراسات العربية الإسلامية وبالتراث العربي.

ويمثل هذا الاتجاه في تأكيد اتصال الثقافة العربية عبر التاريخ، وفي تأليف مجموعات من الشعر العربي ابتداء بالعصر الجاهلي (دواوين الحماسة والمفضليات للضبي، وفي توسيع الدراسات اللغوية، بل وفي مجالات لوضع مؤلفات موسعة نسبياً وشبه موسوعية (كتاب المعارف) لابن قتيبة وتاريخ يعقوبي، أريد بها تثقيف من لم يتيسر له ثقافة كافية في هذا المجال، وهكذا فقد خرجت الثقافة العربية من هذا الصراع أصلب عوداً وأعز مكسراً.

ولقد تكونت ثقافة للكتاب تمثل فيها الحرص على الإفادة من علوم الأوائل ومن الدراسات العربية الإسلامية ومن الترجمة عن الفارسية مثل أدب الكتاب للصولي، وأدب الكاتب لابن قتيبة<sup>1</sup>.

وهكذا يتضح أن نشاط الكتاب أدى إلى تأكيد العروبة وتعزيز العربية، ولم يكن أنصار العربية من العرب نسبياً، بل الذين اتخذوا العربية وتعربوا.

ولا حاجة للتأكيد بأن لانتشار العرب خارج جزيرتهم دور كبير في نشر العربية كما أن هذا الخروج كان يحدث باستمرار قبل الإسلام وخاصة على السهول المجاورة للجزيرة العربية، هكذا تم انتشار في الجزيرة الفراتية منذ الألف الأول قبل الميلاد واستمر بعضها بدوياً، بينما استقر البعض الآخر في الفرات وخاصة تنوخ وربيعة، وهناك قبائل جاءت منطقة الفرات الأوسط والأسفل مثل إياد وتغلبه بينما نزلت تنوخ والعباد والأحلاف في الحيرة وما إن جاء القرن السابع الميلادي حتى كانت الأراضي في الفرات الأوسط والأسفل وأجزاء من الجزيرة الفراتية قد تعربت بصورة واسعة ووجدت بكر بن وائل وتميم بوقرة بين الأنبار والخليج وساهمت فيما بعد بالفتوح.

ولقد انتشرت القبائل العربية أيضاً في الشام قبل الإسلام بصورة أوسع وأكثر، وكانت عامتهم يمانية، انتشروا في المناطق المجاورة لبادية الشام، وعلى شكل قوس يمتد من أيلة وجنوب فلسطين باتجاه

<sup>1</sup> د. الدوري: ص ٥٧  
<sup>2</sup> د. الدوري: ص ٥٧

الشرق والشمال الشرقي للميلاد فكانت غسان في منطقتي دمشق وهوران وقضاة في البلقاء وإلى الجنوب الشرقي من الأردن ودمشق وسليم بجوار حلب وقنسرين ولخم وجذام بفلسطين، بينما كانت كلب في تدمر وفي البادية جنوبي شرق الشام<sup>١</sup>.

وجاء في مجموعات قبلية جديدة بالفتوح وبعدها، ففي العراق كانت الكوفة والبصرة، حيث استقرت في البصرة أربع مجموعات قبلية هي تميم وبكر بن وائل وعبد القيس من قبائل حجازية وربيعة إضافة إلى أهل العالية وهم خليط من قبائل حجازية، وضمت الكوفة عند إنشائها مجموعة واسعة من القبائل والعشائر تجاوزت خمس عشرة مجموعة، ويتوالي الهجرة كانت قبائلها الأساسية في منتصف القرن الأول الهجري هي: حمدان ولحج وتميم وأسد وربيعة، ويمكن ملاحظة استمرار الهجرة بعد الفتوح من ازدياد عدد المقاتلة في ديوان البصرة من عشرة آلاف إلى تسعين ألفا وفي الكوفة من عشرين ألفا إلى ستين ألفا وذلك، في أواسط القرن الأول للهجرة<sup>٢</sup>.

ونزلت مجموعات قبلية من تميم وبكر واليمن (خولان وهمدان والأرد في الموصل، وذلك في خلافة عمر، وجاءت قبائل أخرى إلى سنجار ورأس العين، كما جاءت مجموعات من قيس إلى الجزيرة وأسد، وتوالت الهجرة إلى الجزيرة الفراتية وادت إلى توسيع نطاق ديار مضر وديار ربيعة<sup>٣</sup>.

وجاءت مجموعات قبلية جديدة إلى الشام أثناء الفتح وبعده وكلها من اليمانية، وهكذا فقد قسمت الشام إلى أجناد (أربعة ابتداء ثم صارت خمسة أيام يزيد بن معاوية)، وهي جند فلسطين وجند الأردن، وجند دمشق وجند حمص ثم جند قنسرين، علما أن هذه التقسيمات إدارية استندت إلى ظروف سير الفتوح وإلى توزيع القبائل إضافة إلى الظروف الجغرافية، وفي صدر الإسلام كانت اليمانية هي الغالبة في الشام، وبينما كانت قيس تؤلف الأكثرية في قنسرين والجزيرة،

<sup>١</sup> الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٨٢١

<sup>٢</sup> البلاذري: أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٨٤

<sup>٣</sup> ابن عساکر: فذهب تاريخ دمشق الكبير مطبعة الشام ٩١٠ ج ٩ ص ١٧٥ - السلاذري قسوق

البلدان ص ١١٠



وكانت القبائل موزعة بين جندين أو أكثر ولكن القبيلة قد تغلب في جند وأن الصفة الغالبة اختلاط القبائل في الأجناد<sup>١</sup>.

وفي الشام أعطيت القبائل أراضٍ قرب الأجناد خاصة في منطقة دمشق.

ولقد أوجد العباسيون جيشاً نظامياً كان العرب أحد عناصره بينما اتجهت جماعات من العرب إلى الحياة المدنية وإلى المشاركة في الفعاليات الاقتصادية، وتأكد ذلك عندما قلص المأمون أعداد العرب في الديوان، ثم حين أسقط المعتصم العرب كلياً من الديوان<sup>٢</sup>.

وهكذا اتجه العرب بشكل منموس إلى الاستقرار في القرى والأرياف لزراعة الأرض وإلى المساهمة الفعالة والتجارة وفي الفعاليات الاقتصادية، وبدأ الازدهار التجاري والصيرفي، وأصبح التجار طليعة النشاط الاقتصادي في مختلف الحضارة الإسلامية<sup>٣</sup>.

ولكن الأحوال الزراعية اضطرت عندما سيطر المماليك والأتراك، وتجاوزوا على الأملاك والضياح، وأفقروا بيت المال<sup>٤</sup>.

والمهم في الموضوع انتشار العرب في السودان في بعض القرى منذ أواخر القرن الأول، ويتضح هذا من ورود إشارات إلى قرى تملكها قبائل أو جماعات فيها، كما جاءت جماعات من البوادي المجاورة للسودان وسكنت فيه، ولم يقتصر انتشار القبائل على أراضي الريف بين دجلة والفرات، بل انتشروا في الأراضي شرقي دجله، وحتى الجبال<sup>٥</sup>.

هكذا انتشر العرب في السودان كله، واكتمل ذلك في القرن الثالث للهجرة، وقد أكد اليعقوبي وجود العرب في جميع القرى بين بغداد والكوفة<sup>٦</sup>.

١ الدوري: العرب والأرض في بلاد الشام، ورقة مقدمة إلى المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام.

٢ الدوري: المرجع السابق، ص ٦٣.

٣ الفلقشندي: صبح الأعشى في كتابه الإنشاء ج ١٣ ص ٣٣.

٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٣ ص ٢٧٨٦.

٥ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٩٧٧ - البلاذري: أنساب الأشراف ص ٢٩٢.

٦ د. الدوري: المرجع السابق، ص ٦٤.

٧ البلدان ص ٣٠٩.



وفي الجزيرة استقرت المجموعات القبلية على نطاق واسع في القرى، وعملت في الزراعة، بينما بقي بعضها بدوياً في مناطق الرعي<sup>١</sup>.

وفي بلاد الشام كانت حركة الانتشار في الريف والقرى أكثر اتساعاً بعد سقوط الأمويين لا سيما في منطقتي دمشق وحمص<sup>٢</sup>.

وتكشف ثورة المبرقع اليماني (٨٢٣٧) عن مدى انتشار العرب في قرى الأردن وفلسطين واشتغالهم بالزراعة ملاكين وفلاحين<sup>٣</sup>، بل إن بلاد الشام قد تعربت إلى حد بعيد في القرن الثالث للهجرة<sup>٤</sup>.

هذا الانتشار أدى إلى التعريب إضافة إلى وجود المصلحة للجميع، ومظهر ذلك قيام ثورات ومواقف اشترك فيها العرب، وغيرهم، كما حصل في مصر في أوائل القرن الثالث للهجرة (١١٢) وفي الجزيرة في النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة<sup>٥</sup>.

ويذكر الجاحظ أن بعض الأهلين في سواد الكوفة يتكلمون عربية حسنة<sup>٦</sup>، ومما لا شك فيه أن روح البداوة يتعارض مع روح تكوين الأمة فإن الاستقرار في الأمصار والأرياف توج رسوخ الحركة العربية والإسلامية، وكان عاملاً قوياً في ترسيخ روح الأمة<sup>٧</sup>.

هكذا يتضح أن حركة الفتح أدت إلى انتشار الإسلام، أما تحديد الأرض العربية، فقد ارتبط بعنصر آخر هو التعريب، وقد اتخذ التعريب مظهرين أحدهما بشري بفضل انتشار العرب في الأراضي الجديدة، أما المظهر الثاني فتقافي هو انتشار اللغة العربية والثقافة العربية التي هي روح العروبة<sup>٨</sup>.

١ د. الدوري: المرجع السابق، ٦٤

٢ ابن عساکر: هداية تاريخ دمشق الكبير ج ٦ ص ٣٩٥

٣ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢ ص ٣١٩

٤ البغدادي: البلدان ص ٣٢٤

٥ د. الدوري: المرجع السابق ص ٦٥

٦ البيان والتبيين ج ٢، ص ٧١

٧ د. الدوري، المرجع السابق، ص ٦٥

٨ د. الدوري: المرجع السابق ص ٦٦

وبذلك فالرقعة العربية تحددت على أسس ثقافية اجتماعية تقوم على سيادة العربية، والثقافة العربية والجماعات العربية (نسباً أو المتعربة)، مع التنويه بأن ذلك تحقق في مناطق استقر بها أسلاف العرب الذين خرجوا من الجزيرة العربية<sup>١</sup>.

### ما هو الشأن غرباً

الاتصال بين شبه الجزيرة العربية ومصر قديماً لأن شبه جزيرة سيناء هي المعبر الطبيعي، وقد كانت مأهولة بقبائل عربية منذ القدم، وكانت القبائل العربية تضغط باستمرار على الحدود الشرقية لمصر، ولذا فقد أقام الفراعنة سلسلة حصون على حدود الدلتا الشرقية، ونشير إلى أن فرعون أذن لقبائل أدوم بالإقامة في شرقي الدلتا، كما أن الهكسوس دخلوا مصر وكونوا فيها دولة، وهكذا فقد تأثرت لغة مصر القديمة بلغات الجزيرة العربية (هي فرع بين السامية والحامية)<sup>٢</sup>.

بيد أن الأقسام الشرقية لمصر بين النيل والبحر الأحمر سكنت من قبل مجموعة عربية منذ القرن الخامس قبل الميلاد<sup>٣</sup>، بين مصر والأنباط، وقبيل الفتح العربي كان هنالك جماعات عربية من الأنباط وغان وجدام وخزاعة في الإسكندرية والمنطقة الشرقية<sup>٤</sup>.

وكان المقاتلة في فتح مصر<sup>٥</sup>، كلهم من اليمن ومعهم جماعات قيسية صغيرة<sup>٦</sup>، وأنشأ عمرو بن العاص (سنة ٢١هـ) القسطنطين لتكون دار هجرة ومركز للمقاتلة ووضع حامية في الإسكندرية على طرف الصحراء<sup>٧</sup> واستمرت الهجرة بعد الفتح حتى بلغ عدد المقاتلة في

<sup>١</sup> د. الدوري: المرجع السابق ص ٦٦

<sup>٢</sup> د. الدوري: ص ٦٦، هذا إضافة إلى الصلات التجارية

<sup>٣</sup> عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، بيروت ٩٧٥ ص ١٥٣

<sup>٤</sup> المقرئزي: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٨ وفتح العرب لمصر ترجمة فريد أبو حديد، القاهرة دار المصرية ٩٣٣

<sup>٥</sup> يعقوبي: تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٦٨

<sup>٦</sup> د. الدوري: المرجع السابق، ص ٦٧

<sup>٧</sup> ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق شارلز كلر، لندن ٩٢٠ ص ٥٦

ديوان الفسطاط أيام معاوية أربعين ألفاً، وفي الإسكندرية سبعة عشر ألفاً، وفي أيام مروان بن الحكم بلغ عدد المقاتلة في الفسطاط خمسين ألفاً، وكان كل وال يأتي بمجموعات عدد توليه، إذ في سنة ١٠٠هـ الحق يعرب بن شرحبيل خمسة آلاف مقاتل بأمر عمر بن عبد العزيز، وفي سنة ١٠٩هـ طلب عبد الله بن الحجاب عامل هشام بن عبد الملك الأذن بتسيير جماعة من قيس، فلما أذن له جاء بألف وخمسمائة بيت وأنزلهم في بلبيس، واستمرت هجرتهم حتى بلغوا (القيسية خمسة آلاف ومائتي بيت عام ١٥٣هـ).

وكانت الخطة في مصر أن يتركز المقاتلة في مراكز محدودة لضرورات الجهاد والأمن، ولكن الإدارة فرضت سياسة توزيع القبائل على الأرياف في فصل الربيع للترويح والعناية بخيولهم، فكان ذلك سببا للاختلاط بالأصليين وانتشار التعريب.

ولقد أخذت القبائل تنتشر في ريف مصر قبل نهاية القرن الأول، ولعل الخطوة الأولى البارزة في توجيه العرب إلى الزراعة ما فعله عبد الله بن الحجاب بطلب من القيسية فلاحه الأرض، وفي نظر المقرئ أن تلك هي البداية الجدية لانتشار الإسلام في الريف.

ويتضح مدى استقرار العرب في الريف من الثورات التي وقعت في الجوف في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، حيث اشتركوا مع القبط في توكيد مدى الاختلاط بالأهلين والشعور بالمصلحة المشتركة وتوسعت حركة انتقال العرب إلى الريف بعد أن أسقط المعتصم العرب في الديوان سنة ٢١٨هـ، وهذا ما أدى إلى قيام ثورة محدودة لجماعة من لحم وخدام عام ٢١٩هـ، كما أن ذلك يعني اتجاه العرب نحو الفعالية الاقتصادية والزراعية.

وكانت الهجرة المهمة لربيعه زمن المتوكل، وقد ذهبت إلى أعالي الصعيد، كما هاجرت جماعات من كنانة (الحجاز) في أواسط القرن

١ الكندي: المرجع السابق ص ٦٨

٢ د. الدوري: المرجع السابق ص ٦١

٣ المقرئ: المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٩٤

٤ د. الدوري: المرجع السابق ص ٦٩

٥ عبد الله البري: القبائل العربية في مصر ص ١٢٦

٦ ابن عبد الحكم: فتح مصر وأخبارها ص ١٤٢

الرابع، كذلك فالموجة الهلالية التي عبرت في القرن الخامس للهجرة تركت جماعات كبيرة شرق النيل بين الجوف والصعيد.

وأبعد من ذلك فقد ذهبت بعض القبائل إلى حدود النوبة وساهمت في أسلمتها، كما ذهبت ربيعة إلى أعالي الصعيد واستولت على مناجم الذهب بالعلا، ولعل التركيز في السكن والتعريب كانا في المنطقة الشرقية ومنطقة الفسطاط وبلاد الصعيد.

وانتشر الإسلام زمن عمر بن عبد العزيز بسبب الإعفاء من الجزية، كما أن هذا التوسع تم أيضاً في العهد العباسي، ولم يأت القرن الرابع للهجرة حتى صار الإسلام دين الأكثرية<sup>١</sup>.

لقد كان تعريب مصر شاملاً، ومع أن البدايات الثقافية في الفسطاط تأخرت نسبياً عن الكوفة في البصرة، إلا أن انتشار الثقافة كان واضحاً منذ أواخر القرن الثاني للهجرة، وقد مرت مصر بازدهار ثقافي في الفترة الفاطمية على أنها صارت بعد سقوط بغداد مركز الثقافة العربية الإسلامية<sup>٢</sup>.

إن الخطوط العامة لانتشار العربية والتعريب يصدق على المغرب العربي مع بعض الاختلاف في التفاصيل، والمعلوم أن المجموعات البشرية التي ترجع أصولها إلى الجزيرة العربية والتي جاءت إلى إفريقيا محدودة نسبياً وترتيبها أساساً بنشاط الفينيقيين، وحركة التجارة، ثم إن حركة الهجرة ابتداء كانت أقل نشاطاً منها في المشرق العربي كما أن الانتشار في الريف تأخر إلى القرن الخامس للهجرة بتعريبه بني هلال وسليم، وبالمقابل فالمسيحية لم يكن لها حضور في المغرب سوى وجود مدني، وبالمقابل لم يكن لها ثقافة أو تراث، بل كانت اللاتينية لغة الكنيسة والإدارة<sup>٣</sup>.

ويلاحظ أن انتشار الإسلام كان سريعاً وشاملاً وأكثر بين المشرق، وسبق التعريب زمنياً في شموله، كما أن الإسلام سرعان ما أعطى أهل المغرب رسالة حتى شاركوا في الفتح عبر البحر الأبيض

<sup>١</sup> المقرئزي المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٨٠  
<sup>٢</sup> د. النوري: ص ٧٠  
<sup>٣</sup> الدوري: ص ٧١

المتوسط، وحين قاموا بنشر الإسلام بين البدو في المناطق الصحراوية، وعلى طرق التجارة عبر الصحراء، كما أنه سرعان ما أزلت العربية اللاتينية<sup>١</sup>.

وإذا فهمنا التعريب أنه يعني رابطة لغوية وثقافية ومجموعة أذواق وأساليب وعادات فكرية، وليس تكويناً قسرياً، أدركنا أن التعريب والإسلام لا يتعاقبان في المغرب لأن نطاق الإسلام أوسع، ومع ذلك لم نجد تعارضاً بينهما والمغرب لم تضم حركة ثقافية أو اجتماعية مضادة للتعريب أو الإسلام بعد انتشاره<sup>٢</sup>.

وتروى أحاديث نبوية تحض على الهجرة إلى إفريقيا والمرابطة فيها، منها قوله ﷺ: ينقطع الجهاد من البلدان كلها فلا يبقى إلا في موقع في المغرب يقال له إفريقيا.

وقوله ﷺ: من أتى إفريقيا بقي خيراً وخيراً ومن رابط بالمستنير لقي الجنة<sup>٣</sup>.

ولقد أنشئت القيروان عام ٥١هـ، ووضعت حاميات في مراكز أخرى، وتوالى إرسال البعوث زمن يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك، وجعفر بن منصور.

وتذكر الروايات أهمية الجهاد في إفريقيا والمغرب، فهذا عقبه بن نافع يريد للقيروان أن تكون عزاً للإسلام ولم يعرف المصامدة غيره، وقيل أن أكثرهم أسلم طوعاً على يديه<sup>٤</sup>.

وتابع موسى بن نصير هذه السياسة فبعد أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن، وأن يفقهوهم في الدين، خرج البربر والعرب ليقاتلوا الروم وأدركوهم في الشاطئ والأراضي.

وحرص عمر بن عبد العزيز على إعفاء من يسلم في الجزية، فسار عامله على هذه السياسة وهو ما زال حريص على دعوة البربر إلى الإسلام، فأسلم بعض البربر على يديه<sup>٥</sup>.

١ د. الدوري ص ٧١

٢ د. الدوري ص ٧١

٣ عبد الرحمن بن محمد الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ج ١ ص ٦

٤ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، دار ٩٧٩، ج ٣ ص ٢٣

٥ القيرواني: تاريخ إفريقيا والمغرب ص ٦٩

٦ الدباغ معالم الإيمان في معرفة أصل القيروان

وجاء عدد من التابعين، واتسعت الصلات الثقافية بين المغرب والمشرق بين تلاميذ مغاربة يذهبون إلى المشرق وعلماء من المشرق يأتون إلى إفريقيا، وكان لذلك أثر في نشر الإسلام والعربية، كما أن القيروان تحولت إلى مركز إشعاع ثقافي غربي كتعبير إسلامي كبير.

ولقد لعبت الحركة الخارجية من الصفيرية والإباضية دوراً كبيراً في نشر الإسلام والثقافة العربية، وبذكر أن أبا عبيدة مسلم التميمي شيخ الإباضية في البصرة أرسل خمسمائة من حملة العلم إلى شمال إفريقيا لبث الدعوة وكانت الدعوة المساواة التي نادى بها الخوارج أثر في الالتحام بين العرب والبربر في الحركة الخارجية.

وأفضت إلى ظهور إمارات للخوارج مثل الرستمية، ويلاحظ أن الدعوة الخارجية تميزت بالانتشار بين القبائل لأنها تحمل طابع المساواة، والعودة إلى الإسلام الأم، وهكذا انتشرت في جبل نفوسة ومزاة وسحلما وسجلماسة<sup>1</sup>.

ولقد عمّ انتشار الإسلام في المغرب في أواسط القرن الثاني للهجرة، فقد كتب عبد الرحمن بن حبيب إلى المنصور أن إفريقيا اليوم إسلامية كلها، وقد انقطع السبي فيها، ويفيد هذا النص أن الولاة كانوا يخمسون من لم يدخل الإسلام لذلك كثر السبي<sup>2</sup>.

ولقد انتشرت العربية بانتشار الإسلام ونتيجة لقراءة القرآن، وفهم مبادئ الإسلام، لا سيما أن كل المقاتلة الذين أرسلوا إلى إفريقيا كانوا من أهل الأمصار المستعمرين، وهكذا فإن الكثير منهم اتجهوا إلى امتلاك الأراضي والاشتغال بالتجارة<sup>3</sup>.

ولقد أعطيت الأفضليات للقبائل وأشرفها، وبدأ ذلك واضحاً منذ حسان بن النعمان، وبفهم من أخبار ثورة الخوارج بقيادة ميسره ١٢٣هـ، أن هناك جماعات عربية استقرت في نواح مختلفة من المغرب، وكانت الخلافة واعية لأهمية انتشار الجماعات العربية واستقرارها، فحين أصيبت القوات الأموية في ثورة الخوارج

<sup>1</sup> عوض محمد خلدون: نشأة الإباضية عمان ٩٧١ ص ٣٧

<sup>2</sup> د. الدوري: المرجع السابق ص ٧٥

<sup>3</sup> د. الدوري: المرجع السابق ص ٧٦

المذكورة أقسم هشام بن عبد الملك أن يرسل جيشاً كبيراً وأضاف: ثم لا تركت حصناً بربريا إلا حلت بجانبه خيمة قيس أو تميم<sup>١</sup>.

وأنشأ العرب مراكز (مدن) كانت لها أهمية خاصة في التعريب ابتداء بالقيروان ثم تونس التي بدأ بإنشائها حسان بن النعمان، حتى صارت تعدل القيروان في كثرة العرب والجنود العربي الذين كانوا يهاها وأسس إدريس بن عبد الله بن الحسن فاس وصارت مركزاً عربياً، وتوسعت بسرعة بالعرب الوافدين وخاصة من القيروان والأندلس.

وتحولت هذه المراكز إلى مراكز حضرية، وصارت محوراً للحياة الاقتصادية، وللنشاط الثقافي، فأصبحت أسواق رئيسية للريف.

لذلك فالنشاط التجاري - خاصة عبر الصحراء - أدى إلى توسع الإسلام وانتشار العربية على طرق التجارة، كما أن التجارة مع المشرق ساعدت بدورها على جمع جماعات عربية من المشرق.

إن نظرة إلى كتاب اليعقوبي تعطي فكرة عن انتشار العرب في القرن الثالث الهجري، ففي كورة الإسكندرية كان بنو مدلج في البرية وعلى الساحل، وفي برقة وأرباضها كان الجنود وأخلاق من الناس، وفي الجبلين قرب برقة وكانت الأزد وأخم وجذام، وغسان وقوم من جذام والأزد وتحبب في الجبل الغربي وفي ودان من أعمال برقة قوم من عرب اليمن، وفي زويلة أخلاق من أهل خراسان والبصرة والكوفة وفي فزان أخلاق من الناس وفي طرابلس استقر أخلاق من العرب والعجم، وفي القيروان أخلاق من الناس وسائر بطون العرب وفي الخيرة (على مرحلة القيروان) قوم من رهط عمر بن الخطاب وسائر بطون العرب والعجم، وفي الجزيرة سطورة (على مرحلة من القيروان) قوم من قریش وقضاعة، وعلى ثلاث مراحل من القيروان باجة، وفيها جنود من بني هاشم ووراءها مجاعة وأهلها من ديار ربيعة<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> القيروان: تاريخ إفريقيا والمغرب ص ١١٠ - ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها ص ٢٢٢

<sup>٢</sup> القيرواني، المرجع السابق ص ٦٣

<sup>٣</sup> البلدان ص ٢٢٢

<sup>٤</sup> د. الدويري: ص ٧١



وفي بلاد الزاب في طينة، -وهي المركز- أخلط من قريش والعرب  
والجند والعجم ومدينة الزاب بها قبائل، الجند وعجم من أهل خراسان  
ونزل في مدن سطيف قوم من بني أسد.

والواقع أنه بعد زوال السلطة السياسية من يد العرب بقي العرب  
يؤسسون وينتجون وينشئون البناء التحتي بكل مقوماته ثقافية  
 واجتماعا ودينا واقتصادا، فالجماعة العربية امتلكت وحدة الجماعة  
التي تفاعلت وتبلورت وامتدت في وعاء الأرض العربية الواحدة،  
بواسطة اللغة العربية وأيضا فإن هذه الجماعة التي تفاعلت وتبلورت  
وامتدت في وعاء الأرض العربية الواحدة وبواسطة اللغة العربية  
الواحدة وفي كنف التكوين النفسي المشترك الذي تجسد في الثقافة  
العربية الواحدة وأيضا فإن هذه الجماعة صاحبة الحضارة الواحدة  
والقومية الواحدة قد امتلكت في ظل دولة الخلافة المركزية -أموية  
وعباسية- وحدة السوق فكان لها بمقاييس ذلك العصر حياتها  
الاقتصادية الواحدة<sup>١</sup>.

وفي وسط الزاب معرة وأهلها من بني ضبة وقوم من العجم، وفي  
معدن قوم من بني تميم بن سعد، مع التنويه بأن معلومات اليعقوبي  
تشمل المغرب كله، فمثلا كان الأدراسة في المغرب الأقصى ومعهم  
جماعات عربية، وقد شجعوا العرب للمجيء إليهم.

وقد لعب نظام الولاء الدور الفذ في التعريب، فقد كان الأفراد  
والجماعات من البربر ينضمون إلى القبائل العربية<sup>٢</sup>.

وكانت الهجرة الهلالية في القرن الخامس الهجري شملت تونس  
والقسم الأكبر من ولاية قسطنطينة، وامتدت إلى سهول جنوب شرقي  
الجزائر، وكان لهذه الهجرة تأثيرها الديموغرافي وخاصة إلى تعريب  
الأرياف (ولم يكن سير التعريب واحدا، ففي البلاد التي وجدت فيها  
مجموعات من أهل الجزيرة، وحيث تسود الآرامية كان التعريب  
شاملا وسريعا، وخاصة حيث توجد قبائل عربية قبل الفتح<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> د. محمد عمارة العرب يستيقظون، فجر البقطة الشعبية، ببيروت دار الوحدة: ط ٣ ٩٨١ ص

٢٦٤

<sup>٢</sup> اليعقوبي، البلدان، ص ٣٤٩ اليعقوبي ص ٧٦

<sup>٣</sup> أحمد: أثر العرب، في تاريخ المغرب ص ٥٧

<sup>٤</sup> البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٥٠ - المراد: الكامل ج ٢ ص ٤٩



إلا أنه مع الأسف فالقوة المملوكية غير العربية، لم تكن فرصة حكمها قصيرة وطارئة كسحابة صيف بحيث لا تستطيع فيها أن تكبل الروح العربية، وتنزل الهزيمة بالقيم العربية، وتوجه الطعنات النجلاء لحضارة العرب وثقافتهم، لم تكن فرصة حكمها قصيرة كالدولة البويهية أو السلجوقية أو الموحيدين أو المرابطين مثلاً، تلك الدول التي حملها المد العربي الحضاري والثقافي على سطحه، وسطحه فقط، ثم شيعها إلى مئاها الأخير دون أن يسمح لها بأن تعوق سيره كثيراً، ولا بتحويل تياره، بل لقد استفاد من إمكاناتها في بعض الأحيان<sup>1</sup>.

وفي مصر كان مجيء القبائل مستمراً بعد القرن الثاني للهجرة، وكان انتشارهم في الريف واسعاً وسريعاً، لذلك كان التعريب عاماً في القرن الثالث الهجري.

وفي شمال إفريقيا توالى مجموعات من المقاتلة خلال القرن الأول وإلى أواسط القرن الثاني، وانتشر الإسلام حتى شاع في الفترة نفسها، وكان التنظيم القبلي للبربر عاملاً هاماً في ذلك، فساعد على انتشار الإسلام والعرب وكان التعريب واضحاً في القرن الثالث في المدن المختلفة (عرب بربر) وفي المراكز العربية وفي الأرياف المجاورة، هذا إلى أن توسع الحياة الدينية كان يعني التعريب.

### الفرع الثاني: الأمازيغ (البربر) محروبة محاربة

اتضح لنا من وقائع فتح شمال إفريقيا التأييد الشديد الذي لاقاه هذا الفتح، ثم سرعة الأسلمة والتعريب في هذه الأرياف، وهنا ينثور هذا السؤال الثاني: ما هي الأسباب التي تكمن وراء معانقة هذه الأسلمة والعرب كما سبق توضيحه.

<sup>1</sup> المرجع السابق ص ٢٧٦

سنحاول الإجابة عن هذا السؤال باقتضاب، إنما نحيل القارئ من أجل التزود التفصيلي إلى الكتاب الهام الذائع الصيت الذي دبحته براءة صديقنا العروبي الكبير الأستاذ عثمان السعدي<sup>١</sup>.

نلفت بادئ ذي بدء - الانتباه إلى نقطة هامة هي أن مصطلح السامية من وضع المستشرق اليهودي النمساوي شلوتزر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، والأصح استبدال هذا المصطلح بمصطلح الأقوام العربية القديمة.

وفي رأيه أن البربر عاشوا في حوض حضاري يقع في ذلك الامتداد الجغرافي، من سلطنة عمان شرقاً إلى موريتانيا غرباً، وكان هذا الامتداد مسرحاً لمد بشري منذ عشرات آلاف السنين في الاتجاهين، من الجنوب إلى المشرق، والعكس، هكذا يؤكد المؤرخ الفرنسي غوتيه أن الإنسان الذي عمر وادي النيل هاجر من الصحراء الكبرى<sup>٢</sup>.

ولقد اتجه سنة ٩٥٠ ق.م. ششلق الأول البربري من المغرب العربي، وحكم مصر الفرعونية وأسس البربر الأسترئين المصريين الفرعونيين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين، كما انطلق البربر من بلاد القبائل الجزائر وأسسوا الدولة الفاطمية في مصر<sup>٣</sup>.

ويرى المؤرخ العراقي أحمد سوسة وبيير روسيه الفرنسي أن الموجات البشرية الخارجة من الجزيرة العربية هي التي عمرت شمال إفريقية وحوض البحر الأبيض المتوسط بشماله وجنوبه وذلك منذ بدء المرحلة الدافئة الثالثة (Worm) في التاريخ الجيولوجي للأرض أي قبل عشرين ألف سنة والتي نجم عنها ذوبان الجليد في أوروبا وحوض البحر المتوسط، وزحف الجفاف في شبه الجزيرة العربية التي كانت تنعم قبل هذه المرحلة بمناخ شبيه بمناخ أوروبا حالياً<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الموسوم بعنوان الأمازيغ (البرابرة) عرب عاربة وعروبة الشمال الإفريقي عبر تاريخ الجزائر ٩٩٦

<sup>٢</sup> المرجع السابق، ص ١٢

<sup>٣</sup> السعدي: المرجع السابق، ص ١٣

<sup>٤</sup> السعدي: المرجع السابق، ص ١٣

وتعتبر هجرة الفينيقيين واحدة من هذه الهجرات المتأخرة للأقوام العربية من الجزيرة العربية التي سبقت بهجرات سابقة لها، لم يسجل لها التاريخ كما سجل هجرة الفينيقيين<sup>١</sup>.

ويؤكد المؤرخون الأوروبيون من خلال استقراءاتهم لعلم الآثار والنقوش والكتابات القديمة المكتشفة أن استيطان الفينيقيين - منذ منتصف الألف الثانية قبل الميلاد - هو الذي مهد بسهولة قبول البربر للغة العربية والدين الإسلامي في القرن السابع الميلادي، ويرون أن اللغة البونيقية استمرت قائمة في المغرب العربي كلغة ثقافية، وحضارة ودواوين حتى بعد تدمير قرطاج وخلال الاستعمار الروماني، وإلى أن دخل العرب المسلمون، فحدث الوصل بين البونيقية التي هي عربية قديمة، وبين العرب التي طورها القرآن الكريم<sup>٢</sup>.

كما أن هؤلاء المؤرخين يرون أن الديانة الفينيقية التي اعتنقها البربر، المؤسسة على شبه التوحيد، هي التي جعلت نفوس البربر جاهزة لاستقبال الدين الإسلامي بهذه السهولة والسهولة، وإن إمبراطورية قرطاج وحضارة قرطاج الراقية التي استمرت سائدة في حوض البحر المتوسط، وفي العالم عدة قرون، تأسست نتيجة التزاوج بين شعبين عربيين، الشعب الفينيقى القادم من لبنان والشعب البربري الذي كان موجودا في الشمال الإفريقي، وهذا ما أكدته الموسوعة الفرنسية بأن تاريخ المغرب الأوسط بدأ بوصول الفينيقيين الذين سجلوا حضارتهم كأول حضارة بالمدن، حيث تركت بها آثارا مكتوبة، فأسسوا مبكرا في القرون الأخيرة للألف الثانية ق.م مراكز تجار وتطور الفينيقيين إلى قرطاجيين ولم يستعمروا هذه البلاد، لكن طوروها، واستمر ذلك حتى بعد تدمير قرطاج حاملة تسميات سامية كمدن راسكورد (دلبس) وروس كاد (سكينكة) وروس قونية (مانيقون) وكان الرؤساء البربر حلفاء وزبائن تجاريين للقرطاجانيين يمدونهم بالفرسان النوميديين المشهورين، وانتشرت

<sup>١</sup> السعدي: المرجع السابق، ص ١٣

<sup>٢</sup> السعدي: المرجع السابق، ص ١٤

اللغة البونيقية والحضارة الفينيقية بالعمق في البلاد، وظهرت مدن لأهالي وأضرحة ومزارات دينية بنيت بيد قرطاجانيين، وهكذا انبرى تلاميذ للقرطاجانيين واستمر البربر يعبدون آلهة قرطاج حتى أثناء الاحتلال الروماني لدرجة أن بعض المؤرخين يرون أن المسيحية ثم الإسلام قبلا من البربر بسبب دخول هذه الديانة القرطاجية المغرب التي هي ديانة سامية، واستمرت اللغة البونيقية متداولة حتى بعد القرن الثالث الميلاد حيث لعبت دور الوصلة إلى اللغة العربية.

هذا القول السابق يؤكد المؤرخ الفرنسي رونييه باسييه بقوله: إن اللغة البونيقية لم تختف من المغرب بعد دخول العرب، وهذه اللغة بقيت قائمة لتسعة عشر قرنا، ولقد استمر تأثير مدينة قرطاج قائما حتى بعد تدميرها، فقد تحولت (سيرتا) تحت حكم النوميديين البربر إلى مركز بونيقى، بل إن اسم سرتها (قرطاج) أي المدينة البونيقية، أما ديانة قرطاج فهي التي كانت منتشرة في المغرب كإله (بعل عمون) والآلهة تانيت، أما عن اللغة فقد جعل الملوك النوميديين يعتبرون البونيقية لغتهم الرسمية لدرجة أن في بلاد البربر كانوا يتحدثون البونيقية أكثر من البربرية حتى في العهد الروماني، بل إن المناطق التي انتشرت فيها البونيقية أكثر هي التي تعربت بالكامل بسبب قربها من العربية، كما وأن آلهة قرطاج هي التي مهدت لانتظار الإسلام.

لقد دمرت روما أسوار قرطاج لكنها فشلت في تدمير البربر، بل كلما تأسس احتلال روما، كلما انتشرت وتعمقت في نفوس البربر لغة قرطاج<sup>1</sup>.

ويؤكد مؤرخ فرنسي ثالث: لقد بنيت الكتابات البونيقية المكتشفة بالمغرب والتي تحمل تاريخ ٦٢ ق.م. مدى ارتباط الأهالي بقرطاج دينيا من خلال عبادتهم لبعل عمون الإله القرطاجي، ولقد بقيت البونيقية منتشرة في المغرب بعد تدمير قرطاج وحتى عهد القديس أوغسطين، كان السكان يتكلمون البونيقية، بل إن الدوتانية مقدمة

<sup>1</sup> Reni Basset: le influences punique chez les Berbères Ré vue Africaine Vtz (1921) P340

لإلغاء الإسلام للمسيحية وللثقافة الرومانية في المغرب، ولقد كان أوغسطين يسأل هؤلاء الأهالي عن أصلهم فيجيبونه نحن كنعانيون<sup>١</sup>.

من ذلك يتضح أن لغة المذهب الرسمي للاستعمار الروماني - لغة القديس أوغسطين - كانت اللاتينية، وأن لغة المذهب الدوتاني، مذهب الشعب العربي في المغرب كانت البونيقية وقد ظهر هذا المذهب المسيحي في المغرب في القرن الرابع الميلادي على يد دونا الذي كان يسميه الرومان دوناتونس، وارتكز هذا المذهب على التوحيد ورفض الثالوث ثم اعتبار الدين المسيحي جاء لرفع الظلم، وهذا ما حدا المؤرخ الفرنسي للقول: كانت الدوتانية مقدمة لإلغاء الإسلام للمسيحية وللثقافة الرومانية في المغرب، لذلك فقد سجن دونا في سجون الرومان، ولم تعتبره الكنيسة شهيداً للمسيحية، ولقد استمر هذا الدين الشعبي منتشراً يمارس بالخفاء إلى أن جاء الإسلام.

ولقد اعترف الكاتب البربري المشهور أبوليوس بأن القبائل البربرية قبل الإسلام كانت تمارس الديانة البونيقية، مع العلم أن أبوليوس كان يكتب اللاتينية.

وقريب من ذلك ما أكده المؤرخ الفرنسي عثمان الكعاك بقوله: إن البربر قدموا من الجزيرة العربية في زمن لا يقل عن ثلاثين قرناً، ولما كان البونيقيون عرباً من بني كنعان فقد اختلطوا بالبربر الذين هم عرب من العرب العاربة القحطانية<sup>٢</sup>.

ويؤكد المؤرخون أن مدينة سوسة بتونس بناها العرب القادمون من جنوب الجزيرة العربية، قبل أربعة آلاف سنة وأسموها حضرموت، ويسجل المستشرق الألماني رولسر التشابه بين الأكادية والبربرية<sup>٣</sup>.

بل إن محمد كاتي من مالي يقول في كتابه (طارق الفتاشي) أن القبائل الساكنة على ضفاف نهر النيجر المحيط الأطلسي جاؤوا من اليمن<sup>٤</sup>.

١ سعدي، المرجع السابق ص ١٩  
٢ سعدي، المرجع السابق ص ٢٢  
٣ سعدي، المرجع السابق، ص ٢٣  
٤ سعدي، المرجع السابق ص ٢٣

ويلخص الكاتب الفرنسي فلوريان التطابق الكامل بين العرب والبربر فيقول: أصل مشترك، لغة واحدة، عواطف واحدة، كل شيء يساهم في ربطها ربطاً متيناً.

أما عن تسمية البربر، فالنقوش الأثرية المكتشفة تشير إلى أن هذه الكلمة وجدت في اليمن، وأن هنالك جزيرة بربرية موجودة في مضيق اليمن.

ويرى محمد شفيق أن هنالك ثلاث قرائن تؤكد القرابة بين الأمازيغيين واليمنيين:

١- وجود عدد لا يستهان به من أسماء الأماكن في اليمن لها مقابل أمازيغي.

٢- وجود عدد من الألفاظ اليمانية التي لها وجود في الأمازيغية.

٣- هنالك تشابه ملحوظ بين حروف التيفيناغ القديمة وحروف المسند.

وهناك دلالات تؤكد أن البربر المسلمون حكموا أنفسهم بأنفسهم بعد خلافة عمر بن عبد العزيز، ومع ذلك لم يحدث أن قال حاكم واحد من هؤلاء أن العربية دخيلة، بل عملوا جميعهم على نشر العربية وتطويرها خلافاً لما فعله الفرس والأتراك.

ولقد أتيت لي أن أستعرض معجم الألفاظ البربرية، فوجدت هنالك تشابهاً كبيراً بين المعجمية البربرية والعربية لا سيما فيما يتعلق بالألفاظ الطبيعية، وهذا ما أكده محمد شفيق بقوله: إن البربرية صورة مثبتة مجمدة من لغة قديمة تفرعت عنها اللغة العربية في زمن ما، وهذا ما يدعم وحدة اللغة العربية<sup>١</sup>.

يمكننا أن نضيف إلى ما تقدم الملاحظات الآتية:

١- أحدث الإسلام تغييراً جذرياً في توجه العرب الوجودي بإحلاله وحدة الأمة محل التحالفات القبلية في معارضة قوية من أرسنقراطية قریش وأعراب البادية، وهكذا فقد بقي التناقض فيما بين وحدة الجماعة التي يحض عليها الإسلام، والنوازع القبلية كامناً لا يظهر إلا في الأزمات (حروب الردة) دفاعاً

<sup>١</sup> محمد شفيق لحة عن ثلاث وثلاثين قرناً من تاريخ الأمازيغيين (عن كتاب عمروة البربر)

عن وحدة الدولة والأمة، وقد جاءت مشاركة القبائل في الفتوح لتقوي الوشائج وتعزز وحدة عرب الجزيرة<sup>١</sup>.

٢- وحدَّ الفتح الإسلامي شعوباً محددة، كما أن بعض الشعوب قد بلغ دور الأمة كما هو الحال بالنسبة لفراس وإسبانيا، لذلك كان هناك مقاومة من هاتين الأمتين للتعريب بعكس الأصقاع التي انتشرت بها الآرامية (والقبطية أو الأمازيغية)، وهكذا وجدت الفارسية ولم تأخذ بعد قرنين من العربية إلا حروفها، وحينما تولت الساماتية سنة (٨٧٤ - ٩٩٩) الحكم في فراس عادت اللغة الفارسية كلغة القومية<sup>٢</sup>.

٣- كانت المرحلة الثالثة هي آخر مراحل الفتح وأبطؤها، وفيها انتشرت العربية على اللغات الشعوب المغلوبة، ولقد أبدت هذه الشعوب معارضة، وتبين أن الشعوب تؤثر التخلي عن كياتها السياسي، بل عن ديانتها القومية قبل أن تتخلي عن لغتها، ولم يتحقق للعربية الانتصار، إلا في أواخر العصر العباسي، حيث أصبحت العربية لطلبة العلم والطبقة الراقية في المجتمع، لكنها لم تقض على الإيرانية، أما في العراق وسوريا فقد كان التحول من الآرامية أمر سهل والمعلوم أن العربية انتصرت كلغة علم قبل أن تنتصر كلغة تخاطب<sup>٣</sup>.

٤- لقد تأكد لنا من الفتح أن العرب كانوا مادته سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، وهكذا فقد وجدنا شباب بني شيبان من النصارى يهتفون للفتح العربي الإسلامي في فراس، والأمر نفسه في الحروب الصليبية، فقد وقفوا مع العرب ضد الصليبيين الذين لم يفرقوا بين المسلمين والنصارى<sup>٤</sup>.

٥- إن جيوش الفتوحات العربية تزخر بجمهور غفير من المقاتلة غير المرتزقة، أي بالعناصر الأساسية في الدولة وبالمجاهدين السابقين الإسلام وهذه الجيوش حملت إلى الأقطار المفتوحة وبالذات إلى فراس ومصر والشام أكثر

<sup>١</sup> عمر فرسخ: جدلية الوحدة والتجزئة تاريخنا في الواقع العربي المعاصر، مجلة المستقبل العربي عدد ٢٣٦ لعام ٩٩٨ ص ٤٤  
<sup>٢</sup> كتابة عربوية العرب ص ٢٩  
<sup>٣</sup> عصمت سيف الدولة / عن العروبة والإسلام، ص ٧٠  
<sup>٤</sup> قليب حتى: تاريخ العرب ص ٤٣١



الرجال استنارة في الدولة العربية الجديدة، لا ليحملوا إلى هذه البلاد المفتوحة التعاليم التحررية، بل وليتعلموا منها غير ما عندهم، فقد كان الجيش العربي الفاتح قافلة علمية وثقافية مستقلة<sup>١</sup>.

يقول أحد فلاسفة الغرب: إن المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو إليه العقل العربي من الأفكار والحرية والرأي العالي بمجرد ما أعثق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد، وأصبح علي غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية، وكما يقول واحد من عظيم كتاب إسبانيا، وهو بلاسكوا ايبا تيزر: كان فلاسفة الإغريق يوشكون أن يتلاشوا في النسيان، فأنقذهم العرب وساروا مع الفتح العربي إلى كل مكان واستعاد أرسطو مكانته الرفيعة في جامعة قرطبة الشهيرة الذي مثلته في التاريخ<sup>٢</sup>، والذين يقرؤون تاريخ القارة الإفريقية يدهشون لذلك التاريخ السياسي والحضاري والثقافي الذي أبدعه العرب في وسط القارة البكر هؤلاء التجار<sup>٣</sup>.

وفي سواحل الهند الغربية كانت الجاليات العربية التجارية تبني المساجد والمدارس وتدرس الحضارة الهندية وتهتم بالمقارنة بين الأديان والعقائد وتستضيف العلماء وتسهل لهم سبل البحث والدرس والتثقيف<sup>٤</sup>.

٦- هذه العلاقة الجدلية بين الإسلام والعروبة انتهت إلى خلق جديد، فقد كانت الأمة العربية ثمرة تفاعل الإسلام مع تلك الشعوب والمجتمعات والجماعات، وتفاعلها فيما بينها في ظل الإسلام تفاعلا انتهى إلى أن تكون شعبا عربيا واحدا بدلا من شعوب متفرقة ووطنا عربيا واحدا بدلا من أقاليم متعددة واستحدث اسمها من تلك النواة التي بدأ بها التكوين القومي في الجزيرة العربية وحمل راية الإسلام إلى باقي الوطن العربي وقادت حركة التفاعل الخلاق الذي انتهى إلى أن تكون أمة عربية، وما كان هذا ليحدث لولا التقاء أمرين في مرحلة

١ د. محمد عمارة: فجر البيضة القومية، دار الوحدة، بيروت ط ٣، ٩٨١ ص ١٤٤ و ١٤٦

٢ روجيه غارودي الحضارة العربية والنور الذي مثلته في التاريخ، طبعة القاهرة ٩٤٧

٣ د. محمد عمارة: فجر البيضة ص ١٤٦

٤ المرجع السابق، ص ١٤٧



تاريخية واحدة، ولم يكن أي الأمرين بمفرده بقادر على أن يخلق الأمة العربية، وهكذا التحمت معا فكونتها أمة عربية وليست جماعة مسلمة من ناحية، وهي أمة عربية وليست امتدادا ناميا لأي شعب من الشعوب التي كانت من قبل، ولا لتلك النواة، التي بدأت بها مرحلة التكوين القومي منذ ثلاثة عشرة قرنا في قلب الجزيرة العربية<sup>١</sup>.

وهكذا لم يكن الإسلام ديناً فحسب، بل كان ثورة اجتماعية ذات خصائص، أنشأت بينه وبين الأمة العربية علاقة عضوية تاريخية خاصة، ذلك أن الإسلام، كثورة اجتماعية قد لعب دوراً أساسياً في تكوين الأمة العربية، فلا ينكر الوجود القومي للأمة العربية إلا من ينكر على الإسلام مضمونه الثوري الحضاري، الذي أسهم في تكوين الأمة العربية، وما ينكر أن الأمة العربية (أمة الإسلام) - إذ قد أسهم في وجودها ولم تكن موجودة من قبله إلا الذين يفرغون العروبة من حضارتها).

والحق أنه حين نبحث عن حضارة إسلامية خالصة من الآثار الشعوبية لا نجدتها إلا في الحضارة العربية، وحيث نبحث عن حضارة عربية خالصة من الآثار القبلية لا نجدتها إلا في الحضارة الإسلامية، كذلك أصر الأكثر علما في التاريخ على التوحيد بين كلمة مسلم وكلمة عربي في الدلالة على الحركة الحضارية يوم أن كان العرب ينتصرون للإسلام فينتصر الإسلام لهم<sup>٢</sup>.

وما تزال الأمة العربية تحمل ظواهر حضارية مميزة هي ذاتها مميزة للحضارة الإسلامية، أن تكون اللغة إحدى العناصر التي تؤثر تأثيراً في المضمون الفكري والفني والعلمي للحضارة وتطور الآداب والعبادات والتقاليد بما تتسع له، من معان أو تضيق، فإن العربية هي لغة القرآن، كتاب الإسلام، وهي في الوقت ذاته لغة الأمة العربية، ولا تزيد حتى لا نعيد ما يقوله كل علماء اللغة والفلسفة والفن والاجتماع في دور اللغة في صياغات الحضارات، ولكننا نجتهد فنقول

<sup>١</sup> د عصمت سيف الدولة: عن العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٦ ط  
<sup>٢</sup> ص ٩٨  
المراجع السابق ص ٩٨

إن في الأمة العربية ظواهر حضارية لا يمكن فهمها إلا على أساس من معرفة العلاقة الحضارية الخاصة بين الإسلام والأمة العربية، ولنا نقصد بالظواهر الحضارية تلك التي يضبطها الناس عامدين، ولكننا نقصد بها ما تؤديه الشعوب على السجية وتقوم به كالعادة المستقرة، بدون تدبر.

ولنا نقصد بأنها تلك الظواهر التي يحتاج إدراكها إلى علم المثقفين، فإننا لا نخاطب بهذا الحديث غير العربي المسلم البسيط ونخاطبه بما تحسب أنه يحسه في نفسه ولم لم يجهر به، ولا يحتاج في إدراكه إلى علماء ومعلمين أما الراسخون في علم الحضارات فإتهم يعرفون ما نقول كما يعرفون أبناءهم، فلا هم في حاجة إلى حديثنا البسيط ولا نحن في حاجة إلى أن نتحدث إليهم عما هم به عالمون، فنزعم أن العربي على السجية يضع ذاته موضع السيادة من عناصر الوجود جميعا، إنه في علاقته بالأشياء والظواهر وفي تأثيره فيها وتأثره بها، وفي محاولاته الناجحة أو الفاشلة في تطويعها لإرادته ينطلق من وضع مفترض لا يفكر حتى في تبريره، هو أنه كإتسان أفضل من كل الموجودات وأكرم، وأنه سيدها وقاندها وإن أيا من المذاهب الفكرية التي تضع الإنسان موضع التبعية لعناصر الوجود المادية لم تستطع أن تقنع العقل العربي بأن ينزل عن مكان السيادة والقيادة بالرغم من كل ما تقدمه من فلسفات ونظريات يعبرون عن ذلك في مرسل القول بأن العربي متميز بالأنفة والكبرياء والعزة والكرامة فمن أين جاءت كل هذه القيم نعني القيم الحضارية من الإسلام، إنها ثمرة التربية الطويلة على المنهج الإسلامي أربعة عشر قرنا، والشعب العربي يتعلم جيلا بعد جيل وما بعد يوم أنه في نطاق التأثير المتبادل بين الإنسان والطبيعة المادية يكون الإنسان هو الفاعل الصانع المغير المطور، وتكون الطبيعة المادية موضوع فعله، ويستعمل القرآن تعبير (السخره) للدلالة على هذه العلاقة وهو تعبير قوى الدلالة على أن هو صانع واقعة المادي، والقادر والمسؤول عن تغييرها: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ...} [سج/١٥]، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا...} [ملك/١٥]، {...وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ

لَتَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ {إبراهيم/٣٢}، {وَهُوَ الَّذِي  
 سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً  
 تُنَدِّسُونَ بِهَا...} {النحل/١٤}، {وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ  
 اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} {إبراهيم/٣٣}، {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
 جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ} {الحاشية/١٣}.

ويقطع القرآن بأن شيئاً من الواقع لن يتغير إلا إذا تغير الناس  
 فالإسبان القائد هو البداية: {...إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا  
 مَا بِأَنْفُسِهِمْ...} {الرعد/١١}.

إن هذه القيمة الحضارية ما تزال هي وحدها القادرة على تفسير  
 بعض الظواهر المسلكية التي تبدو مقصورة على العرب والتطلع  
 والتشبث بأهداف يقول غيرهم عنها إنها غير واقعية، قياساً على  
 الظروف المادية المتاحة وتساعد المقدره على الاستمرار في التحدي  
 إذا جاءت البداية منتصرة، وتحول الهزائم إلى نقد لأذع واتهام فظيح  
 يتبادلونه وإنه ليتهم بعضهم بعضاً بالعمالة والخيانة حين تحل بهم  
 الهزيمة ويحمل بعضهم بعضاً مسؤوليتها حتى قبل أن ينتهوا من  
 هزمهم بالعدوان والبغي.

ويعجب بعض الناس من هؤلاء العرب غير الواقعيين الذين قالوا عام  
 ١٩٦٧ (لا مفاوضة) وهم غير قادرين على القتال (ولا صلح)  
 وأرضهم محتلة (ولا اعتراف) وهم يعرفون من الهزيمة ذاتها مدى  
 ثقل الوجود الذي ينكرون الاعتراف به.

ويعجب بعض الناس من هؤلاء العرب الذين لا يكفون عن طلب  
 الوحدة بالرغم من كل ما بين حكوماتهم من صراع، وبالرغم من أن  
 الوحدة هدف لن ترضى به قوى العالم القادرة.

ويعجب بعض الناس من هؤلاء العرب الذين لا يتركون فرصة دون  
 أن يتهم بعضهم بعضاً، وهم يعلنون أن غاية صراعهم أن يتوحدوا،  
 ثم يعجب بعض الناس من هؤلاء العرب الذين ما إن ينطلقوا  
 منتصرين حتى يحققوا المعجزات بما فيها معجزة الوحدة.

إن وراء كل هذه قيمة أكثر ثباتاً في وجدان العربي من كل ظواهرها  
 السلبية، إن كل شيء مسخر له كإسمان وهو قادر على تغييره  
 ومسؤول عن هذا التغيير، وإن الخضوع للظروف المادية أو الاتكال

عليها أو اتهامها يعني أنه يتخلى عن ثقته بذاته كإنسان وبمقدرته ومسؤوليته، تعبيراً عن هذه القيمة لا يفهم العربي كيف تكون الوحدة هدفاً غير واقعي بحجة أن الظروف لا تسمح بها ما دام هو يريد لها، ولا يفهم كيف تعني الهزيمة الاستسلام ما دام هو لا يريد ولا يفهم كيف تعني الهزيمة الاستسلام ما دام هو لا يريد ولا يفهم كيف يمكن أن ينهزم بدون أن يكون إنسان غيره قد خان، وتعبيراً عن هذه القيمة ما أن ينتصر العربي - في أي ميدان - حتى يتقبل النصر على أنه استحقاق طبيعي له فيندفع إلى مزيد من محاولات الانتصار.

وهكذا لم يحتاج العرب إلى أكثر من نصف قرن ليحملوا الإسلام دعوة وحضارة إلى أكثر العالم المعروف لهم ولم يحتاج العرب إلى وقت يذكر ليقفزوا إلى المراكز الأولى في الفلسفة والرياضة والطب والفلك والصناعة، وكلها نشاطات حضارية لم يكن لهم بها علم قبل أن يبدوها، إن قيل إنها قيم عربية صدق القول، وإن قيل قيم إسلامية صدق القول، إذ الحضارة الإسلامية في وطننا هي الحضارة العربية، لا تختلفان (١).

٦- توفر في الفتح الشرارة والصاعق الذي هو العنصر الذاتي (الإسلام) ثم العنصر الموضوعي (برميل البارود) الذي هو الأمة العربية.

## البحث الثالث : العرب في الإسلام على العهد العباسي الأول

المفروض بأي تأسيس - بما في ذلك التأسيس الأيديولوجي - أن يبني على قاعدة عريضة من المعرفي أو العلمي بحيث يسبق الفعل الأيديولوجي منطقة ساطعة من المعرفة الحقيقية المجردة التي تقود الخطي، وتمنعها من الزوغان والوهم والتخبط والاحتراف.

هذا هو منهجنا المتبع في هذه الدراسة محاولين اقتناص هذا التاريخي بالقدر اللازم الذي يحثنا على الاستدلال على موضوعنا، ألا وهو دور العروبة في الإسلام، فما هو هذا الدور؟؟

وحقيقة الأمر تكمن عظمة هذا العهد في اليقظة الفكرية التي لا نجد لها مثيلاً في تاريخ الإسلام، أو قبله، والتي تعبر عن النهضة الهامة في تاريخ التقدم الفكري العالمي، حيث تم تمثّل وهضم التراث الفارسي والسنسكريتي، والسرياني واليوناني، وبالذات نقل كتب أرسطو الفلسفية والكتب الفلسفية الأفلاطونية الحديثة (كتب جالينوس في الطب، وطائفة من الكتب العلمية الفارسية والهندية).

ولقد استطاع العرب في بضع سنين أن يهضموا ما أنفق عليه اليونان القرون .

لقد أثر عن رسالة حربية منسوبة إلى الإمبراطور ليون السادس الحكيم (٨٨٦ - ٩١٢م) أن العرب من أبرع الشعوب في العمليات الحربية .

وفي كتاب للإمبراطور برموغنش إنه إذا اتفق للعرب أن احتلوا معسكر، فليس هنالك من قوة تستطيع أن تزيحهم .

ولقد تمتعت المرأة في العصر العباسي الأول بحظ وافر من الحرية يعادل حظها في العصر الأموي، لكن ما كاد البويهيون يبسطون نفوذهم في أواخر القرن العاشر حتى حد من هذه الحرية، حيث عزلت عن الرجال، وأحكم عليها الحجاب .

1 حتى: المرجع السابق: ص ٣٧٤

2 حتى: المرجع السابق، ص ٣٩٧

3 حتى: المرجع السابق، ص ٣٩٧

4 حتى: المرجع السابق، ص ٣٩٧

ولم تكن حرية المرأة ونفوذها وظهورها في أوائل هذا العصر مقصورة على نساء الطبقة العالية كالخيزران وعليا وزبيده وبوران، بل تعدى ذلك إلى نساء العامة فكان هنالك نساء يخرجن إلى الحرب وينظرن الرجال في أسواق الأدب حيث ازدهرت المجالس بمواهبهن الأدبية والموسيقية، هكذا عهدنا عبدة الطنبورية المتصفة بالجمال وحسن الصوت والمقدرة على الطرب<sup>١</sup>.

أما في فترة الانحطاط السياسي فقد تميزت بانخفاض مستوى الأدب الجنسي والانغماس في الملذات والتهاك وتسدني منزلة المرأة وانغماسها في المكر والدسائس.

وهناك ملاحظة أساسية هي أن العرب تمثلوا وهضموا كل ما نقلوه، لكن هنالك أمورا أمسكوا عن نقلها لأنها لا تتفق مع ذاتهم الحضارية، ومن ذلك الفن الأدبي كالدراما والشعر وغير ذلك.

في إطار هذه الحضارة البازغة استوت اللغة العربية على سوقها، فأصبحت لغة حية قوية وضعية سهلة المنال تطاوع إرادة الكتاب للتعبير عن الفكر العلمي والآراء الفلسفية العليا، وفي الوقت نفسه صارت لغة السياسة والتخاطب الأدبي في أقطار مترامية تمتد من أواسط آسيا إلى شمالي إفريقيا، ومننذ أخذت الشعوب التي تسكن العراق وسوريا وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش تعبر عن أسمى ما في خلدها من فكر وآراء بلغة العرب.

ولقد خبر العرب التجارة قبل الإسلام، ومهروا بها ولقد حض الإسلام عليها ووضع ضوابطها الصحيحة، ولهذا فقد انطلقت هذه الحرفة على يد العرب في الإسلام، وكان للتجار دور بارز في نشر الإسلام في جزر الهند الشرقية (اندونيسيا)، ولم يأت منتصف القرن الثامن حتى تم تبادل بضع سفارات بين الخلفاء والصين، وفي المدونات الصينية إشارة إلى أن إمبراطور الصين كان يسمى أمير المؤمنين هتمى موموتي.

ولقد فكر هارون الرشيد بحفر قناة السويس قبل دولسيس بألف سنة واتسعت تجارة العرب في هذا العصر في البحر الأسود وبحر قزوين.

<sup>١</sup> حرجي زيلدان التمدن الإسلامي ج ٢ ص ٦٤  
<sup>٢</sup> حتى المرجع السابق ص ٤٠٢  
<sup>٣</sup> حتى المرجع السابق، ٢٧٩

وفي هذا العصر جرت مناقشات دينية - تعبيراً عن التسامح - كتل التي جرت في بلاط معاوية وعبد الملك حيث ألقى تيمناوث بطريك النساطرة سنة ٧٨١ دفاعاً عن النصرانية أمام المهدي لا يزال محفوظاً حتى اليوم، ولقد تحدثت رسالة الكندي عن مناقشة جرت سنة ٨١٩هـ في حضرة المأمون حول محاسن الإسلام والنصرانية<sup>١</sup>، وكان للعهد القديم والجديد ترجمات عربية معروفة<sup>٢</sup>.

ولقد ترجم أحمد بن عبد الله بن سلام التوراة إلى العربية منذ ولاية هارون الرشيد<sup>٣</sup>، وكان للمتقي (٩٤٠ - ٩٤٤هـ) وزير نصراني<sup>٤</sup>، وجعل المعتضد وزيراً نصرانياً على المكتب الحربي لجيش المسلمين<sup>٥</sup>.

وكانت النصراني موضع احترام وتقدير في العصر العباسي، وكان المسلمون يحترمون رؤساءهم ويقبلون أيديهم وكانت أكثرية من أطباء الخلفاء من أبناء الكنسية النسطورية، هذا ما يؤكد البراءة التي منحها المستكفي سنة ١١٣٨ لحماية النساطرة<sup>٦</sup>.

ومن أبرز مظاهر هذا التسامح توسعها تيشيريا في الهند والصين، ولقد أنبأنا ابن النديم عن اجتماعه براهب في دار العلوم ببغداد كان قد أنفذه الجاثليق مبشراً إلى الصين<sup>٧</sup>.

ولقي اليهود أيضاً من محاسن المسلمين وتسامحهم في أكثر ما لقيه النصراني، هكذا لاحظ المقدسي سنة ٩٥٨، أكثر الصيارفة وأرباب البنوك في سوريا يهود، وأكثر الكتبة والأطباء نصاري، وكان لهم مراكز هامة في الدولة عند عدد من الخلفاء لاسيما المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢م)، بل كان لهم مستعمرة كبيرة في بغداد<sup>٨</sup> ظلت مزدهرة حتى سقوط المدينة، ولقد زار هذه المستعمرة بنيامين التيطلي سنة (١١٦٩م) فوجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيسة فيها واحد مزوق بالرخام المخطط ومجمل بالذهب والفضة،

١ حتى، ص ٤٢٣  
 ٢ رسالة عبد المسيح ابن إسحاق الكندي، لندن ١٨٧ ط٢، لندن ١٨٨٩ - حتى ص  
 ٣ الفهرست لابن النديم ص ٢٣  
 ٤ الفهرست ص ٢٤  
 ٥ التوحى: الفرج بعد الشكر، القاهرة، ٩٠٤ ح ٣ ص ١٤٩  
 ٦ ياقوت: ح ٢ ص ٢٥٩  
 ٧ حتى: تاريخ العرب، ص ٤٢٤  
 ٨ ياقوت ح ٤، ص ١٠٤٥



ونقد أفاض بنيامين في وصف الحضارة التي لاقاها رئيس اليهود والبابليين من المسلمين بصفته سليل بيت النبي داوود رئيس الملة الإسرائيلية، وكان له على رعيته ما للجائليق على النصاري، وكان له ثروة طائلة ومكانة كبيرة وأملاك وكان إذا قابل الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء موشاة بالجواهر، وأحاط بها رجال من الفرسان وأمامه ساع يصيح أمنوا دريا لسيدينا .

وقد اتسع هذا التسامح إلى الصابئة، حيث ظهر منهم علماء لاسيما في الفلك مع التنويه بأن الأمان الذي أعطى لهم شمل الوثنيين وغيرهم .

ولقد ظلت الديانة الزرادشتية وهيكلها منتشرة بعد الفتح الإسلامي في إيران والعراق والهند وشرق فارس .

بعض هذه المقدمة يمكننا القول مع الدكتور عصمت سيف الدولة بأنه إذا أردنا أن نتكلم عن حضارة إسلامية مبرأة من الشعبوية وجدناها عند العرب وإذا تكلمنا عن حضارة عربية مبرأة من القبلية وجدناها في الإسلام .

### البند الأول : الفتوحات وانتصار العروبة

في هذا العهد اعتنق السواد الأعظم من سكان الإمبراطورية الإسلامية، وإن كانت سوريا بقيت محافظة على مظهرها النصراني طوال العصر العباسي .

وبقيت فارس خارج حضارة الإسلام إلى ما بعد فتحها بنحو ثلاثة قرون، أما الجزيرة، في شمال العراق، فقد قال ابن الفقيه عن سكانها في القرن العاشر للميلاد بأنهم مسلمون في أخلاق النصاري، أما في مصر فقد حدث تحولها إلى الإسلام بصورة ميسرة .

- 1 حتى: تاريخ العرب، ص ٤٢٦
- 2 حتى: تاريخ العرب ص ٤٢٧
- 3 الفهرست ص ٣٣٧
- 4 كتابة بين العروبة والإسلام
- 5 تاريخ العرب، ص ٤٢٠
- 6 تاريخ العرب، ص ٤٢٠
- 7 البلدان، ص ٣١٥



ولقد لاقى الإسلام نجاحاً أوفر بين معاصر البربر، لاسيما حين أخذت جيوشهم تنخرط في ذلك الجيش الإسلامي، إذ كانوا نواة هذا الجيش الذي فتح إفريقيا الغربية، وأخضع إسبانيا، ومع ذلك فلم يتم الفوز للإسلام إلا في القرن الثاني عشر للميلاد .

كانت المرحلة الثالثة من مراحل الفتح هي مرحلة انتصار اللغة العربية على لغات الشعوب القديمة، وبالطبع فهذه هي آخر المراحل وأبطؤها، حيث أبدت الشعوب فيها المقاومة والدفاع.

وحقيقة الأمر أن الشعوب نُوثر التخلي عن كيانها السياسي وديانتها القومية<sup>١</sup>، قبل أن تتخلي عن لغتها، ولهذا السبب لم يتحقق الفوز الأخير للغة العربية إلا في أواخر العصر العباسي، حيث أصبحت هذه اللغة في فارس لوقت ما بعد الفتوحات العربية لغة العلم والطبقة الراقية، لكنها لم تتغلب على الإيرانية، أما في العراق وسوريا فقد كان التحول من لغة سامية (الآرامية) إلى العربية سهلاً.

### البند الثاني : (التقدم العلمي)

وسوف لن نغوص بالتفاصيل، وإنما نتكلم بالقدر الذي يكشف لنا تأثير العرب في العلوم الإسلامية، وفي الحقيقة لقد انفرد العرب والمسلمون في هذا العصر بمذاهب في البحث والابتكار في ميادين الشريعة وعلوم الدين وفاقه اللغة وعلومها، وكان لهم دور مبدع في هذا المجال، وقد طبعوا النقل -وهو لا يقل عن الإبداع- بطابعهم، وظهر اهتمامهم في علم الشفاء تيمناً بحديث نبوي: العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان.

وخطا العرب خطوات واسعة في استعمال العقاقير للتداوي، وهم أول من أنشأ الحوانيت لذلك، وأقدم من أسس للصيدلية ووضع كتب الأدوية<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> حتى: تاريخ العرب، ص ٤٢٩  
<sup>٢</sup> هذا الرأي للدكتور حتى، تاريخ العرب ص ٤٣٠ ونحن لا نوافق على هذا الرأي فقد أظهر السنين الإسلامي في الجزائر مقاومة للقرنسي تفوق العربية. انظر ذلك د. محمد الزواوي: تاريخ العرب، ص ٤٣

<sup>٣</sup> حتى: تاريخ العرب، ص ٤٣٤

وكان العرب مبكرون في وضع كتب التاريخ، ولا يخفى تأثير الدين في ذلك، هكذا ظهرت السيرة لابن اسحاق، وإن كانت لم تصلنا إلا في سيرة ابن هشام.

كذلك فقد وضعت كتب في حروب الإسلام الأولى وفتوحاته فيها كتب المغازي لموسي بن عقبة (جمعه ابن قاضي شهبه سنة ١٣٨٧) وللواقدي، إضافة إلى كتاب ابن سعد فهو أول كتاب في الطبقات، ثم كتاب ابن عبد الحكيم المصري (فتوح مصر وأخبارها) وهو كتاب هام في فتوح مصر وإفريقيا الشمالية والأندلس وأخيرا كتاب السبلاني (فتوح البلدان).

وتجدر الملاحظة إلى أن الحركات الفكرية التي أوجدتها النظرة العربية الإسلامية، وأهمها الإلهيات والحديث والفقهاء وفقهاء اللغة وأصول اللغة، فقد كان معظم العلماء في هذه الميادين عرباً على نقيض الطب والفلك والرياضيات والكيمياء فقد كانوا من أصل سرياني أو يهودي أو فارسي، وهذا أكبر دليل على أن العرب اعتبروا أنفسهم قادة الإسلام وحماته والذابين عن ثقافته.

أجل لقد اتجهت غاية المسلمين العرب باكراً لهذه الفروع العلمية التي دعت إليها العاطفة الدينية، ومن أجل فهم معاني القرآن في غوامضه وشرحها، ثم أصبحت الحاجة أكثر إلحاحاً لدراسة الإلهيات العميقة والأبحاث اللغوية الدقيقة ويجب أن لا يغيب عن ذهننا أن العرب بقوا في كل الأدوار التاريخية سادة القلم والعلم في الحفاظ على الثقافة العربية الإسلامية ونشرها.

ولقد برع العرب بتدوين السنة، وكان لذلك أثر كبير في تطوير الفكر الإسلامي، فكان طلاب العلم يقضون السنين الطوال طلباً للعلم والاهتمام بالأدب والشعر، فقد كانت علوم الدين والأدب والشعر أكثر تعبيراً عن الشخصية العربية وأكثر قرباً من نفس العرب وروحهم وشخصيتهم.

١ حتى: تاريخ العرب، ص ٤٦٥.

## الحياة الاجتماعية والسياسية

### مقدمة

في نظر الجاحظ أن دولة بني مروان أموية عربية، ودولة بني العباس أعجمية خراسانية، وبطبيعة الحال فما عناه الجاحظ هو تغلغل المظاهر الحضارية الأعجمية (فارسية ويونانية وغيرها) في الدولة بصورة أكثر مما كانت عليه في الماضي.

إذا نظرنا إلى الفلسفة العربية الإسلامية من خلال الوظيفة التي قامت بها داخل الكل الذي تنتمي إليه أي داخل تناقضات وصراعات مجتمعها وعصرها وجدناها خطابا أيديولوجيا مناضلا جند نفسه لخدمة العلم والتقدم والدفع بالتطور إلى الأمام، وهذا يعني أن خصومها كانوا من العناصر الرجعية والمحافظة، أي التي كان من مصلحتها - القومية أو مصلحتها الطبقية - الرجوع بالتاريخ إلى الوراء.

يتجلى هذا منذ ابتداء الترجمة، فهذه العملية - كما تمت في العصر العباسي الأول، وعلى عهد المأمون - لم تكن عملا (برينا) أي عملا ثقافيا (محايدا) اقتضاه التطور، بل كانت بالعكس جزءا سياسيا في إستراتيجية عامة واجهت بها الدولة الجديدة، القوى المناوئة والتي كان على رأسها الأرستقراطية الفارسية الموتورة التي قررت استعمال الواجهة الأيديولوجية بعد أن فشلت في الواجهة السياسية والاجتماعية.

لقد أدركت الأرستقراطية الفارسية التي ركبت التشيع (آل البيت) في ثورتها على الدولة الأموية، أن السلطة في المجتمع العربي الإسلامي هي بالدرجة الأولى للأيديولوجيا، فالأيديولوجيا - (وهي هنا الدين الإسلامي) - هي القوة المادية التي تخفف من الصراعات القبلية وتدفعها وتقمع الصراعات الطبقية وتوجهها وجهة خارجية (الفتوحات)، وبذلك قررت أن خوض الصراع في مصدر قوة الدولة العربية أي في المجال الأيديولوجي ذاته، سلاحها في ذلك تراثها الثقافي الديني المبني على الغنوصية، أي على الإيمان بوجود مصدر آخر للمعرفة غير العقل هو (العرفان) أو الإلهام الإلهي الذي لا ينقطع

<sup>1</sup> البيان والتبيين ج 3 ص 366

بانقطاع الرسل، إنه (الوحي المستمر) الذي لا يترك أي مجال لا للعقل ولا للنقل.

هكذا شنت الاستقرابية الفارسية المتوترة هجومها أيديولوجيا واسع النطاق مستعملة تراثها الثقافي الديني الزرداشتي- المانوي- المزدكي، والهدف هو التشكيك في الدين العربي وهدمه وصولا إلى الإطاحة بسلطة العرب ودولتهم، وقد تصدت الدولة العباسية الفتيية لهذه الهجمات فشجعت المعتزلة وتبنت مذهبهم من جهة وعملت على استقدام كتب العلم والفلسفة من خصوم الفرس والتقليديين (الروم - اليونان) وترجمتها ونشر محتوياتها من جهة أخرى، إن (جلم) المأمون - سواء أكان حقيقيا أم مصطنعا - لم يكن حلما بريئا، لم يكن من أجل أرسطو ذاته بل من أجل مواجهة زرادشت وماني.

لقد تحددت وظيفة الفلسفة العربية الإسلامية، إذن، منذ أن كانت مجرد مشروع أي منذ ابتداء الترجمة.

لقد أريد منها أن تكون سلاحاً ضد الهجومات الغنوصية أي ضد الهجوم الأيديولوجي الذي كان يهدف إلى ضرب الدولة في الصميم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يثير تشجيع خلفاء بني العباس للمعتزلة، وهو التشجيع الذي قلنا عنه إنه كان موجها من الأصل ضد الهجوم الغنوصي.

كان من الطبيعي أن يثير ذلك التشجيع غضب أهل السنة خصوم المعتزلة وحتى الفقهاء النصيين، وقد وجد هؤلاء وأولئك في الهجوم على (علوم الأوائل) والتنديد بالفلسفة غطاء يسترون به معارضهم الحائقة للدولة التي تجندت لترجمة العلوم ونشر الفلسفة، وهكذا وجدت الفلسفة نفسها مضطرة إلى مواجهة خصمين شرسين: الغنوصية (التصوف فيما بعد) والفقهاء وأهل السنة.

وبما أن المعتزلة استطاعوا إفساد أطروحات المهاجمين وتسفيهاها بمنطقهم (الجدلي) الذي كان يعتمد على قياس الغائب على الشاهد، الأسلوب الذي لا يمكن أن تصمد أمامه المعرفة القائمة على (العرفان)، وبما أن أولئك المهاجمين قد أدركوا إبعاد الخطر الذي يشكله عليهم استئثار خصومهم وحده بتوظيف (علوم الأوائل)، فلقد احتموا بالتشيع مجددا، ولكن بصورة مكنتهم هذه المرة من احتوائه أيديولوجيا.

لقد استنجدت الغنوصية هي الأخرى بـ (علوم الأوائل) (والجانب السحري منها خاصة) ووظفتها داخل الفكر الشعبي الذي اتخذته مرة أخرى غطاء لها، فكانت الإسماعيلية، وكانت رسائل إخوان الصفا، لقد أصبح نفس السلاح في يد المتخاصمين فبرز أهل السنة كقوة ثالثة بديلة..

فكان الانقلاب السني (على المعتزلة) في عهد المتوكل، وتركز الصراع بين معسكر (النقل) ومعسكر (العقل) وبين القوى الرجعية والمحافظة صاحبة النفوذ والسلطة، وبين القوى المعارضة، القوى الاجتماعية الصاعدة المنطلقة إلى بناء دولة العقل والإخاء والعدل، ولقد كانت الفلاسفة هي الناطقة باسم هذا المعسكر الأخير<sup>1</sup>.

واستناداً إلى ما تقدم فطبيعة الدعوة العباسية وتغذياتها السياسية والاجتماعية لا تقبل التفسير العنصري، إذ كان عرب خراسان من يمانية وربيعية وبعض المضربية هم العصب الرئيسي للثورة، فضلاً عن أن شعاراتها جذبت إليها العديد من الموالي الفرس مع أن دورهم لا يقارن بدور عرب خراسان<sup>2</sup>.

فسلطان العرب لم ينته بزوال الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري والثامن الميلادي، لأن العرب (نفسهم كانوا القوة الفعالة في عملية التغيير الثوري وظل العرب خلال العصر العباسي الأول يتقلدون مناصب العمال والولاة وقادة الجيش ومنهم صحابة الخليفة وخاصة ومستشاروه ومنهم القضاة، وكان الخلفاء العباسيون عرباً من بني هاشم من قريش وبقت القبائل العربية ذات أثر بارز في السياسة والجيش والمجتمع، وظلت اللغة العربية لغة الإدارة والسياسة والثقافة والفكر، كما أن تمحيص الروايات التاريخية والمنتثرة في كتب الأدب والشعر، يكشف لنا عن مدى ميل الخلفاء للعروبة وتشجيعهم للروح العربية والتقاليد العربية في مجالسهم.

وإذا أمعنا النظر في ظروف إنشاء بغداد وتطورها وفي التكتلات السياسية المرتبطة بالبلاد العباسية اتضح لنا أهمية العرب في ذلك

<sup>1</sup> د. محمد عابد الجابري، نحن والشرق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، ص 125.  
<sup>2</sup> ابن المقفع: رسالة في الصحابة، القاهرة 964.

المزيج السكاني الاجتماعي الذي كان يرتبط برباط واحد يشد بعضه ببعض ألا وهو رباط الولاء للدولة الجديدة وللخليفة العباسي، لا الولاء لنزعات قبلية أو عنصرية ضعيفة أو إقليمية ساذجة.

وهذا ما يتضح من قول الجاحظ: ولا لقي تلك الحروب إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علي وصالح بن علي وعبد الصمد بن علي.

لقد حقق عبد الله بن علي الانتصار العباسي في معركة الزاب، ولعب صالح وعبد الصمد أدواراً مهمة في إقرار الحكم العباسي في الجزيرة والشام ومصر، أما عيسى بن موسى العباسي فقد قضى على حركات العلويين في الحجاز والبصرة، هذا فضلاً عن أن الأقاليم الهامة وضعت تحت إدارة ولاية عباسيين، وهذا وما تكشفه لنا وصية المنصور لابنه المهدي بقوله: وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم وتعظم أمرهم وتوليهم المنابر فإن غرك غيرهم.

ولعل أهمية العرب من أهل خراسان تمتد إلى الدعوة العباسية والثورة، ثم أبناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي ضد الجند الشامي في العراق، وكان سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق نتيجة مساعدة القبائل العربية.

ففي حصار واسط من قبل العباسيين أغراهم أبو جعفر بالتخلي عن يزيد بن هبيرة والي واسط قائلاً للقبائل اليمانية، السلطان سلطاتكم والدولة دولتكم.

وفي حصار دمشق استعان عبد الله بن العباس بالقبائل اليمانية ضد الأمويين حيث خاطبهم بقوله: إنكم وإخوانكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا وأنتم دفعتم إلينا مدينة دمشق، وقتلتم الوليد بن معاوية، وأنتم منا وأنتم قوام أمتنا.

1 د - فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ١٩٧٠، ص ٧٣.  
2 تاريخ الطبري، قسم ٣، ص ٤٤٤ طبعة لندن  
3 د. فاروق عمر: ص ٧٧  
4 د. فاروق عمر: الدعوة العباسية، ص ٨٠  
5 د. فاروق عمر: الدعوة العباسية، ص ٧٦

ولقد اضطلع الجيش العربي بمسؤولية الأحداث التي ظهرت في القرن الهجري الثاني، وهذا - كان حسب وصف الطبري - يتكون من فرق من مصر واليمن والخراسانية وربيعية، كذلك فقد كان قادة الجيش من العرب، وهكذا ظهرت أسر عربية كبرى كانت يدا للعباسية مثل آل قحطية الطائي وآل المهلب وغيرهم.

ولقد شجع الخلفاء العرب للسكن في مدينة بغداد، وهكذا كان هنالك مناطق لاستيطان اليمانية وخرزاعة وبنو زريق الأشاعنة، هذا عدا الأراضي التي أقيمت لشخصيات عربية من الأنصار والصحابة.

يقول أبو العباس: أترى فينا ترضى أن يضرب سيدها حدا لو دعوتها بالبينة، لجأ إلى منة من قيس يشهدون أن القول قوله.

ولقد صاح المنصور لما سمع أن والي الكوفة قتل عربياً بتهمة الزندقة، أيقتل رجل من العرب بغير علمي، ولم يسمح أن يكون خادماً عند الحرم فذلك يحط من قدره، كما ترك خازم بن خزيم التميمي نائباً عنه ومسؤولاً عن الجيش والميرة حين حج سنة ١٤٤ هـ<sup>١</sup> وأعطاهم أرضاً في بغداد تسمى (قطيعة الأنصار)، أما المهدي فقد اختار ٥٠٠ من الأنصار (أهل المدينة) وحملهم إلى بغداد ليكونوا حراساً له وأنصاراً، وكان أهل خراسان بالمفهوم السابق أهم كتلة عسكرية وسياسية في المجتمع العباسي، ولقد حافظ العباسيون على ذلك وسجلوها في سجلات خاصة حسب قرأهم ومدنهم لا حسب قبائلهم.

وكان العباسيون يرسلون في الأزمات الخراسانية إلى المناطق المضطربة، كما استغل الخلفاء اسم أهل خراسان ووقوفهم بإخلاص وراء النظام العباسي في سبيل تنفيذ خططهم وخاصة ولاية العهد.

<sup>١</sup> تاريخ الطبري، قسم ٣، ص ٣٦٦، طبعة لندن.  
<sup>٢</sup> البلاذري: أنساب الأشراف، مخطوطة رومة، بغداد مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب، فاروق عمر، ص ٧٦.  
<sup>٣</sup> تاريخ الطبري، قسم ٣، ص ٤٣٩، طبعة لندن.  
<sup>٤</sup> د فاروق عمر ص ٧٧.  
<sup>٥</sup> تاريخ الطبري ص ٤٨٣.  
<sup>٦</sup> تاريخ الطبري قسم ٢ ص ١٨٦٧.  
<sup>٧</sup> د فاروق عمر ص ٧٨.



ولقد استعان بهم المنصور أثناء ثورة الحجاز الخطيرة فقال: يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا، وأهل دعوتنا<sup>١</sup>.

وأوصى المنصور ولي عهده بهم، فقال إنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم دونك وديارك دونك أن تحسن إليهم وتتجاوز عن سيئاتهم وثقافتهم<sup>٢</sup>.

وحين حضرته الوفاة دعا بني هاشم وأهل خراسان أن يتحدوا وراء المهدي<sup>٣</sup>.

وكان يستعمل اصطلاح أهل خراسان، وأحياناً أنصار الدولة وأهل الدعوة والشيعه العباسية<sup>٤</sup> وعلى ضوء ما تقدم فسنبقوم بدراسة الظواهر الآتية:

## ١ - الموالى

هذا المفهوم لا يعنى فقط المسلمين من غير العرب، فهذا هو المعنى التقليدي، بل يشمل أيضاً العبيد المحررين من مختلف العناصر والأجناس<sup>٥</sup>.

فنحن أمام مفهوم سياسى اجتماعى، وليس عنصرى، وهذه الكتلة يربطها رابض سياسى والولاء للنظام العباسى يقول الجاحظ، وكان المنصور ومحمد بن على وعلى بن عبد الله يخصصون موالىهم بالمواكلة والبسط والإيناس لا يبهرجون الأسود لسواده، ولا الدميم لدمامته، ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم، ويجعلون لموتاهم الصلاة على جنائزهم<sup>٦</sup>.

وهذا ما أكده ابن خلدون بقوله: البيت الشرف للموالى وأهل الاصطناع إنما هو بموالىهم وأسيادهم لا بأنسابهم القديمة<sup>٧</sup>.

١ - فاروق عمر ص ٧٨

٢ - تاريخ الطبرى قسم ٣ ص ٤٣٠

٣ - تاريخ الطبرى قسم ٣ ص ٤٤٤

٤ - تاريخ الطبرى قسم ٣ ص ٤٤٥

٥ - فاروق عمر: التكتلات السياسية، مجلة كلية الآداب بغداد، ١٩٦٨

٦ - رسالة في مناقب الترك ص ١٣، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٦٤

٧ - المقدمة طبعة مصر ١٩٥٧ ص ٥٠٧



وأكد الجاحظ بأن كتابه عن العرب والموالي غير كتابه (العرب والعجم)، أي أن هذا الولاء يفوق كل ولاء آخر، غير الولاء العربي .  
وهنا تبرز ظاهرة مهمة تدل على إنسانية العرب المتمثلة بالنزعة المرنة للسلطة العباسية، والفهم الشامل للإسلام الذي يمثل عقيدة المجتمع.

فالجاحظ - وهو ابن ذلك المجتمع = يرفض رفضاً باتاً فكرة العنصر كمعيار لوصف المجتمع، بل تقيم الثقافة على معايير نفسية للشخص؛ ومن هنا كان الموالي عرباً أو أقرب ما يكونون إلي العرب ثقافياً ولغوياً وفي الوقت نفسه أكثر المدافعين عن العروبة.

لقد بدأ الموالي بالوجود ومنذ عهد المنصور قدم لنا اليعقوبي قائمة الذين وثق بهم المنصور ووجدوا في بلاطه .

يقول الطبري في حاتم بن هزيمة بن أعين<sup>١</sup>: فإنه ممن لا يعرف إلا بالطاعة ولا يدين إلا بها. ولقد أشار عبد الصمد بن علي علي الخليفة المهدي أن يجد من نفوذهم، لكن المهدي أجاب قائلاً: إن الموالي يستحقون ذلك<sup>٢</sup>.

ويتضح مما سبق أن هؤلاء كتلة سياسية غير عنصرية يقومون بأعمال يطلبه الخليفة، ولقد كان من قادة الجيش العباسي من أصحاب النفوذ القبلي أمثال معن بن زائدة الشيباني وحميد بن قحطبة الطائي وحازم بن جزيمة التميمي وعقبة بن سالم الشيباني ويزن بن يزيد الشيباني، وغيرهم من عاداتهم أن يصطحبوا معهم جزءاً من قبائلهم حين ينتدبون لقتال عدو أجنبي .

وباستعراض مراكز القوة في القرن الهجري الثاني يتضح لنا أن العرب والعناصر المستعربة لعبت الدور الأول، فقد كان النفوذ والسلطة لهم، وهذا ما أكده ابن خلدون بأن العرب تحملوا المسؤولية على عاتقهم.

١ فاروق عمر: ص ٨٢  
٢ - فاروق عمر: ص ٨٣  
٣ تاريخ الطبري: قسم ٣ ص ٧٦٦، طبع لندن  
٤ تاريخ الطبري: قسم ٣ ص ٥٣١  
٥ فاروق عمر: ص ٨٤

ولقد واجهت العروبة تحدياً جدياً حين قرر المأمون نقل مركز الدولة إلى مرو في خراسان، فظهرت في العراق حركة معارضة قوية ضده، فوامها من أهل بغداد، ومن أبناء خراسان، وقد عدل الخليفة عن رايه .

ولم يقف العرب مكتوفي الأيدي حيال سياسة المعتصم، بل وقفوا ضدها، وقاموا بالتعرض للجنود الترك في شوارع بغداد، مما دفع المعتصم للبحث عن موضع جديد لهم، فبنى مدينة سامراء<sup>١</sup>.

إذا كنا قد تلمسنا المواقع والمظاهر والتجليات التي تحكم الارتباط العضوي بين العروبة والإسلام، فإننا سنتابع ذلك إنما هذه المرة عن طريق تقصي تعزيز أسهم الحقد والكراهية والعداء لمتنوية العروبة والإسلام.

## ٢- مزاعم أبي مسلم وأسطورة البطل المنقذ

لقد أحيط المذكور بهالة من الأهمية حيث اعتبر عند بعضهم المهدي المنقذ الذي سيملاً الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً.

وحقيقة الأمر أن الشخصية الحقيقية في أهل خراسان هو سليمان الخزاعي فإليه تمت البيعة من قبل الشيعة العباسية، وهو الذي كان يوم الصلاة ويتصل برجالات العرب والفئات المتنازعة مع نصر بن سيار<sup>٢</sup>، ولقد نجحت الثورة العباسية في السيطرة على خراسان، وتقدمت نحو العراق بقيادة قحطبة بن شيبان الطائي، وأصبح أبو مسلم شخصية واقعية في خراسان، وكان أن تخلص أول الأمر من شيبان بن سلمة الحروري المنحاز مع الدعوة العباسية، حيث دبر قتله، ثم دبر اغتيال سلمان بن كثير الخزاعي نقيب النقباء وأهم شخصية في الدعوة العباسية، بل قتل محمد بن سلمان الخزاعي بتهمة الاحراف عن الدين<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> د- فاروق عمر: تاريخ العرب ص ٨٥

<sup>٢</sup> تاريخ الطبري ص ٣١٦ مطبعة القاهرة.

<sup>٣</sup> د- فاروق عمر: ص ٩٣

<sup>٤</sup> البلاذري: أنساب الأشراف، مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب، بغداد رقم ٨٠٠

لذلك قال أبو جعفر لأخيه أبي العباس: أن أبا مسلم يفعل ما يريد وأرجو أن تتغذى به قبل أن يببطش بك<sup>١</sup>، كما أن أبا جعفر قال لأخيه بعد توليه في خراسان: لست خليفة ولا أمرك بشيء، إن تركت أبا مسلم ولم تقتله. قال وكيف: قال: والله ما يصنع إلا ما يريد<sup>٢</sup>، وفعلا حاول أبو العباس تقليص نفوذه واعتقاله أكثر من مرة.

وتجدر الإشارة إلى أن الدعوة العباسية كانت تقاد من مجلس النقباء الإثني عشر ولم يكن أبو مسلم واحد منهم، بل ذهب إلى خراسان بعد نضج الثورة، وكان تابعا لنقيب النقباء سلمان الخزاعي، وأبو مسلم لم يكن بطلا شعبيا، وإنما مروغ سياسي أبرزته الروايات الفارسية، وهو يمثل نزعة انفصالية.

### ٣ - طبيعة حركة الزندقة:

لقد ربط الجاحظ ربطاً محكماً بين الشعوبية وبين هذه الحركة<sup>٣</sup>، في الوقت الذي تكلم فيه على العداء للإسلام والعرب يقول: إنك لم تر قوما أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه<sup>٤</sup>.

وهذا هو رأي الأصفهاني فعنده الشعوبية والزندقة مترادفتان، ومن يكره العروبة يكره الإسلام<sup>٥</sup>، والزندقة حركة فكرية اجتماعية منظمة تنتشر مذهب الماتوية بديلا عن التراث العربي الإسلامي، وهذا ما دعاه الخلفاء العباسيون الأوائل، فقد آثروا التمسك بمظاهر العروبة سياسياً وحضارياً ورأوا في مظاهر الثقافة الفارسية وعقائدها تهديداً للمجتمع والسلطة<sup>٦</sup>.

وهذا هو مغزى الرسالة التي ألفها يونس بن أبي فروة في قال العرب وعيوب الإسلام<sup>٧</sup>.

١ د - فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية ص ٢٢٩

٢ تاريخ الطبري، ط ١ ٦١

٣ البيان والتبيين، ج ٣، ص ١٤

٤ سميرة المشي: الزندقة والشعبية، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٤

٥ فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٢٦

٦ فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٢٧

٧ باقوت الحموي: إرشاد الأدب، ومعجم الأدباء، ج ٦

لقد تنبه الحلفاء العباسيون لخطورة هذه الحركة لذلك فقد أوصى أبو جعفر ابنه المهدي لقمعها، كما أوصى المهدي ابنه الهادي بذلك، وهذا ما تضمن قوله: رأيت جدك العباسي يقلدني سيفين، وأمرني بقتل أصحاب الإثنية، لذلك قال الهادي: لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة حتى لا أترك منها عينا تطرف<sup>1</sup>.

ولقد استثنى هارون الرشيد الزنادقة من العفو الذي أصدره سنة ١٧٩هـ بالنسبة للهاريين، بل لقد استمرت مطاردة الزندقة حتى العصور العباسية المتأخرة<sup>2</sup>.

ولقد ادعى بعضهم أن هدف هذه الحركة هو تعليم الثقافة العربية الإسلامية بثقافات جديدة، وهذا محض هراء، يقول في ذلك جب: وكانت أخطاء الشعوبية لا تكمن في دعاواها الوقحة ضد العرب بقدر ما تكمن في التشكيك الذي ولدته في نفوس الطبقات المتعلقة، وإن عنف هذه الدعوة اشتد فأصبح يعني أن المشاعر العدائية للعرب موضحة ضد الإسلام نفسه، والزندقة كالشعوبية ترى الإرث المانوي متفوق على التراث العربي الإسلامي.

#### ٤ - الشعوبية والعروبة

ظهرت الشعوبية في العصر الأموي متمسكة بمبدأ التسوية ضد الأرستقراطية العربية، ولكنها في العصر العباسي انحرفت عن خطها الأول عندما اعتنقت من الأرستقراطية الإيرانية خاصة التي تحف بالبلاط العباسي، وأصبحت ضد العروبة والإسلام.

وكما قلنا سابقاً، فالثورة العباسية لم تكن عنصرية، وقد أيقظت في نفوس الجماهير عرباً وغير عرب الآمال إلى غد مشرق، لكن ذلك أفسح المجال لانطلاق المشاعر الإيرانية القديمة المتأصلة فكان بعضها مسلماً مباشرة والآخر غير مباشر وغير مسلم.

والقضية المركزية في الصراع بين العروبة والشعوبية هو إنشاء المجتمع الجديد على أساس الثقافة وأساليب الحكم الإيرانية في حين

<sup>1</sup> فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٤٠  
<sup>2</sup> فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٤٠  
<sup>3</sup> فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٤٢

أن النظرة العربية ترى أن هذا الإنشاء على أساس الثقافة العربية، ومن ثم فهذه هي المسألة المركزية خلافا لما تدعيه الشعبية، وتبشّر به الأوهى التسوية، بدليل أن الذي طرح التسوية في العصر الأموي، هم الآخرين، ونحن نجد علماء وفقهاء عرب حملوا لواء ذلك.

وبذلك يمكن تحديد ظهور الشعبية باللحظة التي أسفرت عن وجهها العنصرية ضد الثقافة العربية.<sup>١</sup>

وقد تترسّت الشعبية بالعنصرية، فهم أبناء سارة (الجرة)، والعرب أبناء هاجر، وهم أيضا الصهب الشهب الأساورة والأكاسرة الجبابرة القياصرة.<sup>٢</sup>

أما النظرة العربية، فهي كما صورها الجاحظ: إن الموالي بالعرب أشبه وإليهم أقرب وبهم أحسن.<sup>٣</sup>

## ٥ - الخرمية

ولعلنا نجد مظهر هذه الثقافة الجديدة التي تدعو إليها الشعبية في دعوة الخرمية، فهي دعوة إلى المستنذ حسب وصف ابن الجوزي لها.

وهناك آراء كثيرة حول طبيعتها، وإن كان الأرجح هي أنها مزدكية جديدة تدعو إلى إباحة النساء، وهذا ما أكده المقدسي الذي زار بعض مناطقها، ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء، وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع.<sup>٤</sup>

وهذا ما أكده ابن الأثير والبغدادي بأن الرجل فيهم ينكح أمه وأخته وابنته، وهم يستحلون الميتة والخنزير.<sup>٥</sup>

١ دراسات في حضارة الإسلام ص ٩١، بيروت ١٩٦٤

٢ - فاروق عمر: المرجع السابق ص ١٥٧

٣ نوادر المخطوطات، قسم ٣ ص ٢٤٧

٤ ثلاث رسائل ص ٦

٥ إبليس ص ١٠٢ و ١٨٥

٦ كتابه البذر والتاريخ، ص ٣٠ ح ٥

٧ الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٨٤ والفرق بين الفرق ص ٨٥٣

والصفة الثانية هي اغتصاب الأملاك ثم الحلول والتناسخ<sup>١</sup>  
 أما الهدف وراء كل ذلك، فهو الحقد على الإسلام<sup>٢</sup>، وهذه الكراهية  
 ظهرت في الحوار الذي جرى بين بابك وتيوفيل إمبراطور الروم<sup>٣</sup>.  
 ولقد أدركت الدعوة العباسية هذه الظاهرة وأدخلت ذلك في برنامجها  
 وقبل ذلك فهمت هذه الظاهرة منذ العصر الأموي وها هو الخليفة  
 عمر بن الخطاب يقول لولائه في الفتح: من اعتصم من الحمراء  
 (الموالي)، فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم ما لهم، وعليهم ما  
 عليهم، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فأجعلوهم أسوة في  
 العطاء<sup>٤</sup>.

١ د - فاروق عمر: المرجع السابق ص ١٩١

٢ ابن التميمي القهرست ص ٤٤٩ المقرئ

٣ د. فاروق عمر: المرجع السابق، ص ١٩٤

٤ البلاذري: فتوح البلدان، مصر، ١٩٠١ هـ

## البحث الرابع

### العرب في الإسلام - في العصر العباسي الثاني

اضطلع المؤرخون على اعتبار هذا العصر يبتدئ بمقتل الخليفة العباسي المتوكل عام ٢٤٧هـ - على يد الجند الأتراك، وينتهي بسقوط بغداد عام ٦٥٦هـ - على يد هولوكو، ولعل هذا التحقيب انطلق من نقطة جوهرية، هي التغيير في ميزان القوى لصالح القوى الإسلامية على حساب القوى العربية.

صحيح أن العنصر الفارسي برز في هذا العصر واستطاع أن يؤسس الدولة الصفارية (ابتدأت من ٢٥٤هـ - ٢٩٠هـ) والدولة السامانية (امتدت من ٢٦١هـ - ٢٨٦هـ)، كما استطاع أن يدفع بني بويه لأن يقضوا على السلطة في بغداد للحقبة من ٢٣٤هـ - ٢٤٣هـ، ولكن دائرة القوة كانت في نهاية المطاف للعنصر التركي على يد الغزنويين والسلاجقة.

وبطبيعة الحال لا نقصد التاريخ لهذه الحقبة بقدر ما نبغي تسجيل خصائصها لجهة علاقة العروبة بالإسلام، وفي هذا الصدد نسجل الملاحظات الآتية:

- لقد أراد المعتصم ومثله معه الخلفاء السابقون أن يكون الأتراك وغيرهم آلة حرب في يد الخلافة، لكنهم أصبحوا هم - ومثلهم معهم المتسلطون أمثال بني بويه - الذين يملكون الخلافة ويتحكمون بالخلفاء، قال الشاعر:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا  
يقول ما قال له كما تقول الببغا

لذلك فقد أخذوا يضطرون مع الوزراء ومع بعضهم بعضاً على السلطة والمكاسب، الأمر الذي أدى إلى توالي الثورات في المنطقة المركزية (العراق)<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> مجلة المعرفة، المرحع السابق ص ٣٤٣

إن الثقافة هي المرآة التي ترى على صفحاتها العلاقة الدقيقة بين العروبة والإسلام في هذه الحقبة. لهذا سنركز على هذه الصورة، وهو الأمر الذي يدفعنا لتحديد المراكز الثقافية في العالم الإسلامي التي كان لها الدور الكبير في إنتاج الثقافة العربية الإسلامية، منوهين بأن الثقافة انتشرت في الحقبة المذكورة انتشار يدعو إلى الإعجاب بفضل الترجمة من الأجنبية (اليونانية - الفارسية - الهندية) إلى العربية، ونضج مكات المسلمين في البحث والتأليف وتشجيع الخلفاء والأمراء ورجال العلم، ثم اتساع أفق الفكر الإسلامي بارتحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وقيام وحدة دول استقلت عن الخلافة العباسية التي نشطت الحركة الفكرية، حيث زخر بلاط هذه الدول بالعلماء، إضافة إلى وجود الفرق الدينية والسياسية التي اتخذت الفكر وسيلة لتحقيق مآربها.

أما المراكز المذكورة فهي:

- ١- أصبهان والري، وخاصة على يد صاحب بن عباد الذي تقلد الوزارة لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة، وكان بلاط بني بويه كعبة يؤمها العلماء والأدباء.
- ٢- البلاط الساماني في بخارى وصفها الثعالبي بقوله: كانت بخارى في الدولة السامانية مقعد المجد وكعبة الملك ومجتمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء أرض وموسم فضلاء الدهر.
- ٣- بلاط شمس المعالي قابوس بن وشمكير في طبرستان الغربية من بحر قزوين، وقد وصفه الثعالبي بقوله: خاتم الملوك وغرة الزمان ينبوع العدل والإحسان.
- ٤- بلاط خوارزم في خبوة، وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثاني الذي الت إلى حكم محمود الغزنوي.
- ٥- بلاط محمود الغزنوي في غزنه.
- ٦- بلاط الحمدانيين في الموصل وحلب.

١ د. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٣، ص ٣١٣

٢ د. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٣٤



٧- بلاط الطولونيين والإخشيديين والفاطميين في مصر.

٨- بلاط الأمويين في قرطبة.

ولا شك أن بغداد هي الكعبة الأولى للثقافة في كافة مدييات الخلافة العباسية، ومع ذلك فلا أحد يستهين بأهمية المراكز العربية الإسلامية في إنتاج الثقافة العربية الإسلامية، كما يتضح من التعداد السابق، مذكرين بملاحظة جاءت على لسان ابن خلدون: (إن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم)، بل إن هنالك حديثاً ينسب إلى الرسول ﷺ يقول: لو تعلق العلم بأعناق الإسلام لناله قوم من فارس<sup>١</sup>.

ونحن نضع تحفظنا على هذا القول، إذ أنه يصدق على الحال الإسلامية المبكرة حيث كان العرب ينصرفون إلى السياسة، لكنهم فيما بعد تفاعلوا وامتزجوا بالأرض حتى القبائل منهم مارسوا الزراعة والصناعة وبرز إنتاجهم الواضح للعلم كما سنحدد.

- كانت اللغة العربية هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين باعتبارها لغة القرآن والحديث في هذه الدار الواسعة إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد في القرن السابع الهجري<sup>٢</sup>.

ولقد ساعد على انتشارها خصائصها ونظامها اللساني الدقيق وغناها بالمفردات والاشتقاق، وهكذا فقد أصبحت اللغة الأولى للمعرفة والثقافة خلال ثمانية قرون ذلك أن صفة عربي تنطبق على تلك الإثنية التي كانت متمركزة في شبه الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام وأنبثق الظاهرة القرآنية، ثم حصلت الفتوحات فساهمت في انتشار العرب خارج الجزيرة العربية، ولكنها ساهمت أيضاً وبشكل خاص في الرفع من شأن العربية لغة القرآن، لكي تصبح لغة حضارة كاملة، وحتى بدايات القرن الحادي عشر كان جميع الدين اعتنقوا الإسلام وكل من يعيشون داخل مملكة الإسلام من غير المسلمين يستخدمون اللغة العربية عندما يتعلق الأمر بالتأليف ونشر المعرفة،

١ المقدمة، ص ٢٧٠

٢ مجلة المعرفة ص ٣٦٥

٣ حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق ج٢ ص ٣٢٠

٤ مجلة المعرفة ص ٣٨٣

هكذا كان الإيرانيون والأثراك والبربر والأكراد والأقباط والأندلسيون والهنود واليهود والمسيحيون والزراداشتيون والمناويون، يكتبون بالعربية لكي يحق لهم الدخول إلى جامعة المفكرين والعلماء، وهكذا تشكلت في اللغة العربية تيولوجية يهودية ومسيحية (لاهونار)، تماما كما تشكل علم كلام إسلامي، أما في مجال الفلسفة والعلوم، فإن الوحدة بينهم كانت أكثر شمولية وكلية، والاعتراض عليها أقل، ليس فيما يخص استخدام اللغة العربية فقط، وإنما فيما يخص أدوات الفكر والجهاز المفهومي أو المصطلحي، وبالتالي فإن مفهوم النزعة الإنسانية العربية يفرض نفسه داخل هذا المنظور اللغوي، والمصطلحي تماما كما تفرض الثقافة التي تستخدم اللغة الإنكليزية نفسها في عالم اليوم<sup>1</sup>.

لقد دفع العرب بادئ ذي بدء العجم والمولدين إلى العلم لأنهم كانوا يستنكفون على الصنائع والعلوم، لكنهم كانوا يرون أن لهم حق القيام به، فهو دينهم وعلومهم، ولا يحتقرون حاملها، حتى إذا خرج الأمر من العرب، فصار للعجم صارت العلوم الشرعية عربية النسب عند أهل الملك، بما هم عليهم من البعد عن نسبها امتهان حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم مشغولون عما يجدي عليهم في الملك والسياسة<sup>2</sup>.

وهذه الملاحظة لابن خلدون ذات مغزى كبير، إذ أن العرب رغم اشتغالهم في السياسة اعتبروا العلم جزءا من كيان الدولة لهذا فقد نسب العلم الشرعي إليهم، خلافا لغيرهم من الحكام المسلمين.

- على ضوء الملاحظة الأخيرة تم تقسيم العلوم إلى قسمين<sup>3</sup>:

أ- ما اتصل بالقرآن وسموها العلوم النقلية أو الشرعية.

ب- العلوم الأخرى وقد ألقوا عليها اسم العجمية أو العقلية والحكمية، وهذا يعني أن العرب هم الحاملة في المقام الأول لهذه العلوم، لأنها أكثر تعبيراً عن جوهر الشريعة، ومن ثم فقد نسبت إليهم حسب ملاحظة ابن خلدون.

<sup>1</sup> محمد أركون: معارك من أجل الانسنة في السياقات الإنسانية، بيروت ط ١، ٢٠٠١ ص ٥٣

<sup>2</sup> ابن خلدون ص ٢٧٠

<sup>3</sup> د- حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق ج ٣ ص ٣٣٩

ومما له دلالة في هذا المقام الوصف الذي تناول فيه  
البغدادي أهل السنة، وهو وإن كان ذو سمة مذهبية دينية إلا  
أنه يلقي ضوءاً ما على دور العرب في الالتفاف حول العلوم  
الدينية واعتبارها محور العلوم، في نظر المذكور.

— فريق أحاط بأكثر أبواب النحو والتصريف.

— قراءات القرآن ووجوب تفسير آيات وتأويلها.

— المرابطون في ثغور المسلمين.

— عامة البلدان.

لقد تميزت الدار الإسلامية على عهد الدولة العباسية بسمة  
العلم، الأمر الذي لا يرقى إليه مجتمع في تاريخ البشرية حتى الدول  
الأوربية وفي ذلك يقول نيكلسون: كان لانبساط رقعة الدولة العباسية  
ووفرة ثروتها ورواج تجارتها، أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم  
يشهدها الشرق من قبل حتى لقد بدا أن الناس جميعاً من الخليفة إلى  
أقل أفراد العامة شأناً غدوا فجأة خلائاً للعلم، أو على الأقل أنصاراً  
للاداب، فقد كان الناس آنذاك يجوبون ثلاث قارات سعياً إلى موارد  
العلم والعرفان، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جميع  
التلاميذ المتلهفين، ثم يصفون ما بذلوه من جهد، فيفضل هذه  
المصنفات التي هي أشبه بدوائر المعارف، والتي كان لها أكثر الفضل  
في اتصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة<sup>١</sup>.

— وإذا كانت هذه هي السمات العامة للمجتمع الإسلامي المحمول  
على العلم فهنالك خصائص للعرب انفردوا بها وهي:

أ- لقد كان هذا الدين كل شيء بالنسبة للعرب، لذلك فقد أعطوه  
كل شيء وهذا ما يتضح من قول المغيرة بن شعبه إلى القائد  
الفارسي إبان معركة القادسية، المتضمن: لقد أصبحنا  
أصحاب رسالة.

وهذا ما أكدته نولدكه بتأييده أنه لم يعد هناك عربي إلا دافع  
دفاع المخلصين في الذود عن هذا الدين الجديد. فقد كان

<sup>١</sup> د. حسن إبراهيم حسن، ج ٢، ص ٣٢٢  
<sup>٢</sup> د. حسن إبراهيم حسن، ج ١، ص ١٩٧

تأثير الإسلام جذرياً في حياة أمتنا، وهكذا فقد تخلوا عن الشيء الكثير من قيمهم وعاداتهم رغم شدة تمسكهم بها، وخلافاً للشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام، وهذا يفسر كيف استطاع العرب نشر دينهم في جميع الرُبوع والأرجاء.

تروي لنا الموارد التاريخية شدة تعلق المسلمين بحديث الرسول ﷺ إذ كان كل شخص حريص على الذهاب إلى مجلسه وإذا لم يستطع ذلك أناب عنه رجل، ثم يذهب إليه ليتفهم منه<sup>1</sup>.

ويمكننا أن نضرب مثلاً بسيطاً على ذلك في الأعياد، فقد كان العرب في العهد الأموي والعباسي يحتفلون بعيد الفطر والأضحى احتفالاً يبلغ حد الروعة والأبهة، في حين أن الفرس بقوا يحتفلون بأعيادهم القومية ألا وهي النور والمهرجان وأرام<sup>2</sup>.

ب- يمكن الحديث في هذا العصر عن أدب عربي وفلسفة إسلامية<sup>3</sup>، لأن الأدب والشعر ألصق الأشياء بوجودان الأمة وهويتها، أما الفلسفة فهي التعبير عن عقلها، والعرب بقوا متمسكين بأديهم لاسيما أن الشعر هو المرجع لتفسير القرآن، وفي ذلك يقول ابن عباس: إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي<sup>4</sup>.

ج- لهذا السبب ولبيان فضل الشعر عند العرب<sup>5</sup>، فقد كان الأدب والشعر الثقافة الثانية للعرب بعد القرآن والإسلام<sup>6</sup>.

هذه الأهمية للأدب العربي جعل روايته شفاهاً وإنتاجه لم يغير خلال كافة الأعصر، وهكذا ظهرت في هذه الحقبة آليات أمثال كتاب الأغاني، فقد بلغت مجلداته واحداً وعشرين مجلداً ضمننت أخبار

1 هذا الكلام لـ: تولدك، نقله د. حسن إبراهيم حسن، ج ١، ص ١٩٧

2 د. حسن إبراهيم حسن، ج ٢، ص ٤٣٦ وما بعدها

3 مجلة المعرفة، ص ٣٥٢

4 د. حسن إبراهيم حسن، ج ١، ص ٣٢٦

5 حديث شريف: إن من البيان لسحرا

6 مجلة المعرفة ص ٣٨٦

الأدباء والحياة الاجتماعية والسياسية، وقد كان هذا الكتاب موضع اهتمام خزانن الكتب في المشرق والمغرب<sup>1</sup>.

- وفي هذا العصر ظهرت القصص الشعبية البطولية (عنترة- الأميرة ذات الهمة- تغريبة بني هلال- الملك الظاهر- علي الزبيق) وهذه القصص تعكس الام الجماعات الشعبية<sup>2</sup>.

- لقد تكونت في القرن الرابع نواة ألف ليلة، حيث طرأ عليها التعديل والزيادة إلى أن أخذت شكلها الأخير في العصر المملوكي .

وفي الأندلس ظهر كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، كما ظهر كتاب طوق الحمامة لابن حزم الظاهري ذلك الكتاب الذي ترجم إلى عدة لغات<sup>3</sup>.

وقد ظهر في هذا العصر أيضاً الموشحات والزجل على يد ابن قزمان.

وكان لأهمية الأدب العربي، وقيمته الإنسانية أن رواه ترجمت إلى عدة لغات، نذكر على سبيل المثال قضية مجنون ليلى التي ترجمت إلى الفارسية والتي كتب نثرًا وشعراً، حيث نرى صوراً تصور زيارة المجنون للكعبة، ودعائه عندها لعل الله يشفيه<sup>4</sup>.

ولقد نسجت عدة قصص على منوال قصة مجنون ليلى من ذلك قصة بياض ورياض في الأندلس، ولقد وصل إلينا مخطوط من القرن التاسع عن حبيبين ماتا في قريتين متجاورتين وقامت نحلة بين القريتين لجمعهما<sup>5</sup>.

ولعل ما فعله الجهشيارى من نقل قصص الحب عن الفارسية والهندية وأضاف إليها وكون من ذلك أربعمئة ليلة سمر .

1  
2  
3  
4  
5  
6  
7  
8  
9  
10  
11  
12  
13  
14  
15  
16  
17  
18  
19  
20  
21  
22  
23  
24  
25  
26  
27  
28  
29  
30  
31  
32  
33  
34  
35  
36  
37  
38  
39  
40  
41  
42  
43  
44  
45  
46  
47  
48  
49  
50  
51  
52  
53  
54  
55  
56  
57  
58  
59  
60  
61  
62  
63  
64  
65  
66  
67  
68  
69  
70  
71  
72  
73  
74  
75  
76  
77  
78  
79  
80  
81  
82  
83  
84  
85  
86  
87  
88  
89  
90  
91  
92  
93  
94  
95  
96  
97  
98  
99  
100

- ويعتبر القرن العاشر قرن الجغرافيا العربية، ولعل أبرز خرائط القرن التاسع خارطة الاصطخرلي شمالي إفريقيا وإسبانيا، وخارطة ابن حوقل لغربي آسيا.

ورسمت خريطة سميت الصورة المأمونية ذكرها المسعودي أنها أكثر دقة من خارطة بطليموس<sup>١</sup>، أضف إلى ذلك خارطة الإدريسي للعالم.

وصنفوا المعاجم الجغرافية مثل كتاب ياقوت الحموي والموسوعات (مسلك الأنصار للعمري) وعجائب البلدان للقزويني.

- واهتمت الثقافة العربية بالتاريخ، وما أمة صرفت جهدها عليه أكثر من الأمة العربية، حيث صنفوا ما يزيد عن عشرين ألف كتاب، ومن أشهر المؤرخين المسعودي ٣٤٦هـ والمؤلف الموسوعي ابن الأثير ٦٣٠هـ صاحب الكامل في التاريخ، والذهبي ١٣٥٩هـ صاحب تاريخ الإسلام والمقرئزي (١٤٤٩م) مؤرخ مصر الشهير وابن حيان مؤرخ الأندلس (١٠٧٠م)، ولسان الدين الخطيب (ت - ١٣٧٤).

ولقد تناولت كتبهم جميع ألوان التاريخ في التاريخ السياسي والسير والتراجم والمسائل الحضارية إلى الظواهر السوسيوولوجية والاقتصادية، وأهم هؤلاء ابن خلدون (ت ١٤٠٦م).

لكن السؤال الأهم هو ما إذا كان أنصار العرب سياسياً لم يستتبعه انحسار ثقافي، بمعنى أن العرب بقوا هم الكتلة التاريخية الثقافية، بل المهده والاسمنت الثقافي.

أجل إن كل حضارة لاسيما إذا كانت جامعة تتميز بألوان ثقافية، لكن في نواة تلك الألوان، هنالك ثقافة اللبالب التي تتولى الاتساق بين الألوان الأخرى، أو بمعنى أوضح هي جهاز المناعة الأنتيبوتيك الذي يتولى الصد عن الهجمات ضد الثقافات الغازية، على هذا السؤال الأخير، تؤكد بهجة المعرفة بأن التصدع السياسي للإمبراطورية لم يؤثر أي تأثير على نشاطات الحضارة العربية الإسلامية التي بلغت

١ مجلة المعرفة ص ٣٩١

٢ مجلة المعرفة ص ٣٩١

٣ فيليب حقي: تاريخ العرب، ص ٣١٢، ومجلة المعرفة، ص ٣٩٢

٤ فيليب حقي: ص ٣٩٢

٥ فيليب حقي: ص ٣٩٢

أوجها في القرنين التاسع والعاشر، ولا على تزايد الوحدة بين أقاليمها فنا واقتصادا وثقافة رغم توزع الحركة الحضارية على الأقاليم بعد التمرکز ببغداد<sup>1</sup>.

ذلك أن الخط البياني للسياسة لا يتفق مع الخط البياني الثقافي الذي ينشأ ويتخلق ببطء، لهذا لا نستغرب أن العرب بقوا يقبضون على القوة الثقافية، في الحين الذي افتقدوا السلطان والصولجان، وقريب من ذلك ما أكده الدكتور فيليب حتى بأن العرب فقدوا سيادتهم العلمية في مطلع القرن الثالث عشر تلك السيادة التي تمتعوا بها منذ القرن الثامن<sup>2</sup>.

- ويزيد الدكتور حتى المقولة السابقة تأكيدا بأنه لم يبق للعرب مكانة في العلم بعد منتصف القرن الثالث عشر إلا في فرعين: العلوم الفلكية الرياضية، ومنها علم المثلثات وعلم الطب لاسيما طب العيون.

- ولقد استمر عصر التعريب حوالي ثلاثة قرون كان أولها بين أواسط القرن الثاني والثالث للهجرة، وكان حصاد ذلك دخول علوم الأوائل كلها بما فيها من غث وThin إلى اللغة العربية وتحول الثقافة العربية الإسلامية بالتدرج إلى ثقافة متعددة العناصر.

لكن حركة التعريب كانت تجربة من أخصب التجارب الإنسانية الثقافية، تمكنت اللغة العربية أن تغني بالمصطلحات وطرق التعبير الفلسفي والعلمي<sup>3</sup>.

- هذا غيض من فيض من دور العرب في المجال الثقافي منوهين بأننا لا نؤرخ لهذه المسألة بقدر ما نشير إشارة عابرة إلى موقعه العرب في هذا المضمار والدور الذي لعبه في دار الإسلام، وإن تفكك هذه الدار تم عندما تخلى العرب عن ذلك.

1 الخلد 3/ ص 342

2 تاريخ العرب ص 773

3 تاريخ العرب ص 777

4 مجلة المعرفة ص 397



- وبلورة لهذا الدور العربي تطوف جولة سريعة حول الدور التجاري الذي لعبوه بفضل موقعهم الجغرافي الذي كان كعبة العالم ونواته وسرته، حيث قاموا بتعبيد الطرق البرية وتأمين الطرق البحرية لذلك، كانت بغداد المركز التجاري العالمي آسيا الصغرى سوريا وبلاد العرب ومصر<sup>١</sup>.

هكذا كانت القوافل تأتي من آسيا الوسطى مارة ببخاري، وكانت سفن العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط من مياه أنطاكية شرقاً إلى جبل طارق بسنة وثلثين يوماً.

ويتضح من رحلات السنبداد البحري التي وردت في كتاب ألف ليلة وليلة والتي ترجع إلى عهد هارون الرشيد أن العرب قاموا برحلات بحرية تبدأ من بغداد وتسير في الخليج الفارسي حتى تصل إلى جزيرة الملايو، حيث كانوا يجلبون توابل الهند وعطورها وحرير الصين، وقد وصلوا هذه البلد في القرن الثاني الهجري حيث فتح لهم ميناء كانتوف كما جاوزوا جزيرة سيلان<sup>٢</sup>.

ولقد وضع ابن خرداذبة في القرن الثالث الهجري دليلاً للمسافرين وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ من مصب دجلة إلى بلاد الهند والصين<sup>٣</sup>.

وفي أواخر القرن الثاني الهجري استقروا في ميناء جالقو إلى الجنوب من مدينة شنغهاي.

وفتح لهم سوق تجارية مع الهند الصينية يجلبون منه الكافور والقرنفل والصندل ولقد لاقوا عظفاً من ملوك الهند، وإن جماعة من أمراء ملبار اعتنقوا الإسلام وسمحوا بإقامة مساجد، وأنشئوا جاليات عربية في الهند، كما أن جيوش العرب احتلت في الثامن الميلادية بلاد السند وكان من أثر ذلك نمو التجارة مع الملتان والديبل، فكانت السفن تنطلق من عدن إلى كافة أنحاء آسيا وإفريقيا الشرقية، حيث سيطروا على المنطقة من مصب نهر السند وكان هنالك طريق

١ حسن إبراهيم حسن

٢ حسن إبراهيم حسن ص ٣١٤

٣ حسن إبراهيم حسن ص ٣١٤



تجاري يسير من تلك المنطقة إلى داخل فارس ماراً بولاية سجستان<sup>١</sup>.

وكانت قوافل التجارة تنقل البضائع عبر هضاب أفغانستان إلى كابل وغزنة ومن هنالك تسير نحو خراسان وبخارى.

وكان التاجر يصل إلى الصين بعد أن يعبر نهر سيحون شرقاً عبر قبيلة التفر أهم قبائل الترك.

ويقول صاحب كتاب حضارة الإسلام إنه في دار الإسلام كانت البضاعة تأتي من الهند وخراسان وكرمان وكشمير والصين واليمن وفارس والهند والسند وسمر ندين وبلاد الروم والشام وروسيا، لتصب كلها في بغداد<sup>٢</sup>.

- إن المسلمين في أواخر القرن السابع الميلادي كانوا يعتبرون أنفسهم حملة حضارة عالمية، وليس مجرد إقامة ترابط حضاري عن طريق الجمع بين المجتمعات الدينية واللغوية في إطار هوية عرقية دينية واحدة متسامين في البداية عن كل الهويات الأخرى ليحلوا في النهاية محلها، ولأن المسلمين فضلوا الخيار الثاني وهو تحول الإسلام إلى حضارة عالمية، وثم يبق مجرد دين عرقي محدد النظرة<sup>٣</sup>.

أجل كان لهذه الأمة مشروعها الكوني، وهو الإسلام، وكان هو مسوغ نشأتها، وعلى الأرجح ما كان ممكناً ولادة هذه الأمة وتطورها لولا ذلك المشروع الكوني الذي دفعها على الدوام إلى تجاوز نفسها.

وما كان ممكناً للعرب أن يكونوا أصحاب دعوة وأن يستأثروا في الوقت نفسه بالأمر لأنفسهم دون غيرهم، وبالتالي ما كان ممكناً استبعاد الشعوب الأخرى، أو جعلها دونهم مرتبة.

١ حسن إبراهيم حسن ص ٣١٧

٢ حسن إبراهيم حسن ص ٣١٧

٣ حسن إبراهيم حسن، ص ٣١٨

٤ ريتشارد آبتون: الحضارة الإسلامية والتاريخ العالمي: مجلة الاتحاد العدنان ٢٦ و ٢٧ لعام ١٩٩٥

ص ١٨٩

لقد حكم عليهم منطق الدعوة أن يندمجوا مع الآخرين وأن يندمجوا  
الآخرين معهم في مجتمع موحد هو الأمة، وبسبب الدعوة التي  
حملها العرب حققوا مجتمعا كان نتيجة لعملية دمج واسعة النطاق ما  
شهد تاريخ البشرية مثيلا لها.

وسنحاول هنا تلمس مدى تعاون الشعوب الإسلامية الأخرى مع  
العرب حول هذه الفكرة، وحق علينا التأكيد من خلال استقرائنا لهذه  
الظاهرة ومن خلال الحدث التاريخي، بأن الحراك الحضاري الضخم  
الذي تم على صعيد دار الإسلام إنما حدث عندما تم التعاون بين  
هذين القطبين، ونحن لا ننكر أولا خرق العرب أنفسهم لهذا القانون،  
وفي الوقت نفسه لا ننكر أن القطب الإسلامي قدم إنجازات رائعة  
 وجهود في هذا المضمار، إلا أننا نؤكد أن الحلقة الأهم في تلك  
المنظومة كانت هي الحلقة العربية التي كانت حريصة على خلق  
الإنسان في جسد المنظومة، وهذا موضوع بحثنا المقبل.

## الفرع الأول : دور المسلمين في ترسيخ الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي الثاني

### - الانتصار والانكسار -

يصعب علينا تحديد ملامح هذه الصورة العظيمة، إذ في حال التفصيل  
سيتحول موضوعنا إلى بحث تاريخي، ولهذا فستختار أهم ما أبدع في  
المراكز الحضارية الإسلامية التي سبق الإشارة إليها دون المراكز  
العربية التي لا تحتاج إلى بيان:

▪ ملكشاة السلجوقي (٤٨٥ - ٤٨٧هـ): فقد ألف بالعربية  
على عهده الزمخشري في التفسير (اللغة وأصول الدين)  
والإمام أبو حامد الغزالي في علم الكلام والقشيري في العلوم  
والزوزوني في اللغة والتبريزي والجواليقي والميداني مؤلف  
الأمثال، ومن الشعراء الأيبوردي والطبراني صاحب لامية  
العرب، وفي النثر الحريري صاحب المقامات، ومن المؤرخين  
ابن فندة مؤرخ أصفهان ومن الجغرافيين أبو زيد البلخي .

<sup>١</sup> الفضل شلق: الانحطاط في العالم، مشروع الأمة غير قومية، مجلة الاجتهاد العددان ٢٦ و ٢٧ لعام  
٩٩٩ ص ١٠ و ١١  
د. حسن إبراهيم حسن ج ٤ ص ٣٦

هذا ما تم على عهد سلطان واحد من سلاطين السلاجقة، فكيف إذا تتبعنا ما حدث لدى بقية السلاطين أو ما حدث لدى البلاطات الأخرى: الطاهريون - الصفاريون - السامانيون - الغزنويون - البويهيون - والسلاجقة الخ...

- لقد كان للعصر الإسلامي دور كبير في نشر الإسلام، ويمكننا أن نضرب مثلاً على ذلك في محمود الغزنوي، فقد كان داعياً للإسلام، حتى أن بعضهم اعتبره بعد فتح البنجاب سلطاناً هندياً خالصاً، حيث أسس أسرة حاكمة، وقد مهدت هذه الأسرة السبيل أمام محمد بن سام الغوري وخلفائه الذين تولوا سلطة دلهي ونشروا نفوذ المسلمين في أرجاء بلاد الهند الشمالية.

وعلى عهد الغزنويين ظهر علماء كثر كالمؤرخ العربي العيني وأبو الريحان البيروني والفردوسي<sup>١</sup>، والأمر نفسه بالنسبة للسامانيين (٩٩٩هـ) فقد أسسوا أسرة حاكمة فارسية، وعلى عهدهم تم تدويخ ما وراء النهر نهائياً وكانت بخارى عاصمتهم، وسمرقند سيدة مدنهم، ولقد ارتقت الدراسات العربية في مملكتهم، إذ على عهدهم قدم الرازي كتابه الطبي المعروف بالمنظور نسبة إلى أحد أمراء بني سامان، كذلك فقد استدعى ابن الأمير الساماني فرج الثاني ابن سينا إلى بلاطه.

- إن الطبقة الحاكمة الإسلامية التي حكمت المجتمع العربي أنتجت ثقافة خاصة بها، لكن هذه الثقافة كانت عربية يصدق ذلك على الأتابكة والأيوبيين والمماليك، ومثلهم الطولونيين والإخشيديين إضافة إلى البرابرة كالمرابطين والموحدين.

ومع هذا الدور الذي لعبه المسلمون في الحضارة العربية الإسلامية إلا أنه يمكننا أن نسجل على ثقافتهم الملاحظات الآتية: - لوحظ على المراكز الثقافية الإسلامية اتعاش الثقافات غير العربية وعلى رأس ذلك الفارسية، ولقد ظهر ذلك بادئ ذي بدء لدى الدول السامانية.

<sup>١</sup> ابن خلكان، ج ٢، ص ٨٤، و د. حسن إبراهيم حسن، ج ٣، ص ٨٩  
<sup>٢</sup> د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ١٢٢، و حتى ٤٠٠  
<sup>٣</sup> قلب حتى، ص ٥٣٨

فقد انتعش الأدب الفارسي على يد الفردوسي (٩٣٤-١٠٢٠م)، حيث وضع أول إشعاره الفارسية وفي هذا العصر نقل البلعمي وزير المنظور الأول (٩٦١ - ٩٧٦) مختصر تاريخ الطبري إلى الفارسية وكان الفرس من الفتح الإسلامي، قد درجوا على استعمال اللغة العربية، لكن على يد هذين الكاتبين أخذ الأدب الفارسي يسير نحو التقدم<sup>١</sup>.

ولعل القارئ يجد الفارق الكبير بين إمارة عربية مستقلة كالدولة الحمدانية، وبين الإمارات التي أسسها أتراك أو فرس، نجد الفارق في صيغته الثقافية لجهة إحياء العربية، نذكر على سبيل المثال ظهور الفيلسوف الموسيقار الفارابي والأصفهاني مؤرخ الأدب وصاحب كتاب الأغاني، والشاعر المتنبي وخطيب البلاط ابن نباتة<sup>٢</sup>.

والأغرب من ذلك أن بلاط محمود الغزنوي - وهو التركي - ازدهر بالفارسية، نجد ذلك في تغريبة الفردوسي صاحب الشاه نامه التي تقوم على ستين ألف بيت<sup>٣</sup>.

والأمر نفسه نجده في بلاط ملكشاه السلجوقي، فقد كان وزيره الألمعي نظام الملك الذي وضع كتاب سياسة نامه (أصول الحكم)، كذلك برز ناصر خسرو (ت ١٠٧٤ الرحالة الشهير)، وكذلك كتب الشاعر الفلكي عمر الخيام الذي شمله نظام الملك برعايته<sup>٤</sup>.

الملاحظة الجديرة بالاهتمام هي أن الثقافة العربية الإسلامية التي حمل مشاكلها العرب امتازت بالسمة العقلية خلافاً للثقافة المراكز الإسلامية، فالذي يبدو بارزاً في دائرة التصوف، وفي طرق الدراويش التي كانت مزدهرة في بلاد الترك، حيث من أهل هذه الطرق آراء تمثل السامانية القديمة المختلطة ببعض معتقدات آسيا الصغرى، وتعاليم بعض النصرانية<sup>٥</sup>.

ونجد هذه السمة في الدويلات التي أسسها غير العرب في المجتمع العربي، وأبعد من ذلك فهناك صدام دام على عهد الدولة العثمانية - بين الطرق الصوفية التركية المولوية - البكباشية والطرق الصوفية

- ١ حتى، ص ٥٣٨
- ٢ حتى، ص ٥٣٣
- ٣ حتى، ص ٥٤٠
- ٤ حتى، ص ٥٥٢
- ٥ حتى، ص ٥٥٩

المنتشرة في الولايات المنتشرة العربية كالرفاعية- الشاذلية-  
النقشبندية.

وهذه الملاحظة تنصرف إلى معاملة أهل الذمة، وإن مقارنة بسيطة  
بين ما يتمتع به هؤلاء لاسيما في العهد الأموي (في دمشق  
والأندلس)، يتضح له مصداق ذلك إذا ما قورن الأمر بعهد الموحدين  
أو المرابطين أو المماليك أو الأتراك العثمانيين.

ويؤكد الدكتور حتى أن سبب عدم امتداد حكم الطولونيين  
والإخشيديين (أصول تركية) أن دولهم لم ترتكز على أساس قومي،  
لذلك لم تعش طويلاً.

- لقد اختلط العرق العربي الفاتح على مر الأجيال بالعرق  
المغلوب فنجم عن ذلك فقدان صوله الغالب والصفات التي  
خولته السيادة، وباتحطاط الروح القومية بين العرب ضعفت  
أنفسهم وقواهم المعنوية.

- ومن الناحية الاجتماعية فقد ازدادت البنى الاجتماعية تعقيداً  
واختلاطاً، فقد قدمت مجموعات الجيش الفاطمي من المغرب  
(ومعظمها من قبائل البربر)، وقدمت من المشرق جموع  
الترك، هكذا تكون من المجتمع مجتمع إسلامي توحدته العقيدة  
الدينية ويتكلم معظمه العربية.

ولقد كان العرب البدو يخرجون أيضاً من الجزيرة العربية ليجدوا لهم  
مكناً في المجتمع العربي الإسلامي الأكثر رخاء (الهجرة الهلالية)،  
إلا أن هذه الهجرة توقفت بعد الحروب الصليبية، والنتيجة أن الأتراك  
والسلاجقة والأتابكة وبعدهم المماليك أصبحوا هم الطبقة العسكرية.

ما نتيجة ذلك من الناحية الفكرية؟؟ لقد قلنا سابقاً إن العرب  
استطاعوا أن يعطوا التراث الإسلامي السمة العقلية، ولقد أوضحنا

- 1 حتى، ص ٣٩٦
- 2 حتى، ص ٥٨٧ و ٦٢٥
- 3 حتى، ص ٥٢٩
- 4 حتى، ص ٥٦٢
- 5 بحجة المعرفة ج ٤ ص ٢٢
- 6 بحجة المعرفة ج ٣ ص ٣٦٥

سابقاً دور الأتراك والفرس وترسيخ حركة الزهد والتصوف والاعتكاف وغير ذلك.

ويعود الفضل للدكتور محمد عايد الجابري في سبر منظومة القيم الإسلامية، وبيان أهميتها وطبيعتها الذاتية، إذ في نظره إن المروءة هي النواة النووية في نسق القيم المعرفية، وهذه المروءة تعني كمال الرجولة، يوازي هذه القيمة العمل الصالح في الإسلام الذي يقوم على البر والتقوى.

وإذا كنا قد أخذنا عن العروبة أخلاقيات المروءة وعن الإسلام أخلاقيات التقوى فإننا في العصر العباسي الأول بدأنا نأخذ أخلاقيات الطاعة المأخوذة من الأدب السياسي الفارسي (كتاب كليلة ودمنة والأدب الصغير والكبير لابن المقفع، وغيره)، كذلك فقد أخذنا أخلاق السوق - وهي قيمة فردية - من المجتمع اليوناني، وأخيراً استوردنا أخلاق الفناء القائمة على تطهير نفس الفرد بصفته فرداً معزولاً عن المجتمع.

واستطرداً فالدكتور الجابري يؤكد أن تلك القيم المستوردة، لم تندمج في ثقافتنا، بل بقيت عالقة بها، وهكذا فقد أصبحنا نتخبط قيمياً منتهياً للقول بأن العروبة هي: المروءة والعمل الصالح.

أجل سبق لنا التعرض لحديث الرسول ﷺ بأن المروءة هي دين العرب وقوله: من لا مروءة له لا دين له، كما سبق لنا القول إن العرب امتزجوا مع بقية الشعوب الإسلامية، ومارسوا معهم الزراعة والتجارة والصنائع مما أفقدهم الكثير من روحهم المعنوية، ولعل هذا هو استشراف سيدنا عمر، حيث كان يضع العرب الفاتحين المحاربين في مصكرات لا تختلط مع السكان حفاظاً على روحهم المعنوية.

لكن الذي حدا بالعرب أيضاً إلى هذه المنظومة من القيم أنهم لم يعتبروا الترك أو الفرس أو السلاجقة أو البويهيين وغيرهم غرباء عنهم، بل اندمجوا تحت راية الإسلام في بوتقة واحدة.

ولكن أسنا نقوم بتكسير البيض عندما نريد أن نصنع العجة؟؟ هذه الضريبة الفادحة التي دفعها العرب على يد الإخوة سترداد فدادحة إذا ما تابعتنا عرض الصورة المزرية..

<sup>1</sup> إعادة توحيد مصر والشام والحجاز

لقد حمل العرب راية التوحيد والوحدانية الصافية التي بشر بها إبراهيم الخليل وقد نقشوا لذلك الآيات التي تتحدث عن ذلك على الجدران المحيطة بقبة الصخرة، وتحولت الحضارة الإسلامية على يدهم إلى حضارة عالمية<sup>١</sup>.

ولكن هذه المنظومة التوحيدية تلقت الضربات الموجعة كان أهمها تدمير هولانكو لبغداد عام ٦٥٦هـ، فقد تمزقت الوحدة السياسية التي تشمل العالم الإسلامي باسم الخلافة، وانقسمت إلى ثلاث مجموعات ثقافية لغوية...

وبيان ذلك أن النهضة التي عرفتها اللغة الفارسية في العهد السلجوقي انتهت في الأيام المغولية بإزاحة اللغة العربية نهائياً من إيران كلها، وحصرها في المجال الديني وعودة الفارسية لتصبح لغة العمل والسياسة والأدب.

كذلك فقد سادت اللغة التركية في ما وراء النهر كما نشأت في الأناضول تدريجياً مجموعة لغوية تركية هي نواة تركيا الحالية<sup>٢</sup>.

وأما المناطق الباقية فقد سادت فيها اللغة العربية، وإن ظلت البربرية لغة المنزل في بعض بقاع المغرب<sup>٣</sup>.

لقد بقي العرب متمسكون في الخلافة رغم ضعفها حتى آخر رفق في حياتهم، كذلك فبعد سقوط بغداد، قامت محاولة من المماليك - وبسبب شعورهم أنهم معتمدون على الحكم ولا شرعية تسندهم لإعادة مجد الخلافة إلا بإرضاء للعرب، لذلك فقد أسرع الظاهر بيبرس (١٣٦٠هـ - ١٢٧٧هـ) باستقبال أحد الأمراء العباسيين في القاهرة بصفته خليفة، وأخذ منه التقليد بالحكم والسلطنة.

وإذا كانت هذه الخلافة شكلية إلا أن العرب التفوا حولها، وأيدوا السلاطين، وكان لهذه الخلافة دور معنوي، في الأمور الآتية<sup>٤</sup>:

<sup>١</sup> طرد المغول الألبختين المتمركزين في إيران وبلاد الشام ص ٨٩٨

<sup>٢</sup> طرد الصليبيين من بلاد الشام

<sup>٣</sup> مقاله الموسوم بعنوان: نظام القيم في الثقافة العربية الإسلامية، مجلة المستقبل العربي ٢١٩، ١٩٧٧

<sup>٤</sup> ص ٨ وما بعدها

مقال ريتشارد ابوي السالفة الذكر، مجلة الاجتهاد ص ١٨٩



- وإذا كان المغول قاموا بتفكيك دار الإسلام وخرّبوا ركناً هاماً فيه هو الوحدة السياسية واللغوية إلا أن أقرباءهم الترك العثمانيين، كانوا أهم آخر حماة الدين الإسلامي .
- وعلى هذا العهد تسجل الملاحظات البسيطة الآتية:
- في الوقت الذي كان فيه الأتراك والعرب لا يفهمون بعضهم بعضاً بحكم الاختلاف في اللغة، كان الدين الإسلامي وحده هو الذي وفر تلك الرابطة الإيمانية التي مكنت التركي والعربي من الشعور بدفء المصلحة المشتركة<sup>١</sup>.
- منذ القرن الخامس عشر وما بعده، تم إحلال التعبيرات العربية محل التعبيرات التركية في بعض نصوص القرن الخامس عشر، وأخذت تظهر الكلمات العربية إلى جانب التركية مثل كلمة غزو وغازي وغير ذلك<sup>٢</sup>.
- ولعل تفكير التركي المسلم الصرف يدفعه لاعتناق العربية، وهذه هي مغزى نصيحة جمال الدين الأفغاني للسلطان عبد الحميد، وهذا هو أيضاً مغزى الخبر الذي نقله لنا الأستاذ محمد كرد علي بأن السلطان سليم الأول كان يرغب في جعل اللغة العربية اللغة الرسمية للسلطة<sup>٣</sup>.
- إذ كان لطبائع الأشياء أن يلعب العرب دورهم في الدولة العثمانية لا سيما العلماء، فقد احتل هؤلاء مكانة علي المستويات الدينية والاجتماعية، وحتى السياسية، والعلماء الأتراك راحوا يدرسون بالعربية على أيدي علماء الحواضر العربية الإسلامية الكبرى دمشق- بغداد- حلب- البصرة- وأخذوا يضعون مؤلفاتهم بالعربية<sup>٤</sup>.
- هذا التحالف الديني السياسي بين جماعات المكانة الدينية العربية، وبين جهات السلطة الحاكمة كان أهم عوامل استقرار الحكم العثماني وإطالة أمده، فقد ساعد رجال الدين

١ حتى ص ٥٦٥  
 ٢ عب يوروين: المجتمع الإسلامي العرب، مجلة الاجتهاد العدد ٤٣/٩٩٩ ص ٣٩٦  
 ٣ كولينر: المثال والمشروعية في التاريخ العثماني مجلة الاجتهاد عدد ٤٣/٩٩٩ ص ٩٩  
 ٤ حطّط الشام، دار العلم للملايين، بيروت ٩٦٩ ص ٢٢١  
 ٥ الاجتهاد، عدد ٤٤ لعام ٩٩٩ ص ٥٠



العرب من خلال الوظائف التي شغلوها في الجانب الديني والإداري والقضائي في المحافظة على استقرار المدن وفي انتظام العلاقة، بين هذه المدن والأرياف الطرفية<sup>١</sup>.

- ولقد بلغ الأمر بجماعات المكانة الدينية المعممين في المدن، وبقية رجال الدين والمفتين والقضاة ونقباء الأشراف أن شكلوا قوة ضاغطة على حكام الألوية والأقضية، فقد أمسكوا بمفاتيح مشروعية الحكم، وكان بمقدورهم إخفاء الشرعية على حكم السلطان، وكانوا في الوقت نفسه أكثر قدرة على كبح جماح الحركات الاجتماعية<sup>٢</sup>.

- ويرى الدكتور فيليب حتى أن الثقافة التركية كانت مزيجاً عجيباً من العناصر المتنوعة، فقد أخذت عن الغرب الكثير من الموضوعات الفنية والاصطلاحات الأدبية في حين منحتها بداوة آسيا الوسطى النزعة الحربية والفتح، وقد نقلت أيضاً عن البيزنطيين بعض المؤسسات الحربية، لكن العرب كانوا معلمي الأتراك، كما كان اليونان معلمي الرومان، فقد أخذوا عن العرب علومهم ودينهم، وما فيه من المبادئ الاقتصادية والاجتماعية والشرائع المقدسة، وأخذوا عنهم أيضاً الحروف العربية للكتابة، حيث ظلت شائعة حتى سنة ١٩٢٨م، كما انتقل إليهم من العربية العرف والاصطلاحات الدينية والعلمية والشرعية والأدبية، وكان للترك ميادين مستقلة: الشعر - هندسة البناء السياسية<sup>٣</sup>.

- النزعة القومية تبرز عندما تضعف النزعة الإسلامية، وقد رأينا مصداق ذلك في الدولة الغزنوية على يد محمود الثاني حيث كان أميراً هندياً، والأمر نفسه بالنسبة للغة الفارسية التي ترعرعت في بلاطات حكام أترك كالسلاجقة وغيرهم.

١ المرجع السابق ص ٥١

٢ المرجع السابق ص ٥٢

٣ تاريخ العرب ص ٨١١ وانظر بحث المعرفة ج ٤ ص ١١٦

ولقد قلنا أيضاً إن حجر الزاوية في التركيبة الحديثة أنها وضعت من قبل سلاجقة الروم، وأبعد من ذلك فإن التفكير العثماني يظهر في الدولة العثمانية منذ زمان عثمان الثاني عام ١٦٤٢، وإن كانت العوامل الخارجية لعبت دورها في علمنة تركيا على يد أتاتورك.

### الفرع الثاني : تكوين الثقافة العربية الإسلامية (مسألة تبلور هوية الأمة)

كنا حريصين على هذا البحث لسبب بسيط هو أن الهوية العربية ليست قائمة على أساس دموي أو عنصري وإنما على أساس ثقافي، وهكذا تبدو أهمية تحديد جوهر هذه الثقافة وماهيتها الذاتية والمظاهر والحالات التي تقوم عليها والمركبات التي تتكون منها والقوى الفاعلة التي تصدت لإقامتها.

ويمكن القول إن مداميك الثقافة العربية الإسلامية وخطوطها الأساسية والعريضة أقيمت في التجربة النبوية بحيث وصفت هذه المرحلة بحق ويقين بالمرحلة التأسيسية التشينية ..

والملاحظ أن فترة تكوين الثقافة العربية خاصة القرون الثلاثة الأولى للهجرة تكاد توافق فترة التعريب<sup>٢</sup>.

وحقيقة الأمر أن الحركة الثقافية انطلقت من المدينة، من الكوفة والبصرة وفي مرحلة ثالثة الفسطاط والقيروان أما المراكز الثقافية القديمة (الإسكندرية- أنطاكية- حران- جند- نيسابور) فلم يكن لها دور يذكر في فترة صدور الإسلام، بل لم يبدلها أثر يذكر في العصر العباسي، حين بدأت حركة الترجمة والنقل<sup>٣</sup>.

١. د. رضوان السيد الدين والسياسة في لبنان، مقال منشور في مجلة الاجتهاد عدد ١٥ و ١٦ لعام ١٩٩٢ ص ٣٣٣

٢. د. عبد العزيز الدوري: نشأة الثقافة العربية الإسلامية، نظرة إلى العراق مجلة مجتمع اللغة العربية، السنة الأولى، العدد الأول، لعام ١٩٩٧ ص ٤٩.

٣. د. الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية.

وهذا يعني أنه لم يلتفت إلى الثقافة القديمة إلا فيما بعد، ويصدق ذلك خاصة في صدر الإسلام، وإن كان العرب أفادوا من التراث الإداري والمالي، وهضموه، وأضافوه إلى نسيجهم الحضاري، وهذا ما تحقق منذ أواخر العصر العباسي..

ويمكن التأكيد بأن أولى الدراسات تمثلت في القراءات والتفسير والحديث والمغازي والفقه واللغة والأخبار والأنساب والشعر<sup>١</sup>.

هذه الفعاليات تمت على أيدي العرب، وبعض المستعربة من الموالي، وأن نسبة هؤلاء المستعربة كانت متواضعة، كما أن جلهم كانوا موالى لشخصيات عربية<sup>٢</sup>.

ولعل القراء هم النخبة في هذا الميدان التي انبرت لتعليم الناس القرآن والمفاهيم الإسلامية، فقد كان هؤلاء يمثلون روح الحركة الإسلامية إضافة إلى دفاعهم عن العدالة، وقد شاركوا بعمق في الحياة العامة، كما أن منهم من أرسل إلى الأمصار - وخاصة على يد الخليفة عمر - ليعظموا الناس، ومن هؤلاء ابن مسعود (الكوفة) وأبو الدرداء (الشام)، وأبو موسى الأشعري (البصرة).

ولقد ظهر الاجتهاد بالرأي على يد الصحابة لكنه ازدهر في جيل التابعين، ثم ظهرت الحاجة إلى وضع أسس علم الحديث لاسيما مقاييس الجرح والتعديل، وذلك على إثر الوضع في الحديث<sup>٣</sup>.

كما أن الظروف المحلية ومدى الأخذ بالرأي أو الحديث، أدى إلى ظهور خطين في الفقه: فقه الرأي وفقه الأثر<sup>٤</sup>.

وابتدأت هذه الدراسات على أيدي أفراد وظهور شيوخ كونوا لهم حلقات دراسية خاصة بهم، وكان لبعض طلاب هؤلاء دور في الحركة العلمية، وأخيرا ظهر الأئمة الذين كونوا المذاهب والمدارس الفقهية، وكان لبعض طلاب هؤلاء دور في الحركة العلمية، وذلك في العقود الأولى من القرن الثاني الهجري، واستمر إنتاج هذا العلم جيلا بعد

١ د. الدوري: التكوين التاريخي ص ٨٤، وانظر: مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ١٩٨٦، ص

٤٥ وقد حددت علاقة العلوم العربية بالعلوم الشرعية.

٢ الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار، تحقيق محمد سيد حاد الحق، القاهرة، دار

الكتب الحديثة ١٩٦٧ ج ١ ص ٤٦

٣ د. البوري: المرجع السابق ص ٨٥

٤ محمد أبو زهرة: المذاهب الفقهية ص ٢٧ - د. الدوري: المرجع السابق ص ٥١

جيل لاسيما في القرن الثالث الهجري، وكان للأعراف المحلية وللظروف القائمة دور في إعطاء سمة للفقهاء، لكن ذلك تم على ضوء المفاهيم الإسلامية، ولعل الفقه لا الظروف المحلية هو الذي وضع الأسس الشرعية للجماعة الإسلامية.

ولقد ابتدأت دراسة الحديث من قبل الصحابة، ثم اتسعت لتشمل سنن الصحابة وآثارهم، حيث ابتدأ هذا العلم في السنن ثم اتجه إلى الإسناد أو سلسلة الرواية، وهكذا ظهر علم التجريح والتعديل.

ولقد اعتمد علم الحديث على تصنيفه أي جمعه حسب موضوعاته وذلك في الربع الثاني للقرن الثاني، كما أن الحرص على إسناد روايتها من الصحابة، وذلك في أواخر القرن الثاني للهجرة، وأخيراً كان الجمع الشامل بعد التدقيق والنقد، كما في الكتب الصحاح، حيث تم تنظيم الأحاديث على أبواب الفقه<sup>1</sup>.

ونلاحظ أن المجموعات الأولى للحديث جاءت في الثلث الثاني للقرن الثاني الهجري، وهي الفترة نفسها التي كانت فيها المؤلفات الأولى للأخباريين في التاريخ<sup>2</sup>.

وابتدأ علم التفسير بشروح لغوية للنصوص بالاستناد إلى الشعر الجاهلي، وإلى حديث الرسول وأقوال الصحابة، وتوسع هذا العلم، فإذا ببعضهم يعتمد على بعض على الأخذ بالرأي وبعضهم الآخر يركز على الآثار، ولجأ المعتزلة إلى الرأي في التفسير بينما اهتم المحدثون بالآثار، وهكذا ظهر خيطان لتفسير الآثار، وبلغ أوجه في تفسير الطبري، (ت ٣١٠هـ)، ثم التفسير بالرأي الذي بلغ ذروته في الكشاف للزمخشري (ت ٥٣١هـ).

ولقد نشط الشعر في صدر الإسلام متأثراً في الظروف السياسية والاجتماعية والقيم الإسلامية، ومع أنه استمرار للشعر القديم في أساليبه إلا أنه شهد منطلقات وموضوعات جديدة، كما شهد تطوراً في الأساليب واستمر الشعر الجاهلي إلى جانب شعر الحاضرة،

<sup>1</sup> د. الدوري: المرجع السابق ص ٨٦.  
<sup>2</sup> د. الدوري: المرجع السابق ص ٨٦.

وقامت حركة تجديد، حيث أصبح الشعر أكثر دقة وأوثق صلة بالحاضرة وأغنى بموضوعاته وإن كان الشعر القديم احتفظ بمكانته في العصر العباسي<sup>١</sup>.

وكانت اللغة العربية هي القاعدة الثقافية سواء لجهة نشر الرسالة أم لاستيعاب الحضارات الأخرى، والانفتاح الثقافي من قبل المستعربين.

وإذا كان للقبائل لهجاتها الخاصة، إلا أن امتزاجها في الأمصار أدى إلى نشوء لغة عربية مشتركة، هذا فضلا عن أن القرآن الكريم أحاط العربية بهالة من القدسية والاحترام، وضمن لها الوحدة والاستمرار<sup>٢</sup>.

وظهر النثر الفني في أواخر القرن الأول للهجرة، ثم أخذ بالاتساع شيئا فشيئا، حيث ظهر في الكتابات التاريخية والفقهية، وفي بعض الرسائل<sup>٣</sup>.

ولقد شجع على قيام الدراسات اللغوية ظهور الميل إلى الاختلاط، الأمر الذي ولد رد فعل قوي بين صفوف العرب والمتعربين لحماية اللغة والحفاظ عليها<sup>٤</sup>.

وكان رواد علم النحو قراء مثل يحيى بن حجر (ت ١٢٩هـ) والنسائي (ت ١٨٩هـ)، وكانت البصرة سباقة في ذلك، وكان منهجها يرى أن اللغة أصطلاح وتواضع تلاها في ذلك مدرسة الكوفة التي اعتمدت السماع، والملاحظ أن الكوفة تميزت بقربها من البادية، وبأن العربية اختلطت بلغات شامية، أما البصرة فقد اختلطت فيها العرب بلغات الأعاجم<sup>٥</sup>، وكان لهذه الظروف أثرها في النحاة، ويمكن التوكيد بأن النحو علم عربي صرف لم يتأثر بالدراسات اليونانية والسيرانية، ولقد استقرت مفاهيم الدراسات النحوية خلال ثقافة القرنين الأول والثاني للهجرة، وورثت بغداد المدرستين السابقتين<sup>٦</sup>.

١ جولد سيهر: المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، ترجمة علي حسن عبد القادر، القاهرة ١٩٤٤ ص

٧٨

٢ الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ١٩

٣ د. الدوري: المرجع السابق ص ١٧

٤ أبو الطيب: فرائد النحويين تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة مكتبة النهضة مصر ١٩٥٥ ص ٥

٥ د. الدوري ص ٨٨

٦ الزبيدي: طبقات النحويين، القاهرة، ١٥٢ ص ١٣ - السراي: أخبار النحويين البصريين ط ١

ولقد اندفعت الدراسات اللغوية نحو الشعر وجمعه من الأعراب الفصحاء بحثاً عن العربية الصافية وسجلت هذه الدراسات شعر العرب وأخبارها وأيامها ومفردات لغتها، وكان دورها قوياً في إحياء الإنسانية العربية<sup>١</sup>، وهكذا قامت المجاميع اللغوية على مادة أو موضوع ثم تطور الأمر إلى وضع المعاجم بدءاً بالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ) وانتهاء بابن منظور صاحب لسان العرب، علماً أن الأسس استقرت خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة<sup>٢</sup>.

وبدأت دراسة التاريخ في المدينة بسيرة الرسول وأخبار الجماعة الإسلامية وتاريخ الأمة، وكانت وثيقة الصلة بعلم الحديث، ثم ظهرت في الكوفة والبصرة، واهتمت بدراسة أخبار القبائل وشؤون الأمصار، وتكون في القرن الثاني مدرستان مدرسة المغازي في المدينة، ومدرسة الأخباريين في الكوفة والبصرة، وكان هناك تأثير متبادل بين المدرستين في الأسلوب والمفاهيم ولقد تمخض هذا التعاون في القرن الثالث بظهور المؤرخين الكبار، مثل اليعقوبي (ت ٢٧٢هـ) والبلاذري (ت ٢٧٩هـ) والطبري<sup>٣</sup>.

وكانت دراسة التاريخ نتاجاً للحركة العربية الإسلامية، ومن ثم فإذا كانت دراسة المغازي امتداداً لدراسة الحديث فإن نشاط الأخباريين يمثل في بداياته امتداداً لاهتمام القبائل بأخبارها وأيامها واتساعها<sup>٤</sup>.

ولعل الدراسات التاريخية تكشف لنا عن أسلوبين: الأول متابعة سيرة الأمة ودورها في التاريخ، والثاني دور الأفراد والشخصيات في مختلف نواحي الحياة، وإذا كان الأول يصدر عن تبني المشيئة الإلهية في حياة الأمة، فالثاني يكشف عن جوانب متعددة من الفعاليات البشرية<sup>٥</sup>.

١ د. الدوري ص ٨٨  
 ٢ السوطي: المزهري في علوم اللغة وأنواعها القاهرة، دار أحياء الكتب العربية، ٩٥٨ ج ٢ ص ٤٠١  
 ٣ د. الدوري ص ٨٩  
 ٤ د. الدوري: نشأة علم التاريخ عند العرب سلسلة نصوص ودروس، بيروت الطبعة الكاثوليكية.  
 ٥ د. الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية ص ٩٩

ولقد تناولت الدراسات التاريخية تاريخ العرب قبل الإسلام وتأكيد دور الأمة العربية في رسالتها التاريخية في الإسلام، كما فعل البلاذري في كتابه أنساب الأشراف وفتوح البلدان، أو في تثبيت مفهوم العروبة بمدلوله الثقافي، كما فعل المسعودي<sup>١</sup>.

ومنذ أواخر القرن الهجري الأول أخذت تتسرب إلى الثقافة العربية الإسلامية الآراء الدينية الفارسية القديمة والآراء الفلسفية الهلينية، إضافة إلى المصدر الثاني ألا وهو الترجمات القليلة عن اليونانية والفارسية.

وجاء العباسيون، وكانت الخطوط الأساسية الثقافية العربية الإسلامية قد وضعت، وتحولت هذه الصلة بالثقافات الأخرى إلى حركة ترجمة رسمية وغير رسمية، وشارك فيها العرب المسيحيون على نطاق ملموس، وكانت بغداد هي المركز الأساسي في ذلك.

ولقد اعتمدت الترجمة على آيتين إحداهما رسمية على يد الخلفاء، حيث تم الإنفاق عليها بسخاء ولمختلف العلوم، وأقاموا لها مؤسسة نشطة، وكان التوجه في الأغلب للثقافة اليونانية عن طريق جسر السريانية، والآلية الثانية اعتمدها الكتاب وبعض الأدباء، وشجعها بعض الوزراء، وتوجهت غالباً نحو الفارسية وتفاعلت مع المؤلفات الدينية والأدبية والتاريخية<sup>٢</sup>.

ولقد أفاد المفكرون من المنطق اليوناني، كما جهدوا للتوفيق بين الفلسفة اليونانية والفكر الإسلامي، أما فيما يتعلق بالعلوم فلم يكن ليتعارض مع القيم الإسلامية وكان للعرب دور هام في ابتداع النهج التجريبي واستطاعوا عن طريقه دفع حركة العلم قويا إلى الأمام<sup>٣</sup>.

وكان من أثر الصراع مع المجوسية والماتوية وغيرهما تجديد العناية بالتراث العربي القديم، وتأكيد مفهوم الاتصال الثقافي العربي عبر التاريخ، والتأكيد على العروبة واعتبارها الرابطة الأساسية بين العرب لذلك فقد كانت وجهة هذا الصراع دعم المفاهيم الإسلامية

١ د. الدوري: التكوين التاريخ للأمة العربية ص ٩٠.

٢ د. الدوري: التكوين التاريخ للأمة العربية ص ٩٠.

٣ د. الدوري: ص ٩٠.

٤ د. الدوري: ص ٩٠.

٥ د. الدوري: ص ٩٠.



بالمناطق والتفكير العقلي لمواجهة الزندقة وتأكيد الصلة بين العروبة والإسلام، ولعب المتكلمون دوراً واسعاً في هذا المجال، وشارك العرب وغير العرب في الرأي على الشعوبية والزندقة، وهذا يعني تطور الثقافة من مضمونها الديني إلى مضمونها الحضاري<sup>١</sup>.

وكان لإدخال صناعة الورق في أواخر القرن الثاني الهجري دور هام في تنشيط حركة التدوين والانتقال بالثقافة من الحيز المحلي إلى نطاق التبادل بين الأقطار والبلاد الأخرى، حيث تميز القرن الثاني والثالث للهجرة بحركة ترجمة واسعة رافقتها تطوير علوم الأوائل، كما شهد القرن الرابع ثم الخامس للهجرة فترة نشاط جديد ونضج في علوم الأوائل<sup>٢</sup>، وتتوج كل ذلك ببلوغ مرحلة الشمول والاستقرار، وكان لإيقاف باب الاجتهاد في الفقه دور في ذلك<sup>٣</sup>.

والملاحظ أن فترات الغنى والازدهار الفكري اقترنت بالافتتاح حتى في حال الصراع الفكري، وساعد على ذلك التجزئة السياسية.

وبعد القرن الرابع أخذت الدولة تتدخل في شؤون التعليم، وتمثل ذلك في تأسيس الأزهر وإنشاء الكليات في المشرق منذ أيام نظام الملك، إلا أن هذه المدارس الرسمية تجردت من الإبداع بسبب تدخل السياسة إضافة إلى أنها نشأت في دور استقرار ثقافي، ومع ذلك فقد نقلت الثقافة من أيدي كتاب إلى دواوين مما ساعد في ترسيخ جذور الثقافة العربية الإسلامية<sup>٤</sup>.

يتأكد مما سبق تنوع الثقافة العربية الإسلامية تنوعاً أكسبها الوحدة والتكامل والحيوية، كما ساعد على تجديد مفهوم الأمة على أساس ثقافي، وطور مفهوم الرسالة العربية بعد أن شاركت شعوب أخرى في حمل راية الإسلام فأصبحت رسالة ثقافية<sup>٥</sup> محمولة على شركة تعاونية مخططها الإنسان العربي، وعلى ضوء ذلك يطرح بقوة السؤال الأول: ما هو مفهوم الأمة لدى الشعوب، وهل شعروا بأنهم مجموعة بشرية واحدة في إطار الأمة العربية؟؟

١ هاملتون حب: دراسات في حضارة الإسلام، ط٢، بيروت ١٩٧٤، ص ٩٤  
٢ دولسي إيفانزا أولري: الفكر العربي ومكانته في التاريخ، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦١ ص ١٣٠  
٣ د. الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية ص ٩١  
٤ د. الدوري: ص ٩٢  
٥ د. الدوري: ص ٩٢  
٦ تاريخ الطبري، ج ١ ص ٢٧٧٥



في الحقيقة كان هنالك تياران كبيران، التيار الإسلامي الذي يتمثل في المفاهيم والاتجاهات الإسلامية والتيار القبلي الذي تمثل في العصبية القبلية.

أجل لقد أدرك العرب أنهم جماعة بشرية ترتبط بنوع من الانتماء إلى أصل واحد، وقد اعتبر القرآن العربية أساس هذا الانتماء، كما كان العرب صلب الأمة الإسلامية بدليل قول سيدنا عمر في الأعراب: هم أصل العرب ومادة الإسلام، هذا فضلا عن أن الخلافة إمارة عربية، قال عمر يخاطب الأنصار في السقيفة: والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب تمتنع أن يتولى أمرها من كانت النبوة منهم، وهكذا بقي اختيار الخليفة من قريش بعد قرون عديدة<sup>1</sup>.

ولاشك أن للفتوحات دورها في اعتزاز العرب بأنهم حملة الرسالة المتفوقون على غيرهم، وهكذا ترد إشارات كثيرة إلى الشعور بانتماء مشترك، وبرايطة العروبة على أساس بشري، مثلها في ذلك مثل مفهوم الأعاجم، وصار العرب يرون لأنفسهم مزايا، قال الأحنف بن قيس، لا تزال العرب عربا ما لبسوا العمائم وتقلدت السيوف، ولم يعد الحلم ذلا، ولا التواضع فيما بينها، وها هو جرير ندد ببني العنبر بن تميم لأنهم لم يقرؤه حتى اشتري منهم القرى فقال:

يا مالك بن طريف أن بيعك: قالوا تبيعك بيعاً فقلت لهم:	رغد القرى مفسد للدين والحسب بيعوا الموالى واستحيوا من العرب.
---	---

وكانت قوة الأمة الإسلامية قوية وسائدة، كما أن الإشارات إلى الدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيله تكررت في شعر الشعراء، وخاصة في الأطراف لخراسان<sup>2</sup>، وإن كان الشعور بالنسب ما زال مسيطرا في القبائل، وتبدو فكرة العرب كأمة متميزة في أواخر الفترة الأموية حين تعرضت الدولة للخطر، وها هو مضر بن يسار أمير خراسان يحذر من خطر المسودة في خراسان، فيقول:

ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم:  
ولا صمم الموالى إذ هم نسبوا.

<sup>1</sup> د. الدوري، ص ٩٣  
<sup>2</sup> حسين عطوان: الشعر العربي في خراسان في العصر الأموي، بيروت دار الجليل ٩٧٤ ص ١١٤

ويذكرهم بأن دين الثوار هو قتل العرب وأن الثورة إذا لم تطفأ فعلى الإسلام وعلى العرب السلام<sup>١</sup>، ولقد سمي عبد الحميد الكاتب، كاتب مروان بن محمد في رسالته إلى الكتاب سمي الدولة الأموية بالدولة العربية، قال: فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من الفئة الأعجمية<sup>٢</sup>.

واستمرت هذه النظرة إلى العرب بصفتهم جماعة بشرية وأمة على أساس النسب في العصر العباسي الأول، فهذا داوود بن علي العباسي يخطب على منبر الكوفة، ويقول: إن العرب قد أطبقت على إنكار حقتنا<sup>٣</sup>.

ويروى أن المهدي سأل بشار بن برد فيمن تعد يا بشار فقال: إن اللسان والرأي (لعلة الزي) فعربيان وأما الأصل فعجمي<sup>٤</sup>.

وقد لعب الصراع ضد السلطة في تأييد هذا الاتجاه، يقول يزيد بن مزيد الشيباني، مخاطباً الرشيد: وهؤلاء العرب سيوفك وجندك، وقد أخذتهم المكائد، وطالت ألسن الشعوبية فيهم فإله الله في قومك، وحين قتل المذكور رثاه الوليد بن مسلم بقوله: سلكت بك العرب السبيل إلى العلاء<sup>٥</sup>.

وحين قرب المأمون عجم خراسان وذهب إلى الشام قام إليه رجل، وقال: يا أمير المؤمنين أنظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان<sup>٦</sup>.

ولقد ثار نصر بن شيث الخزاعي بالجزيرة الفراتية أول عهد المأمون، وأعلن أن هواي مع بني العباس، ولكني جاريتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم<sup>٧</sup>.

وحين فخر طاهر بن الحسين بقصيدة بمجده وبقتل الأمين رد عليه محمد بن يزيد الأموي بقصيدة قاسية قال فيها: امتعضت العربية وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم<sup>٨</sup>.

١ البلاذري: أنساب الأشراف بيروت، المطبعة الكاثوليكية ٩٧٨ ص ١٣٣  
٢ ابن قتيبة: رسائل البلغاء، القاهرة ط ٢ دار الكتب المصرية ٩١٣ ص ٢٢١  
٣ البلاذري أنساب الأشراف ص ١٤١  
٤ الأصفهاني: الأغاني ج ٣ ص ٢٢١  
٥ عبد الجبار جوهر: مزيد بن يزيد الشيباني ص ١١٨  
٦ الظمري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ١١٤٢  
٧ الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية، ص ٩٥  
٨ التوحي: الفرج بعد الشدة ج ١، ص ٦٦، المرجع السابق، ص ٦٦.

وتأجج الشعور العربي بتقريب المعتصم للأتراك، وخاصة حين أسقط المعتصم العرب من الديوان، وهناك رواية كيف أن أحمد بن أبي داوود قاضي المعتصم اهتز حين سمع من المعتصم أنه أطلق يد الإفشين في أبي دلف العجمي القائد العربي، وجاء في قوله للإفشين القاسم بن عيسى فارس العرب وشريفها نهبه للعرب كلها.

ومع ذلك كان الصراع على السلطة في العصر العباسي الأول لم يتبلور بين العرب (نسبا) والعجم، إذ نجد في الجانب العربي شخصيات من الموالي مثل الربيع بن يونس والفضل بن الربيع وأبي أيوب المورياتي، وذلك أن الولاء تركز في موالي التباعة أو موالي الاصطناع (الولاء الشخصي) واتخذ صفة أقرب إلى تداخل النسب.

وحقيقة الأمر أن اتساع الفتوحات جعل العرب يعتزون بأنهم حملة رسالة، كما كان للتعريب دور كبير في نشوء فكرة الأمة الإسلامية التي طليعتها العرب، وهكذا فإن الفكرة الإسلامية التي ربطت العروبة باللغة اخترقت إطار النظرة القبلية، وهذا يوضح رد الفعل القبلي القائل بأن العربية سليقة لا تعلم، لكن التطور الاجتماعي أنزل ضربة قاسية في هذا المفهوم.

ويعنى أوضح كان توسع المفاهيم الإسلامية قد أوقع ضربة قاسية في مفهوم النسب وأدى إلى تضائل التمييز بين العربية والمستعربة، كذلك فقد أضعف النسب تطور الحياة الاقتصادية والتجارية والزراعية إضافة إلى توسع الحياة المدنية وانتشار الأفكار الاجتماعية التي طالبت بالعدالة، هذا فضلا عن ضعف السلطان العربي منذ القرن الثالث عشر، ومع ذلك كان الانتماء للعرب ما زال دليل شرف حتى أن عضد الدولة البويهى - وهو المسيطر على بغداد - فرض على أبي إسحق الصابي أن يضع له نسبا عربيا ففعل تحت التهديد، وقد بقي دور الدولة العباسية كبيرا في الحياة العامة لكن مؤسسات الدولة لم تتطور مع التحولات الاجتماعية والاقتصادية، بل أخذت بالتراجع أمام المعسكرين وأمام حركات البدو وغاراتهم، ابتداء من القرن الرابع للهجرة.

وفي القرن الثالث الهجري قامت الإمارة الطاهرية، وتلتها الصفارية والسامانية، وفي كل هذه الإمارات بدأ النثر والشعر باللغة الفارسية

١ د. الدوري: ص ٩٨

الحديثة، وكان ذلك بداية للانقسام في الثقافة الإسلامية، وإحياء الثقافة القومية، ولاشك في أن هذا التطور خطير، لكنه أدى إلى تحديد مفهوم العروبة الثقافية<sup>١</sup>.

وبمعنى أوضح إن الحركة الشعبوية التي بدأت في القرن الثاني، وتجاوزت القرن الثالث جويته من قبل أنصار العربية والإسلام بالتأكيد على أن العربية لغة وثقافة كانت قاعدة العروبة وأساسها<sup>٢</sup>.

والملاحظ أن الشعبوية ظهرت في فترة كان فيها مفهوم الإسلام والعروبة واحد، ولذا اقترنت بالزندقة التي سعت لتحطيم القيم الإسلامية<sup>٣</sup>.

ولا حاجة للتدليل بأن الشعبوية قامت على الاعتزاز بالأعجمية وكراهية العرب ماضيهم وثقافتهم، بل ذهبت للتشكيك بالإسلام لأن العرب حملوه<sup>٤</sup>.

هذا الصراع مع الشعبوية أدى إلى تأكيد ذات الأمة وخلق مقوماتها وإعطائها مفهوماً واسعاً شاملاً دورها التاريخي وثقافتها، ومظهر ذلك التأكيد على دور القرآن وتفسيره والفقهاء وحفظ السنن، ونقل الآثار والعناية بالأخبار والأسباب وباللغة العربية، ثم التأكيد على التراث العربي من شعر وأمثال وحكم، وهكذا زالت النظرة التي تجزئ الثقافة العربية فلا ترى شيئاً قبل الإسلام وقد تمثل هذا الرد على كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وفي كتب الحماسة حماسية البحتري وحماسة أبي تمام وفي الأصمعيات والمفضليات للضبي، وهي تقدم مختارات شعرية وأدبية للناشئين والمتأدبين تظهر روعة الأدب والشعر<sup>٥</sup>.

ولم يقتصر الأمر على الأدب بل تجاوزه إلى المؤرخين، وهكذا وضع ابن قتيبة كتاب المعارف وتناول فيه صفحات متصلة متكاملة من

١ د. الدوري: ص ١٠٠

٢ د. الدوري: ص ١٠٠

٣ د. الدوري: ص ١٠٠

٤ الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٤

٥ د. الدوري ص ١٠١

تاريخ العرب وتراثهم الفكري قبل الإسلام وبعده جاعلاً منه موسوعة للمعرفة التاريخية والأدبية والثقافية قبل الإسلام وبعده، وأراد له أن يكون قاعدة ثقافية<sup>١</sup>.

واقترضى الدفاع عن العرب إبراز قيمهم الجاهلية، المروءة والكرم والحلم والإباء والنجدة وصبوات الفكر وذكاء الفهم والفصاحة وسعة اللغة.

يقول ابن قتيبة: كأنها لم تزل في الجاهلية تتواصى بالحلم والحياء والتدبم وتتعاير بالبخل والغدر والسفه، وتتنزّه من الدناءة والمذمة، وتتدرب بالنجدة والصبر والبسالة وتوجب للجار من حفظ الجوار ورعاية الحق فوق ما توجبه للجميع.

بهذا المعنى ألف البلاذري كتابه فتوح البلدان ليعبر عن حمل العرب لرسالة الإسلام وجهادهم في مدرسته وتكون دولته بالفتوحات والتحضير، كما ألف كتاب أنساب الأشراف متناولاً تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده عارضاً دور الأشراف في السياسة والإدارة والثقافة، معطياً إياهم الدور الأساسي في تكوين هذا التاريخ، وقد تناول أيضاً شخصيات متعربة، ودورها في الحياة العامة مركزاً على وحدة الأمة واتصال مسيرتها التاريخية.

ولقد أدرك العرب أن تعرض الشعوبية للإسلام كان بسبب العداء للعرب، يقول الجاحظ: إذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض اللغة (أي العربية) أبغض تلك الجزيرة (جزيرة العرب) فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذا كانت هي التي جاءت به، وكانوا السلف<sup>٢</sup>.

ولقد ساد الاتجاه من المفكرين أن العرب أمة واحدة حتى قبل الإسلام هكذا يؤكد ابن قتيبة أن الله ابتعث فيها النبي ﷺ وجمع كلمتها ومكن لها في البلاد، وخطبها - وهي يومئذ لا عجم فيها - فقال: كنتم خير

١ - الدوري ص ١٠٢  
٢ - التوحدي: الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٨٢  
٣ - رسائل البلغاء ص ٢٨٢  
٤ - البيان والبيان ج ٣ / ص ١٤

أمة أخرجت للناس، فلها فضل هذا الخطاب والأمم طراً داخله عليها فيه<sup>١</sup>.

- وهذا ما أكده الثعالبي بقوله: إن العرب أمة بين الأمم<sup>٢</sup>.
- وأبان التوحيدي أن العرب أمة لها خصائصها ومزاياها<sup>٣</sup>.

أما الجاحظ فقد أبدع تبيان هذا المزاج المتماسك للهينة العربية، يقول: إن العرب بما كانت واحدة، فاستووا في التربية، وفي اللغة والشمال والبهمة، وفي الأنفة والحمية، وفي الأخلاق والسجية، فسكبوا سكباً وأفرغوا إفراغاً واحداً، تشابهت الأجزاء، وتناسبت الأخلاق، حتى صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأمم والأخص، وباب العرفان والمباينة بعض الأرحام، وجرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى<sup>٤</sup>.

وكان للهجوم على العربية رد الفعل، وهكذا أخذ العرب يعتبرون ويفخرون بالفصاحة والبيان مؤكدين روعة العربية وجمالها وتصاريف كلامها وغنى مفرداتها وسعتها، وقد شرفت بالقرآن المعجز، يقول التوحيدي متحدثاً عن العربية، وعن سعة لغتها وتصاريف كلامها في أسمائها وأقسامها وأفعالها وحروفها وجولاتها في اشتقاقها وما أخذها في استعاراتها وخرائب تصرفها في اختصاراتها، ولطف كتاباتها في مقابلة تصريحاتها<sup>٥</sup>.

أما الزمخشري فيتعجب لعدم إنصاف الشعوبية في هجومها على العربية يقول: ذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها، كلامها، ولعمري تفسيرها، وأخبارها، إلا وافترقوا إلى العربية بين لا يدفع.. ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الأعراب والتعابير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء، وغيرهم من النحويين، والاستظهار في مأخذ النصوص بأقوالهم والتشبيث بأهداب فسرههم وتأويلهم، وبهذا

١ رسائل البلاء ص ٢٨٢

٢ فقه اللغة وسر العربي ص ٣

٣ الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٧٠

٤ رسائل الجاحظ ج ١ ص ١٠

٥ الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٧٦

٦ المفصل في الإعراب، الإسكندرية مطبعة الإسكندرية مطبعة الكوكب الشرقي ٨٧٤ ص ٢

اللسان مناقلتهم وتأويلهم مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريبهم  
ومناظرتهم.

صحيح أن العرب تمسكوا بالأنساب لاسيما من قبل أصحاب الاتجاه  
القبلي الضيق، لكن التطورات الاقتصادية والعمرائية أضعفت الروح  
والنظرة، كما أن حذف العرب من الديوان قاد أيضا إلى ذلك، وهو  
الأمر الذي وجدنا الاهتمام بالأنساب يقف عند أواخر العصر العباسي  
الأول ويفتح الطريقة لاحقا لرابطة اللغة، هكذا يوضح هذه النقطة  
فيقول: وقد جعلوا إسماعيل - وهو ابن أعجميين - عربيا لأن الله  
تعالى فتح لهاته بالعربية المبينة على غير التلقين والترتيب، ثم فطره  
على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرن، وسلخ طباعه من  
طباع العجم.. ثم جاء من طبائعهم (أي العرب) ومنحه من أخلاقهم  
وشمالهم، وطبعه من كرمهم وهممهم على أكرمها وأشرفها وأعلاها  
فكان أحق بذلك النسب<sup>1</sup>.

إن فاللغة والسجايا أساس العروبة بمفهوم الجاحظ، وقد طبق ذلك  
على الموالي فقال: وإذا كان المولى منقول إلى العرب في أكثر  
ومججولا منهم في عامة الأسباب، لم يكن ذلك بأعجب من جعل الخال  
والدا والحليف من الصميم وابن الأخت من القوم... إن المولى أقرب  
إلى العرب في كثير من المعنى لأنهم عرب في المدعى في العاقلة  
وفي الوراثة، وهذا تأويل قوله ﷺ: مولى القوم منهم ومولى القوم  
من أنفسهم، والولاء لحمة كلحمة النسب، وعلى شبه ذلك صار حليف  
القوم منهم وحكمه حكمهم وبذلك النسب حرمت الصدقة على موالي  
بني هاشم فإن ﷺ: أجراهم في باب التنزيه والتطهير مجرى مواليهم

إذا فعلية المفهوم الثقافي لا العنصري للعروبة أكسبها دينامية تتحدى  
التجزئة، وهكذا يمكن القول إن إطار الثقافة العربية وضع في صدر  
الإسلام إلا أن هذا الإطار أغنى خارج الوحدة السياسية لبلاد الخلافة.

ومع ذلك فالتعريب الشامل لم يأخذ مجراه الطبيعي إلا عند تعريب  
الريف<sup>2</sup>.

1. الدوري ص ١٠٧  
2  
3 رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣١  
4 رسائل الجاحظ: ج ١ ص ١٢  
الدوري - ص ١١٣



ولا شك أن التعريب لم يتم في بلاد انتشر فيها الإسلام ووجدت فيها جامعات من العرب وكانت من أراضي الخلافة مثل إيران والبنجاب والأندلس، فقد كان هنالك مواطن عسكريين بين العرب وسكان هذه البلاد لاسيما أنه كان لها ثقافات متأصلة استفاقت بعد حين تحت لواء شعورها القومي لاسيما أن العرب تجمعوا في مراكز مدنية متباعدة في بحر من السكان الأصليين، وإن ارتباط العروبة بالإسلام، ارتهنت بالسلطان العربي، وانكفائه وتراجع بتراجع، ومن ثم، فإن الأمر لم يبق على هذه الحال رغم استعمال اللغة العربية من قبل الفرس في الشعر والنثر، وإن ظهور السلاجقة كان سببا لقيام التركية لغة الدولة العثمانية فيما بعد .

ولقد تغلغل هذا المفهوم للعروبة إلى مجال القصص الشعبي مثل سيرة (تغريبة بني هلال) وبعض قصص ألف ليلة وليلة، حيث نحد في القصص الأخيرة تمجيد العروبة، وتبيان مزاياها وسجاياها<sup>1</sup>.

بعد هذه الجولة الطويلة يمكن إلقاء نظرة عامة على مفهوم العروبة وتطوراته تبعا للتطور الذي طرأ في المجتمع العربي الإسلامي.

وحقيقة الأمر أنه كان لدينا في صدر الإسلام مراكز عربية تجمع بين الأصول الحضرية والبدوية في هذه المراكز وكانت السلطة بيد العرب، وهذا استتبع التحاق المسلمين من غير العرب بنظام الولاية في هذا المجتمع حيث كان المفهوم النسبي القبلي هو السائد إضافة إلى المفهوم القرآني اللغوي.

ثم كانت التحولات (اتجاه جماعات من العرب إلى المهمن- تعريب الريف- إسقاط العرب من الديوان- نمو المدن وربطها بالريف- ظهور السوق).

وبصورة عامة فإذا كان للبدو دور في تعريب الريف لاسيما في شمال إفريقيا فإن عرب المدن قاموا بدور حيوي في التعريب اللغوي والثقافي، وتوضيحا فالوعي العربي بدت بوادره في أواخر العصر الجاهلي في اللغة والأدب والأسواق والقلق الديني، ثم بدأ قوميا في الحركة الإسلامية من خلال التوحيد السياسي وحمل رسالة الإسلام والتعريب وتكوين ثقافة عربية إسلامية شاملة.

<sup>1</sup> ابن خلدون المقدمة ص 114  
<sup>2</sup> إبراهيم الوائلي: الشعر العراقي في القرن التاسع عشر ط 2 بغداد مطبعة المعارف ٩٧٨ ص ٢٤



وكان الدور الرئيسي لإشراف القبائل وعرب المدن، وكان كل المقاتلة من رجال القبائل، وصار هؤلاء عامة سكان الأمصار ولم تكن بينهم طبقات، كما أن الإسلام أكد المساواة، فكانت الحركة العربية الإسلامية الأولى حركة شعبية شاملة.

وحاول العباسيون تأكيد المبادئ الإسلامية وإشراك الشعوب الأخرى في الإدارة، لكنهم واجهوا قيام سلسلة من الثورات الإيرانية، وظهور الحركة الشعبية، لكن ذلك أدى إلى ترسيخ وتوسيع وبلورة مفهوم العروبة وتحلله من دعاوى الغرور والعصبية لاسيما بعد أن تقلص سلطان العرب ثم زوال هذه السلطة أخيراً.

لقد برز دور العامة في المدن الكبرى خاصة بعد أن تبلور ذلك في منظمات سياسية عسكرية (العيارون والشطار والفتيان)، وهكذا فقد اصطفوا إلى جانب الأمين في الصراع ضد المأمون.

وتكرر ذلك حين وقف العيارون والشطار ضد القوات التركبة المحاصرة لبغداد، ولما حاول المهدي أن يحد من سلطان الجند التركي في سامراء، واصطدم بهم سنة ٢٥٦ هبت العامة لنصرة الخليفة.

وكان للعيارين والشطار مبادئ أخلاقية كالفروسية والمروعة والرفق بالضعفاء والفقراء، واتجهوا للوقوف في وجه السلطة ومقاومة العجم وتوفير الأمن ومقاومة الأجنبي والقتال ضد البيزنطيين، وأما الحركات الصوفية فقد غلب عليها التأثير بالقيم الدينية والأخلاقية وتبلورت في صفة الفتوة<sup>١</sup>.

وكان صعباً أن تقف السلطة الحاكمة بويهيية وسلجوقية موقف عدائية بين المنظمات الشعبية<sup>٢</sup> وإذا كانت الفتوة انتشرت في الشرق الإسلامي فإن حركات الأحداث الموازنة انتشرت في بلاد الشام والجزيرة الفراتية في أواسط القرن الرابع الهجري، واستمرت إلى القرن السادس، وكونت قوة شعبية واتخذت موقفاً معاداً للسلطة والأجانب.

<sup>١</sup> ابن الجوزي: القاهرة ط٢ مطبعة النهضة وانظر ابن الأثير الكامل في التاريخ بيروت دار صادر ٩٧٩ ج ٨ ص ٢٠٤  
ابن الأثير: ج ٨ ص ١٤٩ - ابن مسكويه - تجارب الأمم ج ٣ ص ٢٦١

وفي الوقت نفسه انعكس هذا الوعي في منظمات الأصناف المهنية حيث نظمت المهنة علي أساس حلف وتعاونت مع الفتوة والأحداث في حفظ الأمن ومقاومة الجوانب.

وفما انتعشت الخلافة العباسية في أواخر القرن السادس الهجري، ورفعت كابوس السلاجقة تعاضدت مع منظمات الفتوة في ذلك، وخاصة على عهد الناصر الذي دخل الفتوة عام ٥٧٨هـ - وتولي رئاستها، حيث قام بتوحيد صفوفها، ورفع سويتها الأدبية والخلقية وأصدر منشورا بذلك وجعل منها جبهة تقف في وجه التسلط التركي والتهديد الخارجي الصليبي والمغولي .

واستمر هذا اللقاء بين السلطة ومنظمات الفتوة، وخاصة زمن المستنصر، وكان نور الدين زنكي أحد من شرف بلباس الفتوة (٦٣٤هـ)<sup>١</sup>، وهكذا كان للفتوة الدور الكبير في زمن الصليبيين.

وجاء الغزو المغولي ليكافح حركة الفتوة بسبب صفتها الشعبية إضافة إلى عدائها للسلطة، واستمرت الفتوة في زمن المماليك في مصر والشام ابتداء بالملك الظاهر بيبرس الذي دخل الفتوة في الخط الناصري (سنة ٦٥٩هـ)، ولكن لطغيان الموجة المغولية لم يقض على الفتوة، التي اتجهت نحو الحدود وتحولت إلى منظمات عسكرية ذات دستور أخلاقي، فتذرت نفسها لمقاومة الطغيان وإشاعة الأمن والنظام ومحاربة الصليبيين، كما كشف البحث عن دور التنظيمات الحرفية المتأثرة بالتفوق في نشأة الإمارة العثمانية وتوسعها أمام البيزنطيين ويلاحظ أن فترات الحكم الأجنبي وركود الثقافة أربكت مفاهيم الوعي وحدت من توثبه ولكن مقوماته ظلت في الأدب الثقافي لتظهر حديثا في حركة النهضة في العصر الحديث.

لقد بقيت العربية قاعدة للعروبة وبقي الأدب الثقافي قاعدة مشتركة، وهو يحوي فكرة الأمة العربية بمفهومها الثقافي ويربط العروبة بالإسلام.

ومن هذه الجذور وفي نطاق تحديات داخلية وأفكار خارجية ظهر الوعي الحديث ليتجه من العروبة من مفهومها الثقافي الاجتماعي إلى العروبة بالمفهوم السياسي القومي .

<sup>١</sup> ابن القوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد، المكتبة العربية ٩٤٥ ص ١٨

## تكيف وتقويم

الملاحظة الأولى التي نبديها في هذا المقام هي أن ربط العروبة بالإسلام لم يقف على أرض سياسية فحسب، وإنما على أساس اجتماعي وثقافي، اللهم إلا ما تعلق بمفهوم القومية العربية في العصر الحديث حيث أقيمت على أساس سياسي، معتققة العلمانية والتغريب، مسقطه الجانب الاجتماعي والثقافي، فاصلة العروبة عن الإسلام.

نقول اجتماعي حيث اتضح المفهوم الديموغرافي للعروبة وللإسلام بعد أن أبنا مدى التنقل السكاني ومدى هم القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى كافة أقطار الأمة العربية، ونقول ثقافي، حيث تم ربط العروبة بالإسلام في كافة الأطوار التي مرت بها الأمة، ولا تستثني من ذلك المراحل التاريخية التي نقلت السلطة من العرب، فقد تمسك هؤلاء، أي تمسك بإسلامهم وعروبتهم، وعبروا عن ذلك من خلال السلطات الشعبية متمثلة في العيارين والشطارين ومنظمات الفتوة الخ... وبالتالي فقد بقي السيف الإسلامي مستلماً من غمد العروبة، تدليلاً بهذا العنصر المشترك والتلازم الأبدي.

ومن جهة أخرى، فقد عانت الروح العربية لاسيما إبان ازدهارها ثقافات متعددة يونانية وفارسية هندية، لكن ذلك كان من باب الاستعانة بهذه الثقافات للدفاع عن جبهتها العريضة الأساسية، ألا وهي جبهة الثقافة العربية الإسلامية.

لقد اتضح لنا أن هذه الجبهة متمثلة في علوم العربية (النحو، اللغة، الصرف، البلاغة، وقائمة على علوم الشريعة والفقه وأصول الفقه الخ...).

فهذه الثقافة تمثل الجوهر الركين، أو تسمى ثقافة اللباب، في النظرية الثقافية، هكذا ترى نظرية الثقافة، أن في كل ثقافة يوجد لون ثقافي هو بمثابة الطليعة الجوهريّة التي تضيء على الثقافة خصائصها، وتسبغ عليها التماسك والتلاحم والوحدة، وتقدم لها القرار المكين والعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

<sup>1</sup> د. الدوري: التكوين التاريخي للأمة العربية ص ١٢٠

وإذا استعرضنا كافة الأدوار لاحظنا هذا القرار المكين - ثقافة اللباب، هي التي تلامس حبات قلوبنا، ولذلك بقيت أمتنا قوية صلبة بقوة ثقافة اللباب، التي تمس شغاف قلبها، اللهم إلا بعض الرطانات والجعجات متمثلة في نزعات التعريب والعلمانية.

ولم تظهر هذه النزعات إلا بعد بزوغ سلطان الغرب علينا، وبعد أن زرع الضعف في نفوسنا والابهار في أعيننا.

ومن الجدير بالتنويه - مع الدكتور عبد الإله بلقزيز - بأن كون الحديث النبوي كان بلسان العرب، وأن تكون كل المدونة الفقهية والأصولية الإسلامية باللغة العربية، وهذا يعني أن كل تراث الإسلام الديني كان عربياً، وكل أصول التشريع الإسلامي باللغة العربية، حتى الأعاجم اعترفوا بهذه الحقيقة التحتية والأصولية، فأنجوا معارفهم داخل الإسلام باللغة العربية، وكان ذلك شرطاً لاستقامة ما كتبوه عن الإسلام.. وهناك ملاحظة جديرة بالتنويه، فقد نبغ غير العرب في كل حقول الأدب والفكر (في الشعر، والخطابة، والنقد وعلوم اللغة والعروض والكلام والفلسفة والتصوف والحساب والعلوم) ما عدا العلوم الدينية الشرعية كانت في نصيب العرب، إذ كان المشرعون الكبار، ومنتجو المنظومة العربية عرباً... الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدون، وأئمة المذاهب الأربعة، وأمام المذهب الجعفري! وقد لا يستثنى من هذا الحكم إلا بعض روافض الحديث وبعض المفسرين<sup>1</sup>.

لقد اتضح لنا أن كل تعاطف للعروبة كان بمقدار الاقتراب من الإسلام والنهل من نميره ومعينه، والأمر نفسه على الإسلام منهجاً تعاملاً واعتماداً على العروبة فما بالناس الآن عروبة - إسلاماً نتدابرون وتناقض، فإذا نحن أمام عروبة محض وإسلام محض مخالفين بذلك خمسة وتسعين حديثاً قالها الرسول في العروبة.

أما أن لهذه العيون أن تلتقي وللسواعد أن نتشابه؟؟

<sup>1</sup> مقال الأستاذ: العروبة والإسلام، مجلة المستقبل العربي، عدد ٢٥٤/٢٠٠ ص ١٩/١٣٦

## الاحتطاط والتخلف يضع الإسلام في مواجهة العروبة

لا بد لنا من المرور السريع بتلك الحضارة الباسقة التي أنجزتها أفئدة أمتنا، وبنیان جوهرها، ولا حاجة للقول إن الرسول الكريم هو الواضع الأول للبنات الأساسية التدشينية في جسد تلك الحضارة.

أجل لقد أسس الرسول العروبة مفهوماً يتجاوز عصبية الجاهلية ويتجاوز النعرات العرقية، واستبدل ذلك بمفهوم حضاري يعتمد الفكر واللغة، يقول الرسول الكريم ﷺ: أيها الناس ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي .

وفي هذه الدولة العربية الإسلامية، تحدث الرسول أيضاً عن مكان العرب، فقال لا يبغيض العرب إلا منافق<sup>١</sup>، ولقد تأكدت الرابطة الحضارية القومية بالاعتراف للموالي الذين أصبحوا عرباً باللغة والهوية والولاء، رغم ولادتهم من أصول غير عربية، بالاعتراف لهم بأنهم عرب، وعلى قدر المساواة في العروبة مع العرب الأقحاح... ذلك أن الإسلام الحضارة، قد جعل من اللغة والتعرب والولاء للجماعة الجديدة رباطاً هو والرباط العرقي والنسبي سواء بسواء، وفي ذلك جاءت الأحاديث النبوية التي عبرت عن هذا التنظيم (الاجتماعي القومي) الجديد الذي توحدت به الجماعة البشرية العربية فطالعنا أحاديث الرسول ﷺ التي يقول بها: مولى القوم منهم، والولاء لحمة كلحمة النسب .

فاندمج الموالي في القبائل العربية، وكونوا قبائل مستقلة وقرر لهم إسلام الحضارة عامل المساواة القومية الدينية مع العرب الأقحاح .

وعندما جاءت الفتوحات العربية وقف العرب في العراق والشام، وكذلك المصريون - ذوو الأصول السامية - مع العرب المسلمين - رغم خلافهم الديني مع الفاتحين - حيث أسهم الجميع - جميع

<sup>١</sup> تذيب تاريخ ابن عساکر ج ٢ ص ١٩٨، مطبعة دمشق

<sup>٢</sup> سبق إسناد ذلك

<sup>٣</sup> رواه البخاري كما رواه أبو داود والدارمي.

<sup>٤</sup> د. محمد عمارة: المرجع السابق ص ١٦

العرب- في بناء الدولة العربية التي ظل الإسلام والمسلمون فيها أقلية عديده لنحو قرنين من الزمان، فكانت إنجازا عربيا قوميا، ولم تكن (دولة دينية) كما يتوهم ذلك الذين لا يعلمون، وعندما بدت في الأفق مظاهر الانتكاس لهذه المفاهيم القومية العربية الذي ألقاها في تربة الدولة العربية (الإسلام الحضارة) بفعل العصبية القبيلية التي أحيها الأمويون، وبفعل (الشعبوية) التي غذها دهاقنة الفرس.

فالجاحظ (١٦٣هـ - ٢٥٠هـ) - من المعتزلة- يقر لهذا الغرض- غرض تأليف القوة لعناصر الدولة- يعن ذلك في قوله: وكتابتنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم، إن كانت مختلفه، ولنزيد الألفة، إن كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أنسابهم لتجتمع كلمتهم ولتسلم صدورهم، وليعرف من كان منهم موضع التفاوت في النسب فلا يغير بعضهم مغير، ولا يفسده، عدو باباطيل مموهه وشبهات مكروهه فإن المنافع العليم المكيد العظيم، قد يصور لهم الباطل في صورة الحق ويلبس الإضاعة في ثياب الحزم).

فهو يتحدث عن مهمة التأليف القومي بين الجماعات المنحدرة من أصلاب متعددة والتي كانت تنتسب أصولها إلى حضارات مختلفة، والتي غدت الآن رعيه واحدة للدولة العربية، يتحدث عن هذه المهمة باعتبارها ضرورة يحيط بها الأعداء والمناهضون من أصحاب العصبية القبيلية ومن دعاة الشعبوية، ويترصدون بها الدوائر ويتحدث عن الروابط التي أخذت تمثل خيوطا قومية تشدهم جميعا نحو مركز واحد تكون منهم كلا قوميا، وفي مقدمة ذلك روابط اللغة الواحدة والفكر الواحد والعادات والتقاليد والشمائل والتكوين النفسي، ويرى أن هذه الخيوط قد غدت من الوضوح بحيث فاقت وحدة النسب.

يقول الجاحظ: إن العرب جعلت اسماعيل وهو ابن أعجميين (إبراهيم وهاجر) - عربيا لأن الله فتح لهاته بالعربية ثم حباه من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهمهم على أكرمها، فكان أحق بذلك النسب، وأولى بشرف ذلك الحساب، وإن العرب لما كانت واحدة فاستووا في التربيية، وفي الشمائل والهمة وفي الأنفة والجهة وفي الأخلاق والسجية، فسكبوا سكبوا واحدا وكان القالب واحدا، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط، وحين

<sup>1</sup> د. محمد عمارة: المرجع السابق ص ١٦  
<sup>2</sup> رسائل الجاحظ ج ١ ص ٢٩ تحقيق عبد السلام هارون، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤

صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص، وفي باب الوفاق والمباينة، من بعض ذوي الأرحام، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تتأكحوا عليها وتظاهروا من أجلها وامتعت عدنان قاطبة عن مناقحة بني إسحاق، وهو أخو إسماعيل وجاؤوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان، إن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة<sup>1</sup>.

هذه الروابط الجديدة غدت قلباً واحداً سكبت هذه الجماعة سكباً جديداً واحداً حتى صارت (رحماً) ولدت منها هذه الجماعة (ولادة أخرى) رغم اختلاف أصولها العرقية والحضارية. على هذا التآلف القومي في الإسلام الحضارة يلفت انتباهنا موقف الفقهاء والمتكلمين وأعلام الفكر السياسي الإسلامي، عندما يتحدثون عن عروبة الدولة وسلطاتها العليا، فكثير منهم اشترط أن يكون الخليفة والإمام عربياً من قريش، مع التنويه أن هذا الشرط لم يظهر إلا عند بدء تغلب الأسر الأعجمية والاتجاهات الشعوبية على الخلافة العربية العباسية، فكان اشترط القرشية تعبيراً عن موقف قومي ضد عجمية الدولة.

بل الذين لم يشترطوا القرشية أي العروبة النسبية نراهم اتفقوا على أن يكون الخليفة بالغا في الفقه والعلم درجة الاجتهاد، ومعلوم أنه لن يبلغ أمراً مرتبة الاجتهاد إلا إذا فقه القرآن والسنة وعلوم اللغة العربية اللازمة لفقه مصادر الشريعة، مما يجعله بالمعايير الفكرية والثقافية والحضارية عربياً.

هكذا وضع الإسلام - الحضارة مع العروبة ومع السمات والقسمات التي أخذت تشد الجماعة البشرية العربية إلى حيث الطريق المؤدي إلى امتلاكها قسمات القومية العربية الواحدة.

ونشير إلى أن الإسلام الدين وقف مع العروبة وذلك بإعطاء العرب مكاناً متميزاً في دعوته وحركته رغم عالميته في أصول الاعتقاد.

والحقيقة أن الإسلام الدين ((توحيد الأئوهية - الإيمان بالبعث الأخروي - العمل الصالح المؤسس على التكليف المترتب على امتياز الإنسان) بالفعل والرشد والتمييز والاختيار، ليس خصوصية عربية حتى يكون قسمة من قسمات العرب القومية، وإنما ذو قسمة عالمية

<sup>1</sup> رسائل المحاظ: ج ١ ص ٢٩ - ٣١  
<sup>2</sup> د - عمارة: الإسلام والعروبة والعلمانية ص ٨



وإنسانية، وذو طابع عام يتحدى الأمم والشعوب والقوميات والحضارات، إنه كالقوانين العامة التي - تعلميتها - تتعدى صلاحيتها كل ما على الأرض من حدود وتواصل وتقسيمات وسدود .

إننا هنا بإزاء الإسلام الدين، الذي لا يعني بالقومية، أي قومية، لكن هذا لا يعني أنه ينكر القومية أو يناصبها العدا، فعالمية الإسلام - كدين - لا يعني إنكاره أو تنكره للواقع الذي يعيش فيه الناس والقومية بعض هذا الواقع الذي تعيشه الجماعات البشرية يستوي فيه المسلمون، وغير المسلمين .

بل لعنا واجدون بين الإسلام الدين، وبين العروبة ما هو ما هو أكثر من تعايشه معها كحقيقة وكقبوله لها كواقع واجدون بينهما روابط وعلاقات، لا تنفي التناقص بينهما فقط، وإنما تجعل منهما مزيجاً يبدو فيه الإسلام وبه من بداياته الأولى، وفي واقع أمتنا العربية - دينا عربياً، كما تبدو أمتنا، شعب الإسلام المتميز بين كل الشعوب شرفت بالتدين بهذا الدين، فها نحن، نجد الإسلام الدين رغم عالميته التي تتحدى نطاق حدود القوميات، نجده يطلب من أبنائه، إن هم أرادوا فقه معجزته، ووعي آيته العظمى، أن يتعربوا .

فالعرب هم الطليعة التي أخذت علي عاتقها بتكليف، واصطفاء من السماء نشر هذا الدين وحمله، وإذ كان هو الحافظ للذكر الذي أنزله، فإن طلائع خلفاء الله بهذه المهمة القدسية كانوا هم العرب المسلمين .

فالقرآن الكريم هو آية الإسلام ومعجزته الخالدة، وهو في الآن نفسه فخر لمحمد كرسول الله، قال ﷺ: {إنه لذكر لك ولقومك..} {الزخرف/٤٤}، ثم أضاف فيها العرب على أنه مسائلهم على هذه النعمة، قائلًا: {... وسوق تسألون} {الزخرف/٤٤}.

هذا هو رأي الإسلام الدين ذلك هو رأي الإسلام الحضارة التي شاهدها العرب من سادهم ولحق بهم وتابعهم.. أنهم أمة دون الناس، كما

1 - عمارة: الإسلام والعروبة والعلمانية ص 9  
2 - عمارة: الإسلام والعروبة والعلمانية 9  
3 - عمارة: الإسلام والعروبة والعلمانية 9  
4 - عمارة: المرجع السابق ص 9



قال الرسول في مقدمة المعاهدة التي أبرمت بين المؤمنين من قريش ويثرب.

إذا كان هكذا الإسلام على يد العرب وعلى نفوذهم وسيادتهم وتاريخهم وشوكتهم، فقد أخذت الرياح تجري بغير ما تشتتهي السفن، وأخذ المرض يدب في جسد هذه الحضارة بعد نشوء الشعوبية والحركات الاجتماعية والسياسية التي تكيد للعروبة والإسلام (الزندقة)، وعندما بدأت الدول الانفصالية الناشئة في جسد الخلافة.

هكذا بدأ التراجع الحضاري في قسمة الحضارية (العنصرية المملوكية - التركية) التي لجأت إليها الخلافة العباسية كي تكون أداة الخلافة الطيبة، فلما نمت وتضخمت حولت الخلافة إلى أداة لها!! - بدأت هذه الحقبة عندما ظهرت آثار سيطرة هذه المؤسسة العسكرية في الميدان الفكري والحضاري، فبدأت الأمة الأولى خطواتها - وإن ببطء - نحو عصورها المظلمة، تلك التي استمرت عصري المماليك والعثمانيين، وحتى مطلع العصر الحديث.. وفي هذه الحقبة لم يبق للأمة من (الإسلام: الدين) ولا من (الإسلام: الحضارة) سوى الشكل والرسوم والطقوس، اللهم إلا حركات ضعيفة ومحدودة للمقاومة، حفظت نبض الدين والحضارة، دون أن تقوى على مغالبة عوامل الانحطاط ومظاهره التي طبعت المجتمع بطابعها العام.

ويومئذ وفتت اهتمامات (الدولة) غالباً وأساساً عند الأشكال والمظاهر والأوعية والقشور، فاهتمت بعمارة المساجد والمدارس، وزخرفتها.. على حين كانت (العلوم) التي تدرس في هذه المدارس والفكر الذي يلقي في هذه المساجد مثقلاً بالجمود والشعوذة والخرافات...

وانتشرت تكايا التصوف وخوانقه، على حين انحسر التصوف الفلسفي ليفسح المكان والميدان (للطرق) الصوفية التي لا علاقة لها بالتصوف الحق، والتي امتلأت بالأدعياء وأصحاب الحيل المقبلين على الدنيا من دروب الارتزاق.

وفي الأدب استمدت المحسنات اللفظية والشكلية - (البديعية) - بالجواهر والمعنى العميق، وفي (الفكر) سادت (الحرفة) وتراجع الخلق والإضافة والإبداع، فكان عصر (المدونين والمصنفين والشارحين) والمعلقين وأصحاب الحواشي والمتون وحكاكات الألفاظ الذين أخذوا في اجترار التراث وكان إنجازهم الأعظم هو تصنيف

الموسوعات التي حفظت علوم السلف وتراثهم، خصوصاً بعد دمار مكنتات بغداد يوم اجتاحتها النار...

وفي هذا المناخ، الذي جمدت فيه الحضارة وتراجعت وكفت عن العطاء كانت (الدولة - السلطنة) أعجمية أو قريبة عن العجمية، غريبة عن روح الحضارة العربية الإسلامية، وفي أحسن الحالات عاجزة عن الارتقاء إلى آفاق روح هذه الحضارة... استوى في ذلك المماليك والعثمانيون... ولذلك تراجعت أهم قسّمات هذه الحضارة وهي (العروبة) و (العقلانية).

ولقد كانت هذه السلطنة صاحبة مصلحة حيوية في تراجع قسمة (العروبة) لضعف الخيوط التي تربطها بها، أو انعدام هذه الخيوط... لكن هذه (السلطنة) كانت مسلمة فسياد العصر ذلك الفكر الذي جعل رابطة الإسلام والمعتقد الديني بديلاً لرابطة العروبة، حتى كاد أن يجعلهما نقيضان.

وإلا فمن كان يتصور أن حكماً أمثال: (وصيف) و(بغا) و(استكين) و(خمارويه) و(كافور) و(كتبغا) و(كجك) و(جقمك) و(خاير بك) و(خسرو) و(خوشير) و(جركس) و(الكرجي) و(أرناؤوط) ... الخ من كان يتصور أن حكماً من أمثال هؤلاء الغريباء روح الأمة وقوميتها وحضارتها تزدهر في عهودهم وتحت سلطانتهم قسّمات العروبة القومية، فتفعل فعلها وفي مقدمة هذا الفعل مصارعة هؤلاء الحكام، والثورة ضد استبدادهم بحكم أمة هم عن قوميتها وروحها وطابعها الحضاري غريباء... لقد كانت رابطة الملة والدين والاعتقاد هي الخيط الوحيد الذي يجمع بين هؤلاء الحكام وبين الرعية العربية فأبرزوه وحيداً وجعلوا منه البديل، بل والنقيض، الذي ينفي الرابطة القومية العربية وذلك خلافاً لما استقر عليه الأمر، فكراً وتطبيقاً، في تراثنا الديني والحضاري، قبل عصر الجمود والعجمة والانحطاط..

أما كيف استطاع هؤلاء الحكام (الأعاجم) أو (أشباه الأعاجم) أن يشيعوا في المناخ الفكري دعوى تنافس العروبة مع رابطة الإسلام... أو كيف استطاعوا تطويع علماء الأمة وفقهائها لهذه الدعوى.. إن لذلك صلة وثيقة بذلك التطور الذي أصاب المؤسسات الدينية خلال تلك العصور.

لقد اهتم هؤلاء الحكام في الإسلام بالشكل والرسوم فشهدت عمارة المؤسسات الدينية في ذلك العصر تطورا جعل إقامة المساجد والمدارس والتكايا والخوانق وصيانتها والإفراق عليها أمرا عظيما يتطلب الكثير من الاموال والجهود والنفقات... الأمر الذي حتم اختصاص الدولة بتلك المهام... ثم أوقفت على هذه المؤسسات الأوقاف الواسعة، فكان أن تحول العلماء والفقهاء ومثقفو ذلك العصر إلى منتفعين بريع هذه الأوقاف، أي إلى موظفين لدى الدولة، وفقدوا الاستقلال الذي كان يعينهم على النقد والاعتراض على تجاوزات الحكام وعرف العصر (وعاظ السلاطين والأمراء) أولئك الذين برروا للسلطة تجاوزاتها ونظروا - أو على الأقل صمتوا لاستبعاد قسمة العروبة: أو دفعها للخلف... فكان أن اعتبرت الرابطة الإسلامية بديلا، وأحيانا خطرا للرابطة القومية العربية.. ونظر البعض إلى العروبة نظرتهم إلى العصبية الجاهلية... بل وغدت المقولات الشاذة من المسلمات...

هكذا - وفي ارتباط بالعصور (المملوكية - العثمانية) المظلمة - بدأت دعوى (التناقض) بين (العروبة) وبين (الإسلام) ... ومن ثم فلقد كان لا بد لهذه الدعوى أن تنهار بانقطاع ليل تلك العصور المظلمة عن حياة الإنسان العربي عندما استيقظ واستنار في عصره الحديث<sup>1</sup>

<sup>1</sup> د - عمارة: الإسلام العروبة العثمانية ص ٢١

## البحث الخامس : السياق العربي في الإسلام في العالم المعاصر

نبتدئ هذا السياق في علاقة العرب بالدولة العثمانية التي تفردت في قيادة العالم الإسلامي، وللإصاف نحن لا ننكر ما قدمه العثمانيون من خدمات للإسلام، بقول ابن خلدون: إذ بينما كانت الخلافة ضعفت، وفسد أمرها، ولم تعد قادرة على صد أعبائها، جلب الله بحكمته وحسن تدبيره وإحسانه حكاما وحماة جددا، من قبائل الترك العديدة العظيمة حتى تبعث من جديد الروح في جسم الإسلام الأيل إلى الفناء ويعيد للمسلمين قوتهم .

بيد أننا نقدر رأي الدكتور فهمي جدعان في تحليله للحكم العثماني، يقول: إن الوحدة السياسية التي كونها الحكم التركي العثماني في الأقطار العربية كانت وحدة سكونية صورة، عاطلة إلى حد بعيد عن الدينامية السياسية الاجتماعية الثقافية التي تفرضها كل وحدة حقيقة، وفي إطار هذه الوحدة انسحب العرب من مركز القيادة والتوجيه ليصبح تابعا محدود الأثر باهت التأثير فاتر الروح إلى حد بعيد، على الرغم من أن العثمانيين منحوا المقاطعات العربية شيئا من الاستقلال الذاتي، وأجلوهم من مكان بارز من الإدارة الداخلية، ومن النظام القضائي والمؤسسات العسكرية، أما اللغة العربية فقد بقيت لغة الشريعة ولغة المعاهد الدينية كالآزهر<sup>١</sup>.

لكن هذه الدولة نخرتها الأمراض، مما ساد فيها عدم الاستقرار وتضارب المصالح والأهواء، واستفحلت مظاهر التخلف والجمود الحضاري وزاد الطين بلة أن العثمانيين اتخذوا موقفاً شذوا به عن الأسر أو الدول غير العربية التي بسطت سلطاتها على العرب من قبلهم، أما العثمانيون فقد شذوا عن هذا السبيل عندما احتفظوا بتركيبتهم حتى لقد احتقروا العرب والعروبة، بل راودتهم أحلام التتريك، فكانوا البادئين لتلك المأساة، وهي خلق التناقض بين العروبة والإسلام.

<sup>١١</sup> ألبرت جوران: الأسس العثمانية للشرق الأوسط لوجمانز، ١٩٦٩

<sup>٢</sup> د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ص ٩٦ ، ٩٩

<sup>٣</sup> د. محمد عمارة: الإسلام والعروبة والعلمانية ص ٢٢

فالأترك أهملوا أمراً عظيماً، وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح، وأحب أن يعمل بها السلطان سليم، وهي قبول اللسان العربي، لسان الدولة، وتعميمه بين من دان بالإسلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه، ويمشوا على سنن الارتقاء بعلمه ومكارم أخلاقه ومحاسن عوائد أهله<sup>١</sup>.

وأمام هذا الضعف والعجز العثماني، وأمام الخطر الأوروبي الاستعماري الذي بدأت تظهر طلائعه العسكرية في حملة بونابرت، أمام ذلك بدأت انتفاضة أمتنا تبحث عن الذات محاولة تجاوز الواقع والتخلف الحضاري الذي كرسه الليل العثماني.

وإذا كان المجال هنا لا يتسع لتبيان الآلية التي قامت بتلك اليقظة العربية، فإننا نذكر بأهم الحركات والشخصيات التي قامت بذلك.

١- الوهابية: التي قادها مؤسسها محمد عبد الوهاب والتي شهد الواقع العربي الإسلامي حركتها حوالي منتصف القرن الثامن عشر، فقد مثلت جهة العروبة واحدة من بواكير حركات اليقظة الإسلامية ذات البعد العربي والطابع العربي التي تصدت للعثمانيين، فهي لم تقف عند التجديد السلفي لعقائد الإسلام - وهو موقف معاد للفكر العثماني الممثلة بالشعوذة والخرافة - وإنما أقامت دولة عربية، وحاربت في سبيلها آل عثمان.

وعلى جهة الفكر الإسلامي السياسي القومي، كان بتبني الوهابية شرط قرشية الخليفة يعني تبنيها لضرورة عربية الدولة، ومعلوم أن هذا الشرط الفقهي لم يظهر إلا عندما بدأ تغلب غير العرب على مقاليد الدولة في العصر العباسي الثاني<sup>٢</sup>.

٢- السنوسية: التي أسسها محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ - ١٨٥٩) في ليبيا والتي خاضت الحروب المريرة ضد الزحف الاستعماري على إفريقيا شمال الصحراء وجنوبها فقد تعدت التجديد إلى حيث كانت موقفاً من مواقف اليقظة

<sup>١</sup> هذا الكلام للمصلح جمال الدين الأفغاني انظر في ذلك د - محمد عمارة: الإسلام والعروبة والعمانية ص ٦٠  
د - عمارة: مواقف الوهابية من حركة التجديد، مجلة الموقف العربي، أكتوبر سنة ١٩٧٩م

العربية بما مثلته من اتجاه غير ودي تجاه الضعف العثماني أمام الغرب الاستعماري وتجاه سيطرة العثمانيين<sup>١</sup>.

٣- المهديّة التي أسسها بالسودان محمد أحمد المهدي (١٨٤٤م - ١٨٨٥م) فقد مثلت الثورة ضد الأتراك، ورافداً من روافد اليقظة العربية الإسلامية الحديثة، حتى كان المهدي يقول لأنصاره: إن النبي ﷺ قد حرصني على قتال الترك، فالترك لا يظهرهم إلا السيف وكان يدعو الناس إلى مخالفة الأتراك حتى في العادات والسلوك والأزياء<sup>٢</sup>.

٤- الجامعة الإسلامية: فهذا التيار قد بدأ في مجابهة المد الاستعماري الغربي على طول امتداد الشرق العربي الإسلامي، ويتميز هذا التيار بدعوته إلى ما يلي:

١- سلفية دينية تعود إلى المنابع الأولى والنقية والبسيطة للإسلام.

٢- عقلانية إسلامية تستخدم العقل وبراهينه في فهم الدين وفقه نصوصه ووعي مقاصده.

٣- تجديد ذاتي يبعث برسالة الأمة الفكرية وتراتها الحضاري.

٤- النظر إلى الحضارة الغربية من موقع المتميز المستقل لا التابع اللاهث.

ومن أبرز رجال هذا التيار:

جمال الدين الأفغاني: فقد أدرك أن الدولة العثمانية فشلت في تطوير الأقاليم العربية، لسبب بسيط هو أن الترك لا يحسبون للتغيير، وهم ليسوا كالعرب الذين أجادوا النهوض بذلك، بل لقد أدركوا أن العثمانيين قد غنوا عقبة كآداء أمام نهضة هذه الأقاليم وسدا منيعاً للأمم المحكومة يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة<sup>٣</sup>.

ورأى الأفغاني من شذوذ الأتراك عن التعريب كما تعربت من قبلهم الدول الأيوبية المملوكية والبويهية ومحمد علي وأسرته - رأى

<sup>١</sup> د - عبارة: العرب والتحدي طبعة الكويت سلسلة عالم المعرفة مايو سنة ٩٨ ص ١١١

<sup>٢</sup> منشورات المهديّة ص ٧٤ تحقيق د محمد إبراهيم سليم مطبعة بيروت سنة ١٩٦٩م.

<sup>٣</sup> الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني، تحقيق د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ ص ٩٤٨

العقبة المانعة من جراء هذا التحول التاريخي فسعى إلى السلطان عبد الحميد لتعريب دولته ذكرا أن هذا المشروع أيده محمد الفاتح والسلطان سليم...

ويرى الكواكبي ضرورة عقد لواء قيادة هذا المحيط الإسلامي الكبير للأمة العربية إذ العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية، وهم أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين، وقدوة للمسلمين، حيث كانت بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء، فلا يأتفون من إتباعهم أخيراً.

ولقد تمثل ابن باديس (رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر) الجناح المغربي لتيار الجامعة الإسلامية، وكما يقول المذكور فلا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر إلا هذا الحبل المتين، وقوله: حق على كل من يدين بالإسلام، ويهتدي بهدي القرآن أن يعتني بتاريخ العرب وبيدنيهم وما كان من دولهم قبل الإسلام، ولعناية القرآن بهم، ولاختبار الله لهم لتبليغ دين الإسلام، وما كان الله ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال.

وقوله: وهذا هو رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية الذي كان له الفضل بإذن الله عليهما... هذا هو رسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذي نهتدي بهديه ونحترم القومية العربية، ونوجهها توجيها ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون، وإلى أعتابه الكريمة نتقدم بهذه الكلمة في مولده الشريف الذي هو عيد الإسلام والعروبة والإنسانية كلها.

وقوله أيضاً: إن المستعمرين علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعلم عقائده وأخلاقه وآدابه واحكامه.

ثم يقول: فهمنا والله ما يراد بنا، وإنما نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة الشريفة عزماً وسمضى بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا.

1 الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي دراسة وتحقيق د. عمارة: بيروت، ط ٢، ١٩٧٥ ص ٢٢٣  
2 آثار ابن باديس ج ٤ ص ٥٩، إعداد عمار الطالبي مطبعة الجزائر سنة ١٩٦٨  
3 آثار ابن باديس ج ٤ ص ٢١  
4 مجلة الوطن العربي في ١٣/٧/١٩٨٤ مقال السيد الميلي



وقوله: ليس تكوين الأمة يتوقف على اتحاد دمها، ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحاداً يظهر في وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والأمال.

### الشيخ محمد عبده

ولهذا الشيخ الجليل تصويبات فذة في الربط العضوي بسين العروبة والإسلام نجده في مظان ومظاهر متعددة.

- فهو يرى أن المنعطف الذي تحول فيه الإسلام من الصعود إلى الانحدار في مجراه التاريخي الحضاري كان بسبب الفكك بين العروبة والإسلام يقول المذكور: كان الإسلام ديناً عربياً، ثم لحقه العلم فصار علماً عربياً بعد أن كان يونانياً ثم أخطأ خليفة في السياسة (المعتصم) فاتخذ من الترك جنداً له، ولم يدخل الإسلام في دور الانحطاط إلا عندما افتقد في رأي الشيخ محمد عبده هذه الصفة العربية.

- وفي رأيه أن الأعراب من غير العرب مسؤولون عن وقف النزعة التقدمية في الإسلام حيث توهموا حسب تعبيره (أن المتأخر ليس أن يقول بغير ما يقول المتقدم).

- فهو يرى أن انحطاط الحضارة الإسلامية قد بدأ عندما استعجم الإسلام وانقلب أعجمياً.

- والشيخ عبده يتحدث في نطاق الإسلام عن جند عربي وجند أجنبي والنظر إلى هذه العناصر المسلمة باعتبارها أجنبية يتطابق مع موقف الرواد القوميين العرب الأوائل في نظرتهم إلى الوجود العثماني في البلاد العربية والذي دخل الدين بوتنية وباطماعه الدفينه، وهذا يعني أن العرب على بدواتهم كانوا وحدهم المؤهلين لاستيعاب روح الإسلام وأن العناصر الأجنبية بقيت تهدد من داخله.

<sup>1</sup> شبلي العيسى: عروبة الإسلام وعلميته، دار الطليعة، بيروت ط ٣، ٩٨٥ ص ٢١٤

<sup>2</sup> محمد عبد الإسلام بين العلم والمدينة ص ١٦٦

<sup>3</sup> د- محمد جابر الأنصاري رؤية قرآنية للمستغربات القرآنية بيروت دار الشروق ط ٢ ٩٩٩ ص ١٢٦

<sup>4</sup> د- محمد جابر الأنصاري المرجع السابق ص ١٣



- وهو يرى أن الأمة العربية موجودة منذ العصر الجاهلي وأن الإسلام حقق للعرب وحدة لم يعرفها تاريخهم، وقوم محمد علي وأسرته فقال: "استطاع أن يميّت ولم يستطع أن يحيي"، وإذا أضفنا إلى ذلك جهده في بعث اللغة العربية وإحيائها كلغة قومية.

## العروبة المحض

اتضح لنا مما سبق ارتباط العروبة بالإسلام ارتباطاً سياسياً وحضارياً ودينياً واجتماعياً لدرجة لا يكاد عصر من العصور ولا فترة من الفترات أن تخلو من هذا الارتباط أو الانطلاق.

وقد لاحظنا هذا الارتباط حديثاً في تيار الجامعة الإسلامية الذي بلورة جمال الدين الأفغاني، وكان هذا الارتباط واحداً من الأدلة على أصالة هذا التيار، الذي انطلق من التراث العقلائي للحضارة العربية الإسلام، وسعى بالتجدد الذاتي للأمة، وبتفاعلها مع الحضارات الأخرى، من موقع مستقل و متميز و راشد، إلى استشراف أكثر الآفاق استنارة و تقدماً، فاتتقى في فكر هذا التيار أي تعارض بين العروبة والإسلام، بل أصبحنا مزيجاً يعكس مكانة العروبة في الإسلام الدين والإسلام الحضارة، ومكانة الإسلام باعتباره الرسالة الخالدة التي بدأت الجماعة العربية مركز القيادة لشعوب الشرق منذ نزل الوحي.

ولكن بعد الحرب العالمية الأولى أحكمت أوروبا سيطرتها سياسياً وحضارياً على البلاد العربية، فكان أن أفرزت هذه السيطرة اتجاهات وأفكار تدعو إلى سلخ العروبة عن روحها وجوهرها ليسهل جعلها جثة هامدة بدون روح، وهذا هو التيار العروبي المحض الذي ابتدأ أساسياً بمشروع محمد علي وكان طبيعياً أن يتبنى هذا التيار العلمانية - صراحة وضمناً - لأنه عندما خاض معركته ضد الدولة العثمانية التي كانت تبرز مطامعها وتسلطها على العرب برابطة الدين لم تميز بين إسلام آل عثمان وبين الإسلام الحسن، هذا ونشير إلى أن القوى الاستعمارية الغربية قد أجمعت ضد المشروع العربي لمحمد علي وناصرت السلطة العثمانية، فلما زال خطر المشروع العربي كان مصدر الخطر من الدولة العثمانية أي من الإسلام فاستدارت بواسطة

<sup>1</sup> رسالة التوحيد ص ١٢٦ - ١٣٨ - ١٦٦

<sup>2</sup> د - عمارة: الإسلامية، العروبة، العلمانية، ص ٤٦

إرسالية التبشير، فكان أن تكونت، تحت رعاية الأمريكان ببيروت سنة ١٨٤٧م أول جمعية ثقافية بشرت بالعروبة فقط، ومن المؤسف حقاً أن يظل الشريف حسين -حتى بعد نفيه إلى قبرص- على ثقة بالشرف الإنكليزي مرجعاً المأساة والقدر إلى شخص رئيس الوزراء لويد جورج .

• فهل كان لقضية العرب القومية أن تنتصر في حلف مع الإنجليز والفرنسيين...؟؟

• وهل كان لهذه القضية أن تنتصر بقيادة مثل قيادة الشريف حسين؟؟

الإسلام المحض

لقد حدث الانبهار المريض بعد نجاح أوروبا الكاسح على حضارتنا وخاصة في نفوس المثقفين:

١- إن هذه الصفوة ما كان لها أن تعرف من حضارتها سوى الصورة المملوكية العثمانية.

٢- إن حركة الإستشراق تعمدت بث روح الهزيمة في عقولها وقلوبها.

٣- إن مراكز التبشير بحضارة الغرب قد نزعت ثقة الأمة بذاتها.

٤- إن جامعات الغرب ومؤسساته العلمية والفكرية كانت المصنع الذي مزج الكوادر السياسية والفكرية الوطنية، وكانت الثمرة من كل ما تقدم التعريب الذي انفرد بالساحة، وهنا عاد القانون القديم ليفعل فعله من جديد، فتطلعت الأمة إلى حصنها التقليدي ألا وهو الإسلام.

وكان أن برز تيار اليقظة الإسلامي وذلك بتأسيس الشيخ حسن البنا (١٩٠٦ - ١٩٤٩م) لجماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨م.

١ د- عمارة: الإسلام، والعروبة، العلمانية، ص ٤٤  
٢ د- عمارة: الإسلام، والعروبة، العلمانية، ص ٤٤

ونستطيع أن نرصد في ظاهرة الإخوان المسلمين ما يلي:<sup>١</sup>

١- لم يكن الإسلام عند هذه الظاهرة هو إسلام المؤسسات الدينية التقليدي التي ترسفت بالوقوف عند المتون والحواشي والتطبيقات والتهميشات.

٢- إن الإخوان المسلمين لم يبلغوا في فهمهم للإسلام ما بلغته حركة الجامعة الإسلامية عمقا وجرأة وحسما ورقيا.

٣- لم تكن حركة الإخوان في مستوى التواضع الذي رأيناه في الوهابية والسنوسية والمهدية.

لقد وقف تيار الإخوان فكريا بين بين، فلا هو بلغ عقلانية تيار الأفغانى ومحمد عبده ولا هو تدنى إلى بدوأة محمد عبد الوهاب، وبصورة إجمالية فهذا التيار لم يتخذ موقفا واحدا من قضية العروبة، بل لقد اختلفت مواقفه باختلاف القادة أو مواطنهم القومية، وحظهم في هذا الميدان.<sup>٢</sup>

والغريب أن يظن الكثيرون منا غافلين عن مخاطر تلك الثغرة التي تفتحتها في صفوفنا الوطنية والقومية تصورات غير موضوعية عن تناقض العروبة من الإسلام، وذلك على الرغم من أن الإسلام الحق والعروبة الحقّة يكونان مزيجا واحدا.. فالأمة العربية المتميزة قوميا في المحيط الإسلامي مدعوة ومرشحة لقيادة هذا المحيط بسبب إمكاناتها في الدنيا والدين (موقعها في الإسلام)، ثم هل اعتبرنا من موقف أعدائنا؟؟ أولئك الذين ظلت أعينهم ضدنا على هذه الثغرة (ليضربوا كلا من العروبة والإسلام... وهلا وعينا إسلامنا وعروبتنا جيدا وأبصرنا علاقتهما العضوية فقطعنا على أعدائنا الطريق.

هذا وإذا كانت منهجية هذا الكتاب تقوم على فتح - وياقتضاب سريع- الملف الأيدلوجي، فقد وجدت من الضروري الإشارة السريعة إلى توفيقية الناصرية بين العروبة والإسلام.<sup>٣</sup>

١ - د - عمارة، المرجع السابق ص ٤٩

٢ - د - عمارة: المرجع السابق ص ٥١

٣ - د. محمد جابر الأنصاري: الفكر العربي وصراع الأضداد، ط ٢، ١٩٩٩، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص ٥٠٥ وما بعدها.

## الخاتمة

الإسلام - مفهوماً - ذو دلالة حضارية ودينية وسياسية (أيديولوجيا) والأمر نفسه بالنسبة للعروبة، فقد تفهم على أنها حالة إنسانية، أو حضارية أو حالة أيديولوجية سياسية، وإطار يبحث عن صورة والإسلام كان هو الصورة.

ونقصد من الحالة الاقتصادية الإنسانية تلك الحال التي يمارسها ويعيشها الإنسان بالشكل العادي والطبيعي للأمر، فشيء طبيعي أن أحب أبي وأمي وإخوتي والحي الذي أعيش فيه، وبلدي ووطني الخ... وهو ما أطلقت عليه الشاعر الأخضر<sup>١</sup>.

فالرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة من مكة التفت إليها وهو يقول: والله لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب أرض الله إلى الله وأكرمها عليه، ولو لا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت.

هنا يخضع الرسول ﷺ لعاطفة حب الأرض (الشاعر الأخضر) حب الوطن، لكنه كان مدفوعاً لعاطفة أخرى هي عاطفة الرسالة أو الدعوة<sup>٢</sup>.

ويعرف روبرت م. ماكيفر، بين الظاهرتين فيقول: الجماعة هي دار الإنسان الأوسع لأنها دار شعبه، لكن الجماعة هي الميدان الذي يمارس فيه معتقداته، ويدافع عن أية قضية من القضايا التي يؤمن

<sup>١</sup> حسين فضل الله: الإسلام والعروبة، مجلة المستقبل العربي عدد ١٧٦ لعام ١٩٩٣

<sup>٢</sup> - برهان رريق: الوطن في الإسلام مشق دار الأنصار ٩٩٩ ص ٢١٨

<sup>٣</sup> أكرم زعيتر: القومية العربية وعالمية الإسلام، الندوة القومية

بها، ولا بد من التمييز بين تعلق الإنسان بجماعته وتعلقه بهذه المعتقدات، فالتعلق بالدار الاجتماعية شعور يشمل ساكني الدار وسكنهم، ولكن التعلق بالمعتقدات أو بالقضية يقف عند حد القيم الثقافية التي نؤمن بها، والتي قد تخالف قيماً ثقافية أخرى يؤمن بها غيرنا من ساكني الدار، والإنسان بحاجة إلى هذين المتعلقين، لأن التعلق بالدار يعبر عن علوية القوى، وعن تحقق كيانه الاجتماعي، ولكن التعلق بالمعتقد أو القضية يتجاوز العلاقات الشخصية، ويعبر عن علاقة الجماعة بالحياة وبالكون، ويكون التعلق بالجماعة أو بالقضية كلا متكاملًا، فالتعلق بالجماعة ودارها يرضي الحس الاجتماعي ويملاً العاطفة حرارة، ولكنه يفتقر إلى محتوى، وإلى إمكان النمو ما لم يقترن بالتعلق بالقضية، فالغلو في الشعور القومي مدعاة للغرور، ولتقديس السلطة، ولتأليه القيم الخارجية والنسبية والفناء في مجد الأمة، والحط من أمجاد الآخرين، وإذا أردنا الحد من ذلك أيقظنا في النفوس الحس الاجتماعي بالمعاني الذاتية للقيم ووجهاتها نحو نسق الحياة الذي نتمنى أن تعتنقه ويجب أن تبرز أهمية الجماعة بدون أن يؤدي ذلك في حال من الأحوال إلى توحيدها<sup>١</sup>.

وفي ضوء ما تقدم، فالعروبة دار، إنها الجماعة أما الإسلام، فهو دعوة ورسالة وعقيدة وموقف، من الكون والإنسان والحياة، والعروبة حسب قول العلامة الشيخ حسين فضل الله كما هي الزنوجة عندما تأخذ هذه الحال دائرة من الأرض، أو من اللغة أو من العادات والتقاليد... إنها إطار يبحث عن الصورة، عن المشروع.

وفي داخل كل من العروبة والإسلام، شيء يحتضن الآخر، وإن كان لا يضمه ضمة عنيفة تمثل الوحدة<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> كتابه تكوين الدولة: ترجمة د. حسن صعب، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٦، ص ٥٢٠ و ٥٢١.  
<sup>٢</sup> الإمام الشيخ حسين فضل الله، المرجع السابق ص ٥

هل تتعارض الحال الإنسانية مع المشروع؟....

لو بدأنا نورخ للإيمان - منذ وعيه - بها، لاستطعنا القول إن عصر التاريخ وجد بوجود التاريخ العربي في أول موجة بشرية خرجت من الجزيرة العربية ممثلة بالأكاديين، في الوقت الذي يسميه المؤرخون بدء عصر التاريخ<sup>1</sup>.

واستمر تاريخنا العربي يصنع قممه وذراه في بطولات إنشائية - يبني حضارته السبع التي منها ست حضارات عالمية، خلافاً للحضارة اليونانية الوحيدة التي لمعت في التاريخ ثم انطفأت<sup>2</sup>.

والنبوة خاصة عربية لم توجد في أية حضارة أخرى، فلم يعرفها كونفوشيوس في الصين ولا بوذا وبراهما في الهند، ولا غيرهم من ذوي الرسائل الإنسانية الكبرى، وإنما ظهرت مبكرة عند العرب، ولا نقف عند أشكالها الأولى، كما ظهرت في الزبور وصحف إبراهيم، ولكن عند أشكالها الكبرى<sup>3</sup>، كما برزت في شخص المسيح الذي بشر بالإسلام والمحبة، وبلغت هذه الرسالة قمة كمالها في القوة والنضج على يد الرسول العربي محمد ﷺ، فكان الدين الإسلامي مصدقاً لما بين يديه<sup>4</sup>، متمماً للناموس الإلهي الذي بدأ في الموسوية والعيسوية.

لقد تأسس جذر الاجتماع العربي على يد أبينا إبراهيم الخليل باتي البيت، ثم كان مشروع قصي المقرش للمجتمع، لكنه تم الخروج على هذا المشروع التوحيدي علي يد قبيلة خزاعة (خزاع تغني خرج وانفصل)، يقول ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظومونه وينحرون له، فقال بعضهم لبعض، تعلموا والله ما قومكم على شيء...<sup>5</sup>

العرب إذن لا شيء - حسب القول السابق - لأنه لا جذر للاجتماع لديهم، بعد أن خرجوا عليه وأخرجوه من بدعة خزاعة.

<sup>1</sup> قراءات في الفكر القومي مركز دراسات الوحدة العربية الكتاب ٢ مقال د - شاكر مصطفى:

<sup>2</sup> مبادئ التاريخ العربي ص ١٠٢

<sup>3</sup> المرجع السابق، ص ١٠٢

<sup>4</sup> المرجع السابق ص ١٠٤

<sup>5</sup> آل عمران/ آية ٣

سيرة ابن هشام/ ٢٢٢/ وما بعدها والروض الأنف ٢/ ٣٤٧

لقد شاعت الأحلاف والأحزاب داخل جسم قريش محاولة الإصلاح، فكان حلف المطيبين، وحلف الفضول، وكانت منظومة الإيلاف بأبعادها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية<sup>١</sup>.

لكن قريشاً وغيرها ما كان لها أن تؤسس - كمالاً - للاجتماع العربي أو للقلوب التي في الصدور إلى أن كان الدين الحق - الإسلام، فكان بحق جذر الاجتماع العربي الأمتل، ووجدت به أمتنا الضالة التي كانت تبحث عنه، وهذا معنى ما قاله المغيرة بن شعبه بثقة واعتزاز لرستم القائد الفارسي لقد أصبحنا ذوو رسالة.

لقد أعطى العرب للإسلام كل شيء (الحديث إذا ذل العرب ذل الإسلام) فأعطاهم كل شيء، وهذا هو مغزى قول الدكتور عمر فروخ: عندما يخرج الإيمان من القلب تخرج منه العروبة<sup>٢</sup>، وهناك بضع وتسعون حديثاً نبوياً كلها تمجد العرب، وفي ثمانية مواقع وصف القرآن الكريم بخمس صفات هي العظمة والإبانة والحكمة والمجد والكرامة، وأعطاه تعالى ثمانى مرات بثمانية مواقع مقارناً بصفة العروبة<sup>٣</sup>، فالعربية - كما يقول المبدأ الأصولي - جزء ماهية القرآن، والقرآن الكريم عربياً لغةً وحكماً وبيانا، وإن أعظم ثمرات وعي الإسلام كان في الأمة العربية<sup>٤</sup>، وبلاد العرب هي جغرافيا الإسلام، فها هو الرسول الكريم يدعو لأهل الشام: طوبى لأهل الشام طوبى لسكنى الشام.

ويقول: المدينة المنورة قبة الإسلام ودار الإيمان وأرض الهجرة ومبتدأ الحلال والحرام.

وها هو وجه الرسول يتقلب في السماء يرنو أملاً ورجاء أن يجعل الله مكة مهوى الأفئدة وقبلة المسلمين قال تعالى: لقد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فأينما كنتم فولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام<sup>٥</sup>.

١ رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام، ط١، ٩٨٤، دار التنوير والنشر بيروت ص ٢٧  
٢ الروض الأنف ٦١/٢  
٣ محمد خالد عمر: عروبة الإسلام، وإسلام العروبة ص ٧٦  
٤ المرجع السابق ص ٩٦  
٥ المرجع السابق ص ١١٢  
٦ المرجع السابق ص ١٠١  
٧ قلدي فلجعي العرب مادة الإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية الكتاب ٣ قراءات في الفكر القومي ص ٤٥٧ - ٤٦٢



الإسلام بالضرورة يعني العروبة والعروبة بالضرورة تعني الإسلام، لأن الله يعلم حيث يجعل رسالته، ويعلم كيف يختار هذه القاعدة الاجتماعية صفاء وصدقا وحلما ومروءة.

لنتأمل قليلاً هذين الحديثين النبويين، يقول الأول: المروءة دين العرب.

ويقول الحديث الثاني: من لا مروءة له لا دين له، وهكذا يتضح التقارب بين منظومة الأخلاق عند العرب، وتلك المنظومة في الإسلام، وما الإسلام بحق إلا المصفاة التي صفى أخلاق العرب من أدرانها.

مهما تكلمنا عن تعزيز الإسلام للعروبة، فذلك قليل، وليس مرد ذلك تعصبا فحاشا لسيدنا عمر ذلك (اللهم اجعل بيني وبين الفرس جبلا من نار).

لقد أدرك القرآن الكريم وأدرك الرسول، وأدرك الصحابة وعلى رأسهم عمر أنه لابد لهذه الرسالة من قاعدة سوسولوجية هي العرب.

النحلة تحلق في السماء وتهتدي إلى هذه الزهرة وتلك، لكن لابد لها من قاعدة تنطلق منها هي الخلية.

ماذا لو لم يعتمد الرسول على بني هاشم ثم العرب بعد ذلك ألم يكن ذلك يعيب دعوته ويعيب دعوة سيدنا إبراهيم؟؟ لنتأمل في معركة القادسية، فهي معركة العرب في الدرجة الأولى، إذ جيشت الأمة كل طاقاتها وإمكاناتها بما في ذلك الأخوة المسيحيين (بني تغلب) ولنا أن نتصور مصير الإسلام لو كان النجاح للفرس.

لقد كان للنص الإسلامي (القرآن والحديث النبوي) عمله وفعله وحركته حيث جرى أعظم حوارية بين هذا النص والاجتماع والتاريخ، ونتج من جراء ذلك المشروع الحضاري الكبير الذي وجدانه الإسلام، ودعا فيه العرب ومواليهم الذين اصطفوا معهم لنصرة هذا المشروع.

١ د - رضوان السيد: مفاهيم الجماعات في الإسلام ص ٦



ونظام الدولة هذا يعني الدخول في الإسلام، ولكنه في الوقت نفسه يعني الدخول في النسيج العربي حتى كان المولى يخضع لنظام الإرث غنما وغرماً.

ولا نستطيع في هذه العجالة أن نصف ما قدمه المولى لحضارتنا وما ساهموا في ازدهارها وعظمتها، وقد عبر عن هذه الحقيقة العالم البيروني بقوله: ديننا والدولة عربيان وتوأمين، وإته لأحب إلي أن أهجى بالعربية من أن أمدح بالفارسية.

وإذا كان هكذا نداء العروبة للإسلام في مرحلة قوتهم، فهذا الأمر لم يتغير عندما سلبت السلطة من أيديهم، فقد بقوا وجدان هذا المشروع ونسيجه وحضارته الثقافية والعلمية والتجارية، بل بقوا محتضنين هذا الدين متعاونين مع الحاكم غير العربي سواء أكان سلجوقياً أم تركيا مملوكياً أم جركسياً.

يقول الشيخ الإمام محمد عبده: كان الإسلام ديناً عربياً، ثم لغة العلم فأصبح علماً عربياً. كان الخليفة يستعيد بعض نفوذه وقوته، وكان المشروع الثقافي والديني بيد العرب وكتلة الناس والجماهير منهم ومعهم، واستطاعوا أن يحافظوا على هذا المشروع وعلى تحقيقه، ودعاه حتى بعد زوال السلطة من أيديهم.

أجل لقد استطاع الشعب أن يحتفظ بنظام الوقف والتعليم ونظام الفقه والمدارس والحسبة والزكاة والقضاء وكان العرب هم السانن والحاضن والمجلى في هذا النظام.

وابتدأ العرب -بادئ ذي بدء- بإرسالهم في عصر السديين -أي عندما كانت السلطة بيدهم- بثقافة اللباب، الثقافة التي تمثل علوم الملة (العلوم العربية بأنواعها ثم علوم الشريعة الإسلامية).

ومثال بسيط يؤكد ذلك ما هو كتبه ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم عن أهمية العرب، وما أكده الإمام الشافعي لذلك في كتابه الرسالة وما أسس الإمام مالك مذهب على عمل أهل المدينة.

وأخيراً ما أظهره الإمام أحمد بن حنبل من مركز العرب وأهميتهم في المشروع الإسلامي، حيث يتضح لنا من كل ذلك أن الشخصية العربية القاعدية تمحورت في كل أفاقها حول الإسلام ومن أجل الإسلام<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> فرحان البيك: الأساس الديني في الشخصية العربية، ط ١، ١٩٩٠، ص ١١٢

والعرب لم يتخلوا عن الإسلام، ولم يبارحوه لحظة واحدة بعكس الحال بالنسبة للإيرانيين الذين تخلوا مبكرا عن اللغة العربية انسياقا وراء لغتهم ولأسباب شوقونية، يوم لم يكن العرب عندهم شيء من هذا، والأمر نفسه بالنسبة للأتراك الذين لم يعيروا نصائح جمال الدين الأفغاني الاهتمام، وقد خرج العرب من التحالف مع تركيا عندما عبثت جماعة الاتحاد والترقي الحاكمة بنظام الإسلام وربطته.

لقد أدرك العرب بمداركهم الذاتية الحضارية<sup>١</sup>، أهمية شرف الإسلام وصيغة الإسلام وحلية الإسلام ورافعة الإسلام، فكانوا قدروه<sup>٢</sup>، كما كان قدرهم وعنصر الحياة لوجودهم وازدهارهم.

هكذا كانت منظومة العروبة والإسلام نتاج ومحصلة التاريخ والجغرافيا والعادات والسياسة والقيم الإنسانية، بل والدين، قال ﷺ: **إِنَّمَا لِيُذَكَّرَ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** {الزخرف/٤٤}، **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...}** {آل عمران/١١٠}.

أجل لم يتوفر بأمة هذا الوصف (خَيْرَ أُمَّةٍ) إلا العرب، والرسول الكريم، كما قال الأعشى: سيد الناس وديان العرب<sup>٣</sup>.

أجل لقد جرى أعظم حوار بين النص والتاريخ على يد العرب وأعظم معطى حياة من سجاياهم وعطائهم وأعظم مشروع إنساني من صنع أيديهم وإرادتهم.

ما هي سمات هذا المشروع الحضاري؟؟ أول سمات هذا المشروع هي وحدانية الحق الذي لم يكن ذاتيا ونسبيا بل موضوعيا ومطلقا، وواجب الإنسان أن يعرف الحق ويسير مع الحق ويبقى مع الحل، ولمعرفة الحق سبيلان السبيل الأول هو الوحي الذي نزل على محمد، والسبيل الثاني هو الحكمة التي ابتدعها القدماء لا سيما أفلاطون وأرسطو، وثاني الخصيصة التي تميز المشروع العربي هي الحب والتشوف الصوفي<sup>٤</sup>.

قال الشاعر:

<sup>١</sup> الأستاذ الدكتور: احمد داوود توفيق: التعددية الثقافية في الحضارات العالمية، مقال منشور في مجلة التعارف الثقافي خلال موسم الحج، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ - ص ٥٦.  
<sup>٢</sup> محمد خالد عمر: عروبة الإسلام وإسلام العروبة ص ٩.  
<sup>٣</sup> محمد خالد عمر: عروبة الإسلام وإسلام العروبة ص ٤٢.  
<sup>٤</sup> قسطنطين زريق: الحضارة العربية، قراءات في الفكر القومي، المرجع السابق، ص ٩٣.

وثالث هذه السمات هي أن المشروع العربي الإسلامي ليس من نتائج شعب واحد، بل هو مشروع تعاوني اشتركت فيه مختلف الأعراق ذات الحضارات العريقة والديانات المختلفة<sup>١</sup>.

والسمات هي النظرة العالمية ثم الواقع الروحي<sup>٢</sup>، الذي يؤسسها وينفخ فيها الحيوية والأخلاق والإنسانية، أما الأستاذ توفلو<sup>٣</sup> فيذكر أن أهم ما يميز هذا المشروع هو الصفاء والشمول والحرية والحوار بين الحضارات الإنسانية على امتداد التاريخ البشري.

لقد وجد التسامح عند المسلمين تعبيره في نشوء علم الأديان المقارن والتأسيس بحماس له، فكانت عقوبة أية محاولة لأي مسلم لإجبار أي مسيحي أو الضغط عليه لاعتناق الإسلام هو الموت، وفي الفقه الحنبلي والحنفي كانت حياة الرعية الموجودة تحت الحماية الإسلامية تعدل حياة المسلم، وقد تم التسامح لأية جماعة مهما كانت مشاربها الدينية حتى وإن كانت لا تزيد على العشرة أن تختار زعيمها الروحي، وهذا الزعيم كان يحصل على اعتراف الخليفة<sup>٤</sup>، والحرية في المنظور الإسلامي لا تعتمد على السلطة لكنها حالة طبيعية للوعي الذاتي، لذا فهي ليست مجرد ظاهرة نسبية للمساواة أو الأفضلية على الآخرين، وليست محصلة الصراع على السلطة لاستقلال القوى الطبيعية، إنها في الأساس نضج روحي يمكن الإنسان من السيطرة على غروره الذاتي، والاعتقاد ليس مبدأ من مبادئ السلطة المؤسسة مثل الكنيسة لأن القرآن الكريم يخاطب كل فرد، وليس أمة مختارة أو مجموعة من العلماء<sup>٥</sup>.

هذا الوعي هو بؤرة الأمن الوجودي، ومن المبهج أن نلاحظ الإيمان والأمان والأمانة كمفاهيم قرآنية رئيسية لهذا الوعي تأتي جميعها من نفس أصل اللفظة..

١ المرجع السابق، ص ٩٤

٢ المرجع السابق، ص ٩٤

٣ المرجع السابق، ص ١٠٠

٤ مقالة السالف الذكر ص ٥٠ وما بعدها

٥ مقال الأستاذ توفلو ص ٦٠

من هذا المنطق كلمة "المؤمنون"، كما تستخدم في معنى الاعتقاد (سورة البقرة/ آية ٢٥٣ وسورة آل عمران الآية ١٧٩ وسورة التوبة آية ٧١)، وفي أماكن أخرى هم جميعاً ممن يعترفون بالأمن الوجودي وحماية المؤمن المهيمين بمعنى الأمن والأمان، وهي أسماء الله ﷻ مثل المؤمن الآية ٢٣ في سورة الحشر والمؤمن كما في سورة البقرة، فالله: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات...} البقرة/٢٥٧/٦.

ولهذا تكلم Ventur عن التعاقدية الإسلامية contractualisme  
مقابل الوظيفة الغربية functional occidental

والحقيقة إن كل شيء في الإسلام تعاقدية ميثاقية، الميثاق الأعظم<sup>٢</sup>، الذي تم بين الله وبين الجنس البشري هو تعاقدية، كل شيء في الإسلام - كما يقول Venture-: ينبع من ذاتي والشهادة في الإسلام تقوم على فعل إرادي محض: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

بهذا المعنى نفهم امتداد الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها استناداً إلى نضج ونمو هذا العامل الذاتي.

وبهذا المعنى نفهم التفاعل الخلاق بين العروبة والإسلام، وذلك عندما تم الخلل في صيغة ومنظومة العروبة والإسلام.

هذه الإشكالية المأساة عبر عنها سفير باكستاني في خطابه لزميل له عربي بقوله: نظرتهم إلينا فوجدتمونا ننظر لغيركم، ونظرنا إليكم فوجدناكم مشغولين بغيرنا، فمتى تلتقى عيوننا بصدق وحب.

أجل متى تلتقى على فلسفة الحق والقوة تحددونا كلمة السوء، ويحددنا الإصلاح قال ﷻ: {... وأصلحوا ذات بينكم...} انفصال/١، ويحددنا جواب الرسول عن أحسن عمل يعمله الإنسان، فقال: بذل السلام للعالم.

<sup>١</sup> الأستاذ توفيق المرجع السابق ص ٦١  
<sup>٢</sup> انظر الآية ١٧٣ من سورة الأعراف

ويحدونا الخير قال ﷺ: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ  
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ...} / ١١٤ /

لقد قام عالم الاجتماع العربي الأستاذ محمد النوادي بدراسة شافية  
عن عالم الرموز وأهميتها في المجتمع وخاصة في مجال شد  
المجتمع وتماسكه ولحمته، وطبق ذلك على الجزائر ولاحظ أن  
الرموز الإسلامية أقوى وأغنى وأصلب في مقاومة الرموز الفرنسية  
من الرموز العربية، فكيف إذن نحارب الرموز الإسلامية، ونخرجها  
من حياتنا؟؟ تغريب مبتذل لا يقوم على أساس من سنن الله في  
الاجتماع والحياة.

أجل ينبع من بلادنا نهر عظيم هو الإسلام قول - الخليفة الأواه  
المنيب عمر بن عبد العزيز - فكيف نشققي منه جدولا وجدولا  
وجدولا؟؟ ولماذا لا نعيد رونق والحيوية والحياة لهذا النهر  
النمير؟؟...

كم تعني ظواهر الاستشهاد التي يجترحها أبناء شعبنا الفلسطيني  
إيثارا وفداء ونضالا وتضحية، وهل يمكن تفسيرها بمقولات الربح  
والخسارة، لغة عصرنا وقيمة الداكنة؟؟...

هل استطاع العربي أن يفهم هذه الظاهرة وهو لا يملك إلا لغة  
التكنولوجيا؟؟... وهل استطاع أن يسبر ويفسر حقيقة الروح التي  
يمثل القرآن الكريم، نموذجا ومثالا فريدا لها؟؟...

هل ننسى أن زعيم الأمة العربية الراحل الخالد جمال عبد الناصر  
أعلن صفعته للاستعمار عام ١٩٥٦ من قلب الجامع الأزهر باعتبار  
الإسلام هو الخيار الاستراتيجي لهذه الأمة؟؟.

لقد فعل جمال عبد الناصر فعل السحر في نفوس العرب، مسلمين  
ونصارى عندما اختار بغيريته السياسية السليمة أن يخاطب الناس  
في الجامع الأزهر فأيقظ أعماقهم ميراثا هائلا من الحمية المتراكمة  
منذ أيام المعز إلى محمد علي مرورا بصلاح الدين والظاهر بيبرس<sup>١</sup>.

إن العرب في إطار الإسلام، وضعوا أنضج وأكمل صيغة وعلاقة طيبة  
للتعامل مع المسيحيين في جهد متواصل منذ عهد البطريك يوحنا

<sup>١</sup> مقال دكتور سحاب الأنف الذكر ص ٢٠٢، علماً أن الأخ سحاب مسيحي الديانة.

الدمشقي حتى اليوم، وذلك من أجل الانصهار والنسيج الطبيعي، وقد عقب المطران جورج خضر على ذلك بقوله: عندما استعاد صلاح الدين أنطاكية من الفرنجة دعا معه البطريرك الأرثوذكسي. وكذلك الموقف الذي اتخذه البطريرك الأرثوذكسي الأنطاكي إلى جانب الحمدانيين يوم كان هؤلاء يدافعون عن شرف العروبة<sup>١</sup>. وقال أيضاً هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، ونحن ننتمي إليها<sup>٢</sup>.

والسؤال المطروح هو: هل يستوي أي طرح فكري يبعد المسيحيين عن بنيتنا وتكويننا، وهم العرب الأقحاح الصرحاء الذين ينتمون إلى محمد تاريخاً ولغةً وحضارةً ووطناً وجنساً؟<sup>٣</sup>

من هذه المشكاة نسمع المصلح رشيد رضا يقول في مجلته المنار: إسلامي مقارن في التاريخ لعروبتني، فأنا أخ في الدين للألوف من العرب المسيحيين، وغير المسيحيين.

وهاهو أمين نخلة يقول: كأن الإسلام إسلامان واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة، وكان العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اهتداءً بمحمد وتمسكاً بقوميته وكلفاً بلغته<sup>٤</sup>.

ذلك أن العروبة تنطلق من عمق الإنسان العربي، روحه، ضميره، قلبه، كذلك فالبعد الإنساني والروحي للإسلام ينطلق من صميمه، أي من صميم العروبة، لكنه ويا للأسف حدث سوء فهم بين الداعين للعروبة وأولئك الداعين للإسلام، تتوج الأمر بإشكالية قسمت صفوف الشعب الواحد، مع أنه لا يجوز<sup>٥</sup>، جوهرأ حدوث مثل ذلك باسم الإسلام أو باسم العروبة، وإن حل هذه الإشكالية لن يتم إلا في قلب التوفيقية القومية بين العروبة والإسلام.

١ خالد عمر: المرجع السابق ص ١٨٨ ص ١٢٥  
 ٢ الحوار القومي الدين، مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٢٥ ص  
 ٣ خالد عمر ص ١١  
 ٤ الحوار القومي الدين ص ١٢٥  
 ٥ العلامة حسين فضل الله: الإسلام والعروبة - المرجع السابق ص ١١  
 ٦ د. محمد حناير الأنصاري: شمس الإسلام والعروبة، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٣٥/ الكويت ٩٨١، ص ١١١.

وكلمة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان نطق بها لسان المرحوم الأستاذ ميشيل عقلق، وارتفعت بها عقيرته قائلة: كل عربي في الوقت الحاضر يستطيع أن يحيا حياة الرسول العربي ولو بنسبة الحصة إلى الجبل والقط إلى البحر... في وقت مضى تلخصت في رجل واحد حياة أمة بأكملها، واليوم يجب أن تصبح كل هذه الأمة في نهضتها الجديدة تفصيلا لحياة رجلها العظيم... لقد كان محمدا كل العرب، فليكن كل العرب اليوم محمدا، وقال المذكور: الإسلام بالنسبة للعرب ليس عقيدة أخروية ولا هو أخلاق مجردة، بل هو أعلى مفتح عن شعورهم الكوني ونظرتهم إلى الحياة، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل، وهو فوق ذلك أروع صورة للغتهم وآدابهم، وأضخم قطعة من تاريخهم القومي، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربيا ونهمله بصفته مسلما.. قوميتنا كائن حي متشابك الأعضاء وكل تشريح لجسمها وفصل بين أعضائها يهددها بالقتل، وعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذن كعلاقة أي دين بأية قومية وسوف يعرف المسيحيون العرب، أن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى بمفهومها ويحبوها، فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أئمن شيء في عروبتهم<sup>١</sup>.

أجل عندما تكون حياتنا على ضوء نبراس محمد نكون عربا ونكون مسلمين، وهذه هي العروبة الحق والإسلام الحق.

وهناك ملاحظة هامة هي أن بعض الخصائص في الأمة تنقلص أو تتمدد حسب الظروف المحيطة، لاسيما الظروف الأيديولوجية.

فالعروبة تقلصت بانتشار الدعوة الإسلامية في ظل الجامعة الإسلامية، لا بمعنى أن الإسلام ضد العروبة والعكس فقد ارتفعت عندما لم يكن هنالك رابطة إسلامية.

كيف نفهم أن الزعيم مصطفى كامل كان من أكبر المؤيدين للجامعة الإسلامية يوم أن كانت تقف في وجه الغرب<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> مقاله ذكرى الرسول العربي: مركز دراسات الوحدة العربية، قراءات في الفكر العربي، الكتاب الثاني ص ٦٩  
د. محمد حسين: القاهرة ٩٥٠ دار الآثار ج ١ ص ٢٢



الدمشقي حتى اليوم، وذلك من أجل الانتصار والنسيج الطبيعي، وقد عقب المطران جورج خضر على ذلك بقوله: عندما استعاد صلاح الدين أنطاكية من الفرنجة دعا معه البطريرك الأرثوذكسي. وكذلك الموقف الذي اتخذه البطريرك الأرثوذكسي الأنطاكي إلى جانب الحمدانيين يوم كان هؤلاء يدافعون عن شرف العروبة<sup>١</sup>.

وقال أيضاً هنالك حضارة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية، ونحن ننتمي إليها<sup>٢</sup>.

والسؤال المطروح هو: هل يستوي أي طرح فكري يبعد المسيحيين عن بنيتنا وتكويننا، وهم العرب الأقحاح الصرحاء الذين ينتمون إلى محمد تاريخاً ولغةً وحضارةً ووطناً وجنساً؟<sup>٣</sup>

من هذه المشكاة نسمع المصلح رشيد رضا يقول في مجلته المنار: إسلامي مقارن في التاريخ لعروبتني، فأنا أخ في الدين للألوف من العرب المسيحيين، وغير المسيحيين.

وهاهو أمين نخلة يقول: كأن الإسلام إسلامان واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة، وكان العرب جميعاً مسلمون حين يكون الإسلام اهتداءً بمحمد وتمسكاً بقوميته وكلفاً بلغته<sup>٤</sup>.

ذلك أن العروبة تنطلق من عمق الإنسان العربي، روحه، ضميره، قلبه، كذلك فالبعد الإنساني والروحي للإسلام ينطلق من صميمه، أي من صميم العروبة، لكنه ويا للأسف حدث سوء فهم بين الداعين للعروبة وأولئك الداعين للإسلام، نتوج الأمر بإشكالية قسمت صفوف الشعب الواحد، مع أنه لا يجوز، جوهرأ حدوث مثل ذلك باسم الإسلام أو باسم العروبة، وإن حل هذه الإشكالية لن يتم إلا في قلب التوفيقية القومية بين العروبة والإسلام<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> خالد عمر: المرجع السابق ص ١٨٨ ص ١٢٥

<sup>٢</sup> الحوار القومي الديني، مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٢٥ ص

<sup>٣</sup> خالد عمر ص ١١

<sup>٤</sup> الحوار القومي الديني ص ١٢٥

<sup>٥</sup> العلامة حسين فضل الله: الإسلام والعروبة - المرجع السابق ص ١١

<sup>٦</sup> د. محمد جابر الأنصاري: شمس الإسلام والعروبة، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٣٥/ الكويت ٩٨١، ص ١١١.



يقول الدكتور فهمي جدعان: المتحمسون القدامى للجامعة الإسلامية راحوا يتجهون اتجاهها قومياً عربياً صريحاً دون أن يتخلوا عن الدور الجوهري الذي ينبغي أن يحتله الإسلام في أية دولة عربية يمكن أن تقام في بلاد العرب، وقد عد جدعان من هؤلاء: محمد رشيد رضا وشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب، فهؤلاء عندهم انتشار الإسلام مرهون بنهوض العرب وازدهار اللغة العربية يجر معه بالضرورة ازدهار العلوم الإسلامية<sup>1</sup>.

إن تكبر صيغة العروبة، أو تكثر صيغة الإسلام حسب الظروف، فتتمدد أو تنقلص، ولكن العروبة دائماً معها الإسلام والعكس، والمسألة إذن تتعلق بالصورة دون الجوهر والأساس والتكوين.

ونحن نضع العروبة قبل الإسلام، ليس ذلك انطلاقاً من ترتيب لفظي أو بنية وضعية واصطلاحية، وإنما انطلاقاً من قاعدة الحياة ذاتها، فإنا موجود فعلاً قبل أن أصل إلى مرحلة الحالة المثالية الإنسانية، وقد لا أصل قط أو أصل إلى ذلك جزئياً، أو أصل دون أن يصل غيري أو العكس.

وفي ترتيب الأولويات، فالأقربون أولى بالمعروف، وهذا مبدأ إسلامي، بل هو مبدأ اجتماعي وسياسي واقتصادي، ما هو مصير الإسلام، لو لم يتدرج في النشأة، كالماء المهين يبحث عن القرار الممكن.

ماذا لو لم تكن عصابة بنى هاشم للرسول؟؟

وماذا لو لم تهب الأمة العربية جمعاء في معركة القادسية؟؟

نحن لا نستطيع الكلام عن الدين المطلق في مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد إلا عندما يتبين الدافع الديني والاجتماعي، وغير ذلك، بل تبقى العلاقة مع المطلق علاقة ذاتية، وعندما يدخل في مصفاة السياسة أو الاجتماع يخضع لقوانين هاتين الظاهرتين.

ولهذا فالكلام عن العروبة المسلمة أو عن العروبة والإسلام بالمعنى الحضاري الاجتماعي الواقعي الحياتي الثقافي.

<sup>1</sup> أسس التقدم عند مفكري الإسلام ص ٣٢٢

يقول مين ده بولان: الدولة حضارة بأسرها وقد استجمعت قواها وأفصحت عن نفسها في مؤسسات.

فعلم الدولة *statologie* - وهو علم حديث نسبياً- يقول للدولة عيشي واقعك، ثم انطلقى صوب أهدافك العامة حسب المستطاع وهذا التزام سياسي يختلف من قوة لأخرى..

وفي نظري علاقة العروبة بالإسلام يخضع لهذا لقاتون، فالعروبة أولاً من حيث هي واقع وحياة وإمكان ووجود، ولكن هذا الواقع - وهذا مطلب تكويني واستراتيجي - غير الكامل يبحث دائماً عن الصورة لبجدها في الإسلام، وهذا التكيف يفسر لنا قول الأستاذ فضل شلق بأن الأمة العربية أمة غير قومية<sup>١</sup>، لا بمعنى أنها تنكر لوجودها وتراثها ولغتها وروحها، بل أنها أمة غير عرقية أو عنصرية، وهنا نذكر قول المرحوم الدكتور عصمت سيف الدولة بأنه إذا أردت أن تبحث عن عروبة خالية من القبلية تجدها في الإسلام، وإذا أردت أن تبحث عن إسلام خال من الشعوبية تجده في العروبة<sup>٢</sup>.

بهذا المعنى والدلالة والارتباط الحضري نفهم الإسلام فاعلية للعروبة، ونفهم العروبة الفاعلية العظمى للإسلام ونفهم معنى نقش الآيات التي تتحدث عن التوحيد والوحدانية، نقشها على الجدران المحيطة بقبة الصخرة<sup>٣</sup>.

يقول الأستاذ فكتور سحاب، الإسلام دين وحضارة، وقد لا يمثل الدين سوى نسبة ضئيلة من حياة المسلم في حين أن الإسلام كحضارة يملأ حياتنا كلها... أن مزاجنا الأولي والقوي وتوجهاتنا العربية الإسلامية، وميولنا الموسيقية، شعارنا، كل هذا ينتمي إلى الحضارة العربية الإسلامية... يلاحظ على سبيل المثال أن بدايات تشكل المزاج الحديث في المدرسة الموسيقية المصرية هي بدايات توجه قرآني، فأنا كمسيحي انتمي في مزاجي الموسيقي إلى هذا الإسلام... أن هذا

<sup>١</sup> كتابه الأخلاق والسياسة ترجمة الدكتور عادل العوا، دار طلاس دمشق ص ٣٠١ عام ١٩٨٦

<sup>٢</sup> كتابه عن العروبة والإسلام ص ٤٢

<sup>٣</sup> الفضل شلق: الاجتهاد وأزمة الحضارة العربية مجلة الاجتهاد عدد ٨ لعام ١٩٩٠

الإنتاج الحضاري الذي ترسمه الحضارة الإسلامية يحتل في حياتي أنا المسيحي العربي نسبة تسعسبن بالمائة<sup>١</sup>.

ويقول أبو الحسن الندوي (وهو من علماء الهندية): العالم العربي قلت العالم الإسلامي النابض يتجه إليه روحياً ودينياً وبيدين لحبه وولائه، ولكن المسلم ينظر إلى العالم العربي روح العالم العربي، وأساسه وعنوان مجده، وإن العالم العربي، بما فيه من موارد الثروة والقوة، جسم بلا روح وخط بلا وضوح إذا انفصل عن سيدنا رسول الله، وقطع صلته عن تعاليم دينه.

ويقول الدكتور قرضاوي: لا حرج على المسلم أن يحب وطنه ما دام ذلك لا يتعارض مع حبه لدينه واعتزازه به، والإسلام لا يضيق صدره بالوطنية أو القومية إذا لم يتضمن محتوى معاد للإسلام<sup>٢</sup>، ونحن نأسف كثيراً لأن الأتراك وقبلهم الفرس انفصلوا عن الجماعة<sup>٣</sup>.

يقول المرحوم عصمت سيف الدولة: لم يأخذ الأتراك من القرآن إلا حروفه، ولم يعيشوا حركة الفقه، بل عاشوا مذهباً واحداً اعتنقوه وطبقوه، وفضلاً عن ذلك فالحاكم المغولي رغم مسؤوليته في الإسلام كان يتكلم التركية ويرطن بالعربية<sup>٤</sup>، لقد انبرى عبد الناصر بدافع عن الدار والأرض والعرض، واستل سيف العروبة من غمد الإسلام وأعلن صرخته ضد المحتل الفرنسي والإنكليزي والإسرائيلي في الجامع الأزهر عام ١٩٥٦ فهل ناهض أو ناقض بذلك الإسلام؟؟

<sup>١</sup> المقال السالف الذكر.

<sup>٢</sup> حسن غريب، المرجع السابق ص ٢٠٨.

<sup>٣</sup> الفصل شلق: أزمة الحضارة العربية مجلة الاجتهاد المرجع السابق ص ٧.

<sup>٤</sup> عن العروبة والإسلام ص ٧٦ ص ١٣٨.

٥	مقدمة عامة -التأسيس النظري ( منهج البحث )
١٣	الباب الأول - حوار العروبة مع الموجة الإسلامية الأولى ( التأسيس الإسلامي الإبراهيمي )
١٧	الفصل الأول : إقليم الجزيرة العربية (قاعدة الدار العربية)
١٩	البحث الأول : في فلسفة المكان
٢١	البحث الثاني : دراسة وصفية عامة لإقليم الجزيرة العربية .
٢٥	البحث الثالث : قراءة كلية لإقليم الجزيرة العربية .
٣٢	البحث الرابع : الدور التجزيئي للفاعل الجغرافي في إقليم الجزيرة العربية .
٣٩	البحث الخامس : أقسام الجزيرة العربية .
٤٠	تقويمنا لهذا التقسيم .
٤٢	الفصل الثاني : مقارنة الدرس العربي العريق .
٤٦	البحث الأول : جزيرة العرب في الأدوار الجيولوجية .
٥٠	البحث الثاني : الجزيرة العربية في عصر الأمومة والحقبة الطوطمية .
٥١	البحث الثالث : العرب البائدة والعاربة والمستعربة .
٥٤	البحث الرابع : ظهور كلمة عرب والأطوار الاجتماعية للأمم العربية .
٦١	البحث الخامس : تجربة سيدنا إبراهيم .
٦٤	الفرع الأول : بنو إسرائيل واليهود وموقفهم من الإبراهيمية .
٧٦	الفرع الثاني : شخصية سيدنا إبراهيم وصلته بالجزيرة العربية .

٨٠	الفرع الثالث : فهمنا ووعينا للإبراهيمية .
٨٢	المطلب الأول : عربية سيدنا إبراهيم .
٨٦	المطلب الثاني : الإبراهيمية ومسألة روح الإسلام واليهودية والمسيحية .
٩١	تقويم وتقدير : روح الإسلام واليهودية والمسيحية .
١٠١	الفصل الثالث : التمهضات السياسية والاجتماعية في الإدارة العربية قبل النبا العظيم .
١٠٢	البحث الأول : مدنيات العربية الجنوبية .
١٠٨	البحث الثاني : الإمارة العربية الشمالية .
١٠٩	الفرع الأول : مملكة عربايا
١١٠	الفرع الثاني : إمارة الرها .
١١٠	الفرع الثالث : إمارة سنجار .
١١٠	الفرع الرابع : إمارة حمص .
١١٠	الفرع الخامس : إمارة الرمتن
١١١	الفرع السادس : قنسرين
١١١	الفرع السابع : مملكة النبط
١١٣	الفرع الثامن : مملكة عمون .
١١٤	الفرع التاسع : مملكة تدمر .
١١٧	الفرع العاشر : الصقويون .
١١٨	الفرع الحادي عشر : مملكة الحيرة
١١٩	الفرع الثاني عشر : مملكة كندة .

١١٩	الفرع الثالث عشر : الفسائنة .
١٢٠	تقويمنا لإمارة المناذرة والفسائنة .
١٢٢	الفرع الرابع عشر : غزوة الفيل .
١٢٤	الفرع الخامس عشر : معركة ذي قار
١٢٥	العوامل التي أدت إلى النزوع القومي قبل الإسلام .
١٢٨	الفرع السادس عشر : قريش .
١٤٠	الفصل الرابع : مظاهر وتجليات الترابط في المجتمع العربي الجاهلي .
١٤٤	البحث الأول : الجوانب النفسية .
١٤٤	الفرع الأول : الاعتداد بالنفس
١٤٤	الفرع الثاني : الشجاعة .
١٤٥	الفرع الثالث : الكرم .
١٤٨	الفرع الرابع : التماسك الاجتماعي .
١٥٠	الفرع الخامس : العادات الاجتماعية .
١٥٠	البند الأول : اللباس .
١٥١	البند الثاني : المأكل والمشرب .
١٥٢	البند الثالث : اللحية والشوارب .
١٥٥	الفرع السادس : المرأة .
١٥٧	الفرع السابع : الوفاء .
١٥٧	الفرع الثامن : المروءة .
١٥٨	البحث الثاني : مسألة الذات العربية في الجاهلية .

١٦١	الفصل الخامس : صلة العرب بالدول المجاورة .
١٦٢	البحث الأول : العرب والاشوريون
١٦٤	البحث الثاني : العرب والعبيرانيون.
١٦٧	البحث الثالث: صلة العرب بالكلدانية.
١٦٩	البحث الرابع: العرب والفرس.
١٧٠	البحث الخامس: العرب واليونان.
١٧٢	البحث السادس: العرب والرومان.
١٧٥	التياب الثاني
١٧٧	الفصل الأول: مسألة امتياع الإسلام من العروبة والسياق العربي للإسلام.
	مقدمة
١٨٥	البحث الأول: في الحرب.
١٨٨	البحث الثاني: المنظومة الفقهية.
١٩٧	البحث الثالث: المنظومة الدينية.
١٩٧	الفرع الأول: العقائد والشعائر والمناسك والتقاليد.
٢٠٧	الفرع الثاني: الحج والعمرة.
٢١٠	الفرع الثالث: القسم والتلبية وبعض الشعائر.
٢١١	الفرع الرابع: بيوت العبادة.
٢١٣	الفرع الخامس: تسخير عالم الأرواح والجن والشياطين والسحر وغيرها.
٢١٨	الفرع السادس: الطيرة.

٢١٨	الفرع السابع: الاقتصاد.
٢٢٨	البحث الرابع: في دائرة العلوم.
٢٤١	تقدير وتقويم عام.
٢٤٨	الفصل الثاني: التأسيس ومسألة عروبة الإسلام وإسلام العروبة.
٢٤٩	البحث الأول: التأسيس القرآني.
٢٤٩	الفرع الأول: الإسلام قبل البعثة المحمدية.
٢٤٩	المطلب الأول: دعوة إبراهيم واسماعيل .
٢٥٠	المطلب الثاني: الأديان في الأمة العربية قبل البعثة.
٢٥١	الفرع الثاني: التطلعات العربية.
٢٥١	المطلب الأول: الله في الوعي العربي قبل البعثة.
٢٥٢	المطلب الثاني: الله والعروبة.
٢٥٥	المطلب الثالث: الرسول والعروبة.
٢٥٦	المطلب الرابع: الرسائل الإلهية تربط الإسلام بالعروبة.
٢٦٠	المطلب الخامس: الرسائل الموجهة لأهل مكة.
٢٦٥	المطلب السادس: مواقف شتى تربط الإسلام بالعروبة.
٢٧٤	البحث الثاني: التأسيس الرسولي لعلاقة الإسلام بالعروبة.
٢٧٨	الموقف من الحضارة العربية الإسلامية.
٢٩١	الفصل الثالث: الوعي العربي للذات في الإسلام ومسألة استجابة أمتنا الحية للإسلام.
	مقدمة
٣٠٠	الفصل الرابع: مكانة ودور الإسلام في التاريخ العربي الإسلامي.



٣٠١	البحث الأول: مكانة العروبة والإسلام في العهد الراشدي.
٣٠١	الفرع الأول: العرب في الإسلام في عهد الخليفة أبو بكر الصديق.
٣٠٣	الفرع الثاني: العرب في الإسلام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.
٣١١	الفرع الثالث: العرب في الإسلام في عهد الخليفة عثمان بن عفان.
٣١٢	الفرع الرابع: العرب في الإسلام في عهد الخليفة علي بن أبي طالب.
٣١٥	البحث الثاني: العرب في الإسلام في العصر الأموي.
٣٢٢	البحث الثالث: اكتمال نشوء الدار العربية.
٣٢٢	الفرع الأول: الفتح بصفته قاعدة تحتية للمجتمع العربي "ومسألة توسع الدار العربية"
٣٣٥	ما هو الشأن غربا.
٣٤٢	الفرع الثاني: الأمازيغ "البربر" عرب عاربة.
٣٥٤	البحث الرابع: العرب في الإسلام على العهد العباسي الأول.
٣٥٧	البند الأول: الفتوحات وانتصار العروبة.
٣٥٨	البند الثاني: التقدم العلمي.
٣٦٠	البند الثالث: الحياة الاجتماعية والسياسية.
٣٦٥	الموالي.
٣٦٧	مزاعم أبي مسلم.
٣٦٨	طبيعة حركة الزندقة.
٣٦٩	الشعبوية والعروبة.

٣٧٠	الخزمية.
٣٧٢	البحث الخامس: العرب في الإسلام - في العصر العباسي الثاني.
٣٨٣	الفرع الأول: دور المسلمين في ترسيخ الحضارة العربية الإسلامية والعصر العباسي الثاني - الانتصار والانكسار.
٣٩١	الفرع الثاني: مسألة تبلور هوية الأمة.
٤٠٨	تكيف وتقويم.
٤١٠	الانحطاط والتخلف يضع الإسلام في مواجهة العروبة.
٤١٧	البحث السادس: السياق العربي في الإسلام في العالم المعاصر.
٤٢٢	العروبة المحض.
٤٢٣	الإسلام المحض.
٤٢٥	الخاتمة.

تعتبر علاقة قطب العروبة بقطب الإسلام - اتساقاً وخللاً - من أهم المسائل التي تسود وتسوس مسار حياتنا بصفتها - تكاملاً عضوياً - الرافعة الكبرى والفعالية الفذة التي تفجر الطاقة تحت خطى النهوض والتقدم .

ونحن نقول قطبين لأن هذين القطبين هما - على سبيل الاستقلال - الركن الركين لمفهوم حياتنا وهويتنا الحضارية والإنسانية ، وذاتنا وماهية وجودنا الإنساني .

رد على ذلك فالقول بأن العروبة قطب ثم التطفيف من شأن الإسلام والعكس ، هذا الأمر لا يجعلنا أمام منظومة ، بل مجرد حيال قطب واحد أساس والآخر فرع وتابع ، وهذا ما يتعارض مع شهادة التاريخ والإبداع الحضاري الذي هو ثمرة تفاعل العروبة والإسلام ، منوهين بأن النظرة المتمزعة المدللة بقطبية الإسلام دون العروبة والعكس ، هي ثمرة تشطبي جدلية عروبة / الإسلام ومنظومتها المتسقة خلال الإبداع الحضاري ، ومن ثم فاللجوء إلى الحسم التاريخي من قبل أحد القطبين في مواجهة الآخر ، وهو حسم لا يظهر إلا في حال التحجر التاريخي ، أو التوتر التاريخي أو الفعل الخارجي الذي صرب كثيراً على هذا التوتر .

وللسبب المذكور فقد كانت تلك الإشكالية تحتل الصدارة في سلم الأولويات والاهتمام لدى الأوساط الثقافية والسياسية ، وكانت أيضاً مادة ثرة للباحثين والمفكرين من أبناء أمتنا ، وقد تناولتها حفرأً وتقيباً المذاهب والأفكار والاتجاهات السياسية والعلمية الكبرى في هذا الوطن . وحقبة الأمر ، فقد تعددت أنماط تلمس هذه العلاقة وفحصها ورصدها بين أصحاب النزوع التلقيني والتأصيل المنهجي التوفيقى إضافة إلى المواقف المنسمة بالحسم في إنكار أي اتساق بين هذين القطبين ، كما يتضح الأمر لدى بعض مظاهر الإسلام السياسي أو لدى الاتجاهات التقريبية الانفصالية المتبهرة - إغواء - بحضارة الغرب .

ونحن هنا أمام محاولة جديدة في بحث هذه العلاقة الهامة والتي يتوقف عليها مصير أوطاننا، في وقت لم تكن فيه أوطاننا على مثل هذا من تخلف وتطرف وعدم اتساق وطني وقومي.

حوران

دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - تلفاكس : 6713079

ص.ب. 32105



97899331901820